حرب في الصحراء

مذكرات غلوب باشا





ترجمه: عطية الظفيري

راجعه: فارس غلوب

الطبعة الأولى
الكويت 2001
دار قرطاس للنشر
هاتف: 2656032 فاكس: 2656031
ص. ب: 35318 الشعب، 36054 ـ الكويت
Qurtas-Publishing@netbox.com

تصميم الغلاف: راشد العجيل

حرب في الصحراء

مذكرات غلوب باشا

ترجمه : عطية الظفيري

راجعه : فارس غلوب

الإهداء

إلى الصرح الشامخ في تاريخ

النهضة العربية الثقافية المعاصرة

علّامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر

عطية الظفيري

المحتويات

الموضوع	الصفحة

مقدمة المترجم

«إن القارئ العربي كثيراً ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن العرب، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة: «الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها» لا تتفق مع المنطق القويم في شيء، فالحق يجب قبوله، أيّاً كان مصدره، وأولئك - بحكم بُعدهم عنا، وجهلهم لأحوالنا في الماضي - تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ، لا ينبغي أن تكون حائلاً بيننا وبين المعرفة، بل الأجدر بها أن تكون من الحوافز التي تدفعنا إلى معرفة كل ما يكتب، عن بلادنا وتاريخنا، لنقبل الحق وننتفع به، وننفي الزيف ونأباه»[1].

علاّمة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر

كتاب «حرب في الصحراء» يستعرض أحداث فترة مهمة من تاريخنا العربي هي الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٣٠، لاسيما أن المؤلف كان شاهد عصر على أحداث تلك الفترة، وله دور مهم في صنعها. فقد عاش ما يقرب من العقد من سني شبابه في الصحراء، يحاول فيها إخماد نار فتنة

(١) من تقديم الشيخ حمد الجاسر:
لجاكلين بيرين، **اكتشاف جزيرة العرب**، ترجمة قدري قلعجي، منشورات الفاخرية، الرياض، ط١، دون تاريخ، ص١٦.

حركة «الإخوان» في نجد التي كادت أن تعرقل تأسيس الدولة الحديثة في الجزيرة العربية وهي المملكة العربية السعودية بقيادة الشخصية السياسية الفذة الملك عبدالعزيز بن سعود.

يرسم المؤلف صورة حية لحياة البادية، وعادات البدو الأصيلة، كالكرم والشهامة والشجاعة، وحياة التحرر والانطلاق في فضاءات الصحراء، وعادات الغزو القبلي. كذلك يتناول الممارسات الخاطئة لحركة «الإخوان» وانحرافها عن مبادئ الشريعة الإسلامية السمحة، ثم يتناول المشكلات الحدودية بين السعودية والعراق في عشرينيات القرن المنصرم. ولا يُخْفي المؤلف إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز وعبقريته وحكمته في التعامل مع الأحداث السياسية الجسام بكل كفاءة واقتدار ويتناول ما اضطلعت به بريطانيا العظمى من دور في تلك الأحداث.

من هو غلوب باشا (أبو حنيك)؟

يعد الفريق السير «جون باغوت غلوب» أو «غلوب باشا» من أهم الشخصيات العسكرية والسياسية البارزة في بريطانيا التي ارتبط تاريخها بتاريخ الأمة العربية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وبدأت صلته بالشؤون العربية بوصوله إلى العراق في سنة ١٩٢٠ .

ولد غلوب في ١٦ أبريل/ نيسان ١٨٩٧ في مدينة «بريستون» البريطانية، وهو من أصل إيرلندي، تعلم ركوب الخيل في صباه وكان يملك حصاناً عربياً. كان والده ضابطاً في سلاح الهندسة البريطانية، وكان يحلم منذ طفولته بأن يصبح ضابطاً مثل والده، وتحقق حلمه وأصبح ضابطاً في سلاح الهندسة سنة ١٩١٥ . وشارك في الجبهة الفرنسية ضد ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. وفي أغسطس/ آب سنة ١٩١٧ أصيب بشظية من قنبلة ألمانية حطمت فكه السفلي وكادت تقضي عليه، وتم إخلاؤه إلى انجلترا، ولم يتعاف من إصابته إلا في مارس/ آذار سنة ١٩١٨، وخلفت تلك الإصابة تشويهاً بفكه (حنكه) ومنح بسببها وسام الصليب العسكري البريطاني، ومنحه البدو وسام «أبو حنيك» هذا اللقب المحبب لديه ولدى البدو.

وما إن وضعت الحرب الكونية الأولى أوزارها حتى نقل للخدمة في العراق ضمن جيش الاحتلال البريطاني، وهناك تعلم اللغة العربية وأجادها وانجذب إلى العرب وبدأ يهتم بثقافتهم وتاريخهم وحضارتهم. قام في بدايات خدمته في العراق برحلات استكشافية في «صحراء الحجرة» ورسم خرائط تفصيلية للأماكن والطرق في تلك الصحراء، ويعتبر أول أوروبي قام بعبور «صحراء الحجرة».

وبُعيد وصوله إلى العراق تم تعيينه ضابط استخبارات تابعاً لسلاح الجو الملكي البريطاني، بلقب ضابط مهمات خاصة وذلك في أبريل/ نيسان سنة ١٩٢٢ وكان عمله يتركز في المنطقة الصحراوية جنوبي العراق في جزء أشبه بشكل المعيّن عرف بالمنطقة المحايدة بين العراق والسعودية، واستقال من وظيفته في الجيش البريطاني وأصبح مفتشاً إدارياً لشؤون الصحراء الجنوبية في الحكومة العراقية الملكية، وكان ذلك في الفترة ما بين سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٠ .

وشهد سنوات من غليان الأوضاع في الصحراء العربية، فقد كانت تشن الغزوات المتبادلة بين القبائل، وفي الوقت نفسه، كانت حركة «الإخوان» في الجزيرة العربية قد بلغت أوج قوتها، هذه الحركة التي تقوم على عادات الغزو القبلية والفهم الخاطئ للدين الحنيف، وكانت الحركة تتسم بالتزمت والتعصب والإرهاب، وارتكبت مجازر وحشية ضد أناس أبرياء، وكان الهدف من وراء ذلك هو الحصول على الأسلاب (الغنائم) ليس إلا. ولقد قام «غلوب باشا» بدور بارز في مقاومة غزوات «الإخوان» وساهم في القضاء عليهم في أوائل سنة ١٩٣٠ .

وبعد أن حقق النجاح في تنظيم البدو ووضع حداً للغزوات القبلية دعته حكومة «شرق الأردن» ـ سنة ١٩٣٠ ـ للخدمة بجيشها حيث ساعد في تأسيس الجيش العربي الأردني وتجنيد البدو فيه. وفي سنة ١٩٣٩ عينه الأمير (الملك) عبدالله رئيساً لأركان الجيش العربي الأردني وقاد الجيش العربي لمحاربة الصهاينة في فلسطين ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، وخدم في الجيش الأردني أكثر من ربع قرن من الزمان إلى أن أنهى الملك حسين خدماته في مارس/ آذار سنة ١٩٥٦ فعاد إلى بريطانيا.

وتجاهلته الحكومة البريطانية، بعد عودته، ولم تعرض عليه عملاً آخر، وعاش على ما يرده من كتابة المقالات وتأليف الكتب وإلقاء المحاضرات في الجامعات الأمريكية حول الشؤون العربية والإسلامية. ألف ٢٠ كتاباً مهماً في التاريخ الإسلامي والشؤون العربية منها: «الفتوحات العربية الكبرى» و«هارون الرشيد» و«جندي مع العرب» و«الجيش العربي الأُردني»، وكتابنا هذا «حرب في الصحراء»، وكان آخرها سيرة حياته بعنوان «المشاهد المتغيرة للحياة».

وتوفي يوم ١٦ مارس/ آذار ١٩٨٦[٢]. وقد أبّنته صحيفة التايمز اللندنية بقولها «إن العالم

(٢) لمزيد من المعلومات انظر كتاب سيرة حياته بقلمه بعنوان «**المشاهد المتغيرة للحياة** The Changing Scenes of Life an Auto-biography, London 1983» وقد ترجمه سليم التكريتي بعنوان «مذكرات غلوب باشا» وصدر في بغداد سنة ١٩٨٨ (وهي ترجمة غير مرخصة كما أخبرني الأستاذ فارس غلوب).

العربي يذكره على أنه أعظم من لورنس ويعود كثير من النجاح الذي حققه إلى تعاطفه الكبير مع العرب، وخاصة البدو الذين كان هو مرجعاً بارزاً عنهم»[٣].

غلوب باشا والقضايا العربية:

كان غلوب باشا يؤكد على الدوام أنه كان موالياً ومخلصاً للقضايا العربية وأنه ترك جانباً ولاءه لبريطانيا، لكن العرب المعارضين له يرون أنه أثناء قيادته للجيش العربي في فلسطين لمقاومة الصهاينة في الحرب العربية ـ الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٤٩ كان يقوم بتنفيذ السياسة البريطانية التي كانت سبباً في قيام الكيان الصهيوني، وأنه قصّر في أداء واجباته في محاربة الصهاينة، وللدكتور عبدالسلام المجالي ـ رئيس وزراء الأردن الأسبق ـ الذي شارك في حرب ١٩٤٨ وجهة نظر مختلفة إذ يقول عن الضباط الإنجليز المشاركين في الجيش العربي الأردني:

«وكنت أشعر أنهم يقاتلون ويحاربون مثل أحسن إنسان عربي، لم أشعر بغير ذلك. لكن الفرق بيننا وبينهم أنهم ليسوا عاطفيين في اتخاذ القرارات وإنما يتخذون قراراتهم في ضوء تقدير عسكري كامل للموقف. لذلك كان غلوب باشا ينبهنا إلى عدم امتلاكنا للقدرة على مواجهة قوة اليهود، فكان الناس السياسيون لا يصدقون ذلك»[٤].

ويضيف قائلاً: «أنا أعرف أنه [غلوب باشا] من أكثر الناس إخلاصاً للعروبة، لكنه لا يملك أن يفعل أكثر مما فعل»[٥].

أما غلوب نفسه فيعترف بأنه كسب عدم رضا الطرفين ـ العرب واليهود ـ على حد سواء، فاليهود يرونه موالياً للعرب وخدم مصالحهم بوقوفه ضد الصهيونية لقيادته الجيش العربي الذي عرقل توسعهم واحتلالهم كامل فلسطين، والعرب غير راضين بأدائه في تلك الحرب بدعوى أنه بريطاني وبريطانيا هي التي ساهمت في إيجاد (إسرائيل) طبقاً لوعد بلفور.

ولايزال الجدل قائماً حول دور غلوب، وللوقوف على صحته يحتاج الباحث إلى المزيد من الدراسة الموضوعية القائمة على البحث والتمحيص في وثائق تلك الحقبة، خاصة الوثائق البريطانية (السرية).

---

(٣) جريدة **«التايمز»** اللندنية ١٨/ ٣/ ١٩٨٦.

(٤) جريدة **«القبس»** الكويتية ١٥/ ١/ ٢٠٠٠، مقابلة مع د. عبدالسلام المجالي كشاهد على أحداث القرن المنصرم ص٢٠.

(٥) نفس المصدر.

غلوب باشا والبدو :

لاشك أن غلوب باشا عاش ما يقرب من ثلاثة عقود من سني عمره في الصحارى العربية (صحراء الحجرة، صحراء المنطقة المحايدة العراقية ـ السعودية، صحراء الأزرق في الأردن) بين البدو الرُّحل وقد انجذب إلى الصحراء وهام في آفاقها الزرق، وأحب حياة البادية وعالم البدو، وأعجب بشخصية البدوي وما يتمتع به من صفات نبيلة كصفاء الفطرة، ونقاء الطوية، وسلامة النية، وحب الخير، والكرم، وبيئته القائمة على الانطلاق والتحرر، بعيدة عن جميع وسائل الرضا بالانقياد بالقوة والقهر، فألِف القسوة وخشونة الحياة.

وبقدر ما كان غلوب مخلصاً في عشقه للصحراء وحبه للبدو، بادله البدو هذا الشعور العاطفي فأحبوه وأخلصوا له وأطلقوا عليه ألقاباً محببة لهم إذ لقبوه زمن غزوات الإخوان بـ «راعي البويضا»[٦] ـ أي صاحب الناقة البيضاء ـ وهذا اللقب غالباً ما يستخدمه المحاربون البدو في معاركهم كـ «صرخة حرب» وتكون هذه الناقة من أنفس نوق هذا الرجل المحارب، كذلك أطلقوا عليه لقب «أبو حنيك»[٧] نسبة إلى أثر الإصابة في فكه الأسفل، يقول الشيخ علي الطنطاوي :

«وأبو حنيك هذا . . . داهية من الدواهي، والعرب يعبرون بصيغة «التصغير» عن التعظيم والتكبير، فيقولون في مثله : «دويهية تصفرُّ منها الأنامل»، رافق العرب، وعاش معهم في باديتهم، وجرى على عاداتهم في طعامهم ومنامهم، وعرف لهجات قبائلهم وصار يكلمهم بلهجاتهم . وأنا أحسب أنه كان صادقاً في حب العرب، أعني عاداتهم ولغاتهم، لا أعني أنه يؤثر مصالحهم على مصالح أمته، ويؤكد هذا حديث لمندوب من «المجلة» أجراه معه من قريب، ولقد سمى ولده باسم عربي [فارس]، وملأ داره في [إنجلترا] بذكريات حياته مع العرب التي يبدو أنه لا ينساها . . . »[٨]. وتأثر «غلوب باشا» بعادات البدو حتى تركت أثراً في كتاباته، فمن خلال قراءة مؤلفه عن سيرة حياته الموسوم «المشاهد المتغيرة للحياة» The Changing Scenes of Life نجد أنه أفرد أكثر من عشر صفحات من الكتاب يتحدث فيها عن أصله ومنشأ اسم عائلته، ويندر أن تجد كاتباً غربياً يهتم بذلك.

كذلك نجده يلتزم عادة حماية المستجير البدوية، وإن كانت مخالفة للقوانين المدنية . كان أحد مرافقيه العسكريين الخاصين، في الجيش العربي الأردني، من أبناء القبائل النجدية، قد

---

(٦) مصدر سابق The Changing Scenes of Life .

(٧) نفس المصدر.

(٨) علي الطنطاوي، **ذكريات**، الجزء ٣ ، ط١ ، دار المنارة للنشر، جدة، السعودية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ص ص ٦٤ ـ ٦٥ .

تعرض لاعتداء عليه بالضرب من قبل أحد الضباط الإنجليز، دون مبرر، وبحكم تربيته البدوية، لم يحتمل هذا البدوي تلك الإهانة، فقام بإطلاق رصاص مسدسه على الضابط الإنجليزي فأرداه قتيلاً. ومن الطبيعي، مهما كانت الدوافع التي أدت إلى ارتكابه هذا العمل، فلابد أن يواجه البدوي محاكمة عسكرية، وستصدر أحكام قاسية عليه؛ ولأن غلوب باشا حسب القوانين البريطانية والأردنية لا يستطيع حمايته من العقاب، فما كان منه إلا أن أخفاه لبعض الوقت عن الأنظار ثم أعطاه سيارته الخاصة العسكرية بسائقها، حتى لا يتعرض للتفتيش، وطلب منه مغادرة الأردن إلى السعودية، وبالتالي يصبح في منأى عن ملاحقة السلطات الأردنية والبريطانية. وأفاد أنه هرب وليس له علم بذلك[٩].

وكما هو الشعر ديوان العرب، فإن الشعر البدوي النبطي قد خلد اسم غلوب باشا أو أبو حنيك في قصائد منها:

حلَفتْ مـا قلتَـهـا يا «غلوبْ»
وحَـيـاة خـلاَّقْ الأنفـاسيْ
ألْبَس زَبُّونَك واجـرّ الثّـوبْ
واحـطُّ تـاجَـك عـلى راسي[١٠]

والأبيات التالية تشير إلى ترك البدو حياة البداوة، ومشكلات الغزوات بين القبائل:

يـا راكِـب اللـي مـا هـي دَنّا
مَنْوة غَـريبٍ يدَنيـهـا
عـن دور «أبـو حـنـيـك» هَـونّـا
وعن المغـازي وطاريهـا[١١]

والمجتمعات البدوية لم تنل الاهتمام المطلوب من قبل الكُتّاب والمؤرخين نتيجة لأسباب ذاتية وموضوعية، منها: سيطرة الجهل والأمية على أفراد مجتمع البدو أنفسهم فلم يكونوا قادرين على توثيق حوادثهم كتابة، كذلك صعوبة متابعة أخبارهم من قبل المؤرخين لعدم استقرارهم وبعدهم عن مراكز الإعلام والتوثيق (في المدينة). علاوة على التعمد في إهمال حوادثهم لعدم اقتناع بعض الكتاب بأهميتها[١٢]. و«حرب في الصحراء» يوثّق حوادث البادية

(٩) حدثني ابن بطل القصة، وآخرون خدموا في الجيش العربي الأُردني عن تلك الحادثة.

(١٠) مجلة **«المختلف»** الكويتية، فبراير ١٩٩٧، العدد ٦٧، ص١٠.

(١١) الأبيات لعقاب أبا ذراع جاء ذكرها في كتاب بروس انغام، **قبيلة الظفير ـ دراسة تاريخية لغوية مقارنة**، ترجمة: عطية بن كريم الظفيري، دار السياسة، الكويت، ١٩٩٥، ص١١٣.

(١٢) لمزيد من المعلومات عن أسباب قلة الاهتمام بتدوين حوادث البادية انظر: فائز بن موسى الحربي، **من أخبار القبائل في نجد**، جـ١، ط١، دار البدراني للنشر والتوزيع، الرياض ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ص ص ١٣ـ١٤.

وهو مذكرات شخصية عن فترة محددة أدّى كاتبها دوراً مهماً في أحداثها، لذا فهو يمثل وجهة نظر المؤلف، ونكلفه شططاً حينما نتطلع منه إلى تلاؤم أفكاره واتفاقها مع أفكارنا وآرائنا.

وعليه فلا يعني أنني أتفق مع كل ما جاء في الكتاب، على أن هذا لا ينفي تحملي للمسؤولية عن الترجمة.

حاولت تحري الدقة في نقل المعلومات والأفكار التي وردت في الكتاب دون أي تدخل مني في النص الأصلي مراعاة للأمانة العلمية في النقل. فبالإضافة إلى التعليقات الهامشية الموجزة، أضفت إلى بعض عباراتـه ما يزيدها إيضاحاً بشروحات قصيرة وضعتها بين أقـواس معكوفة «[ ]» داخل المتن المُتَرْجَم. واستعنت ببعض الكتب ورواة الشعر العامي/ النبطي للوصول إلى المقابل الشعري العربي[١٣] (فصيحه وعاميه) لما أورده المؤلف بالإنجليزية، وقد نجحتُ في الأغلب في العثور على المطلوب، ولم أنجح في الوصول إلى معرفة قصيدة عامية واحدة آثرتُ عدم ترجمتها لأن ذلك قد يشوهها. واستعنت بالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لمقارنة ما نسبه المؤلف إلى الرسول الكريم وأوردت الأحاديث الشريفة ذات الصلة في التعليقات الهامشية.

وبحكم صلة القربى والتفهم للظروف التاريخية والنفسية للمؤلف فقد تولى مشكوراً الأستاذ فارس غلوب باشا تدقيق نص ترجمتي ومراجعتها موضوعياً، كذلك فقد ساهم في ترجمة الفصل الثاني من الكتاب وزوّدنا بمجموعة نادرة من الصور الخاصة التي كانت بحوزة المؤلف. والأستاذ فارس هو ابن المؤلف ويجيد اللغتين الإنجليزية والعربية إجادة تامة.

ويجب أن أشير إلى أن علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - هو أول من حفزني على ترجمة هذا الكتاب وكان من حرصه - رحمه الله - أن أرسل خطاباً إلى الدكتور ناصر الدين الأسد مستفسراً عما إذا كانت قد تمت ترجمة هذا الكتاب أم لا، وكان جوابه بالنفي.

وكان علامتنا كلما زرته في منزله «دارة العرب» يسألني متى سأنتهي من ترجمته، وقد أهديته مسودة ترجمة الكتاب ووعدني - رحمه الله - بإبداء آرائه، إلا أن يد المنون امتدت إليه وحرمتنا من آرائه القيمة.

---

(١٣) أهم كتب الشعر العامي/ النبطي التي أفدت منها:

- عبدالله بن خالد الحاتم، **خيار ما يلتقط من الشعر النبط**، جـ٢، ط٢، المطبعة العمومية، دمشق ١٩٥٢ ص٢٥١.
- منديل بن محمد آل فهيد، **من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية**، جـ٣، ط١، الرياض ١٤٠٢/ ١٩٨٢ ص١٤٦.
- ألويس موزل، **أخلاق الرولة وعاداتهم**، ترجمة د. محمد بن سليمان السديس ط١، مركز البحوث، جامعة الملك سعود - الرياض - ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤ ص٣٩٠.

ومن الرواة: زامل بن صبيح الظفيري وصلفيق بن دهيسان الظفيري، وفي الشعر الفصيح استعنت بديوان الشنفرى والمفضليات.

وختاماً، فإنني أنتهز هذه المناسبة لأجدّد تقديري وامتناني لزوجتي لصبرها الشديد على تحمل الأعباء الأسرية، واهتمامها بمتابعة التحصيل العلمي لأطفالنا أثناء انشغالي في الترجمة وتشجيعها الدائم لي مما كان له الأثر الكبير في خروج الكتاب بهذه الصورة.

آملاً أن أكون بهذا العمل قد أضفت جديداً إلى المكتبة العربية وأن تتحقق الفائدة المرجوة منه.

عطية بن كريم الظفيري

الرياض: في ٢٢ شعبان ١٤٢١هـ

١٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٠م

مقدمة المؤلف



جون باغوت غلوب

يرى كثير من الناس أن دراسة عمليات حربية صغيرة ضد قبائل بدوية قبل ثلاثين أو أربعين سنة تبدو الآن غير ذات جدوى. وأما هؤلاء المهتمون بالنواحي العسكرية فيعتبرون تلك العمليات الحربية، مقارنة بالثورة الحديثة في تطوير الأسلحة، بأنها بدائية جداً ولا دروس مستفادة منها.

ويرفض آخرون أي اهتمام بالأحداث التي تعود إلى عصر قديم هو عصر «الامبريالية» البغيض. والضليعون بأحوال الأقطار العربية اليوم يرون أن البدو لا يلعبون دوراً أساسياً في سياسة الشرق الأوسط.

على الرغم من هذه الاعتراضات، وجدت أنه من المفيد أن أسرد هذه القصة. إنها تروي الخدمات التي قامت بها القوات البريطانية، وبشكل أساسي سلاح الطيران الملكي .R.A.F الذي ساهم في فرض شيء من العدالة. وبينما الكل يعرف الدور الكبير الذي قام به سلاح الطيران الملكي البريطاني في معركة بريطانيا ويقدر هذا الدور، إلا أن دوره في معارك الحدود في البلدان القاصية لم يحصل على التقدير الذي يستحق. وبالنسبة للذين يشعرون بعقدة الذنب أو الشك من أن أعمال بريطانيا في آسيا، في الماضي، كانت تتسم بطابع اضطهادي ومجرد من المبادئ الأخلاقية، وهذا المنحى يعطي وجهة نظر مختلفة. من هنا، يبدو لي أن

تدخل بريطانيا كان مفيداً وصادقاً، إذ حمى فئات المجتمع الفقيرة والبسيطة المعوزة من المذابح الإرهابية المتواصلة وأقام السلام الدائم الذي لم يتزعزع. ولم تتحقق هذه الأهداف إلا نتيجة لهزيمة الإخوان المتطرفين، وتلك الهزيمة لم تتم دون مساعدة البريطانيين.

ولا يكاد أن يسمع عن هذه العمليات الحربية هنا في بريطانيا. فالصحراء، في تلك الأيام، توجد في أماكن نائية ولا تخلو من المتاعب. ولا يتجشم أي مراسل صحفي عناء السفر بزيارة مسرح الأحداث. ومن المرجح أن الحكومة البريطانية نفسها كانت تتحاشى الإعلان عن «الحروب الاستعمارية» لدقتها وحساسيتها لاسيما أنها تثير سخطاً عاطفياً عندما يتلقفها أولئك الإنسانيون الذين ليست لهم دراية بالأمور فيقدمون مادة دعائية لصالح أعدائنا. وحتى أولئك الذين لهم دراية بالأمور غالباً ما يفسرون تلك المشكلات على أنها صراع تنافسي بين سلالتي ابن سعود والأشراف. وحقيقة الأمر أن حصيلة نجاح هذه العمليات الحربية هي المحافظة على أمن كل من نجد والعراق، على حد سواء، من الفوضى. وبدلاً من أن تهاجم القوات البريطانية ابن سعود فإنها كانت أداة فعالة في حمايته.

أشعر أن هذه الأحداث بدلاً من طمسها تستحق الإعلان عنها بشكل واسع لأنها تشكل مثالاً يحتذى به عن تدخل القوات البريطانية وقيامها بخدمة كلا البلدين نجد والعراق.

إذا كانت تلك الأسباب المذكورة أعلاه غير كافية لتبرير سرد هذه القصة، فيجب القول بأنني أحس بسعادة غامرة لكتابتها لأنها تجدد ذكرياتي مع أصدقائي القدامى. وإذا استمتع القارئ بفصول هذه القصة مثلما استمتعت بها، فإنني أشعر بالرضا التام.

جون باغوت غلوب

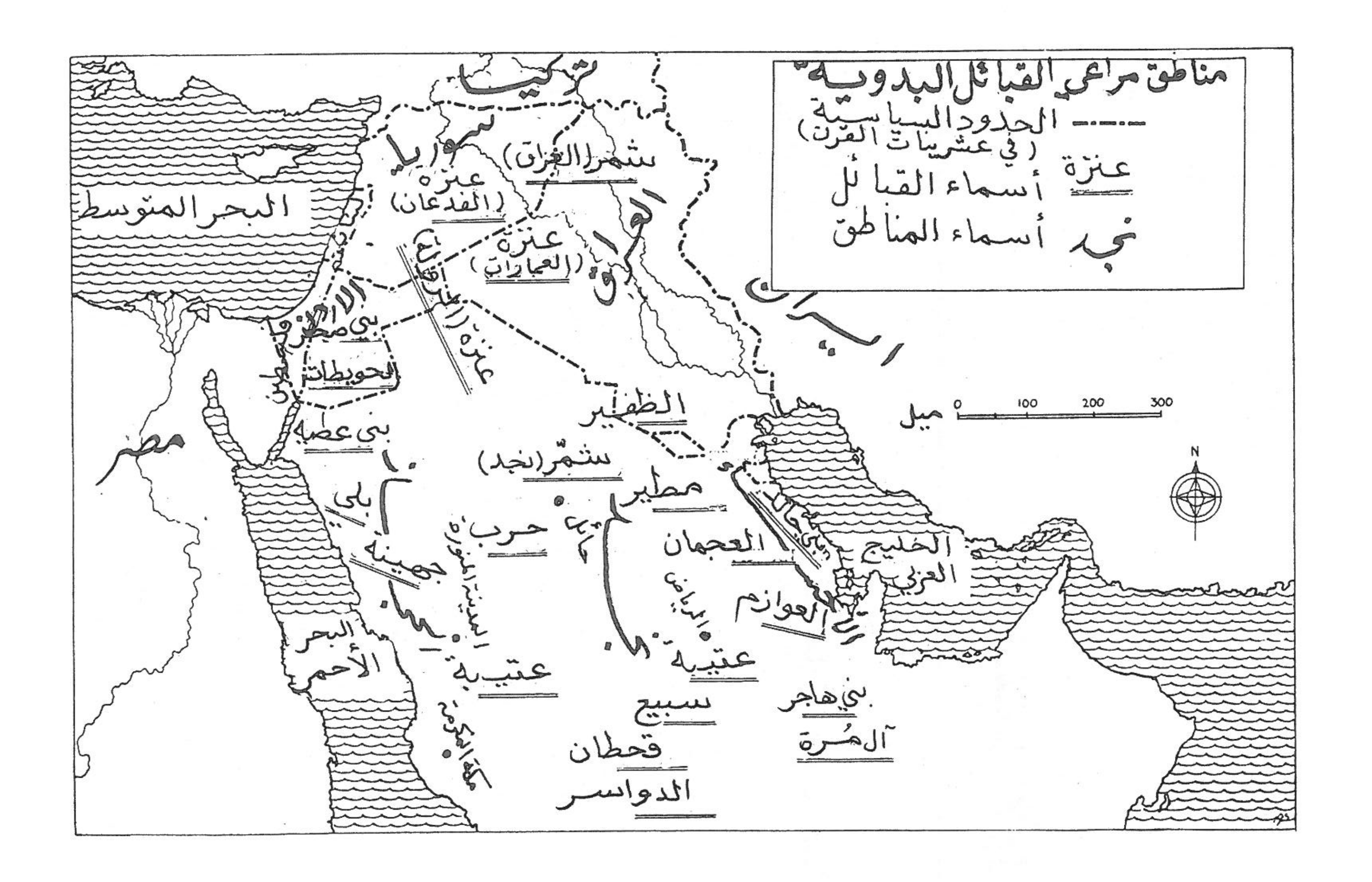
John Bagot Glubb

مايفيلد، ساسكس (١٩٦٠)

Mayfield, Sussex (1960)

الفصل الأول

أشخاص المسرحية



مناطق مراعي القبائل البدوية
الحدود السياسية
(في عشرينات القرن)
عنزة أسماء القبائل
نجد أسماء المناطق
تركيا
سوريا
العراق
إيران
البحر المتوسط
مصر
عنزة (الفدعان)
شمر (العراق)
عنزة (العمارات)
عنزة (الرولة)
بني صخر
الحويطات
بني عطيه
بلى
جهينة
حرب
المدينة المنورة
مكة المكرمة
عتيبه
الظفير
شمر (نجد)
مطير
حائل
العجمان
الرياض
عتيبه
العوازم
بني خالد
سبيع
قحطان
الدواسر
بني هاجر
آل مُرة
الخليج العربي
البحر الأحمر
ميل
0
100
200
300
N

أشخاص المسرحية

كانت صبيحة يوم من أيام شهر مارس/ آذار سنة ١٩٢٤، وكان الطقس عاصفاً بارداً، عندما امتطينا جمالنا راحلين عبر صحراء شاحبة مترامية الأطراف، هي صحراء الشامية، كانت الريح الشمالية الغربية الهوجاء تعصف بنا، ونحن نقطع أرضاً مكشوفة منبسطة خالية من الأشجار. أطرقتُ رأسي لأتحاشى العاصفة ولففت عباءتي بإحكام حول ساقيّ، تلك العباءة المصنوعة من صوف الحمل. وكان على يميني برجس الظفيري، مرشدنا، وقد جثم على مؤخرة جمله وجمع جسمه ليحتفظ بشيء من الدفء، وكان على يساري، علي، خادمي الخاص راكباً هو الآخر جملاً. وفجأة شاهدتُ إلى اليمين منّا أشياء تتحرك من وراء سلسلة خفيفة من التلال وبرجس يعرف الصحراء عن ظهر قلب، إلاّ أن قوة بصره قد تقلصت وما عاد يميّز الأشياء البعيدة. فركلتُ جملي وضربت رقبته بعصاي ضربة خفيفة، وهرولنا لنأخذ وجهة أخرى.

- وقلت صائحاً: «لقد رأيت أشخاصا إلى اليمين منّا».

- قال برجس: «كم عددهم؟ ومن هم؟».

- أجبته: «أهل ثِنْتَينْ»، وهذا مصطلح بدوي يعني صاحبي جملين.

أخذ برجس يضرب جمله بحدة على رقبته بعصاه، واتجه صوب منخفض ضيق، وأخذ ينادي بسرعة: «تعالوا هنا». وانحدرنا إلى واد جاف تغطيه جلاميد صخرية، وأنخنا جمالنا وترجلنا عن ظهورها واندفعنا إلى حافة الواديً الصخرية فألقينا بأنفسنا على الأرض وأخذنا ننظر من بعد إلى هؤلاء الأشخاص. وقد مرّ أمامنا صاحبا جملين متجهان شمالاً، ولكن يبدو

أنهما لم يشاهدانا، وبعدهما مرّ آخران أحدهما على صهوة حصان والآخر على ظهر جمل، وكانا يسيران بتؤدة وانتظام ويبعدان عنّا بحوالي ٦٠٠ متر. فهيأتُ طلقة في بندقيتي وسحبت زناد أمانها. قال علي وهو مرتمٍ على الأرض بجانبي: «انظر إلى اليمين!» كان علي فطناً حاذقاً أكثر منّي، لقد رأينا مشهداً آخرَ، مجموعة جديدة من الناس. وكان واضحاً أن الأربعة الذين كانوا في مقدمة هذه المجموعة ما هم إلا حرس متقدم لها. وتنفسنا الصعداء عند اقتراب هذه المجموعة الراحلة، لقد رأينا هوادج تتمايل على ظهور الجمال، والهودج أثاث يوضع على الجمل لاستخدام المرأة البدوية عند الترحال، وهذا يعني أن هؤلاء الناس ليسوا غزاة بل قبيلة بدوية مرتحلة.

وعدنا لركوب جمالنا. ويبدو أن برجساً أخذ يتأمل في حالات القلق المستمرة والتقلبات في حياة الصحراء.

وفجأة سألني برجس: «هل هناك كثير من الغزوات في بلادكم؟» فأجبته: «لا يوجد أي غزو على الإطلاق، أولاً لوجود حكومة، وثانياً لا توجد عندنا جمال لنغزو بها». وبذهول وتعجب قال: «ما شاء الله!» وأضاف: «بلاد لا توجد بها جمال!» وماذا بعد؟ قلتُ: «ولا توجد صحراء في بلادنا، وسماؤها ممطرة على مدار السنة».

فصاح برجس غير مصدق: «تمطر في الصيف!» وأردف: «والله إنها لأرض مباركة»، وهذا التعجب وصف غير مألوف لمناخ إنجلترا. وصمت لبضع دقائق أثناء سيره مفكراً وباستغراب عمّا حدثته، ثم قال بطريقة فلسفية: «سبحان الله العظيم خالق الأنواع المختلفة». ومرة أخرى أطرق صامتاً حتى جاءته فكرة جديدة فسأل:

«ماذا يقول الناس في بلادكم عنّا نحن البدو؟» فأجبته: «لا أعتقد أنهم يقولون أي شيء عنكم، فمعظم الناس في بلادنا لا يعرفون الكثير عن البدو». فقال: «ولكن أنت تعرفهم، يجب أن تحدث قومك عن البدو: عن حروبهم، وغزواتهم، وخيامهم، وقطعانهم، بالله عليك حدثهم عنّا». فأجبته: «أعدك، إن شاء الله، في يوم ما، إذا ما عدتُ إلى بلادي سوف أتحدث إليهم عنكم».

لقد مضت ٣٦ سنة على وعدي، وقد عدتُ الآن إلى بلادي الأصلية، فحان الوقت لأفي بوعدي.

* * *

قبل ٤٠ سنة خلتْ، كان اقتصاد شمال الجزيرة العربية بسيطاً، فلم يكن قد تمّ اكتشاف البترول، ولم تكن هناك صناعات.

ويوجد على حافة الجزيرة العربية الخارجية حزام ضيق من المناطق الزراعية والمأهولة. وبصورة عامة، فإن المناطق الزراعية تشمل فلسطين والأردن ولبنان وسورية وتمتد بعرض حوالي ١٠٠ ميل من الغرب إلى الشرق وتنتشر فيها بعض القرى والمدن. أما مصادر الري فتقوم على الأمطار في الشتاء بواسطة الرياح الغربية التي تهب من حوض البحر المتوسط، وتسقط الأمطار في الفترة ما بين نوفمبر ومارس ويندر سقوطها في فصل الصيف. ويقل سقوط الأمطار كلما ابتعدنا عن ساحل البحر المتوسط ما بين ١٠٠ إلى ١٢٠ ميلاً وبالتالي تصبح الزراعة مستحيلة، وبعدها تمتد صحراء شاسعة لمسافة ٥٠٠ ميل حتى ضفاف نهر الفرات.

وفي العراق نجد أن كمية سقوط الأمطار ليست كافية للزراعة عدا أقصى الشمال. وفي الأماكن الأخرى فإن الزراعة تعتمد اعتماداً كلياً على الري بواسطة النهرين العظيمين، الفرات ودجلة، وواديهما الخصيب مزروع زراعة مكثفة. وعلى شواطئ البحر الأحمر والخليج فإن الصحراء تمتد حتى البحر، ما عدا بعض الواحات التي تحتوي بعض البيوت الطينية وأشجار النخيل.

وفي السواحل الجنوبية التي تشمل اليمن وحضرموت وعُمان تسقط الأمطار نتيجة للرياح الموسمية الهندية مما يمكّن السكان من ممارسة الزراعة وبناء المدن.

وهكذا، باستثناء نجد، فإن المناطق المأهولة والحضرية والزراعية تكوّن شريطاً ضيقاً محيْطياً للبلاد العربية. وتقع نجد، بخلاف ذلك، وسط شبه القارة العربية، وهنا فمصادر المياه هي العيون أو الآبار ذات المياه الضحلة حيث كوّنت مجموعة الواحات والبلدان والرياض النجدية. والمناطق المأهولة في نجد تختلف، على سبيل المثال، عن نظائرها في فلسطين وسورية، ففي الأخيرتين، نجدُ أن الحقول الزراعية والبساتين والقرى والمدن متجاورة كما هي الحال في أوروبا، أما الواحات في نجد فتشبه أرخبيلاً في بحر الصحراء ذا خلجان طويلة وأخرى صغيرة تفصل ما بين منطقة مأهولة وأخرى في الصحراء القاحلة.

وباختصار، يمكننا أن نقسم شبه القارة العربية إلى أربعة أقسام هي:

- مجموعة حوض البحر المتوسط وتتكون من: سورية وفلسطين والأردن ولبنان.
- العراق.
- مجموعة الساحل الجنوبي وتتكون من: اليمن وحضرموت وعُمان.
- مجموعة المنطقة الوسطى وتسمى «نجد» وتتكون من واحات ومدن وبعض المناطق الزراعية، ولكنها محاطة كلياً بصحراء تعزلها عن بقية أنحاء العالم.

وبعيداً عن هذه التقسيمات الأربعة، فإن بقية شبه القارة العربية صحراء. وبالنسبة إلى المنطقة الشمالية، وتحديداً المثلث الصحراوي الذي يربط ما بين سورية والعراق ونجد، فإن الرمال تقل هناك عدا صحراء النفود التي تقع في أقصى الجنوب والجنوب الغربي من هذا المثلث، ومعظم أجزاء المنطقة متكونة من سهول تتخللها بعض التلال التي يصل القليل منها إلى مصاف الجبال، أما طبقة الأرض الواقعة تحت التربة مباشرة فتتكون بشكل عام من الحجر الجيري أو الكلسي.

إن تعريف الصحراء في البلاد العربية هو: الأرض ذات الأمطار الشحيحة التي لا تكفي للزراعة، والجدير بالذكر أن هناك أجزاء من هذه الصحراء تتحول إلى مناطق زراعية في سني الأمطار الغزيرة في الشتاء، حينها تلبس الأرض حلة قشيبة من الأعشاب والأزهار في فصل الربيع.

* * *

إن الاختلاف في طبيعة المناطق ما بين زراعية وصحراء قد قسم العرب منذ زمن سحيق إلى مجتمعين هما الحضر والبادية. والآن، ونحن في سنة ١٩٦٠، فإن الصناعة والبترول وحياة المدينة في تقدم مستمر، ولكن قبل ٤٠ عاماً كانت غالبية العرب إما فلاحين أو بدواً رحلاً وكانت العلاقة تكاملية بين المجتمعين، فالأراضي القابلة للزراعة نادراً ما كانت تسد كل احتياجات السكان وحاجاتهم. وهكذا لا تتاح أجزاء من هذه الأراضي للرعي. فحقول الكلأ لا تتوافر في البلدان العربية كما هي عليه في إنجلترا، فأي حقل فيه إمكانية الكلأ يستغل في منتجات حبوب بصورة أخرى، أي أن الحقول الزراعية غير مشاعة للرعي.

وعلى الرغم من ذلك، فإن المزارعين وسكان المدن يحتاجون إلى لحوم وحليب وزيوت حيوانية وأصواف من قبائل البدو الرُّحل التي امتهنت تربية الحيوانات والمواشي لتلبي هذه الاحتياجات. فالمزارعون يحرثون ويبذرون في الخريف، وبعدها لا يسمحون لقطعان ماشية أهل البادية بالرعي في أراضيهم، وفي الموسم نفسه تبدأ الأمطار الشتوية بالسقوط في الصحراء، ويبدأ البدو بالارتحال عن المناطق الزراعية. وفي شهر يوليو/ تموز يكون قد انتهى موسم الحصاد وبعده يتمكن بعض البدو من التغلغل إلى المناطق الزراعية لترعى بها مواشيهم على بقايا الزرع بعد حصده ويمكثون فيها حتى أكتوبر/ تشرين الأول أو نوفمبر/ تشرين الثاني ثم يتوارون مرة أخرى في أفق الصحراء الأزرق، وبعضهم الآخر يبقون طوال السنة في الصحراء لا يغادرونها.

ويستغل البدوي اتصاله بسكان المدن في فصل الخريف ليبيع بعضاً من حيواناته لشراء ضروريات معيشته من طعام وملابس، تسد احتياجاته المتواضعة وتكفيه مدة ٦ شهور أو أكثر.

في سنة ١٩٢٠ بلغ معدل ملكية العائلة البدوية الواحدة من الإبل (١٢) اثني عشر بعيراً، وتعتبر في المصطلح الاقتصادي كمخزون بضاعة، ولا تبيع العائلة من هذه الإبل إلاّ جملاً واحداً، أو اثنين على أبعد احتمال في السنة. ويتراوح السعر النقدي للجمل الواحد ما بين ١٥ إلى ٢٠ جنيهاً إسترلينياً ومداخيلها السنوية للعائلة تتراوح ما بين ١٥ إلى ٣٠ إلى ٤٠ جنيهاً إسترلينياً.

أما إذا كانت العائلة لا تملك جملاً لتبيعه، فإن أحد أفرادها الذكور يقوم بمحاولة الاستيلاء على جمل من قبيلة معادية عن طريق السرقة [حَنْشل]، أو الاشتراك في الغزوات البدوية والحصول على حصة من الغنائم. ومن الواضح أن البدوي لا يستطيع العيش فقط على غزو نظيره البدوي الآخر لأن هذا يؤدي إلى القضاء عليه. ولكن بصفة عامة، فغزوات البدو تدفع باتجاه المساواة في توزيع الثروة بينهم، لأن فقيرهم يكون ميالاً إلى الغزو أكثر من غنيّهم، وفي زمن اندلاع الحروب بين القبائل وانفلاتها عن السيطرة، لا ينقطع أمل البدوي في كسب رزقه مهما واجه من ظروف مادية صعبة، فبإمكانه على الدوام الحصول على ثروة على حساب القبيلة الأخرى. ولأول مرة ينخفض المستوى المعيشي للشرائح البدوية الفقيرة إلى مستوى المجاعة والفاقة والقنوط بعد منع الغزو بين القبائل قبل ثلاثين عاماً.

يبدو أن الشروط البدائية تقود إلى التوازن الذاتي والطبيعي، في ميادين عدة مختلفة من ميادين الحياة، وتشكل نظاماً للعدالة الاجتماعية. ولطبيعة حياة القبائل البدوية العربية، فإنه يستحيل نقل الأثاث عبر الصحراء على ظهور الجمال، لذا اقتضت الحاجة أن يكون الجلوس على الأرض، وهذه التقاليد أوجدت ديمقراطية في التمايز الاجتماعي.

إن حجم خيمة البدوي (بيت الشَّعر) بسيط حتى يسهل نقلها وحملها من مكان إلى آخر، وهذا لا يسمح بالتفاوت الكبير في السكن فلا تجد هناك عائلة تسكن في منزل فخم وأخرى تسكن عشة. إن منع عمليات الغزو القبلي، الذي كرّستُ جُلّ صفحات هذا الكتاب لوصفه، كان مُؤذناً بهدم هذا المجتمع الرجولي القائم على المساواة والديمقراطية. ومنذ ثلاثينيات هذا القرن، يميل البدو ميسورو الحال إلى التخلي عن حياة البادية ويتضور الفقراء منهم جوعاً ويوغلون في فقر مدقع. وفي العشرينيات عندما بدأنا مهمتنا بحماسة منقطعة النظير لفرض النظام والقضاء على الفوضى السائدة لم نتنبأ بالمتاعب، كانت حماستنا تدفعنا إلى الشروع في برنامج يبدو لنا إنسانياً خيّراً بكامله يهدف إلى إحلال السلام والأمن بدلاً من العنف وإراقة الدماء المستمرة.

وكما ذكرت سابقاً فإن المناطق الزراعية في شبه القارة العربية لا تتوافر فيها أراض خاصة للرعي، والصحراء أعشابها رفيعة وضئيلة طوال العام. لذا تجد الإبل والأغنام تنكبُّ على الأرض للرعي، وتقضي على الأعشاب خلال أيام قليلة وتنتقل إلى منطقة جديدة أخرى

وهكذا. وعلى الرغم من ذلك فالصحراء مساحتها هائلة فكلما تم التحرك عدة أميال أخرى وُجدت أراض بكر للرعي. وهكذا فقطعان الأغنام أو الإبل لا مناص لها من أن تمضي الشتاء والربيع في تنقل دائم وحركة دؤوبة، وأصحابها لا بديل لهم من السكن في الخيام (بيوت الشعر). ومهما أصبحت معظم الأقطار العربية أقطاراً صناعية وحديثة، فمن المحتمل أن تظل الحاجة إلى إطعام أهل المدن تعتمد أساساً على تربية هذه الحيوانات من أغنام وغيرها ممّا يقتني البدو، ما لم يبتكر مصدر غذائي اصطناعي أرخص ثمناً. إن نهاية الغزوات والحروب القبلية، وبداية التحديث كتطور عام، جردتا أهل البادية من بهاء حياتهم الرومانسية، وجردتاهم أيضاً من قوتهم المسلحة، ولكن البداوة لم تختف كمصدر للرزق.

لقد تكونت في أذهان المجتمع الغربي صورة خاطئة عن العرب، إذ يعتقدون أن العربي هو ذلك الإنسان الذي يركب الجمل ويسكن الخيام بالصحراء، وكلمة «عربي» بمعنى من المعاني تشمل السكان في العراق وسورية ولبنان والأردن وحتى مصر (ناهيك عن شمال إفريقيا). هذه النظرة الخاطئة إلى العرب مشابهة، إلى حد ما، للنظرة إلى أهل الولايات المتحدة الأمريكية على أنهم رعاة بقر. وحقيقة الأمر، أن القبائل البدوية لا تشكل إلاّ جزءاً صغيراً من سكان شبه القارة العربية، وأعدادهم تنخفض مقارنة بسكان المدن أو الحضر.

* * *

تعرضت بلدان حوض البحر المتوسط العربية لغزوات من آسيا ومصر وعبر البحر من أوروبا، وكانت تمر جيوش الغزاة عبر أقطار فلسطين ولبنان وسورية وبالتالي فإن سكان هذه الأقطار ذوو أصول مختلطة وثقافات مكتسبة متنوعة.

غير أن الصحراء الشاسعة، المترامية الأطراف لم تكن عامل إغراء للغزاة، وعليه فإن نجداً من البلدان القليلة التي نعرفها والتي نادراً ما تعرضت للاحتلال، وسكانها لم يختلطوا بأجناس أخرى.

إن كل أمة أوروبية مرت بمزيج شامل خلال الألفي سنة الماضية وإلى حد أبعد خلال أربعة آلاف سنة، والجنس البشري الذي لم يختلط أو يمتزج لعدة آلاف من السنين يعد ظاهرة فريدة. ويهتم هذا الكتاب تقريباً بالجنس البشري في الجزيرة العربية. كانت خصائص البدوي قبل أربعين عاماً متميزة. وتوجد أوصاف لعادات الإنسان وتقاليده وعقليته هناك قبل أربعة عشر قرناً، أي قبل ظهور الإسلام، إن التشابه الكبير بين العرب البدو في القرن السادس الميلادي وبين هؤلاء الذين أسرد قصصهم يؤكد معالم العزلة التي عاشوا فيها ١٥٠٠ عام على الأقل.

إن أهم خاصية لحياة الصحراء وأقواها هي الصلابة، والفقر، والصراع المستميت من أجل

البقاء، خاصة الكفاح ضد الجوع والعطش والمساحات الشاسعة. إن الفقر الشديد في أواسط الجزيرة العربية أسفر عن استحالة تشكيل حكومة مستقرة مع أدواتها من موظفين وجنود وأبنية ووسائل اتصال يستلزم تشكيلها وجود دخل منتظم. ولكن الأفراد يخشون العيش بعزلة ويسعون للأمن دائماً من خلال اشتراكهم في بعض التنظيمات، التي توفر لهم الدعم والحماية، والعرب البدو بالتالي يتحصنون بالقبائل. ونظرياً، تتكون القبيلة من عائلة واحدة تتحدر من جد واحد. وعملياً، كلما نمت القبائل وكبر حجمها تداخلت فيها أجناس أخرى، فعلى سبيل المثال، عندما يلجأ فرد من قبيلة إلى قبيلة أخرى فإنه يتزوج من الأخيرة ويصبح من أفرادها. وبصورة عامة، فإن صلة القرابة هي العامل المهم في القبيلة والزواج داخل القبيلة. ومن هنا فالقبيلة تتمتع بميزات أكثر من الدولة السياسية، كونها عائلة واحدة، يقوم أفرادها بخدمتها والولاء لها دون أن تدفع لهم مقابل هذه الخدمات. وهكذا فعند هذا الشعب الفقير كانت القبيلة الكيان الفاعل الوحيد وكانت تؤدي دوراً مهماً وكأنها صورة مصغرة للدولة.

ويؤثر المال في كفاءة أداء القبيلة، فإذا كان شيخ القبيلة يعاني قلة النقود لا يستطيع ممارسة مهامه باقتدار على كل أفراد القبيلة عندما يكونون مساوين له اجتماعياً، ولا يملك ثروة مالية يستطيع بواسطتها أن يجند أشخاصاً ويسلّحهم لينفذوا أوامره، فيضطر رئيس القبيلة إلى إقامة سلطته على واجبات علاقة القرابة بينه وبين أفراد قبيلته.

إن عجز شيخ القبيلة أسفر عن السمة الجوهرية لحياة القبيلة التي تتمثل بغياب تنفيذ القوانين المنظمة للمجتمع القبلي. فعلى سبيل المثال، تجد أن زعيم القبيلة يقوم عادة بدور قاضي «القانون» القبلي، وفي ظل غياب أي جهة تشريعية لسن القوانين، كانت قوانين القبيلة مجرّد الأعراف المتوارثة التي تقوم على سوابق معينة، والقاضي البدوي يعدّها مرجعاً مهماً، فيدعم قراره بأحكام صادرة في الماضي لحالات مشابهة للقضية التي ينظرها. والمشكلة التي كانت تواجه القاضي البدوي هي كيفية تنفيذ الأحكام، فكل ما يفعله القاضي (ويتم التقاضي أمام الملأ) هو إعلام المتخاصمين وأفراد قبيلتهم بالأعراف التي تحكم ظروف القضية.

وكان غياب القوة المعنية بتنفيذ أحكام القاضي يعني غياب نظام العقوبات. إن القانون القبلي يولي الفرد اهتمامه ويحاول إنصافه، وربما كان ضغط الرأي العام كافياً لجعل المذنب يسعى إلى الصلح، ولكن هذه ليست قاعدة عامة، فعندما يعلن المذنب/ المتهم تمرده وعدم انصياعه لقرار القاضي فهذا يستدعي أن يلجأ المجني عليه إلى أقاربه طلباً للمساعدة في تنفيذ قرار القاضي بالقوة، أو أن يقوم المجني عليه هو نفسه بإجبار خصمه قسرياً بتنفيذ الحكم من خلال استيلائه أو احتجازه ممتلكات الجاني. إنه النظام الذي يخوّل المضطهد استرداد حقوقه عن طريق القوة، فدوام عدم الاستقرار وخطورة الحياة في الصحراء كوّن الإنسان الذي يعتمد

على نفسه اعتماداً مطلقاً وجعله صاحب مبادرات، معتاداً على العنف، وعليه تجد أن سمات البدوي العامة هي الجرأة، والصخب، والاستقلالية والصلابة في الرأي.

غير أن الميل إلى العنف وتوكيد الذات بغطرسة كان يلجمهما على الدوام اعتماد الفرد على القبيلة، فعندما يخرج الفرد على القبيلة لا يجد حكومة تحميه، بل يجد نفسه معرضاً للأخطار وبإمكان أي فرد قتله أو سلبه دون خشية العقاب. بينما قبيلة الفرد، ليست هي بلاده فحسب بل هي نقابته، وناديه، وبوليصة تأمينه، وراتبه التقاعدي أيضاً. فإذا ما تعرض للقتل من خارج القبيلة فسرعان ما تهب القبيلة لتثأر له، وتطعم أطفاله وزوجته وتعتني بهم، وليس هناك فرد يموت جوعاً فالقبيلة تتحمل مسؤوليته.

ويحد قانون الثأر من جرائم العنف، فأي فرد يقتل آخر فإن أقرباء القتيل يقومون بقتله حسب هذا القانون. وعندما يقوم أحد أفراد القبيلة بقتل فرد من القبيلة نفسها تطبق عليه عقوبات مشددة مؤلمة، تحتم عليه الخروج من القبيلة فيلجأ إلى قبيلة أخرى، وأدى هذا المأزق المأسوي إلى نشوء عرف «الحماية» [الدّخالة]. وعندما يخرج الفرد من قبيلته يسعى للوصول إلى شخصية قيادية من قبيلة أخرى طالباً منها منحه حق اللجوء. وإذا لم تسمح الظروف بالوصول إلى هذه الشخصية فإن دخوله أي خيمة (بيت شعر) لأحد أفراد تلك القبيلة يمنحه حق الحماية [الدخالة] مهما تواضعت مكانة هذا الفرد مانح الحماية. إن العائلة القبلية العربية متى التجأ إليها أي غريب مهما كان، توجب عليها حمايته والدفاع عنه، ويهب لمساعدة الضيف وحمايته أي فرد في الخيمة (بيت الشعر) سواء كان صاحبها أو الموجودين بها.

* * *

إن طبيعة حياة أهل البادية تتطلب قليلاً من الوقت للعمل الذهني الصارم، وتتيح كثيراً من الوقت للتأمل والتفكير، فأوقات الفراغ الكبيرة، واتساع الصحراء وبساطتها، ومطاردة الموت الدائمة للإنسان، كل ذلك جعل العرب يتأملون في وجود الله ويفكرون بمعنى الحياة. إن تقرب الفرد من الله يرتكز على عظمته وقوته وبساطته أكثر من الارتكاز على لطفه. وتتسم طريقة تفكير ابن القبيلة بالبساطة والمباشرة، ويكرّس حياته لأقربائه وأصدقائه، لكنه لا يخفي كرهه لعدوه اللدود، متعطشاً لملاحقته بشراسة، فخوراً مستمتعاً بذلك. وتجعله نظرته البسيطة إلى الحياة غير مكترث في الدخول بالمجادلة حول ما وراء الطبيعة التي أحدثت انقسامات بين المسيحيين أنفسهم، والمسلمين أنفسهم. ويميل إلى الفكرة التي مؤداها أن من يختلفون معه هم أعداء الله ويحب معاملتهم كمعاملته لأعدائه اللدودين بأن يجثم على صدورهم ويقطع أوصالهم.

ومهما كان سمو النفس في وسط الجزيرة العربية في التأمل في قدرة الله والتفكير في الموت، عندما يجلس الإنسان محدقاً إلى الأفق الأزرق البعيد في صحراء شاسعة مترامية الأطراف، سرعان ما يعود ألم الجوع الحاد المفاجئ ليثبت وجوده فغالباً ما تنتهي حركاته الدينية النبيلة إلى سعي إلى السلب.

إذا كانت هذه الصفات تبدو صلبة وقاسية، أو همجية بدائية، فإن هناك فضائل تعوض عنها، ففي بلد يعيش فيه الإنسان غير آمن على الدوام، فإن الصديق الصدوق يعد عملة نادرة، وإذا كان العرب ليس بقلوبهم رحمة لأعدائهم، فإنهم قادرون على إيجاد علاقة حميمية وولاء منقطع النظير لأصدقائهم. إن فضاء الصحراء الرحب والمشقة والمخاطر التي يتعرض لها المرتحلون جعلت الكرم وحسن الضيافة للغرباء وعابري السبيل فضيلة مقدسة بالنسبة إليهم. ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يوجد في تاريخ الشعوب وعلى مر العصور شعب يضاهي العرب في الكرم. إنها الخصلة الخاصة بالعرب دون مُنازع.

وقبل خمسين عاماً أو أكثر كانت حياة البدوي تتسم بالغطرسة، والوحشية والطمع والعنف خاصة نزوعه إلى السلوك المتعالي الذي لا يُطاق نحو غير البدو[١٤]، فحسب وجهة نظره، كان غير البدو أدنى منه منزلة، لذلك فإن الفلاحين وسكان المدن عندما يقعون بين أيدي البدوي يُقابلون بمعاملة تسلطية قاسية. ولكن لو نظرنا إلى البدوي بصورة متوازنة، إلى الجانب الآخر من سلوكه، فسنجد النبل والكرم والرومانسية في حياته. تجوّل «تشارلز داوتي»، أعظم رحالة غربي، في الجزيرة العربية لمدة سنتين، بين القبائل البدوية وكان لا يملك قوت يومه.

كتب عن رحلته بقوله: «مرّ بي خلال مغامراتي ما يقارب سنتين طويلتين مرهقتين أحياناً، قضيتهما بين سكان متناثرين في أراض قفار. كانوا ينظرون إليّ بريبة وعداء، إلاّ أن هذه المغامرة، من جانب آخر، لم تخلُ من لحظات السعادة، ومن خلال تعمقي في الصداقة الإنسانية مع العرب وجدتُ أن صداقتهم حقيقية ومفيدة».

* * *

---

(١٤) يقول الشيخ حمد الجاسر (جريدة **الرياض** ٢٥/ ١/ ١٩٩٩): ما كان ابن البادية شريراً، ولا مُحباً للفوضى، أو مفضلاً لها على الحياة الاجتماعية، بل كان أقرب إلى صفاء الفطرة ونقاء الطوية، وسلامة النية، وحب الخير، ولكنه عاش في بيئة انطلاق وتحرر، بعيدة عن جميع وسائل الرضا بالانقياد بالقوة والقهر، فألف هذا النمط في حياته القاسية، التي كثيراً ما تجتاح الكوارث عمادها بقحط أو وباء، أو نهب، فيصبح فقيراً معدماً، مما يضطره للسعي للحصول على ما يسد به رمقه بأية وسيلة تمكنه من ذلك، لا عن رضا واختيار بل لضرورة وشدة احتياج، بدافع من عدوين قاهرين، هما (الجهل) و(الفقر)، وكفى بالجهل سوءاً وبلاء، و(كاد الفقر أن يكون كفراً) ومن هنا كان أبناء البادية مصدراً لإثارة القلاقل والفتن واضطراب الأمن، للبحث عما يقيم أَوَدَهُم، ويسد فاقتهم، لا حباً للشر ودواعيه، ولكن اضطراراً لجأت إليه الضرورة. [المترجم]

إن الغياب المتكرر لأي سلطة مركزية، هو السبب في تشكيل خصوصية المجتمع البدوي، خاصة حروبه الدائمة. وكما ستُرينا الفصول التالية من هذا الكتاب، كان يحكم وسط الجزيرة العربية حاكم واحد، من وقت لآخر، ولكن إقامة السلطة المركزية كانت دائماً بسبب شخصية هذا الحاكم الفرد البارز. وعند وفاته ما يلبث أن ينهار هذا البناء، لأنه لم يدعم بتنظيم إداري مؤسساتي، أو جيش يستمد رواتبه من الدولة. وفي ظل غياب الحكومة، فإن القبائل البدوية، كدول العالم في وقتنا الحاضر، كثيراً ما تكون حريصة على اجتناب الحرب، لكنها لا تستطيع تفاديها لعدم وجود سلطة مسيطرة قادرة على إشاعة العدالة بينها. إن الحرب المستمرة لو اتخذت مسار قسوة الحروب الحديثة وضراوتها بين الدول «المتحضرة» ستؤدي إلى فناء الجنس البشري. وفي وقتنا الحاضر، لابد أن تنتهي حرب عالمية إلى فترات للسلم وإعادة البناء.

وفي حروب القبائل البدوية، من ناحية أخرى، فإن وقوع إصابات بشرية في أي معركة يكون ضئيلاً نسبياً، إلاّ أن هذه الحروب تظل متواصلة، ونادراً ما تتخللها فترات سلام. وعلى المدى الطويل، فإن معدل القتلى في هذه المعارك قد لا يختلف عن مثيلاتها من معارك في أوروبا في الخمسين سنة الأخيرة.

إن محدودية عدد القتلى أو ضآلته في المعارك البدوية لا تعود إلى صياغة سياسات خاصة لتفادي الخسائر، وإنما تعود إلى التزام أنظمة متشددة. وتجب الإشارة إلى الفرق الواضح بين البدو الرحّل، من جهة، وبين سكان الواحات في وسط الجزيرة العربية، وبين الفلاحين الذين يسكنون أطراف الأماكن المأهولة في العراق وسورية والأردن، من جهة أخرى. فتتكون ثروة البدو الدنيوية من قطعان الحيوانات المتنقلة بينما سكان المدن يتمتعون بالأراضي الزراعية، والمساكن والحدائق. والبدوي إذا ما تعرض لتهديد من عدو قوي، ووجد أنه ليس في وسعه مجابهته، فإنه يتفادى هجومه بالابتعاد عن مجال الخطر مرتحلاً بأغنامه وإبله إلى منطقة بعيدة عن مصدر العدوان. وفي الواقع، مادامت الصحراء شاسعة والمجال أمامه مفتوحاً للهرب من عدوه، فإن ارتحاله قد يقوده إلى منطقة جديدة يتوفر فيها الكلأ لأنعامه ويكون بمنأى عن أعدائه. وعلى النقيض من ذلك فالفلاح يتوجب عليه البقاء في أرضه والقتال دونها، أما إذا فرّ عنها فسيصبح لاجئاً لا يملك قوت يومه، لأنه تخلّى عن أرضه ومسكنه لمصلحة عدوه. لذا فإن الحرب بالنسبة إلى البدوي ليست كما هي بالنسبة إلى الفلاّح إذ يعدّها الأخير صراعاً مريراً من أجل البقاء. وفي بعض الأحايين يعدّ البدوي الحرب نوعاً من الرياضة المسلية يمارسها لتخفيف رتابة حياة البادية من الضجر.

إن الهدف الظاهري للحروب القبلية هو الحصول على الغنائم على شكل قطيع من الإبل أو قطيع من الأغنام، ولكن الغنائم، في حقيقة الأمر، ليست أحياناً إلا رمزاً للنصر، كحصول

فريق كرة القدم على كأس فضية عند فوزه بإحدى المباريات. وكثيراً ما تجد أن معظم المقاتلين الأشداء المشهورين من الفئات الفقيرة في القبيلة، وكان تهور الغازي الشهير يرافقه كرم وضيافة متهوران أيضاً. إن ديدنهم ليس كسب الغنائم وتراكم الثروة بل تحقيق المجد الشخصي، فالبدوي ليس مادياً، لكنه نرجسي، محب للذات، متعطش للمديح، وهيامه المجد الشخصي، ولاؤه للقبيلة ليس لبلد أو حكومة وكرامته ومكانته فوق كل اعتبار، وحتى فوق الولاء للقبيلة.

وهكذا فإن القتال غالباً ما يتم لتحقيق المجد الشخصي، والهدف الأساسي من أعمال البدوي في القتال هو لفت الانتباه إلى أدائه لعمل بطولي مثير، وبالتالي يتحدى عدوه أو ينذره بأنه سوف يقوم بمهاجمته، وإذا ما ظفر بعدوه وأسره ولم يكن قد ارتكب جريمة قتل ضد أحد من أفراد عائلته، فإنه كثيراً ما يكرم وفادته، ويعامله بشهامة وإخلاص، ويقيم مأدبة على شرفه، ويتركه يخلد للراحة في خيمته (بيت الشعر)، ثم يرسله مكرماً معززاً إلى قبيلته ويكون تحت حمايته أثناء مسيره حتى وصوله قبيلته.

ولكن يجب ألاّ يفهم بأن شهامة العربي تصل إلى درجة المثالية. إن البهاء والرومانسية الاصطناعيين الملتصقين بكلمة «شهامة» في المجتمع الأوروبي الغربي اليوم هما تحسينان أضيفا في وقت لاحق. فالبدوي قد لا يعجب بنبل فارس حكايات تشوسر[15] الوديع كالفتاة ومثاليته، فالمقاتل البدوي لا يحب الوداعة أو الاعتدال، وهذا قد يستفز الإنسان الإنجليزي ويثير امتعاضه بأن المحارب البدوي متغطرس ومحب للتفاخر والمباهاة.

وإذا كانت الحرب من أجل المجد خاصة بالقبائل البدوية، فإن سكان الواحات من أصحاب الأملاك الثابتة تكون نظرتهم إلى الحياة أكثر وعياً، فالحياة في المجتمعات الحضرية، من الطبيعي أن تفرض عليهم نظاماً يتناسب وبيئتهم، وقد يشعر البدوي القح الآتي من البراري الشاسعة بأن حياتهم مضجرة، غير أن جلّ سكان الواحات يتحدرون من قبائل، ولكن طبيعة عملهم، الذي يتمثل بالثبات والانتظام، قد أدت إلى ثبات شخصيتهم. وطبيعة حياة البادية قد قلّصت فرص انتشار التعليم والثقافة بين البدو، لأن حياة التجوال والترحال ببيت الشعر من مكان إلى مكان حدّ من نقل الكتب والأوراق وتعلّم الكتابة، بينما في مدن وسط الجزيرة العربية وقراها فإن فرص التعليم تكون متاحة بشكل أفضل، وأصبحت الصحراء المحيطة بهذه المنطقة تشكل عازلاً يمنع احتكاك السكان بالثقافات الأجنبية.

ونجْد لم تكن ذات اكتفاء ذاتي اقتصادياً، إذ تقوم بتصدير الإبل، وبشكل أقل، الأغنام

(١٥) جفري تشوسر: (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠) شاعر إنجليزي يعد أبرز شعراء الإنجليز قبل شكسبير، وهو صاحب «حكايات كاونتربري». [المترجم]

وتستورد بالمقابل الأرز والطحين والشاي والقهوة والملابس. ويقوم بالنشاط التجاري سكان الواحات في وسط الجزيرة العربية، ويتوجب عليهم لممارسة نشاطهم التجاري، الاتصال بمصر وسورية والعراق والخليج. وهكذا فإن مدن وسط الجزيرة العربية كوّنت ثقافة متميزة خاصة بها، فمن ناحية، تجدها متشربة بالتقاليد القبلية المولعة بالحرب، ومن ناحية أخرى، فإن اتصالها بالعالم الخارجي يمنعها من أن تنتكس إلى الهمجية.

إن حياة الاستقرار بالنسبة إلى التجار وسكان الواحات جعلتهم أقل من البدو عرضة للتقلب في حياتهم، وكذلك جعلتهم أكثر وعياً وأكثر تصميماً عند خوضهم غمار الحرب، هذه الحرب التي يضطرون لخوضها اضطراراً لا اختياراً، لكنهم متى شاركوا في القتال، فإنهم يقاتلون بصلابة أكثر من البدو.

على الرغم من أن البدو ذوو مروءة وشهامة في الحرب، إلا أن غيرتهم وطموحاتهم الشخصية الحادة كثيراً ما تدفعهم لقتل الآخرين. فكثير من الأمراء العرب أو شيوخ القبائل استولوا على السلطة عن طريق اغتيال منافسيهم أو حتى اغتيال إخوانهم. وفي الواقع كثيراً ما يتصرف رجال القبائل كالأطفال، فيستغرقون وقتاً طويلاً وهم يلعبون مع بعضهم لعبة الحرب بروح الدعابة والمتعة التامة، وعند حدوث أي خطأ مفاجئ يتهم كل منهم الآخر بالخداع فتثير الغيرة سخطهم وغضبهم، وهذا يؤدي إلى نشوب صراع عنيف، خاصة عندما يلاحقون الآخرين أخذاً بالثأر، وهنا لا يظهرون أي نوع من رقة القلب بل يسيطر عليهم حب الانتقام.

❋ ❋ ❋

هؤلاء البدو هم الذين يشكلون قسماً كبيراً من سكان وسط الجزيرة العربية الذين تمتد مناطق انتشارهم شمالاً حتى مدينة حلب، في منطقة على شكل مثلث بين الفرات والمناطق الحضرية في سورية والأردن.

ولكن الجزيرة العربية كانت على الدوام أرضاً قاسية مجدبة وسكانها الكثيرون قد لا يحتملون شظف العيش فيها، وعندها فالفائض من السكان تغريه ظروف أفضل للحياة في الأراضي الأغنى المجاورة لهم شمالاً، فيهاجر الأفراد أو العائلات إلى سورية أو العراق، وأحياناً تهاجر القبيلة بأكملها من الصحراء إلى المناطق الحضرية، وتقاتل القبيلة كل من يعترضها أثناء مسيرها. وعلى الأرجح فإن اقتحام القبائل للمناطق الشمالية الخصبة وهجرتها من الصحراء يعود إلى سبب اندلاع الحروب الداخلية في الجزيرة العربية أو أن تسود أعوام المحل أو الجدب أو الاكتظاظ حول الآبار في الصحراء أو أن تكون المراعي ضئيلة، تكاد تكفي لقبيلة واحدة، هذه الأوضاع قد تجبر القبيلة الأضعف أن تغادر المنطقة نحو الشمال، مما يترتب

عليه أن هذه القبيلة تهاجم أي قبيلة أخرى تجدها أثناء مسيرها ومن هنا فالصراع يتأجج وينتشر من قبيلة إلى أخرى.

وقد شكلت الهجرات القديمة إلى بلدان وادي الهلال الخصيب مجموعة قبائل بدوية ثانوية في بادية الشام والصحراء العراقية، وهذه القبائل تعرف برعاة الأغنام أو «الغنّامة» ومن المحتمل أن يكون هؤلاء من أصل بدوي، ولكن حدثت تغيّرات في أخلاقهم وعاداتهم ومظهرهم، نتيجة لاتصالهم، على مدى عدة قرون، بالمجتمعات الحضرية والزراعية. إن الاحتكاك بحضارات أجنبية، مثل الرومان والفرس والأوروبيين والأتراك، له تأثير كبير في بلدات سورية والعراق وقراها. وعندما تضطر القبيلة البدوية إلى مغادرة الجزيرة العربية تكون تأثيرات من تتصل بهم بالغة الأثر فيها، فتتغير طريقة رجال القبيلة في النظر إلى الأشياء. فيصبحون أقل قدرة على تحمل مشقة الحياة الدائمة والحرمان في حياة الصحراء، ويبدون ارتياحهم الكبير لتدفق الماء الدائم، خلال الصيف الحار على ضفاف الفرات العظيم أو مياه العيون في سورية، ويكتشفون أن الأغنام أفضل من الإبل مصدراً لكسب الرزق.

فالبدوي يبيع جملاً أو جملين في السنة، وبثمنهما يبتاع مؤونته من طحين وأرز وتمر، لتكفيه وعائلته طوال تواجده في الصحراء الشاسعة، حيث تخلو هذه الصحراء من الأسواق أو البقالات. والجدير بالذكر، أنه من النادر جداً أن يذوق البدوي فاكهة أو خضاراً طوال سني حياته. وللأغنام على الدوام أسواق رائجة في البلدات والقرى في المناطق الزراعية، وبمقدور صاحب الأغنام بيع نعجة متى أراد ذلك، سواء لزيادة مؤونته أو احتياجاته الأخرى، وبصورة دائمة تزود الأغنام أصحابها بالحليب والزبدة والسمن، وكذلك فإن أصوافها تعد مصدر دخل لا يستهان به خاصة في فصل الربيع.

غير أن الإبل والأغنام لا تتواءم في العيش معاً؛ فالجمال تطوي البيد القاحلة، دون ماء، بخطوات حثيثة لتصل إلى الأماكن القصية، بينما تهلك الأغنام إذا ما واكبتها في المسير. فالإبل ترعى شجيرات الصحراء على مدار السنة تقريباً، لكن رعي الأغنام المفضل هو العشب. وعليه، فالقبائل التي تربي الأغنام وتعتمد عليها كمصدر دخل نجدها تتخلى عن الإبل تدريجياً وتستبدل بها الحمير حيوانات نقل وتحميل وبذلك تتخلى هذه القبائل عن البداوة. ومفهوم البداوة حسب التعريف هو الارتباط بالإبل (أهل الإبل)، غير أن أصحاب الأغنام لا يزالون بدواً رحلاً، ويستخدمون الحمير لحمل خيمهم، ومؤنهم وأدوات الطبخ، والماء، والأمتعة، ويتنقل الرجل والمرأة مشياً على الأقدام، ويركب الأغنياء الخيول وهم قليلون جداً.

ولا تختلف خلفية أصحاب الأغنام هؤلاء وثقافتهم كثيراً عن البدو أصحاب الإبل، عدا أن الأولين قد طرأت عليهم بعض التغييرات بحكم احتكاكهم بأهل البلدات والقرى التي تتأثر

بدورها بالحضارة الأجنبية . ويمضي أصحاب الأغنام حوالي سبعة أشهر من السنة في الأراضي الزراعية أو على تخومها ويقضون الأشهر الخمسة الباقية في الصحراء .

ويهيمن البدو (أصحاب الإبل) هيمنة كاملة على أصحاب الأغنام ماداموا في الصحراء ، فالجمل هو الوسيلة الوحيدة للمواصلات وبالإمكان استخدامه في الغزوات أيضاً . كما أن البدو يستخدمون الجياد في الغزو ، حيث إن الجواد هو الحيوان الوحيد الذي يمكن للمقاتل أن يحارب على ظهره . والجمال ثقيلة جداً لاستخدامها في الأماكن المتقاربة ما عدا انطلاقتها في هجمة واحدة ، وإذا اشتد وطيس المعركـة يترجل المقاتلون من على ظهور جمالهم ويقاتلون الأعداء مشياً على الأقدام . أما البدوي الذي يأخذ فرسه معه للغزو ، فإنه يمتطي الجمل ، ويقود الفرس أثناء المسير ، كذلك فإن الجمل يحمل الماء وحتى ، في بعض الأحايين ، علف الفرس ، وبالتالي لا تستطيع إلا القبائل التي تملك إبلاً استخدام الخيل للغزوات .

لذلك ليس في مقدور أصحاب الأغنام الغزو . ونظرياً ، إذا ما تجمّع أصحاب الأغنام فبإمكانهم الدفاع عن أنفسهم ضد هجوم البدو ، ولكن عدم امتلاكهم الإبل جعل من الصعوبة بمكان حصولهم على معلومات مسبقة عن مسير الأعداء ، لذلك فإن القبائل أصحاب الأغنام لا حول لهم ولا قوة ماداموا في الصحراء ، ويكونون تحت رحمة البدو بل يصبحون زبائن لهم ويدفعون لهم الأتاوة لكي يحموهم .

* * *

ومن أهم سمات البدو القدماء المميزة واللافتة للنظر هي شغفهم بالشعر . ومن المؤكد أن كثيراً من الأمم قدمت شعراء كانوا من رجال القلم والثقافة ، لكن الشعراء البدو الذين يكاد لا يحصى عددهم هم أميون وبسطاء ، ومع ذلك فنظمهم للشعر يختلف عن شعر الفلاحين المقفى الجاف بل هو محكوم بالتقاليد الفنية الموغلة في القدم ، فالشاعر يوظف المفردات المتعددة والمكثفة في شعره ويهتم بالإثارة في أسلوبه وتناغمه ، فيصبح شعره ذا جرس موسيقي أخاذ . والملاحظ أن إحدى الخصائص المميزة للبدوي التقليدي هي صراحته وعدم تحفظه وغياب المراوغة . وقد انعكست هذه الخصائص على القصيدة الشعبية البدوية التي تمجد البطولة ، فنجدها تشتمل على الكثير من أوصاف الطبيعة ، والسماء ، والغيوم ، وقطرات المطر المتساقطة على الأرض الظمأى ، وبالطبع ، المعرفة الحميمة للحيوانات ، وهناك قليل مما يمكن أن نطلق عليه الروحانية الحقيقية ، ولم يكن رجل القبيلة عالم نفس حاذقاً . ويتقبل البدو الآخرين كما هم ظاهرياً ، دون أن يتعمقوا في تحليل عقليتهم ، فيتناول الشعر البدوي نزعة الشجاعة المتعلقة بأساسيات اهتماماتهم مثل الحرب ، والكرم ، والضيافة ، والحب . ويصوغ الشاعر قصيدته بطريقة رائعة وأسلوب رنان تختلط فيها الحماسة والإحساس المرهف ، والشاعر البدوي يهدف إلى أن

يتلو من الذاكرة قصيدته بطريقة صوتية، وتبدو فاترة قاتمة إذا كتبت، خاصة إذا ترجمت إلى لغة أخرى، وإليكم هذه القصيدة التي قيلت قبل ألف ومئتي سنة.

أُمَيْمَـة

لقد أعجَبَتْني لا سُقوطاً قناعُها
إذا ما مَشَتْ ولا بذات تَلَفُّتِ
تَبيْتُ بُعَيْد النوم تُهدِي غبوقَهَا
لجارتها إذا الهديةُ قلَّتِ
تحلُّ بمنجاةٍ من اللوم بيتها
إذا ما بيوتٌ بالمذمّةِ حُلَّتِ
كأنَّ لها في الأرض نسياً تقصُّه
على أمها وإن تكلِّمكَ تَبْلَتِ
أمَيْمَة لا يُخزي نَثَاها حليلها
إذا ذُكرَ النِّسوانُ عَفَتْ وجلَّتِ
إذا هو أمسى آب قُرّة عينه
مآبَ السّعيد لم يَسَلْ أينَ ظلَّتِ
فدقَّت وجلَّت واسبكرَّتْ وأكْملَتْ
فلو جُنّ إنسانٌ من الحُسنِ جُنَّتِ[١٦]

وتكملة لهذا الوصف بالكلمات البسيطة لشخصية الزوجة البدوية قبل ألف ومئتي سنة، هذه قصيدة «دغيم الظلماوي»، أحد أفراد قبيلة شمّر، التي نظمها حوالي نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أصبح دغيم فقيراً، إذ فقد ثروته من الإبل، فتخلى عن حياة البادية وبنى له بيتاً من الطين في إحدى واحات نجد، ولكن على الرغم من فقره فقد ذاعت شهرته بالكرم وحسن الضيافة لعابري السبيل. والقصيدة تسجل أحد مواقفه النبيلة تجاه ضيوفه، عندما قدمت قافلة من المسافرين بعد منتصف الليل، فاستقبلهم بالترحاب كعادته، إلا أن بعضهم رفض ضيافة الشاعر دغيم أو أبدى له علامات الانتقاص لأنه يسكن بيتاً من الطين، فأنشد دغيم هذه القصيدة موجهاً حديثه إلى تابعه «كليب»:

(١٦) هذه الأبيات من قصيدة طويلة لشيخ الصعاليك: الشّنْفَرى الأزدي. [المترجم]

يا كليب شبّ النار يا كليب شبّهْ
عليك شبه والحطب لك يجابِ
وعلي أنا يا كليب هيله وحبّهْ
وعليك تقليط الدلال العذابِ
وادغث لها يا كليب من سمر جُبّهْ
وشبه إلى منّه غفا كل هابي
باغ اِلّيَ شبّيتها ثم قبّه
تجذب لنا ربع سراةٍ غياب
بنسريّة يا كليب ياشين غبّه
لا هبّ نسناسه تقل سمّ دابِ
متكتفين وناطحين مهبّه
متلطمين وسوقهم بالعقاب
صبه لقرمٍ صرفته ما حسب به
يوم البخيل مكنْهب الوجه هابي
صبّه لمنعور إلى جاه نبّه
يرخص بعمره والدخن له ضبابِ
عدّهْ عن اللّي ما يداري المسبّه
اللي يدوّر بالقصير الغيابِ
لا جاضع المنزوع خطو الجلبه
يا حلو خبط عصيهم بالركابِ
اقحص لهم وابدا سلام المحبّه
لا جوا على هجن يديهم خرابي
سلام أحلى من شهاليل جبه
واحلى من السمن الجديد العرابي
مع كبش مصلاحٍ لراسه نجبه
لا شحّ بالهيّن كبير العلابي
وخطو الولد يوم الملاقا نكبّه
يصير معهم من حساب الزهابِ

حــتى ايش لو يلبس زبون وجــبّــه
مــعــيــرةٍ على غـضــيـر الشــبــاب
أنا لقــيت الصــبـــر يا زين غــبّــه
يرقيك روس مشمرخات الهضابِ
من لا صــبــر يا كليب في حكم ربه
هــذاك يوم البـــعث مــــا لـه ثوابِ
والوالمة يا كليب عــجّل بصــبّــهْ
والرزق عند اللي ينشي الســحــابِ

وتدعو هذه القصيدة إلى حب الضيف وتقديره حتى وإن اتسم سلوكه بالصفاقة والغطرسة، وهي تصور جانباً آخر من الشخصية البدوية على نقيض ما تمثله في الغالب من تعجّل في الأمور وحب للانتقام.

وتنظم القصيدة الشعبية حسب صيغ معينة معروفة، ومما لا شك فيه أن عمر بعض هذه الصيغ أكثر من ألف سنة. ومن الأشكال الثابتة للقصيدة البدوية هي إبرازها دور «الرسول». فيبدأ الشاعر قصيدته بمخاطبة الرسول القادم للتو وهو ممتط راحلته ومحمل بالأخبار، أو الذي على وشك المغادرة ويريد إبلاغه رسالة معينة، وتحتوي أبيات القصيدة الأربعة أو الستة الأولى على وصف سرعة الراحلة التي يمتطيها الرسول، وعرض صدرها، وضمور بطنها، وقوة بنية عظامها، وسيرها بخطى واسعة، ورأسها التي تؤكد أصالتها. ويحمل البدوي عاطفة مشبوبة لراحلته، ولا يجرؤ أي إنسان آخر على تحدي البدوي في وصفه الغني للجمل أو الناقة. وبعد التمهيد أو المقدمة، يطلب الشاعر من الرسول إبلاغ رسالته، وقد تكون هذه الرسالة موجهة إلى الحبيبة، أو إلى شيخ مبجّل ذي مآثر نبيلة وكرمه الحاتمي قد ذاع في الآفاق.

والقصيدة التالية قد تعود إلى خمسين أو ستين سنة خلت، نظمها أحد أفراد قبيلة شمّر في نجد، معبراً عن لهفته واشتياقه إلى ابنيه الغائبين في سورية، حيث يعملان هناك لكسب عيشهما، وتبدأ مقدمة القصيدة بمخاطبة الرسول:

يا راكبٍ من فوق عشرٍ على اللون
شــعــل يهــاوزْن الأظلّهْ خــواتِ
عَشْرٍ على عشر أهلهن يتبارونْ
مثل الجريد ارقابهن جاسياتِ
فجّ المناحــرْ طولهن تقلْ مــازون
قُب الضّلوع مــتــونهنْ نايــاتِ

يا غوْش كان انتمْ لحوران تبغون
يا موفقين الخير صلُّوا وصاتي
خوذَوا كلامٍ بالصناديق مكنون
كلام احلى من حليب الفتاة
بالله عليكم ريّضوا شرب غليونّ
ليا ما نحطّ الحبر فوق الدُّواة
وحوفوا عليهن ليانُوَيْتُوا تمدّون
وحطوا قراميش الخلا الوالمات
حطوا الجدي يمينكم لا تتيهون
وارعوا النعايم سبعة بيّنات
سلّم على اللي مددوني وخلّون
سَيْف وْ شُورَدْي نور عيني شِفاتي
قل لَهَمْ أبوكم حالفٍ غير تاتون
وان ما لفيتوا حالفٍ غير ياتي
إن كان صيدك قلة المال وخزون
ما تطوّل العمر القصير الغناة
دنياك ما دامت للأيدا وسعدون (١٧)
وتُفٌّ على دنيا وراها الممات

ويتناول معظم الشعر البدوي الحرب أكثر من تناوله الحب، فالشاعر مثل كل محاربي الأمم الذين لا يتورعون عن أي شيء أثناء الحرب، ويبدأ شعره بالدعاء إلى الله بأن يكون النجاح حليفه خلال مهمته بالبحث عن الغنائم أو الأسلاب، لتكفي كمصدر رزق له:

يا راكبٍ من فوق مَلْحا معفّاه
ليا روّحتْ تَشْدا رفيف المَحايلْ
ما تْداني المِشْعابِ يَلْمس مْقَفّاه
ضَفّتْ ثفانه بالفخوذ الجلايلْ
تَقْصُرْ مِسيَركْ كان طوّل مْعَشّاه
رَبْدا وْزَوْلَهْ مع الحَزْم زايلْ

(١٧) كان الأيدا شيخاً من قبيلة عنزة، أما سعدون فسيرد ذكره كثيراً في هذا الكتاب. [المؤلف]

لو هو طويل ويَبــهَض الحــيل برْشــاه
عـــــاداتــنا ورْد عـلـى كـل طايـلْ
كَــوْنٍ بـِـ اثر كــون كــثـيــر رزاياه
اسْتَـرْملْنْ بُهْ مْــحَـصّنات الحــلايلْ
لعيــون من جَـرتّهْ على المتْن تشْـقـاه
مكْحُــولّة العينين ســودا جــدايلْ.[١٨]

إن الوجود الحقيقي للجو الشاعري الرعوي الذي يملأ النفس بالرضا، والطبيعة البريئة التي تمجد الماضي البعيد بشكل متواتر، تبدو لي متمثلة في البدو إلى حد كبير. والبدو ليسوا بريئين، بمعنى أنهم لطيفون وغير مؤذين، ولكن حسب مفاهيمنا [كأوروبيين] فإن معظم البدو سارقون أو إن كثيراً منهم قتلة. إن براءتهم بصورة أخرى، تتضح في عدم وجود تعقيدات في حياتهم كبراءة الحيوانات البرية التي يفترس بعضها البعض، أو كبراءة الإنسان قبل أكله فاكهة المعرفة. إنهم لا يبالون بالاعتبارات المادية، ووعيهم الذاتي ضعيف فهم يتقبلون العالم كما هو، يمرحون كالأطفال في محيط يكتنفه سفك الدماء والعنف. إن تحليهم بالصدق والمباشرة في الحديث والبساطة في الحياة جعلهم كلهم شعراء.

إضافة إلى ذلك، فعندما يهجرون حياة البادية البدائية تماماً ويتحولون إلى حياة أصحاب الأغنام، سرعان ما تفقد القبيلة حيويتها ومظهرها، فيتوقفون عن نظم الشعر العفوي والتلقائي.

والبدوي صلب ومحب للقتال، لكنه جدّ متقلب، ورخي البال، بحيث لا يرغب في إبادة أعدائه أو حتى مدّ نفوذه إلى مناطق أخرى، والحروب التي يخوضها للحصول على الأسلاب تعدّ نوعاً من الرياضة، والشيء الوحيد الذي يجعل البدو قساة في سبيله ويضطرهم إلى التجمع لخدمة قضية واحدة هو الدين. ومن حين إلى آخر فإن نار الحماسة الدينية تجتاح شبه الجزيرة العربية القاحلة، كما كانت في بداية ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي. وفي مثل هذه المناسبات ينكر البدوي ذاته، وقد ينسى مجده أو طمعه ويحارب بتعصّب من أجل قضية يعتقد أنها إلهية.

ولكن الحماسة قد تتبخّر في آخر المطاف، وبعد عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة قد تعود القبيلة إلى سالف عصرها.

---

(١٨) هذه الأبيات من قصيدة للشاعر الكبير: سند الحشار الظفيري. [المترجم]

وهذا الكتاب يتناول انبعاث الوهابية وإحياءها في بداية القرن الحالي. وقبل الحديث عن قصتي وعلاقتها بهذه الهزة العنيفة وما ترتب عليها من آثار يتوجب عليّ إعطاء نبذة مختصرة عن تاريخ المذهب الوهابي* [الدعوة الوهابية].

---

* إن استخدام كثير من الكتاب الغربيين مصطلح المذهب الوهابي يعد استخداماً غير دقيق، فدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في جوهرها، هي دعوة إصلاحية/ سلفية تدعو إلى العودة إلى الإسلام كما كان في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، وتصحيح عقيدة المسلمين من البدع والخرافات، وليست هذه الدعوة مذهباً جديداً، لذا فالأصح تسميتها بـ «الدعوة الوهابية». أما الوهابية فإنها بقول د. العثيمين: «كلمة يطلقها كثير من الدارسين على أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب في العقيدة، وعلى الذين لبوا دعوته وانضموا إلى الدولة التي قامت على أساسها في وسط جزيرة العرب». ويقول الرويشد: «لم يكن إطلاق كلمة «الوهابية» التي يراد بها التعريف بأصحاب الفكرة السلفية شائع الاستعمال في وسط السلفيين أنفسهم، بل كان أكثرهم يتهيب إطلاقه على الفكرة السلفية... باعتباره وصفاً عدوانياً... وبمرور الزمن... تحول هذا اللقب بصورة تدريجية إلى مجرد لقب لا يحمل أي طابع للإحساس باستفزاز المشاعر، أو أي معنى من معاني الإساءة...» [المترجم]
للمزيد انظر:

- د. عبدالله الصالح العثيمين. **بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية**، مطابع دار الهلال ـ الرياض ١٤٠٤/ ١٩٨٤ ص ١١.
- عبدالرحمن بن سليمان الرويشد: **الوهابية، حركة الفكر والدولة الإسلامية**، القاهرة ١٣٩٨/ ١٩٧٨، ص١٠.

الفصل الثاني

نشوء الوهابيين وانهيارهم وإعادة إحياء دولتهم

نشوء الوهابيين وانهيارهم وإعادة إحياء دولتهم

نشأت الأديان الثلاثة العظمى في العالم الحديث، اليهودية والإسلام والمسيحية، بين الشعوب السامية، ووجد كل من الأديان الثلاثة مصدره في بنية اجتماعية في غاية البساطة، فاضطر البدو إلى التحلي بالواقعية الصارمة من جراء كفاحهم اليومي من أجل البقاء في ظل ظروف الحياة القاسية في أرض شاسعة يكاد لا يوجد فيها ماء، وحالت بساطة حياتهم دون تطوير أفكارهم الدينية إلى طقوس أو مراسم أو هندسة معمارية. وهذا المزيج من الواقعية والتأمل هو الذي جعل المسلمين الأوائل يشددون على أحد أعظم جوانب الدين وأبسطها، وهو التوحيد.

أثار نداء الرسول محمد (ص) عواطف البدو الكامنة في القرن السابع الميلادي، وجرفتهم حماسة أنستهم نزاعاتهم القبلية وطمعهم في السلب، فاندفعوا إلى خارج صحاريهم يحملون أمامهم لواء «لا إله إلا الله»، وفتحوا به إمبراطورية تمتد من جنوب فرنسا إلى شمال الهند. وقد تبنته إمبراطوريات عظيمة وحضارات معقدة، من الأندلس بنوافيرها وحدائقها إلى بلاد فارس بقصورها، وحكام الهند المغول. غير أن قوة العواطف الملتهبة والحماسة القتالية لدى سكان الجزيرة العربية البدائيين قد استنفدت في غضون ذلك. وكان بعض رجال القبائل العرب قد امتطوا الموجة إلى بلاد فارس أو المغرب أو الأندلس حيث اندمجوا مع السكان المحليين. أما الذين بقوا في وسط الجزيرة العربية فعادوا إلى نمط حياتهم التقليدي، تعزلهم دائرة الصحراء المحيطة بهم عن العالم الخارجي، ولم تهتم الإمبراطوريات والممالك الإسلامية الجديدة البراقة بالبادية القاحلة التي كان دينهم قد انبثق منها، ولم يرغب أي شعب غير عربي في اختراق هذا القفر فعاد وسط الجزيرة العربية إلى انعزاله السابق بعد أن نشأت منه تلك الحركة التي هزت العالم.

كما عادت سيطرة العادات القبلية القديمة التي أخمدتها الحماسة الإسلامية الأولى ولكنها لم تقض عليها. وانتقل مركز الدين الإسلامي إلى دمشق، أو إلى بغداد أو غرناطة أو القاهرة، أو إلى القسطنطينية أو دلهي. وحالت الأُمية السائدة لدى أهل وسط الجزيرة العربية دون دراسة ذلك الدين الذي كان قد أُوجد لديهم أو تفسيره، وهو دين لا يزالون يمارسونه بالاسم. وارتدت القبائل البدوية المتحاربة تدريجياً إلى الحرية الفوضوية والانعزال الجاهلي اللذين كانا يميزانها قبل نشوء الإسلام، فلم يضمهم الدين الذي نشروه سوى لفترة قصيرة إلى الإمبراطورية العربية الشاسعة التي كانوا قد أقاموها.

* * *

وُلد محمد بن عبد الوهاب في نجد من قبيلة بني تميم بعد ذلك بعدة قرون، عام ١٧٠٣، أو عام ١٦٩١ على حد قول البعض، ويعتقد بأن أباه كان ذا علم، حسب معايير وسط الجزيرة العربية على الأقل، وأنه لقن ابنه مبادئ الدين الإسلامي منذ الصغر. وكانت عائلته حضرية تقيم في إحدى الواحات النجدية. حج محمد بن عبد الوهاب في سن مبكرة، وظل يكرس نفسه للدين في المدينة المنورة، وفي البصرة ودمشق لاحقاً، وقد اقتنع، نتيجة لمثابرته في دراسة القرآن وسنة الرسول (ص)، بأن بدعاً قد أُدخلت إلى الإسلام كما يمارسه الأتراك والفرس. وعاد إلى نجد حوالي عام ١٧٤٢ وبدأ يدعو إلى إحياء الدين على أساس العودة إلى القرآن والسنة وباستبعاد كل الممارسات التي لا تستند إلى نص من النصوص الدينية القويمة. لم يتلق سوى القليل من التأييد في قريته الأصلية، فانتقل بنشاطاته إلى بلدة الدرعية الصغيرة المجاورة، حيث كان شيخها محمد بن سعود من قبيلة عنزة، الذي سرعان ما أعلن عن اعتناقه دعوة المجدد. لم تكن هناك حكومة مركزية في نجد في ذلك الحين، وكان أهلها ينشغلون بحروب صغيرة لا نهاية لها. وأدى التحالف الوثيق الذي عقد بين المجدد محمد بن عبد الوهاب وشيخ الدرعية محمد بن سعود إلى ازدياد نفوذ هذا الأخير على نحو سريع.

توفي محمد بن سعود عام ١٧٦٥ وخلفه ابنه عبد العزيز، وكان معظم سكان نجد قد انضموا بحلول عام ١٧٧٠ إلى الحركة الجديدة المعروفة بالوهابية، نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب، وذلك إما بفضل قدرة الواعظ على الإقناع أو نتيجة لقدرة الشيخ على الإكراه. وقامت موجة جديدة من الحماسة الدينية باجتياح نجد، تتخذ عمداً نشوء الإسلام الأصلي منذ أحد عشر قرناً قدوةً لها.

وكان جيران التحالف الوهابي الجديد في نجد شيوخ قبيلة بني خالد في الأحساء في الشرق، وأشراف مكة في الغرب. وكان الأتراك يدعون السيادة على المدينة المقدسة باسم

السلطان العثماني، ولكن الأشراف من سلالة الرسول محمد (ص) كانوا يحكمون الحجاز بصفتهم أمراء عرباً علمانيين، إضافة إلى تمتعهم بالمكانة الدينية التي حظوا بها من سلالتهم.

اندلعت حرب عام ١٧٩٢ بين الوهابيين وحاكم مكة الشريف غالب، وفي غضون ذلك كانت منطقة سيادة الوهابيين تتوسع في كل اتجاه، فشنوا عدة هجمات على الكويت بين عامي ١٧٩٣ و١٧٩٥، ولكن كلها صدت. وضموا إقليم الأحساء عام ١٧٩٥ في أعقاب هزيمة بني خالد، وواصل الوهابيون تقدمهم على ساحل الخليج العربي باتجاه البحرين ومسقط، كما استمرت الغزوات على منطقة الفرات من البصرة حتى كربلاء دون توقف من عام ١٧٦٥ حتى عام ١٨٠٣.

أما السلطنة العثمانية فكانت في حالة ارتباك وإرهاق خلال تلك الفترة، بحيث كادت الحروب المتتالية مع روسيا، وغزو نابليون لمصر، وأعمال التمرد المتكررة التي قامت بها قوات تركيا النظامية (الإنكشاريون)، تدمر بنية الدولة، وجعلت من المستحيل أن ترسل حكومة إسطنبول قوات إلى الجزيرة العربية، وكانت هناك حكومة شبه مستقلة للمماليك الشركس في بغداد، وعلى الرغم من عجزه، أمر الباب العالي حكام بغداد باتخاذ إجراءات ضد الوهابيين.

وبالتالي عين والي بغداد ثويني بن سعدون، أمير اتحاد المنتفق القبلي، والياً على إقليم البصرة، بشرط تجنيده قوة لمحاربة الوهابيين. وكان تنظيم السلطنة العثمانية في القرن الثامن عشر غير محكم بحيث كاد والي بغداد يستقل عن إسطنبول، فيما لم تمتد سلطته إلا إلى بضعة أميال خارج المدينة. أما باقي البلاد التي يتألف منها العراق حالياً فكان يحكمها أُمراء عرب شبه مستقلين لم يدينوا إلا بولاء كلامي كاذب لأي من إسطنبول أو بغداد. وكان آل سعدون من اتحاد المنتفق من أقوى هذه السلالات العربية الأميرية، فقام ثويني بن عبد الله بن سعدون بتجنيد قوة كبيرة وزحف على إقليم الأحساء، غير أن أحد عبيده السود اغتاله في خيمته مساء الأول من يوليو ١٧٩٧، فتفسخ جيشه.

وتم تجنيد قوة جديدة بعد ذلك بعام، تألفت من خمسة آلاف تركي تدعمهم مفارز قبلية من قبائل الظفير وشمر والمنتفق، يبلغ عددها عشرة آلاف رجل تقريباً. وبعد احتلال إقليم الأحساء عاد الجيش وانسحب إلى البصرة دون تحقيق شيء، ثم بدأت مفاوضات وتم التوقيع على هدنة مدتها ست سنوات، غير أن الوهابيين استأنفوا غزواتهم انتهاكاً للهدنة، وكان الاحتقار الذي يكنونه للأتراك نتيجة لهذه الحملة المخفقة قد زادهم عدواناً.

فظهرت قوة وهابية تقدر بعشرة آلاف رجل على ستة آلاف بعير في بساتين النخيل المحيطة بمدينة كربلاء المقدسة صباح ذات يوم في إبريل ١٨٠١، واقتحمت بوابة المدينة على الفور

بهجوم، وأخذ السكان على حين غرة وهربوا هنا وهناك مذعورين، فيما قبض الوهابيون على كل من وجدوهم وذبحوهم، واقتحموا المسجد الكبير الذي يحتوي على قبر الشهيد الحسين، حفيد الرسول (ص)، حيث قيل إن ثروة هائلة قد تراكمت من تبرعات المؤمنين عبر القرون، وعمل البدو المتعصبون كل ما في وسعهم لتحطيم البناية الرائعة والبلاط الملون اللامع والقبة الذهبية.

لم تستغرق مأساة نهب كربلاء أكثر من ثماني ساعات، وفي مساء اليوم نفسه انسحب الغزاة واختفوا مرة أخرى في الصحراء، وساقوا معهم مئتي بعير محملة بالغنائم، وقيل إن خمسة آلاف شخص ذبحوا عمداً.

وغزا الوهابيون الحجاز عام ١٨٠٢، العام التالي لنهب كربلاء، واستولوا على الطائف التي ذبحوا جميع سكانها، واحتلوا مكة [المكرمة] نفسها في مايو ١٨٠٣، فانسحب الشريف غالب إلى جدة على ساحل البحر الأحمر. ولدى انسحاب قوات الوهابيين إلى نجد في يوليو ١٨٠٣، خرج الشريف غالب من جدة وظهر فجأة في المدينة المقدسة، فنتجت عن ذلك مفاوضات سمح بموجبها للشريف غالب بالبقاء حاكماً على مكة المكرمة تحت سلطة ابن سعود، في مثال غير مألوف على التسامح الرحب من جانب هذا الأخير.

وكان عبد العزيز بن سعود الطاعن في السن يؤم صلاة الجماعة في مسجد الدرعية في الرابع من نوفمبر عام ١٨٠٣ حين طعن فجأة من الخلف بخنجر وفارق الحياة على الفور، وكان القاتل فارسياً كان الوهابيون قد ذبحوا أبناءه الثلاثة أثناء نهب كربلاء منذ عامين ونصف العام. فقد تمكن الأب من السفر إلى الدرعية حيث ادعى أنه اعتنق المذهب الوهابي، وعمل أكثر من سنة في عاصمة الوهابيين ينتظر فرصة الثأر لمقتل أولاده، فأُلقي القبض عليه وأُحرق حياً ثم قطع رأسه[١٩]. وكان بإمكان الوهابيين الانتقام من الفارسي المنحوس، ولكنه لا يحق لهم إدانة عمله من ناحية أخلاقية، لأن الذبح الجماعي كان قد أصبح حجر الزاوية لسياستهم، ولم يتورع المجدد محمد بن عبد الوهاب نفسه عن تدبير اغتيال خصومه في نجد خلال السنوات الأولى من عمر حركته[٢٠].

---

(١٩) انظر Philby, Arabia [المؤلف]

(٢٠) المصدر السابق نفسه. [المؤلف]

* يشير المؤلف إلى مصدر معلومة (تدبير الاغتيال) إلى فيلبي في كتابه Arabia، ومع أن فيلبي ضليع في تاريخ البلاد العربية السعودية إلا أن هناك شكاً في مصداقية هذه المعلومة. فقد بحثت في كثير من المصادر المتعلقة بالحركة الوهابية السلفية، سواء المؤيدة أو المعارضة لها، ولم أعثر على ما يؤكدها عدا ما ذكره السدحان بأن أعوان الشيخ المجدد (وليس الشيخ نفسه) قاموا باغتيال ابن معمّر. انظر: مصطفى السدحان. **الحركة الوهابية**. مؤسسة الوراق للخدمات الحديثة، ط١، (عمان ـ الأردن) ١٩٩٨، ص٣٩. [المترجم]

وخلف سعود بن عبد العزيز بن سعود والده، وهو الذي قاد غزوات الوهابيين إلى العراق والحجاز منذ سنين، وكان وسيماً وخطيباً بليغاً، وواضحاً وصريحاً في سلوكه وحديثه، إلا أنه سريع الغضب. وحرص على تسهيل الوصول إليه، وكان بسيطاً في لباسه ولم يحب الرسميات، واشتهر بكرم ضيافته، وهي الصفات النموذجية والأكثر جاذبية لدى أمراء البدو في جميع العصور، وعرف بسعود الوهابي، ويبدو أنه أول زعيم للحركة الجديدة اشتهر على صعيد عالمي خارج الجزيرة العربية.

استولت قوة وهابية على واحة «شثاثة» على بعد بضعة أميال غربي كربلاء عام ١٨٠٨، ومن ثمة أغارت على ضفة الفرات بالقرب من الحلّة، فأُصيبت بغداد بذعر وكان وصول الوهابيين إلى العاصمة متوقعاً في كل لحظة. وكاد غَزو وهابي بقيادة عبد الله بن سعود، نجل سعود الكبير الوهابي، يصل إلى بغداد أيضاً في عام ١٨١٠، كما قام جابي ضرائب وهابي بفرض الضرائب على القبائل العراقية المجتمعة في الهندية على نهر الفرات، التي لا تبعد إلا أربعين ميلاً عن العاصمة، ولم يستطع والي بغداد مواجهة الوهابيين في ساحة المعركة، فشاهد خراب إقليمه ولا معين له.

وفي غضون ذلك قامت قوة غازية قوامها ستة آلاف رجل في عام ١٨١٠ باقتحام إقليم حوران السوري، جنوبي دمشق مباشرة، ومع أن مسيرة الغزاة من نجد إلى حوران استغرقت خمسة وثلاثين يوماً، لم يسمع والي دمشق بقدومهم إلا قبل وصولهم بثمان وأربعين ساعة، فنجم عن ذلك ذعر في دمشق، ولو تقدم الوهابيون بجرأة لكان من المرجح أن يستولوا على تلك المدينة العظيمة القديمة وينهبوها، غير أنهم اكتفوا بنهب خمس وثلاثين قرية في غضون ثلاثة أيام، ثم اختفوا في الصحراء مرة أخرى دون أن يعترضهم أحد. وجبوا ضرائب في العام نفسه من فخذ الجلاس من قبيلة عنزة، على بعد أربعين ميلاً فقط جنوبي حلب.

بلغت السلطة الوهابية الأولى ذروة قوتها من عام ١٨٠٤ حتى عام ١٨١٢، وصادفت ذروة سيطرة نابليون على أوروبا، ولا شك أن هناك علاقة بين الحدثين، لأن انشغال السلطنة العثمانية والدول الأوروبية بالكفاح ضد فرنسا ترك الجزيرة العربية تحت رحمة الوهابيين.

كان أمير آل سعود الحاكم يمارس سلطة مطلقة في إدارة شؤون الدولة، ولكنه كان من عاداته استشارة المجدد محمد بن عبد الوهاب حول كل قراراته المهمة ما دام حياً، وبعد وفاته ظلت سلالته المعروفة بآل الشيخ كنوع من مجلس غير رسمي للدولة.

لا شك أن السيطرة الوهابية وضعت حداً للحروب القبلية والسرقة التي كانت متفشية في الجزيرة العربية. ربما كان قطع أيدي المجرمين وأقدامهم بفأس يشكل رادعاً، ولكن لا شك أن قوة إحياء الدين ساهمت في ذلك أيضاً. وكان الإعدام عقوبة للجرائم الخطيرة، والغرامات

لمخالفات أقل خطورة، وشكلت الغرامات مصدراً لقسم كبير من إيرادات الدولة، أما المقصر في أداء الصلوات الخمس اليومية فكان يضرب بالعصي.

يحترم العرب تقاليد الضيافة احتراماً عميقاً، وهم قدوة للعالم في هذا المجال. فيعتقد أن سعود آل سعود كان يطعم خمسمئة ضيف يومياً، وعلاوة على ذلك كان يقدم مبالغ من المال أو طقوماً من الملابس. ولا يزال تقليد «زيارة الأمير» متبعاً في الجزيرة العربية حتى يومنا هذا، فيقوم كل شيوخ البدو تقريباً، الكبار منهم والصغار، بزيارة الحاكم الذي يدينون له بالولاء مرة أو مرتين كل سنة، أملاً في استلام الهدية المالية التقليدية وطقم من الملابس أو عباءة جديدة على الأقل، ويقال إن الرسول [ص] كان يستخدم الأُسلوب نفسه في تعامله مع شيوخ البدو[٢١]. وكثيراً ما كان الأقارب أو التابعون يرافقون «الزائرين» ويتعين إشباع جشعهم بالهدايا أيضاً.

ذكر أنه كان لدى سعود آل سعود حرس خاص قوامه ثلاثمئة رجل يتلقون رواتب، وأفاد المؤلف [والرحالة] بوركهارت الذي عاصرهم بأنهم كانوا مدرعين بالكامل في المعارك، ولم تكن لديه أي قوة علاوة على قوة النخبة هذه، سوى المجندين من القبائل، فكان كل وهابي خاضعاً للخدمة الإجبارية، ولم يعتبر أي تدريب ممكناً ولا مطلوباً. وهكذا كانت إيرادات دولة الوهابيين، التي ربما تعادل حوالي مئة ألف جنيه إسترليني سنوياً، تنفق بالدرجة الأُولى على الضيافة والهدايا أو المخصصات لرجال القبائل وشيوخهم. وكان هم الأمير الأول إرضاء القبائل والمحافظة على ولائها، لأنها تشكل جيش الدولة الوحيد وقوتها للشرطة.

وعندما يرغب الأمير في القيام بحملة كان يصدر الأوامر للقبائل بالحشد، وكان كل رجل يحضر معه أسلحته وبعيره أو فرسه أو الاثنين معاً، ويستحيل السير على الأقدام إلى أي مكان عبر صحراء الجزيرة العربية. وكان يجب على كل مجند إحضار طعامه في عدلي خرجه، وغالباً ما تتألف مؤونته من الطحين، والتمر، والسمن، وقربة تعلق على السرج أو الشّداد لحمل الماء. قلما حاولوا تطوير نظام تكتيكي، بل قاتلت كل مفرزة كوحدة منفصلة تحت راية شيخها، وهو نظام استخدمه الرسول [ص]. أما المفارز من مدن نجد وواحاتها فكانت أقل تقلباً إلى حد ما من قبائل البدو، ولم تتلق المفارز القبلية ولا المدنية رواتب مقابل خدماتها، بل كانت أربعة أخماس الغنائم توزع بين الذين خدموا في الحملة.

كان هذا النظام العسكري البدائي كافياً لأغراض الغزوات، ولكن الحملة لا يمكن أن تطول

---

(٢١) قد يقصد المؤلف الحديث الشريف «تهادوا تحابوا وتصافحوا يذهب الغل عنكم» و«تهادوا فإن الهدية تخرج الضغائن من القلوب».

انظر: **جمع الجوامع للسيوطي**، الجزء الأول، ص٤٨٣. [المترجم]

لأن كل رجل يضطر إلى أخذ مؤنه معه للحملة كلها. وإضافة إلى ذلك لم يتمكن الوهابيون من توفير حاميات لمخافر أمامية أو أقاليم فتحوها، لعدم وجود جنود يتقاضون رواتب. غير أن سياسة المجازر الجماعية التي ارتكبوها أثارت الرعب لدى السكان المقهورين بحيث ترددوا في الثورة عليهم، حتى ولو تركوا دون حامية نجدية. فكان الوهابيون يذبحون كل ذكر عمداً، حتى الأولاد الصغار، ولكنهم قلما تعرضوا للنساء، فلم يغتصبوهن أو يأسروهن أبداً.

ومن وجهة نظر الدين الإسلامي تستند المبادئ الوهابية استناداً صارماً إلى القرآن الكريم وسنة الرسول [ص]، وقلما استطاع علماء الدين المسلمون أن يجدوا فيها عيوباً، ولكن تطبيق مبادئهم العملي، ووحشية المجازر التي ارتكبوها بحق مسلمين آخرين، وجشعهم في النهب، وتخريبهم القبور والأماكن المقدسة جعلت المسلمين الآخرين ينظرون إليهم نظرة الكراهية والنفور. وقد تجرؤوا حتى على تدنيس قبر الرسول [ص] نفسه في المدينة [المنورة]، مما أثار اشمئزاز العالم الإسلامي. وكانت الحركة الوهابية تبدو جيدة في المناقشة النظرية، شأنها في ذلك شأن الشيوعية، ولكن همجية ممارستها ووحشيتها تلغي عملياً المنافع التي يمكن أن يتوقعها الإنسان من دراسة نظرياتها.

يشكل التوحيد منذ قرون جانباً من الدين يعجب به الساميون، وهو العنصر الرئيس في إحياء الدين لدى الوهابيين، وغالى أعضاء الطائفة فيه وكان أحقر تعبير وصفوا به خصومهم «المشركين».

* * *

غضب السلطان العثماني غضباً شديداً من استيلاء الوهابيين على مكة [المكرمة] والمدينة [المنورة]، ومن اعتداءاتهم المتكررة على إقليمي العراق والشام، ولم تؤد مناشداته لحكومة بغداد إلى نتيجة، فصدرت أوامر لباشا مصر بإعادة المدينتين المقدستين إلى ولائهما لخليفة الإسلام.

كان نابليون قد غزا مصر عام ١٧٩٨ وهزم المماليك الذين كانوا يحكمون البلاد، وأدى انسحاب الفرنسيين إلى فوضى في مصر حتى عام ١٨٠٥ حين استولى العسكري الألباني المغامر محمد علي على الحكم، وتلت ذلك صراعات داخلية أخرى حتى أحكم سيطرته نهائياً بمجزرة جماعية بحق المماليك عام ١٨١١، فلجأ الباب العالي إلى محمد علي باشا لمساعدته ضد الوهابيين، وفور تثبيت سيطرته بتصفية المماليك شرع في الاستعدادات الجدية لحملة في الجزيرة العربية بحشد أسطول من السفن لنقل الجنود في السويس، وعين ابنه طوسون بيك قائداً أعلى، مع أنه لم يتجاوز سنه الثامنة عشرة.

وأبحر ألف جندي ألباني من المشاة من مصر في أكتوبر/ تشرين الأول ١٨١١ ونزلوا في ينبع، ووصل طوسون بيك إلى المدينة نفسها بعد ذلك بأُسبوعين، بعد أن زحف براً عبر العقبة مع ثمانمئة فارس، بعضهم أتراك والبعض الآخر عرب بدو. وفي يناير/ كانون الثاني ١٨١٢ حين حارب جيش نابليون في ثلوج الشتاء الروسي، قاد طوسون بيك قوته الصغيرة عبر الممرات الضيقة في الجزيرة العربية لمهاجمة المدينة المنورة. ونصبت قوة وهابية كبيرة كميناً له في ممر الجُدَيْدة الضيق، بعد أن وصلت لتوها من نجد، دون علم طوسون على ما يبدو، فظهر الوهابيون فجأة على الجبال على جانبي الممر وأطلقوا النار على الجنود من جميع الجهات، فأُصيبت المشاة بذعر أولاً ثم الفرسان وهربوا، فيما ركض البدو السريعون على سفوح الجبال بسهولة يطلقون النار بشكل متواصل على الجنود المحشورين في الممر الضيق إلى الأسفل.

وأبدى طوسون بيك شجاعة كبيرة في هذه الأزمة، بحيث تعرض شخصياً لنيران العرب حتى نجح في وضع حد لهروب عدد من جنوده. وساعده في ذلك إبراهيم آغا المعروف أصلاً باسم توماس كيث، وهو من مواليد أدنبره وجاء إلى مصر عام ١٨٠١ مع جيش الجنرال أبركرومبي، حيث كان مصلحاً للأسلحة في كتيبة إسكتلندية، وقد تم أسره، واعتنق الإسلام، ودخل في خدمة طوسون بيك. غير أن سيده الجديد كان في فورة غضب ذات يوم وأمر بإعدام الشاب الإسكتلندي لتقصير بسيط في واجبه. ولدى وصول مستخدمي طوسون لتنفيذ الحكم، دافع توماس كيث بسيفه عن مدخل غرفته ضد كل من هاجمه، وأخيراً ألقى بنفسه من النافذة والتجأ إلى زوجة محمد علي باشا التي صالحته مع سيده الشاب، وأصبح طوسون بيك في النهاية يقدر شجاعة مستخدمه الإسكتلندي، وعينه لمنصب الآغا الكبير على مماليكه، وأصبح توماس كيث بمثابة نائب طوسون بعد بطولته في هزيمة الجديدة.

تعرض الجيش المصري لكارثة شاملة في الجديدة، بحيث خسر ألفاً ومئتي رجل ومئتي فرس وأربعة مدافع وكل أمتعته، ولو تابع الوهابيون انتصارهم، لكان من المحتمل أن يدمروا قوة الحملة تدميراً كاملاً ويقضوا على فكرة غزو الجزيرة العربية في المهد، ولكن المنتصرين انهمكوا في تقسيم الغنائم على غرار البدو، وأضاعوا الفرصة.

فعاد طوسون بيك بتعزيزات بعد هزيمته في الجديدة بتسعة أشهر وتقدم إلى المدينة [المنورة]، التي وصل إليها دون أن يواجه أي اعتراض. وقاومت المدينة المسورة لمدة أربعة عشر يوماً، ثم فتحت ثغرة في السور بواسطة لغم، وقام توماس كيث المقدام بقيادة الهجوم واقتحم المدينة، وقتل ألف وهابي في العملية، وانسحب ألف وخمسمائة رجل آخرون من العدو إلى القلعة، ولكنهم استسلموا بعد ذلك بثلاثة أسابيع.

وتم احتلال مكة [المكرمة] دون مقاومة في يناير/ كانون الثاني ١٨١٣، والطائف بعد ذلك

بأُسبوعين، وانضم الشريف غالب إلى المصريين، الذين كان يراسلهم سراً منذ بداية الغزو. وتمت ترقية طوسون بيك إلى لقب باشا احتفاءً بهذه الانتصارات.

ووصل محمد علي باشا نفسه إلى جدة في ٢٨ أغسطس/ آب ١٨١٣، وأحضر معه تعزيزات قوامها ألفا فارس وألفا جندي مشاة. وأمر ابنه طوسون باشا بالتقدم من الطائف إلى «تُربة» في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨١٣، ولكن طابوره صُد وانسحب بارتباك، وأُنقذ مرة أخرى بفضل شجاعة طوسون وتوماس كيث الشخصية.

غير أن محمد علي وجد أن مصاعب هائلة تواجهه على الرغم من استعادة الجيش المصري مكة [المكرمة] والمدينة [المنورة]، ولم تتجاوز قواته في الحجاز حوالي خمسة آلاف رجل. وكتب الرحالة بوركهارت، الذي شاهدهم في ذلك الوقت، أن «الاستياء ونوعاً من الذعر شائعان بين الجنود». ووصل ألف فارس تركي إضافي من مصر في خريف عام ١٨١٤. وفي غضون ذلك تكبد الوهابيون خسارة مؤلمة في ١٧ إبريل/ نيسان ١٨١٤ بوفاة سعود آل سعود من الحمى في الدرعية، وهو في الثامنة والستين من عمره، وخلفه ابنه عبد الله.

وفي غضون ذلك قام مبعوثون من إقليم القصيم في نجد بزيارة طوسون بيك وطلبوا منه التقدم إلى بلادهم، ويبدو أن مد السيطرة الوهابية أصبح ينحسر، فغادر طوسون إلى القصيم في نهاية مارس/ آذار ١٨١٥ ومعه ستمئة فارس وأربعمئة جندي مشاة فقط، ولكن مفارز من قبيلتي حرب ومطير، الوهابيتين سابقاً، ساندته هذه المرة. واحتل واحة الرَّس، ولكن خطوط اتصاله بالمدينة خلفه قطعت بسرعة. أما توماس كيث الباسل، الذي عُيِّن أخيراً والياً للمدينة، فحاصرته قوة وهابية كبيرة وهو يتقدم من المدينة مع تعزيزات قوامها مئتان وخمسون فارساً، ولقيَ مصرعه بعد أن قتل أربعة من رجال العدو بيده. وكان وضع طوسون محفوفاً بالمخاطر لفترة، وهو في القصيم معزول عن قاعدته في المدينة، ولكن عبد الله بن سعود تردد أيضاً، فطلب التفاوض ووافق طوسون، ربما بارتياح. وتم التوصل إلى اتفاق في يونيو/ حزيران ١٨١٥ (حين كان الجيش البريطاني يرد نابليون من سلسلة تلال واترلو المخضبة بالدّم)، تخلى الوهابيون بموجبه عن أي مطالبة بمكة والمدينة واعترفوا بسيادة السلطان العثماني عليهم. ووافق طوسون باشا من جانبه على الانسحاب من القصيم إلى المدينة، غير أن محمد علي باشا، الذي كان قد غادر إلى مصر في غضون ذلك، رفض التصديق على الاتفاق، وعاد طوسون باشا إلى القاهرة وهو موضع نقمة، وتوفي من الطاعون في العام التالي.

ووصل نجل آخر لمحمد علي، هو إبراهيم باشا، إلى الحجاز في سبتمبر/ أيلول ١٨١٦ وتولى القيادة، وأحضر معه ألفي جندي وألفاً وخمسمئة فارس من البدو الليبيين. وتقدم إلى الحناكية شرقي المدينة في ديسمبر/ كانون الأول ١٨١٧، حيث انضم إليه معظم رجال قبائل

عتيبة وحرب ومطير وبعض قبيلة شمر. وتقدم في يونيو/ حزيران ١٨١٧ إلى القصيم، التي كان أخوه طوسون قد وصل إليها قبل ذلك بعامين.

قاد إبراهيم باشا جيشه في ٢٢ مارس/ آذار ١٨١٨ من القصيم عبر الممر الجبلي إلى وادي حنيفة حيث تقع عاصمة الوهابيين، وتقدر قوة جيشه في ذلك الوقت بألف وتسعمئة وخمسين فارساً وخمسة آلاف وستمئة جندي مشاة واثني عشر مدفعاً. ووقف الجيش المصري أمام سور عاصمة الوهابيين «الدرعية» في السادس من إبريل/ نيسان ١٨١٨، ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها بهجوم مفاجئ، ودامت المعركة على البلدة خمسة أشهر. ثم طلب عبد الله بن سعود مقابلته والتقى القائدان، فقدم له إبراهيم باشا إنذاراً بالاستسلام خلال أربع وعشرين ساعة لينفى إلى مصر، ووافق على ذلك. وفي مصر استقبله محمد علي استقبالاً جيداً، ولكنه أرسل إلى إسطنبول وأعدم في النهاية بضرب عنقه على رؤوس الأشهاد في ساحة آيا صوفيا وسويت عاصمته الدرَعية بالأرض ولم يعد بناؤها بعد ذلك، وتابع إبراهيم سيره إلى الأحساء والخليج العربي.

وفي غضون أقل من عام بعد فتح الدرعية قرر إبراهيم باشا أن حكم وسط الجزيرة العربية حكماً مباشراً لا يستحق العناء المبذول في سبيله. فانسحب المصريون في يونيو/ حزيران ١٨١٩ من الأحساء التي أعادوها إلى شيوخ بني خالد الذين كانوا يحكمونها قبل الفتح الوهابي عام ١٧٩٥، كما جلا المصريون عن إقليم العارض في ١٣ أغسطس/ آب ١٨١٩، ولم يحتفظوا بحامية إلا في القصيم.

من حسن حظنا أن النقيب سادلير من الكتيبة الملكية ٤٧ رافق الانسحاب المصري، فكان ظهور إبراهيم على ساحل الخليج العربي قد أثار اهتمام حكومة الهند، التي أرسلت النقيب سادلير في مهمة للتحقق من نوايا القائد المصري، ووصل سادلير إلى الأحساء أثناء انسحاب المصريين منها، ورافق انسحابهم عبر عرض الجزيرة العربية حتى البحر الأحمر، وقد ترك وصفاً لجيش المرتزقة هذا في بدلاته الرثة القديمة، الذي كان يعيش في قذارة ملحوظة. وكانت القوة التي غزت نجداً مؤلفة بالدرجة الأُولى من ألبانيين وأتراك وليبيين، وساعدهم عدد متزايد من بدو نجد بعد أن بدأت كفة الميزان تنقلب على الوهابيين. وكان لمحمد علي تنظيمه الخاص للتجنيد، الذي كان يستأجر المرتزقة من البلقان.

وأبحر إبراهيم باشا من الحجاز إلى مصر في ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨١٩.

* * *

وعانت نجد الفوضى لمدة ٢٤ عاماً بعد نفي عبد الله بن سعود في عام ١٨١٨، حتى استولى

فيصل بن سعود على الحكم عام ١٨٣٤ ، والتم شمل شعب نجد بسرعة حول قيادته ، غير أن حملة مصرية جديدة هزمت فيصلاً عام ١٨٣٨ ونفته ، ولكنه ظهر من جديد في مارس/ آذار ١٨٤٣ وتولى الحكم مرة أخرى ، وعندئذ انتهى التدخل المصري في وسط الجزيرة العربية ، بعد أكثر من أربع وعشرين سنة من عدم الاستقرار .

وكان عبد الله بن رشيد من قبيلة شمر ، أحد أتباع الأمير الجديد فيصل بن سعود ، قد خدمه بإخلاص ، وكافأ فيصل بن سعود هذه الخدمات بتعيين عبد الله والياً على إقليم جبل شمر في الشمال الشرقي من نجد ، وعاصمته حائل . وظل عبد الله بن رشيد يدين بالولاء ظاهرياً لسيده فيصل بن سعود حتى وفاته ، ولكنه كان مستقلاً إلا بالاسم . وقد توفي عام ١٨٤٧ ، وخلفه نجله الأكبر طلال والياً على حائل .

كان أمير الرشيد الجديد رجل سلام ، وبدأ عهده الذي دام واحداً وعشرين عاماً بالاعتراف علناً بسيادة الأمير الوهابي في الرياض ، التي كان فيصل قد اتخذها عاصمة له ، غير أن خضوعه لم يتجاوز الاعتراف الشفهي ، وكان حاكماً مستقلاً من كل النواحي الأخرى ، وتوسعت الأراضي الخاضعة لسيطرة إمارة شمر في عهده الذي انتهى في عام ١٨٦٨ ، ولكن التوسع كان باتجاه الشمال والغرب بضم واحات الجوف وخيبر وتيماء ، وذلك لتجنب اصطدامه بابن سعود ، وهكذا انقسمت نجد إلى دولتين تحكمهما عائلتان منفصلتان .

وكان خليفة فيصل بن سعود المبجل ابنه الأكبر عبد الله ، الذي كان يعمل في السابق نائباً لوالده والذي كان حاكماً مقتدراً إلى حد ما ، ولكن أسلوبه كان غير جذاب على ما يبدو . أما نجل فيصل الثاني سعود فكان ذا طبع مختلف ، له شخصية جذابة وطموحة وسخية ، ويتمتع بشعبية ، وقد عمل والياً على الأقاليم الجنوبية في عهد والده ، وكان على علاقات سيئة مع أخيه الأكبر عبد الله .

ونشب خلاف شديد مع والي بغداد بعد عام من تولي عبد الله الإمارة في عام ١٨٦٧ ، وذلك نتيجة لغارات الوهابيين على قبيلتي الظفير والمنتفق - وهو وضع تكرر في العشرينيات من القرن العشرين ، كما سيتضح من هذا الكتاب . وأُجلي الوهابيون عن واحة البريمي على حدود عمان عام ١٨٦٩ نتيجة لضعف السياسة السعودية تحت قيادة عبد الله بن فيصل آل سعود . وكان آل سعود يطالبون بالبريمي بين الفينة والأُخرى منذ عهد توسعهم العظيم الأول عام ١٨٠٠ ، واحتلوها وجبوا منها الضرائب أحياناً ، ولكنهم لم يجددوا مطالبتهم بها بعد عام ١٨٦٩ إلا في عام ١٩٥٣ ، أي بعد مرور أربعة وثمانين عاماً .

توفي طلال بن رشيد عام ١٨٦٨ ، واستولى أخوه محمد على السلطة بعد صراع عنيف

داخل العائلة، أمر فيه الأمير الجديد بقتل كل منافسيه. وبعد ذلك بثلاثة أعوام تمرد سعود، الابن الثاني لفيصل آل سعود، على أخيه الأكبر عبد الله، الذي استنجد بالحكومة العثمانية في إسطنبول.

ونزل جيش تركي على ساحل الأحساء في السادس من مايو/ أيار ١٨٧١ (عندما كانت ألمانيا تحتفل بانتصارها على فرنسا وتتعرض ثورة كومونة باريس للقمع). فاستسلمت القطيف في الثالث من يونيو/ حزيران، وأصبح إقليم الإحساء بكامله تحت سيطرة الأتراك الفعلية بحلول شهر يوليو/ تموز، غير أن الحكومة العثمانية سرعان ما سئمت من احتلال هذا الإقليم النائي، وسحبت قواتها في عام ١٨٧٤ وتركت العائلتين الحاكمتين العربيتين وشأنهما.

وهكذا مزقت الانقلابات الداخلية وتناحر الإخوة عائلتي آل سعود وآل رشيد على حد سواء بين عامي ١٨٦٧ و١٨٨٧. وكان محمد بن رشيد أول من فرض النظام بالمجزرة التي ارتكبها دون رحمة بحق أقاربه، وسرعان ما أصبح أقوى شخصية في الجزيرة العربية. ووقع انقسام جديد في آل سعود عام ١٨٨٧، مما أتاح فرصة مغرية لابن رشيد، الذي زحف على الرياض واستولى عليها. ومن آل سعود من نقل أسيراً إلى حائل أو هرب إلى الخارج، وأصبح محمد بن رشيد حاكم نجد بكاملها دون منازع.

كان عهد محمد بن رشيد إحدى فترات الازدهار والاطمئنان التي تحل بنجد مع ظهور حاكم عظيم، والتي كثيراً ما كانت تتخللها في الماضي فترات الحرب والفوضى بعد وفاته، إلى حين ظهور رجل عظيم آخر كفء لمهمة الحكم.

توفي محمد بن رشيد الكبير عام ١٨٩٧ دون إنجاب أولاد، وخلفه ابن أخيه عبد العزيز بن متعب بن رشيد، وهو شخصية بطولية وتجسيد للشهامة العربية، نجدي يشبه رتشارد قلب الأسد كان الغزو هوايته الوحيدة. فعاش في الصحراء سنين طويلة يغزو ويصيد ويهمل واجبات الحكم. وكان عبد العزيز آل رشيد يفتقر إلى المهارة السياسية التي تميز بها كل حكام نجد العظماء، على الرغم من شهامته، وأهل نجد أقوى من أن تحكمهم القوة وحدها.

وفي أواخر عام ١٩٠١ غادر عبد العزيز آل سعود الكويت حيث كان يعيش في المنفى، ومعه مجموعة مؤلفة من أربعين رجلاً يركبون الجمال تظاهروا بأن هدفهم القيام بغارة، وتجول لبعض الوقت في الأحساء ثم باتجاه جنوب نجد، دون تحقيق أي شيء يذكر، وانطلق فجأة إلى نجد مع ستين رجلاً في الخامس من يناير/ كانون الثاني ١٩٠٢. وفي ١٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٠٢ ترك ثلاثين من رجاله في الصحراء بالقرب من الرياض، وأمرهم بالعودة إلى الكويت في حال عدم تلقي أي أخبار عنه خلال أربع وعشرين ساعة. ولدى وصوله إلى بساتين النخل

خارج أسوار المدينة مباشرة وضع عشرين رجلاً آخر في مواقع معينة، ثم دخل المدينة مع أتباعه العشرة المتبقين، عبر حي متهدم وغير مأهول على ما يبدو، واحتلت المجموعة الصغيرة في جنح الليل بيتاً في ساحة الرياض الرئيسة التي تقع القلعة على جانبها الآخر، وكان والي المدينة المسمى عجلان، ممثل سلطة آل رشيد، ينام كل ليلة في القلعة، ويعقد مجلسه صباح كل يوم في بيت في الجانب الآخر من الساحة، وبات عبد العزيز آل سعود وأتباعه العشرة الليلة في البيت الذي احتلوه، يراقبون بوابة القلعة.

وفتحت البوابة بعيد الفجر وفقاً للترتيبات اليومية العادية التي كان المهاجمون مطلعين عليها اطلاعاً تاماً، وما كاد يخرج الوالي وأتباعه من البوابة ليقطعوا الساحة إلى القاعة التي يعقد فيها مجلسه اليومي، حتى ركض عبد العزيز آل سعود وأتباعه فجأة من مخبئهم، وكانت مفاجأة تامة. فانقضت مجموعة عبد العزيز آل سعود الصغيرة على حرس الحاكم، وشنت عليهم هجوماً عنيفاً بالسيوف والخناجر، وقتل عجلان والعديد من أتباعه قبل أن يتمكنوا من الاستعداد للدفاع عن أنفسهم. وفي غضون ذلك قام عبد الله بن جلوي، أحد أقارب عبد العزيز آل سعود وأحد أتباعه الأكثر إخلاصاً له، ومعه بضعة رجال آخرين، باقتحام بوابة القلعة قبل أن تتمكن الحامية المذهولة من إغلاقها.

كان أهل المدينة يتعاطفون مع آل سعود بطبيعة الحال، كونهم العائلة الحاكمة المحلية التي كانت مدينتهم، وليس حائل، عاصمة الجزيرة العربية في ظل حكمها. ولم يستغرق القتال العنيف في الساحة سوى بضع دقائق، وأعيد النظام في المدينة خلال فترة قصيرة، وعاد آل سعود يسيطرون بعد أحد عشر عاماً في المنفى. وأثبتت هذه المغامرة، التي نفذت بهذه الشجاعة والمبادرة والتخطيط الدقيق، أن شخصية جديدة قد برزت في نجد، وسرعان ما أثبت عبد العزيز آل سعود أن حكمته ومهارته في إدارة شؤون الدولة تفوقان حتى شجاعته، ولم يستطع عبد العزيز بن رشيد منافسته كرجل دولة.

وأبرق ابن رشيد إلى رئيس الوزراء العثماني في إسطنبول في السابع من يناير/ كانون الثاني ١٩٠٤، مدعياً أن البريطانيين يدعمون ابن سعود، وطلب المساعدة التركية، وفي غضون ذلك قام عبد العزيز آل سعود باحتلال القصيم.

وكانت تركيا تنوي تحديث سلطنتها وتوسيعها، بعد أن كسبت دعم الإمبراطورية الألمانية وصداقتها، وكانت قد شرعت لتوها في تشييد سكة حديد من دمشق إلى المدينة المنورة بإشراف مهندسين ألمان، ويمكن لعداوة نجد أن تجعل تشييد سكة الحديد مستحيلاً، وقرر الأتراك التحرك على الفور، فانطلقت قوة تركية مؤلفة من ألفي رجل تقريباً، مع ستة مدافع محمولة على محامل بين بغال، إلى حائل من السماوة على الفرات.

فوقعت معركة ضارية في البكيرية في ١٥ يوليو/ تموز ١٩٠٤ بين عبد العزيز آل سعود وأهل القصيم من جهة وابن رشيد والأتراك من جهة أخرى، كانت نتيجتها غير حاسمة، وكان القتال شديداً للغاية بالمعايير العربية، بحيث تكبد كل من الجانبين حوالي مئة قتيل، وبالنتيجة يبدو أن معنويات الجانبين انهارت بعد المعركة. لقد تكبد الأتراك خسائر فادحة من الأمراض وفرار الجنود والمعركة، ولكن ابن سعود فقد أعصابه أيضاً على ما يبدو، وأبلغ الأتراك بخضوعه، وقد تلقى الأتراك في تلك اللحظة إعلانات عن ولاء كل من ابن سعود وابن رشيد معاً، على الرغم من أن قوة حملتهم كادت تدمر.

وغادرت قوة تركية أخرى، قوامها ثلاثة آلاف رجل وستة مدافع، النجف في العراق باتجاه وسط الجزيرة العربية، في يناير/ كانون الثاني ١٩٠٥، وفي الوقت نفسه انطلق طابور آخر مؤلف من سبعمئة وخمسين رجلاً وبطارية مدفعية من المدينة المنورة باتجاه القصيم، واحتل الأتراك بُريدة في ذلك الإقليم في ١٥ إبريل/ نيسان. وقد وصف ضابط تركي رفيع تفاوض مع الخصمين عبد العزيز آل رشيد بأنه مقاتل الصحراء، ولكنه وصف عبد العزيز آل سعود بأنه دبلوماسي الصحراء. ويقال إن ابن رشيد بشهامته عتيقة الطراز تحدى عبد العزيز آل سعود أكثر من مرة لحسم الصراع بمبارزة شخصية، ولكن مثل هذه المشاريع الطائشة لم تعجب خصمه الصابر والمحترس.

وباغتت قوة سعودية ابن رشيد في معسكره في ١١ إبريل/ نيسان ١٩٠٦، تحت غطاء عاصفة غبار، وكان بإمكان الأمير أن ينجو بالفرار، ولكنه رفض، وفضل الموت وهو يلفظ صيحة الحرب ويحيط به أعداؤه، وخلفه ابنه متعب البالغ سنه الثامنة عشرة، ويبدو أن الأتراك كانوا يدفعون في ذلك الوقت مخصصاً شهرياً قدره مئتا جنيه إسترليني لمتعب بن رشيد ومخصصاً شهرياً آخر قدره تسعون جنيهاً إسترلينياً لعبد العزيز آل سعود.

وفي غضون ذلك أصبحت بدلات الجنود الأتراك خرقاً، شأنهم في ذلك شأن المصريين قبلهم في عهد محمد علي، وأخذوا يحتاجون حتى إلى طعام، وقيل إن الكثيرين منهم باعوا أسلحتهم للحصول على المؤونة (وفي الواقع كان معظم الجنود في القوات التركية من عرب العراق أو سورية)، وقرر الأتراك إنقاذ ما يمكن إنقاذه والجلاء من نجد في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٠٦، كما اضطر المصريون قبل ذلك بستة وستين عاماً.

كان محمد بن رشيد الكبير قد رفع عائلته إلى قمة العظمة، ولكن بعد استيلائه على السلطة بقتل جميع أقاربه من الذكور تقريباً، في سابقة أصبحت قاتلة لسلالته. فلم يكد متعب آل رشيد يحكم لمدة سنة حتى اغتاله ابن عمه سلطان، الذي قتله بدوره أخوه سعود بن حمود، كما اغتيل هذا الأخير أيضاً بعد تسعة أشهر، وأُعلن الطفل عبد العزيز بن سعود أميراً.

واستمتعت إمارة جبل شمر ببضع سنوات من السلام كانت بأمس الحاجة إليها، في ظل حكم الطفل عبد العزيز اسمياً وتحت وصاية زامل بن سبهان، في فترة قصيرة كان يبدو أن الروح القديمة تزدهر من جديد.

وكان عبد العزيز آل سعود قد حارب آل رشيد من عام ١٩٠٢ حتى عام ١٩١٢، كما كانت حروب نجد تخاض دائماً. وكان دافع عبد العزيز آل رشيد شيئاً من الروح القديمة، أي القتال من أجل القتال، كوسيلة لتحقيق الإنجازات البطولية التي تمجد في الشعر والأغاني، وكان عبد العزيز بن سعود أكثر واقعية، وربما أكثر عصرية، من هذه الناحية، بحيث كان يقاتل لتحقيق الانتصار، غير أنه خاض الحرب على أساس شخصي أو عائلي على الرغم من ذلك، وليس على أساس ديني. وربما كانت إقامته في فترة شبابه بين الأتراك في الأحساء وعند آل صباح في الكويت قد جعلته أكثر تسامحاً مما كان عليه الوهابيون القدامى. وبعد أن عاش وحكم هكذا لمدة عشر سنوات، شرع فجأة في إحياء التطرف الوهابي. ويبدو إدخاله التعصب في تلك المرحلة وتخليه عنه بعد ذلك بعشر سنوات دليلاً قاطعاً على أنه استخدمه لأغراض سياسية.

ومهما كانت دوافع عبد العزيز آل سعود، فإن الحقيقة تبقى أنه رعى إحياء التعصب الوهابي على نحو واضح ومتحمس في عام ١٩١٢، على أساس سابقة الطائفيين الأوائل خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر. ولكن إذا كانت النهضة الدينية تقليداً إلى حد ما، كانت إحدى خطط عبد العزيز الأُخرى مبتكرة. فلا شك أن مما أثر فيه ثبات أهل واحات نجد في المعارك، بالمقارنة مع البدو الرحل. فكان التعبير «فائراً كالماء لا تتفضل» (سفر التكوين، ٤٩ : ٤) يمثل دائماً طابع القبائل، فلماذا لا يحول القبائل إلى سكان الواحات؟

ربما كان حلاً سطحياً للمشكلة إلى حد ما، لأن أحداً لم يعرف إذا كان الماء الكافي متوفراً لإيجاد واحات جديدة، وأضفى الإحياء الوهابي الجديد تصديقاً دينياً على إصدار الأمر للبدو بالاستيطان وبناء الأكواخ وممارسة الزراعة، وقيل للمؤمنين إن بيع إبلهم والسكن في أكواخ من الطين هو واجبهم الديني. وكانت المستوطنات [الهجَر] الجديدة مجتمعات دينية دون شك، تربطها أُخوة دينية، والدليل على ذلك أنهم تبنوا اسمَ «الإخوان»، فامتنعوا عن التبغ والموسيقى والحرير والخيط الذهبي في عباءاتهم وتفاهة الدنيا بشكل عام. وكانت قبيلة مطير من أوائل من تبنوا التعصب الوهابي الجديد، ظاهرياً على الأقل، وقام شيخ تلك القبيلة فيصل الدويش بتأسيس أول مستوطنة [هجْرة] للإخوان البدو عند آبارها في الأرطاوية.

وقام النقيب وليام شيكسبير، المعتمد السياسي البريطاني في الكويت آنذاك، بزيارة عبد العزيز آل سعود في الرياض خلال شتاء عامي ١٩١٣ و١٩١٤ وبحث معه معاهدة تحالف مع بريطانيا. ولدى اندلاع الحرب العالمية الأُولى وانضمام تركيا إلى ألمانيا، أعلن ابن رشيد ولاءه

للسلطنة العثمانية على الفور، فأُرسل النقيب شيكسبير إلى نجد مرة أخرى، كممثل بريطاني دائم لدى بلاط الرياض هذه المرة، مهمته إقناع عبد العزيز آل سعود بمشايعة الحلفاء، ونجح لدرجة جعلت ابن سعود يقود قواته في حملة ضد ابن رشيد في يناير/ كانون الثاني ١٩١٥، وهكذا انسجمت المنافسة بين عائلتين حاكمتين في الجزيرة العربية مع الجانبين في الحرب العالمية الأولى.

وقعت معركة غير حاسمة في جراب، حيث أبعد الفرسان الوهابيون فرسان شمر عن ساحة القتال، ولكن قوة راجلة، يحتمل أن تكون من سكان مدينة حائل أو قرويين من جبل شمر، هزمت جنود مشاة ابن سعود، وكان شيكسبير يساعد في إطلاق مدفع ابن سعود الجبلي الوحيد، وهو يرتدي بدلة الجيش البريطاني، حين طرد جيش ابن رشيد الوهابيين من مواقعهم، ورفض أن يلوذ بالفرار، ومات ميتة غالية وسُحِق وقُتل.

قلما سمع الأشخاص في إنجلترا بوليام هنري أرفين شيكسبير، ولعله ليس من المبالغة القول إن مقتله غير التاريخ؛ إذ كان يتمتع بتأثير عجيب في عبد العزيز آل سعود، وسمعت بنفسي هذا الأخير يقول إن شيكسبير كان أحد أعظم الرجال الذين عرفهم، وذلك بعد مرور أربعة عشر عاماً. ولو انتهت معركة جراب بنتيجة مختلفة لكان بإمكان عبد العزيز آل سعود وشيكسبير القيام بدور في الحرب العالمية الأُولى لا يقل شهرة عن دور الأمير فيصل ولورنس.

إلا أن ابن سعود انسحب إلى الرياض بعد مقتل شيكسبير، ولم يساهم أي مساهمة أخرى في الحرب العالمية الأُولى، وعقدت الحكومة البريطانية اتفاقاً مع شريف مكة، الشريف حسين، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٥ لتنظيم تمرد عربي على الأتراك. ومن سوء الحظ أن العلاقات كانت متوترة بين ابن سعود والأشراف، وكان هؤلاء ينزعون بالنتيجة إلى التعاطف مع ابن رشيد، وبالتالي تناقضت سياسات القوى المحلية في الجزيرة العربية مع انحياز هؤلاء الأُمراء إلى الحلفاء من جهة وألمانيا وتركيا من جهة أخرى. فكان الشريف نصير بريطانيا الأول الآن، وهو صديق ابن رشيد حليف تركيا ولكنه معاد لابن سعود صديق بريطانيا الآخر. ولا شك أن عدم قيام عبد العزيز آل سعود بنشاط طوال باَقي الحرب يعود جزئياً إلى امتعاضه من التأييد الذي أبدته بريطانيا لمنافسه الشريف حسين، غير أنه لم يستطع أن يغير انحيازه والانضمام إلى الأتراك لأن منافسه الآخر ابن رشيد كان حليفهم الأول. وبالتالي أمضى سني الحرب بعد مقتل شيكسبير في تثبيت وضعه الداخلي.

ما كادت الحرب العالمية الأُولى تضع أوزارها حتى انفجرت الخلافات بين الشريف حسين وعبد العزيز آل سعود في عداوة معلنة، على الرغم من تحالف كل منهما مع بريطانيا حتى الآن وتلقيهما إعانات مالية بريطانية. فاندلعت المناوشات والغارات على الحدود بين الحجاز ونجد،

وألحقت قوة وهابية هزيمة ساحقة بجيش الشريف في تربة في مايو/ أيار ١٩١٩، ولكن ابن سعود لم يتابع انتصاره.

كانت السنوات العشر منذ تولي سعود بن عبد العزيز بن رشيد الحكم قد مرت بهدوء وحتى بازدهار إمارة شمر، ولكنه يبدو أن العائلة لم تتمكن من التخلص من تقليدها المأسوي في التناحر الداخلي. واغتيل الشاب سعود بن عبد العزيز بن رشيد عام ١٩٢٠، في وقت كان يؤمل فيه أن تتمتع إمارة آل رشيد بمستقبل هادئ ومزدهر، فخرج أفراد آل رشيد يمتطون الخيل في نزهة للصيد في الريف خارج حائل، من بينهم عبد الله بن طلال، ابن حفيد الأمير طلال بن رشيد، وأثناء مباراة لإطلاق النار استهزأ الأمير سعود من إخفاق عبد الله بن طلال في إصابة الأهداف، فغمرت موجة من الاستياء والغيظ هذا الأخير، ودار فجأة وأطلق النار على الأمير سعود وأرداه قتيلاً. وقضى عبيد الأمير سعود على القاتل خلال ثوان، وهكذا لقي أقدر رجلين في إمارة آل رشيد مصرعهما خلال دقيقتين أو ثلاث دقائق، وتولى الإمارة شاب سقيم اسمه عبد الله بن متعب.

وكما كان الاقتتال الداخلي بين منافسي آل سعود في عام ١٨٨٧ يشجع محمد بن رشيد الكبير على الزحف إلى الرياض، كذلك أدى هذا التناحر الجديد بين أفراد آل رشيد بعبد العزيز آل سعود إلى انتهاز الفرصة لتصفية العائلة الحاكمة المنافسة وذلك بالزحف إلى حائل.

ربما كان قراره هذا أيضاً نتيجة لتطورات في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط، فكان الشريف حسين (الذي أعلن نفسه ملك الحجاز) عدوه في الغرب، وكان ابن حسين الثالث، فيصل، على وشك اعتلاء عرش العراق. وذكر أن عائلة الأشراف كانت على علاقة ودية مع آل رشيد، وربما اعتقد عبد العزيز آل سعود بأن تحالفاً يتألف من الحجاز وآل رشيد والعراق سيكون أقوى منه، وأنه من الحكمة القضاء على آل رشيد قبل تشكيل مثل هذا التحالف.

ومهما كانت دوافعه، قرر الزحف إلى حائل في ربيع عام ١٩٢١، وعلى الرغم من اكتفائه بلقب «إمام» شبه الديني، إلا أنه أعلن سلطان نجد في يونيو/ حزيران ١٩٢١، وتولى القيادة شخصياً في الحملة ضد آل رشيد. ولم يتمكن أفراد العائلة الشباب من وضع خلافاتهم جانباً حتى مع وجود العدو على الأبواب، فثار محمد بن طلال، أخو عبد الله بن طلال قاتل الأمير سعود، على عبد الله بن متعب الذي هرب من حائل ولجأ إلى عبد العزيز آل سعود وسجن في الرياض. واستسلم محمد بن طلال في الثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢١ بعد بضعة أسابيع من العمليات العسكرية المتقطعة، ونقل هو أيضاً إلى الأسر في الرياض، وانتهى حكم سلالة آل رشيد بعد ما يقارب تسعين عاماً، وأصبح ابن سعود حاكم نجد الوحيد مرة أخرى،

بعد مرور مئة وثلاث سنوات على نهاية الإمبراطورية الأُولى حين استسلم عبد الله بن سعود لإبراهيم باشا نجل محمد علي باشا، في سبتمبر/ أيلول ١٨١٨.

* * *

وهكذا أصبحت الدولة الوهابية فجأة جارة العراق في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢١، وفي العام نفسه أصبح حكام كل من الحجاز وشرق الأُردن والعراق من الأشراف، بحيث كان الشريف حسين ملك الحجاز، وابنه الثاني عبدالله أمير شرق الأُردن، وتم تتويج ابنه الثالث فيصل ملكاً للعراق، واعتقد عبد العزيز آل سعود أن أعداءه يطوقونه، ولم يكن الأمر كذلك في الواقع، فعلى الرغم من حرية الملك حسين المطلقة في الحجاز للتصرف كما يريد، كان كل من شرق الأُردن والعراق تحت الانتداب البريطاني. وعلاوة على ذلك، لم يكن شعبا هاتين الدولتين يهتمان كثيراً بالأحداث في وسط الجزيرة العربية، وكان العراق قد خرج لتوه من فوضى الحرب العالمية الأُولى التي تلتها أعمال تمرد واضطرابات في عام ١٩٢٠.

وفي غضون ذلك كان قسم كبير من قبيلة شمر، أي أتباع آل رشيد، قد هاجروا من نجد ولجؤوا إلى الجزيرة، وهي المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات شمالي بغداد، حيث كان فرع آخر من القبيلة قد هاجر إلى هناك من نجد منذ عدة أجيال.

كانت الحكومة البريطانية حريصة على تهدئة الجزيرة العربية بشكل عام، وسعت إلى إقناع ابن سعود بالدخول في معاهدة مع العراق لهذا الغرض، وعقد مؤتمر من أجل ذلك في المحمرة على شط العرب في ربيع عام ١٩٢٢. وكان السير بيرسي كوكس Percy Cox، المندوب السامي البريطاني في العراق، يرئس المفاوضات التي أجراها ممثلون عن العراق ونجد.

كان يبدو واضحاً للحكومة البريطانية أن الخطوة الأُولى في تسوية النزاع بين الدولتين الجارتين هي ترسيم الحدود الفاصلة بين أراضيهما، وكان مثل هذا الاقتراح شيئاً جديداً تماماً بالنسبة إلى أهل نجد ونظروا إليه نظرة الريبة العميقة، بحيث لم يكن أحد قد سمع أبداً بالحدود الدولية في الجزيرة العربية، فكانت المنطقة كلها تعدّ على نحو غير دقيق جزءاً من أراضي السلطنة العثمانية منذ أربعة قرون، صحيح أن الأقاليم المختلفة كانت شبه مستقلة عن الباب العالي في إسطنبول لجزء كبير من تلك الفترة، ولكن مثل هذا الوضع لم يؤد أبداً إلى إقامة حدود في الجزيرة العربية على الرغم من ذلك، ولم تقم إدارة بغداد في الواقع بأي محاولة لمد سيطرتها في الصحراء إلى أبعد من ميلين أو ثلاثة أميال عن نهر الفرات.

وكان مندوبو نجد يعون بوضوح أكثر من العراقيين أو البريطانيين أن وجود القبائل البدوية يعتمد على قدرتها على الهجرة ورعي مواشيها بحرية، لأن هطول الأمطار في الصحراء

متقلب بحيث يمكن أن يصاب الجزء الأكبر من نجد بقحط في بعض السنوات، وفي تلك الحالة فإن بقاء قبائل نجد على قيد الحياة يتطلب القدرة على الانتقال إلى الشمال باتجاه العراق أو سورية بحثاً عن منطقة صحراوية سقطت فيها أمطار أكثر. وبالمقابل تضطر قبائل الشمال أحياناً إلى الانتقال إلى نجد لموسم كامل. فكان يبدو لأهل نجد أن ترسيم حدود ثابتة عبر صحراء مترامية الأطراف يهدد وجود القبائل التي تشكل جزءاً كبيراً من قوات ابن سعود المسلحة، كما رأينا. وبالنتيجة رفض وفد نجد رفضاً مطلقاً ترسيم أي حدود مع العراق. وتم التوقيع على معاهدة المحمرة بين نجد والعراق في الخامس من مايو/ أيار ١٩٢٢، ولكنها لم تتضمن أي إشارة إلى حدود، غير أنها حددت ولاء القبائل. فنسبت قبائل المنتفق والظفير والعمارات (وهي الفرع العراقي لقبيلة عنزة الكبيرة) إلى العراق، مع الاعتراف بانتماء شمر نجد إلى تلك الدولة.

ورفض عبد العزيز آل سعود المصادقة على معاهدة المحمرة، حتى في الشكل الذي وافق عليه مندوبوه، وبالتالي تم ترتيب لقاء شخصي بينه وبين السير بيرسي كوكس في العقير بالأحساء في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٢. وكان ابن سعود يرتاب ارتياباً شديداً من تولي حكام من الأشراف السلطة في الحجاز وشرق الأُردن والعراق. وذكر الأديب اللبناني السيد أمين الريحاني، الذي حضر مؤتمر العقير، أن ابن سعود قال: «لقد طوقني الإنجليز بأعداء». فكان يعدّ هذا التطويق نتيجة لمؤامرات يحوكها البريطانيون ضده.

كان عبد العزيز آل سعود يعي تماماً تاريخ أجداده الذين أقاموا الدولة الوهابية الأُولى [السعودية الأولى] بين عامي ١٨٠٠ و١٨١٨، ويطالب بحقه في كل ما ملكته الدولة الوهابية الأُولى في عصر امتدادها الأوسع. فكان يزعم بصدق أن أجداده جنوا الضرائب من البدو حتى حلب في الشمال. ولكن السيادة الوهابية الأُولى دامت أقل من ربع قرن وكانت قد انهارت منذ مئة وأربعين عاماً، ولم يبد من حق آل سعود المطالبة بالسيادة التي مارسها أجدادهم منذ ذلك الزمن الطويل. لقد عارض ابن سعود أي حدود برية، ولكنه كان على استعداد لتقديم تنازل في مجال تحديد ولاء القبائل، على الرغم من مقاومته لذلك أيضاً. ومن الواضح أنه كلما كان الوضع مائعاً سهَّل عليه التوسع عندما تتاح له الفرصة.

وتجادل ابن سعود وممثلو العراق لمدة خمسة أيام دون أن يبدو أن هناك أي احتمال للتوصل إلى اتفاق، ففي اليوم السادس تدخل السير بيرسي كوكس وبقوة شخصيته أقنع الطرفين بالموافقة على حدود برية رسمها بنفسه، أُعطي العراق بموجبها مساحة كبيرة من الصحراء تساوي على وجه التقريب مناطق رعي العمارات (من عنزة) والظفير، وهما القبيلتان اللتان اعترف بهما على أنهما من رعايا العراق، وعُدَّت منطقة على شكل معين، تتضمن عدداً من

الآبار [طوال الظفير] الدائمة طوال السنة[٢٢] على الحدود، منطقة محايدة تتمتع الحكومتان (وليس قبائل الطرفين، وهذا شيء غريب) بحقوق متساوية لم تحدد طبيعتها.

صيغت الاتفاقات في وثيقتين تعرفان ببروتوكولي العقير تم توقيعهما في العقير في الثاني من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٢ وأُلحقت بمعاهدة المحمرة. وقد حدد البروتوكول رقم ١ الحدود بين العراق ونجد التي يقع كل طولها في الصحراء. ويشكل نص البروتوكول شهادة على مخاوف ابن سعود في مسألة حرية الرعي لقبائله، فنصت المادة الثانية على أن حكومة العراق تعهدت بعدم التدخل في استخدام قبائل نجد للعديد من الآبار الواقعة ضمن حدود العراق، وجعلت ظروف حياة البادية مثل هذا الاتفاق ضرورياً، ولكن الشيء الغريب في تلك المادة هو أن حكومة نجد لم تأخذ على عاتقها التزاماً مماثلاً تجاه قبائل العراق تدعو الحاجة إليه، ولا يمكن تفسير هذا الإهمال إلا أنه بسبب جهل حكومتي العراق وبريطانيا لظروف حياة البادية.

ونصت المادة الثالثة على أن الحكومتين لن تستخدما الآبار الواقعة بالقرب من الحدود لأي غرض عسكري مثل بناء القلاع، ولن تحشدا أي قوات بالقرب منها. وصادق كل من العاهل العراقي الملك فيصل وعبد العزيز آل سعود سلطان نجد على معاهدة المحمرة وبروتوكولي العقير نتيجة لاجتماع العقير، وتم تقسيم صحارى الجزيرة العربية بحدود مرسومة على خرائط لأول مرة في التاريخ.

يبدو أن مهارة السير بيرسي كوكس الدبلوماسية مكنت الحكومة البريطانية من تحقيق خطوة كبيرة إلى الأمام في مساعيها لضمان السلام بين الدول العربية، وتُعدّ المساعي الحثيثة التي بذلها البريطانيون لتجنب الخلافات بين الحكومات العربية المختلفة جديرة بالذكر، لأنهم كثيراً ما اتهموا منذ ذلك الوقت بإثارة النزاعات وعرقلة الوحدة العربية. فكانت بريطانيا تعتقد بأن السلام بين الدول المختلفة يخدم مصلحتها، وتثبت الحقائق التاريخية أنها سعت سعياً متواصلاً لتحقيقه.

---

(٢٢) «طوال الظفير»: هي مجموعة آبار على أعماق سحيقة شمال غربي حفر الباطن وأهمها: الوقباء، وأنصاب، والجليدة، والرخيمية والدليمية. [المترجم]

لمزيد من المعلومات انظر:

د. بروس إنغام، **قبيلة الظفير، دراسة تاريخية لغوية مقارنة**، ترجمة عطية بن كريم الظفيري، ط٢، مطابع دار السياسة، الكويت ١٩٩٥، ص ص ٧٠-٧٣.

مسرد زمني

السنة	آل سعود
١٧٤٧-١٧٦٥	محمد بن سعود (صديق محمد بن عبدالوهاب)
١٧٦٥-١٨٠٣	عبدالعزيز بن سعود (اغتاله أحد الفرس)
١٨٠٣-١٨١٤	سعود بن سعود الوهابي
١٨١٤-١٨١٨	عبدالله بن سعود يطيحه إبراهيم باشا ويشنق في إسطنبول
١٨١٨-١٨٣٤	مرحلة الحكم المصري، ونجد تعمها الفوضى
١٨٣٤-١٨٦٧	فيصل بن سعود
١٨٦٧-١٨٨٩	النزاع بين عبدالله وسعود ابني فيصل بن سعود
١٨٨٩-١٩٠٢	لا يوجد حاكم سعودي
١٩٠٢-١٩٥٣	عبدالعزيز بن سعود
١٩٢١-١٩٥٣	عبدالعزيز بن سعود الحاكم الوحيد

السنة	آل رشيد
١٨٣٥-١٨٤٧	عبدالله بن رشيد تابع فيصل بن سعود عيّن حاكماً على حائل
١٨٤٧-١٨٦٨	طلال بن رشيد
١٨٦٨-١٨٧٢	النزاع بين عائلة الرشيد
١٨٧٢-١٨٩٧	محمد بن رشيد حاكم كل نجد الوحيد
١٨٩٧-١٩٠٦	عبدالعزيز بن رشيد
١٩٠٦-١٩٠٧	متعب بن عبدالعزيز بن رشيد (قُتل)
١٩٠٧-١٩٠٩	سلطان بن حمود بن رشيد (قُتل)
	سعود بن حمود بن رشيد (قُتل)
١٩٠٩-١٩٢٠	سعود بن عبدالعزيز بن رشيد (قُتل)
١٩٢٠-١٩٢١	عبدالله بن متعب بن رشيد (التجأ إلى آل سعود)
١٩٢١	محمد بن طلال بن رشيد (أسره آل سعود)
١٩٢١	نهاية حكم أسرة آل رشيد

الفصل الثالث

ابن سعدون وابن سويط

ابن سعدون وابن سويط

طوال الحرب العالمية الأولى كنت أؤدي واجبات الخدمة العسكرية في الجيش البريطاني المرابط في فرنسا، وفي شهر يوليو/ تموز سنة ١٩٢٠ صدر قرار يقضي بنقلي إلى موقع آخر هو العراق بصفتي ضابطاً في الجيش النظامي، وعند وصولي البصرة في أواخر سبتمبر/ أيلول، كانت الاضطرابات قائمة منذ عدة أشهر، وكانت بعض القبائل العراقية قد أعلنت تمردها على سلطة الحكومة التي تتطلع إلى حكم البلاد بأسلوب كاد حكام البلاد السابقين، الأتراك، لا يحاولونه.

في سنة ١٩٢١، أي بعد تمرد القبائل، كان العراق مسرحاً لتجربة جديدة، غير مسبوقة على المستوى العالمي، هذه التجربة تتمثل باستخدام القوات الجوية محل القوات البرية للقيام بواجبات الأمن الداخلي. ومن الناحية النظرية فإن لاستخدام القوات الجوية فوائد جمة ويتفوق على استخدام القوات البرية خاصة في بلد تكثر فيه القبائل المسلحة، ويفتقر على نحو شبه تام إلى طرق. وعلى سبيل المثال، وجد المصريون والأتراك أنه من شبه المستحيل استخدام قواتهم في عمليات عسكرية في الصحراء بسبب صعوبات الاتصال وصعوبات تزويد قواتهم بالمؤن اللازمة. وكان العراق يعاني المشكلات المذكورة نفسها ليس في الصحراء فحسب بل أيضاً في مناطق الأهوار وجبال كردستان.

في وجه هذه الصعوبات فإن فكرة استخدام الطائرات للتغلب على بُعْد المسافات وسوء الاتصالات تبدو مغرية جداً. فبالنسبة إلى الطائرات يمكن تركيزها في قاعدة واحدة، وبإمكانها اتخاذ إجراءات سريعة خلال ساعات ضد أي قبيلة معادية، على الرغم من اتساع الرقعة الجغرافية من أهوار، أو جبال، أو صحراء قاحلة، ويدّعي المتحمسون أنهم قادرون على إطفاء

فتيل الحرب في وقت محدد وقصير .

وتبقى هناك مشكلة أخرى تحتاج إلى حل ، فأثناء تحرك القوات البرية ضد الأعداء تتمكن من الحصول على المعلومات كلما تقدمت ، وتقوم القبائل والقرى الصديقة بإرسال وفود لاستقبال الطابور والتعبير عن ولائهم وطاعتهم ، أمّا الأعداء فيطلقون النار على القوات . وفي هذه الحالة فمن النادر جداً أن لا تعرف من هو الصديق ومن هو العدو ، بينما في حالة استخدام الطائرات ، فعلى العكس تماماً ، فعند تحليق قوات جوية قادمة من مناطق تبعد مئات الأميال لضرب الهدف ، حين ينظر قائد الطائرة إلى ما تحته فسيرى مجموعة قرى ، وقطعان ماشية أو بيوت شعر منتشرة في هذه المنطقة ، هنا كيف يستطيع التأكد من أن ما تحته هم أعداء أو أصدقاء؟ علاوة على ذلك ، يعيش الطيارون معاً في قاعدة مركزية ، وبالتالي يجهلون أحوال البلد وأهله ويترتب على ذلك عدم قدرتهم على تفسير ما يشاهدونه على الأرض بصورة ذكية . ويبدو أن الضعف الاستخباراتي سوف يكون إحدى العقبات الرئيسية التي تحد من نجاحات استخدام القوات الجوية في واجبات الأمن الداخلي .

وابتكرت الإدارة عدداً من الوظائف لضباط في المناطق الخارجية مساهمة منها في علاج هذه المشكلة ، وعلى هؤلاء الضباط القيام بدور ملحقين عسكريين مع ضباط سياسيين أو محافظي المناطق . ومن المهام المناطة بهؤلاء الضباط أن يكونوا على علم بأحوال المنطقة التي يتواجدون فيها ، وإذا دعت الحاجة إلى عمليات طيران عاجلة ، فسيتمكنون من اتخاذ الترتيبات اللازمة لضمان تحديد الأهداف المنشودة للطائرات .

وواجهت إدارة القوات الجوية بعض الصعوبات في اكتشاف ضباط في سلاح الجو الملكي لديهم الرغبة وتنطبق عليهم المواصفات المطلوبة لشغل هذه الوظائف . ومن المعروف أنني بدأت تعلُّم اللغة العربية ، فعرضت عليّ إدارة القوات الجوية وظيفة مثل هذه ، على الرغم من أنني ضابط في القوات البرية . وبما أنني كنت متعاطفاً مع الشعب العراقي فلم أمانع في قبول هذه الوظيفة ، وتم تعييني في محافظة المنتفق التي كان مركز قيادتها في الناصرية على نهر الفرات الأدنى ، ووصلت إلى هناك في شهر أبريل/ نيسان ١٩٢٢ .

كانت المنتفق تشكل اتحاداً قبلياً كبيراً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وانصهرت بشكل إمارة واحدة تحت رئاسة عائلة السعدون ، تلك العائلة العربية النبيلة . وقبل قرنين من الزمان كانت سيطرة الأتراك على العراق هشة للغاية إذ لم تتعدَّ بضعة أميال خارج بغداد . ويحكم باقي أجزاء العراق أمراء عرب شبه مستقلين ، وكان هؤلاء الأمراء المحليون يشنون حروباً ضد بعضهم البعض ، وأحياناً ضد الوالي أو نائب السلطان في بغداد .

وكان آل سعدون، أمراء المنتفق، يعدون من أعظم هؤلاء الأمراء شبه المستقلين. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قررت السلطنة العثمانية تحديث نفسها، وكجزء من هذه العملية تنظيم العراق كإقليم يدار إدارة منظمة. ولتحقيق هذا الهدف، وكخطوة أولى، كان قرار السلطات العثمانية هو تحطيم قوة بيوتات الأمراء العرب. ولسوء طالع الأتراك فإنهم لم يملكوا مصادر القوة لإخضاع إقليم العراق النائي والمضطرب، وبالتالي شرعت الحكومة العثمانية في تدمير قوة الأمراء العرب بتدبير المكائد ضدهم.

إن الغيرة ربما تكون أكبر مساوئ سمات الشخصية العربية. يقود الطموح، الموجود باعتدال، إلى رغبة مشروعة للتقدم، كذلك بمقدور هذا الطموح إن لم يكن محدداً أن ينزلق إلى شعور من الكراهية الحمقاء لكل المنافسين، وقد استغل الأتراك نقطة الضعف هذه عند العرب، فكانوا يدعمون أحد الأفراد الصغار من كل عائلة حاكمة لتأكيد مطالباته في القيادة، وأدّى هذا بلا شك إلى استياء الأمير الشرعي عندما يرى الحكومة قد فضلت أحد أتباعه عليه، فيحاول قمع مُدّعي الإمارة ممّا يؤدي إلى نشوء انقسامات داخل القبيلة ونشوب حرب أهلية.

وبهذه الطريقة فقدت عائلة السعدون العظيمة قوتها كزعيمة اتحاد قبائل المنتفق، ونتيجة لذلك فقد نجح الأتراك في إنشاء قاعدة عسكرية في الناصرية في منطقة المنتفق. أما سعدون بن سعدون، الذي ظل يرى نفسه زعيم المنتفق، فقد عدّه الأتراك خارجاً على القانون، فقام بإنشاء قلعة في «أبو غار» في الصحراء حيث لم يستطع الأتراك ملاحقته، أو لم يكلفوا أنفسهم ذلك.

وكانت القبيلة البدوية الرئيسة في المنطقة هي قبيلة الظفير تحت قيادة شيخها ابن سويط، والظفير هم بدوْ رحّل يرتحلون في بعض الأحايين في فصل الصيف إلى الفرات، ويمضون فصل الشتاء على أطراف نجد على بعد يتراوح ما بين ١٥٠ ميلاً و٢٠٠ ميل جنوباً. وهنا خرجوا من الناحية القانونية من دائرة نفوذ الأتراك و ابن سعدون على حد سواء، ودخلوا ضمن دائرة نفوذ حاكم نجد ابن سعود او ابن رشيد. واعتاد الظفير على تنظيم سياستهم الخارجية وعقد الاتفاقيات التي تناسب مصالحهم مع جيرانهم مثل شيخ الكويت وابن رشيد. ومن المحتمل عدم ممانعتهم من الاعتراف بالسلطة العائمة لابن سعدون على الفرات.

غير أن احترام قبيلة ترتحل في الصحراء بحرية لعائلة نبيلة من على بُعد، يختلف تماماً عن الإخضاع لأمير متغطرس يعيش بينهم. فعندما حاول سعدون بن سعدون الابتعاد عن الأتراك التحق بالظفير في الصحراء، وهنا أصبح الصدام لا مناص منه بينه وبين ابن سويط شيخ الظفير. واستخدم سعدون الطريقة نفسها التي اتبعها الأتراك لإضعاف عائلته، لإحكام سلطته على الظفير. فتحالف مع شيخ صغير من القبيلة ضد ابن سويط للظفر في مركز شيخ القبيلة الأعلى، وليس ذلك فحسب، بل دعا ابن رشيد لغزو الظفير لكي يضعف قوتهم. لاشك أن مثل هذا

الأسلوب أساء إلى الظفير، ولكنه أثار أيضاً معارضة حادة لابن سعدون، بحيث لم تعد الصحراء مكاناً آمناً له. فبعد فراره إلى الصحراء هرباً من الأتراك تحتم عليه العودة إلى المناطق الحضرية والاستسلام لهم لكي يحمي نفسه من استياء الظفير. كان رجلاً متقلب الشخصية، ذا شجاعة وطاقة هائلتين، ولكن غطرسته أبعدته عن الأصدقاء. فما كان من الحكومة العثمانية إلاّ أن رحلته إلى حلب وهناك توفي بعد ترحيله بفترة قصيرة.

كان المنتفق في هذه الحالة من الفوضى عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، وكان الأتراك متمسكين بإحكام بقاعدتهم في الناصرية، إلاّ أن سيطرتهم على القبائل المحلية كانت مزعزعة، وتأثيرهم في الصحراء شبه منعدم. وعند وصول البريطانيين إلى البصرة وتقدمهم باتجاه الناصرية حتى وصلوا سكة الحديد، أعلن ابن رشيد تأييده للأتراك وكذلك فعل عجمي بن سعدون السعدون، بينما انسحب الظفير إلى الصحراء بمنأى عن المشكلات.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، اندلعت اضطرابات في العراق عام ١٩٢٠، وهي التي كانت السبب المباشر لتعييني في العراق. وشكلت أول حكومة عراقية سنة ١٩٢١، ونُصِّب الأمير فيصل ملكاً. والتجأ عجمي باشا السعدون إلى الأناضول مع الأتراك، وأصبح ابن سعود، كما ذكر سابقاً، الجار الجنوبي المباشر للعراق.

مع تلاشي تمرد عام ١٩٢٠ تدريجياً وتشكيل أول حكومة عراقية، جاء يوسف بن سعدون لتسويق فكرة تُراوده وهي أن يبسط قوته في الصحراء، كما حاول والده وجده في الماضي. كان ابن سلالة أُمراء ليس لديه أتباع ولا أموال. فأسرع يوسف بن سعدون إلى بغداد في خريف سنة ١٩٢١ ليعرض فكرته وخدماته على الحكومة التي اقتنعت بعرضه أو بهرت بسلالته. فمُنح راتباً، وطُلب منه تشكيل قوة البادية مع تكفل الحكومة لكل مصاريفها، وطلب منه توظيف بدو في هذه القوة. وعاد يوسف إلى المنتفق تحدوه نشوة عارمة.

وكاد الظفير يكونون البدو الوحيدين الذين يمكن توظيفهم في قوة البادية، ولا شك أن يوسف السعدون تجاوز شيخهم حمود بن سويط عن قصد نتيجة للتنافس العائلي منذ القدم، وبفعل الحكومة الأحمق أصبح التصادم بين يوسف السعدون وحمود السويط يتعذر اجتنابه. غير أن يوسف السعدون أصبح الآن في مركز التفوق على حمود السويط، لأن الحكومة تدعمه بالمال والأسلحة، فاتجه حمود السويط إلى نجد يشكو إلى ابن سعود حاله، وكان ابن سعود قد انتصر حديثاً على ابن رشيد وأصبح سيّد وسط الجزيرة العربية. كان وضع الظفير على غير ما يرام، فهم يقطنون في فصل الصيف أطراف الفرات ويتزودون بالمؤن من مدنها الواقعة تحت سيطرة حكومة العراق التامة، وفي فصل الشتاء ينتشرون في الصحراء بحثاً عن الكلأ إلى بعد يتراوح ما بين ١٥٠ و٢٠٠ ميل، الأمر الذي قد يعرضهم لغزو ابن سعود. فإن أي نزاع أو

خلاف بين ابن سعود والعراق سيعرّض الظفير لاستياء أحد الطرفين أو كليهما .

في غضون ذلك انقضت قبائل ابن سعود فجأة على قوة البادية التابعة ليوسف السعدون وكادت تبيدها بالكامل . وبعد أن أبعدت الحكومة العراقية حمود بن سويط بدعمها يوسف بن سعدون، تخلت في مايو/ أيار ١٩٢٢ عن مساندة يوسف، وعلى نحو مفاجئ مثلما قدمت له الدعم قبل عام، وأوقفتْ مخصصاته المالية وأمرته بتسريح قوة البادية فوراً، هذه القوة التي كان للتو قد كوّنها بأوامر من الحكومة . وبعد أن أمضى صيف ١٩٢٢ في بغداد يطلب التعويض دون جدوى، غادر يوسف السعدون إلى أواسط الجزيرة العربية تعتريه نوبة من الغضب الشديد . وقد نجحت حكومة العراق، باستخدامها الضربات السياسية، في تنفير زعيمي الصحراء الجنوبية، في الوقت نفسه الذي حقق فيه ابن سعود انتصارات مبهجة وأصبح جارها .

لمدة قرنين كانت عائلة السعدون ذات وضع اجتماعي يقرب من وضع آل سعود، وعندما قام يوسف بن سعدون بزيارة ابن سعود في الرياض، قابله الأخير باستقبال شبه ملكي وأكرم وفادته، وفي هذه الأثناء عاد حمود بن سويط إلى العراق والتحق بقبيلته الظفير مرة أخرى .

غير أن يوسف السعدون فشل في الحصول على وظيفة عند ابن سعود، وقيل إنه كان يأمل بإعطائه قوة يغزو بها أعداء ابن سعود . وفي أوائل صيف ١٩٢٢ غادر الرياض محملاً بالهدايا متجهاً إلى العراق، ولكنه لازال يضمر الكره الشديد لابن سويط وقبيلته الظفير، تلك القبيلة التي ثارت على أبيه وجده .

لقد مرّ شتاء ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ على الصحراء الجنوبية وهي تعيش في هدوء وسلام، وعند عودة يوسف السعدون من زيارته للرياض، وجد كثيراً من قبائل ابن سعود ترعى قطعانها بسلام على الحدود العراقية، فحاول إقناع هذه القبائل بغزو الظفير زاعماً أن ابن سعود أمره بالقيام بهذا . إلاّ أن معظم شيوخ القبائل الرئيسة رفضوا ذلك، فما كان منه إلاّ أن نجح في إقناع بعض الشيوخ الصغار وجمع ما يقرب من ٢٠٠ بدوي، جلّهم من قبيلة مطير طمعوا في الحصول على الأسلاب المتوقعة . وباستخدامه هذه القوة باغت مضرباً لفريق من الظفير يبعد ٥٠ ميلاً إلى الغرب من البصرة في مكان يسمى «كابدة»، واستولى على عدد كبير من إبلهم .

وعندما رأى الظفير أن مهاجميهم يعتمرون عمائم الإخوان البيضاء، لم يدر بخلدهم أن هذا ليس إلا عمل عدوهم القديم يوسف السعدون، فالتجؤوا إلى أطراف بساتين النخيل التي لا تبعد سوى أربعة أميال عن الناصرية، ووقع هذا الهجوم بعد وصولي مباشرة إلى هذه البلدة لأول مرة .

وحدث أنه بعد يوم من وصول بعض ضحايا اعتداء يوسف السعدون على الظفير إلى منطقة بساتين النخيل، كنت أتجول ممتطياً جوادي على بعد ٢٠ ميلاً جنوب شرق الناصرية، وبالقرب

من سكة الحديد، وكان يرافقني علي اليونس، خادمي الخاص، وشاب شمري يتيم لاجئ من حائل، حيث كان الإخوان قد قتلوا والده في الهجوم الذي شنه الوهابيون على حائل، واسم هذا الشاب مبارك، وكان شاباً ضعيف البنية رفيعاً وشهماً، وهذه أحياناً سمات الشاب النجدي. وقد لاحظنا بالقرب من تل اللحم قطعاناً من الإبل تبدو طافية فوق السراب، فقد كانت ظهيرة شديدة الحرارة، هواؤها لاهب كالأتون، ولم نلحظ وجود أي مضارب بدوية بالقرب منا، فأرخينا أعنة خيلنا وحرفناها باتجاه هذه القطعان. وأخذت خيلنا تخب، لكي نتحقق مما رأيناه. وكان هناك منخفض يفصل بيننا وبين الأشياء التي شاهدناها تتحرك وسط السراب. وعندما حثثنا الخُطا متقدمين نحوها وولجنا المنخفض، أصبحت خارج مجال رؤيتنا، وعندما صعدنا حافة المنخفض رأيناها مرة أخرى. ولم تكن المسافة بيننا سوى ٤٠٠ متر تقريباً. ولاحظنا بشيء من القلق أن هذه الجمال ليست قطيع إبل ترعى بسلام، بل هي ٢٠٠ جمل تقريباً كلها مجهزة، وهذا لا يترك مجالاً للشك بأنهم غزاة. وكان بمقدورنا أن نطلق العنان لجيادنا لتنطلق بأقصى سرعة، ومن المعروف أن سرعة الجياد لا تقارن بسرعة الجمال فالأولى تتفوق على الثانية، ولم نشاهد أي جواد مع المجموعة الغازية، غير أنه كان من الواضح أنهم قد رأونا، وانتابني شعور بأننا سنفقد كرامتنا إذا ما حاولنا الهرب أمامهم، خاصة ونحن بين سكة الحديد والنهر ولا نبعد عن مركز قيادة المنطقة سوى ٢٠ ميلاً. كان وجود غزو بدوي حقيقي في مثل هذا المكان يبدو لي غير معقول إطلاقاً. وشعرت أنه لابد من تفسير لذلك، وكنت متلهفاً لمعرفة تفسيره. وعند اقترابنا لاحظنا خيمة صغيرة بيضاء وقد نُصبتْ وسط قطيع من الإبل ترعى، وبقربها رُكز عمود طويل يلتف في أعلاه علمٌ، وواضح أنه راية الحرب.

ورأينا مجموعات كبيرة من الرجال، بعضهم جلوس وآخرون مضطجعون على الأرض، وعندما اقتربنا منهم أكثر، قال مبارك فجأة وبصوت خفيض: «إنهم الإخوان! انظر إلى عمائمهم». ويمكن التعرف على الإخوان بسهولة، وحتى للذي يجهلهم لهم صفات تميزهم من غيرهم، فهم لا يضعون العقال على رؤوسهم كما يفعل معظم أفراد القبائل، بل يضعون عمائم بيضاً على رؤوسهم. إضافة إلى أنهم يقصرون شواربهم ويطيلون لحاهم. وكان الوهابيون يصرون على أنهم يقتدون بالنبي [ص] فقد نقل عنه أنه كان يقصّر شاربه (٢٣). والإخوان مراؤون مثل الفريسيين(٢٤) الذين يتعففون عن أكل الجرجسة الصغيرة لكنهم يبتلعون الجمل ابتلاعاً، فهم يقصرون شواربهم كالتزام ديني، ولكنهم يرتكبون المذابح ضد إخوانهم المسلمين.

(٢٣) يقصد الكاتب الحديث الشريف: «احفوا الشوارب واعفوا اللّحى ولا تشبهوا باليهود». أورده السيوطي في جمع الجوامع ـ ج١، ص٢٤٥. [المترجم]

(٢٤) الفريسيون: هم طائفة من يهود عهد المسيح (عليه السلام) عرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة. [المترجم]

كنت وقتها أعرف القليل عن البدو وأقل عن الإخوان، وقد سمعت أنهم يقتلون كل إنسان ذكر إذا لم يكن منضوياً تحت لوائهم. كنت أعزلَ، غير مسلح، بينما كان علي اليونس يحمل مسدساً، وكان مبارك يتقلد بندقية، ومع ذلك فوَضْعُنا التسليحي لم يكن متكافئاً مقارنة بهم، ولكننا قد أخترنا هذا السلوك، بخيره وشره. فأبطأنا جيادنا وتراصصنا بصف واحد، وشققنا طريقنا بجرأة بين الإبل الراتعة ومجموعات الإخوان إلى الخيمة. ولكن ها هو يوسف السعدون يخرج عند ترجلنا وهو يعتمر عمامة بيضاء وترتسم على محياه ابتسامة رقيقة! ولم أرَ يوسف هذا من قبل، ولكن لباسه السعدوني التقليدي، ولهجته، ومظهره - على الرغم من لبسه العمامة - جعلتني أكتشف شخصه في الحال.

وكان يوسف يتصور بطبيعة الحال أنني جئت لأفاوضه نيابة عن الحكومة، مع أنني كنت حريصاً على تأكيد عكس ذلك. غير أنني عبّرت له، وباللباقة التي تستدعيها ظروفنا، عن اندهاشي من تصرفه هذا، ونصحته بالذهاب إلى الحكومة في الناصرية. وفي غضون ذلك فإن مرافقي مبارك، الذي ينتمي إلى قبيلة شمر كما ذكرت آنفاً، والذي لا يضمر الحب للإخوان، كان على وشك إشعال شرارة حادثة لا تحمد عقباها خارج الخيمة وكان من الممكن أن تكلفنا أرواحنا. فقد تجمعت مجموعة من الإخوان المعممين حول مبارك وعلي، وهمّ أحدهم بالقول إن باستطاعتهم ذبح كل العراقيين ونهبهم وسلبهم متى أرادوا ذلك، وأضاف موجهاً كلامه إلى مبارك: «ولكن لا تخف، فلن نؤذيك الآن، إننا نبحث عن الظفير».

وفجأة أخذ الشرر يتطاير من عيني مبارك، واتسعت فتحتا أنفه صارخاً عليهم: «يجب علينا أن نقتلكم يا كلاب ونحولكم إلى كومة من الجثث بعضكم فوق بعض كالكلاب». وامتدت الأيدي إلى الخناجر والأصابع إلى أزندة البنادق وسرعان ما تدخل يوسف السعدون وأخمد نار الفتنة وجنبنا شر لحظة عصيبة.

وعندما غادرنا الإخوان، ارتفعت صيحاتهم مهللين بصوت جهوري: «لا إله إلا الله، لا إله إلاّ الله»، لكأنهم يستنزلون علينا نقمة السماء لوجود «كفار» في معسكرهم. وانطلقنا وسط تجمعهم ونحن نتحدث إلى بعضنا متظاهرين بأننا لا نعبأ بهم، ولكن ما إن اجتزنا سلسلة تلال خفيفة وتواروا عن أنظارنا حتى حثثنا جيادنا قاصدين الناصرية.

كان وصول الغزاة الإخوان المفزعين بالقرب من الفرات وفي موقع لا يبعد سوى أميال قليلة عن الناصرية أمراً مذهلاً يدق ناقوس الخطر، وأظهر في الحقيقة أن الحدود الصحراوية العراقية كانت مفتوحة وغير محمية. فإن كان باستطاعة ٢٠٠ رجل برفقة يوسف السعدون اجتياز سكة الحديد دون أن يلحظهم أحد، فهذا لا يمنع أن يجتازها ٢٠٠٠ رجلٍ من الإخوان وهم رافعون رايات الحرب.

كانت اهتمامات السلطات في الناصرية تتمحور حول إدارة إقليم شاسع يحتوي على مدن وقرى وقبائل، ولم تعرف بوضوح أسباب مشكلات الصحراء. فقررت السلطات إرسال استدعاء رسمي متزامن إلى كل من حمود بن سويط ويوسف بن سعدون يأمرهما بشكل قاطع بالحضور فوراً إلى الناصرية.

وكانت حكومة بغداد قد استدعت حمود بن سويط للحضور إلى العاصمة في العام الماضي، ولكنه قبل ذهابه إلى هناك طلب ضماناً وافقت عليه الحكومة بعدم سجنه، وعند وصوله إلى بغداد أثيرت بعض الشكاوى ضده إذ رفع أشخاص عدداً من الشكاوى عليه وادّعوا أن الظفير قد غزوهم في السنوات الماضية، وحتى في عهد الأتراك أيضاً، وبما أن الحكومة كانت قد وعدت بعدم سجنه، فقد نجح في التملص من مواجهة الشكاوى ضده.

وفي الحالة الراهنة كان بالطبع الجانب المظلوم في القضية، فالظفير هم ضحايا لهجوم يوسف السعدون، غير أن حمود أكان لايزال يتذكر الشكاوى السابقة ضده، لذا طلب مرة أخرى ضماناً من الحكومة بعدم تعرضه للسجن إذا ما حضر للناصرية. وكذلك يجب أن لا ننسى أن الأتراك، الذين كانوا يحكمون المنطقة قبل خمس سنوات، اشتهروا باختطاف شيوخ القبائل ونفيهم إما إلى إسطنبول أو إلى حلب، ليبقوا هناك حتى وفاتهم. غير أن السلطات المحلية في الناصرية استاءت من تطاول شيخ قبيلة بأن يفرض شروطاً على الحكومة. ورأت أنها إذا تنازلت بتقديم مثل هذا الوعد، فسوف يحط ذلك من قدر الحكومة وهيبتها، لذا رفضت رفضاً قاطعاً إعطاءه أي ضمان. وحقيقة الأمر أن السلطات لم تنو إثارة الشكاوى القديمة ضد الظفير ورغبت فقط في معرفة القصة الحقيقية من حمود بن سوِيط حول هجوم يوسف بن سعدون على قبيلته. وبناء عليه كان بإمكان السلطات تأكيد الضمانات له، لو سمح مفهومها لهيبتها بمثل هذه الخطوة، ولكنه لم يسمح لها بذلك لسوء الحظ، وأرسلت أمراً مقتضباً على نحو فظ تطلب منه أن يسلم نفسه دون شروط، وإلاّ اتخذت ضده إجراءات حاسمة. والبدو بطبيعتهم، كحيوانات البرية غير الأليفة، يجفلون من الحكومة ويرتابون منها، وكثيراً ما يحتاجون إلى الملاطفة والدعابة في التعامل معهم. وفي غضون ذلك صدرت أوامر إلى الطيارين ليكونوا على أُهبة الاستعداد لإلقاء القنابل على الظفير، على الرغم من أنهم هم المجني عليهم في هذه القضية.

وأرسلت السلطات استدعاء مماثلاً تطلب فيه مثول يوسف بن سعدون أمامها في الناصرية، وكان يوسف، دون شك، متوجساً خيفة ويخشى على سلامته أكثر من حمود بن سويط، لأنه كان لتوه قد هاجم مضرباً عراقياً وسلبه، وفي معيته قوات من بلد آخر اعتادت في هجومها

على تقطيع الأعناق. ولم يمتثل يوسف للاستدعاء الرسمي الحكومي، بل ارتحل إلى الصحراء، وكأنه ينوي العودة إلى نجد. وعليه أصدرت السلطات أوامر بضربه بالقنابل. ولكي تظهر السلطات عدم تحيزها بصدد مشكلة العداء الشديد بين ابن سويط وابن سعدون - والمستمر منذ مدة طويلة - كانت مساهمتها في حل هذه المشكلة هي إلقاء القنابل على كلا الطرفين.

ولهذه السياسة، في واقع الأمر، فائدة واحدة كبيرة، وهي أنها قابلة للتطبيق دون الحاجة إلى خروج المسؤولين المدنيين المعنيين من كراسيهم في مكاتبهم، التي تدور فوقها مراوح كهربائية لتبريد الجو. ويعدّ ذلك عاملاً ذا أهمية في العراق، حيث تصل درجة حرارته إلى ١٢٠° فهرنهيت في الظل. وفي صباح أحد الأيام أقلعت أربع طائرات من الشعيبة وألقت قنابلها على جماعة يوسف الغزاة بالقرب من كابدة. بينما كان يتعين على أربع طائرات أخرى أن تهبط في الناصرية للتزود بالوقود لكي تهاجم حمود بن سويط، إلاّ أنه عند وصولها إلى الناصرية ظهر تعقيد، لأن إبل الظفير منتشرة ترعى في المكان المخصص لهبوط الطائرات. وأصبح من الصعوبة بمكان القيام بعمليات إلقاء القنابل عندما يصر «الأعداء» على التسكع في مطار الطائرات التي تقوم بالقصف. في الوقت نفسه، خطرت فكرة لحمود السويط وأراد تنفيذها.

فعلى بعد أربعة أميال من الناصرية كان يسكن «مَنْشَد الحُبَيِّب» شيخ عشيرة نهرية تسمى آل غزي، لكن على الرغم من عدم أهمية عشيرته، كان منشد هذا رجلاً ذا شخصية لطيفة، إضافة إلى كونه عضواً في أول مجلس تأسيسي عراقي في بغداد. فارتحل حمود ونصب بيت الشعر ملاصقاً لبيت منشد الطيني. هنا أصبح إلقاء القنابل على بيت حمود معناه قصف بيت منشد، وهذا من المستحيل القيام به.

قام الشيخ منشد بدور الوساطة بين حمود بن سويط والسلطات في الناصرية، وأوضح الحقيقة بأن حموداً كان مظلوماً ولم يرتكب أي أخطاء. ولكن جهوده ذهبت سدى ووصلت الأمور إلى طريق مسدود، وبعد بضعة أيام ألقيت قنابل على بيوت الظفير المتناثرة على بعد أميال قليلة، ولم يعلم أصحاب هذه البيوت شيئاً عمّا يجري من أمور ولم يدركوا أن حمود السويط في ورطة مع الحكومة. أدرك حمود بن سويط فيما بعد أن لا آمال معلقة على وساطة منشد الحُبَيِّب، وأن الطريق أصبحت غير سالكة أمامه، فترك عائلته واصطحب اثنين من أتباعه على الجمال، ميممين وجوههم شطر الصحراء، واتجه ابن أخيه وابن عمه إلى الناصرية لتلقي أوامر الحكومة، فأعلنت الحكومة أن حموداً خارج على القانون.

وكما ينبغي فقد ألقيت القنابل على يوسف بن سعدون، فوجد أن أحسن السبل للخلاص هو الاتجاه إلى نجد. وبينما هو في طريقه إلى نجد قابل بدوياً قادماً من وسط الجزيرة العربية أخبره بأن ابن سعود يشتاط غضباً على ما قام به من غزو دون تفويضه بالقيام به، وأنه أرسل قوة

من الرجال أهل نجائب لاعتقاله وتقييده بالسلاسل وجلبه إلى الرياض. وأصبح ملاحقاً من حكومة نجد ومن حكومة العراق، فقرر العودة إلى الأخيرة، وعاد وحده من الصحراء وعند وصوله إلى محطة قطار صغيرة، استقل القطار المتجه إلى بغداد مباشرة دون أن يلاحظه أحد، وسلّم نفسه للسلطات طالباً الرحمة. ولم تمنحه الحكومة العفو فحسب، بل قيل له أيضاً إن أيّاً من كان في معيته من الإخوان الذين شاركوا في الغزو سوف يمنح الحماية والعيش في العراق إذا ما هددهم ابن سعود بقواته.

كان ابن سعود يرغب في معاقبة الإخوان لغزوهم العراق وكان تصرف حكومة العراق بمنحهم الحماية من سلطة ابن سعود غير حكيم. كان هذا التصرف أحد أسباب حرب الحدود التي اندلعت بين حين وآخر خلال السنوات السبع اللاحقة. وبعد أيام قليلة وصل ابن سعدون إلى الناصرية قادماً من بغداد، بعد العفو عنه وتكريمه وتقريبه من السلطات مرة أخرى، وأرسل إلى أصحابه الإخوان الذين شاركوه الغزو والذين يلاحقهم ابن سعود لإخلالهم بالأمن، واستجابة لدعوته، لجأ الإخوان إلى العراق، وخيّموا بالقرب من الناصرية ورموا عمائمهم البيض معلنين أن مذهبهم الوهابي ما هو إلا نفاق تام، وأعلنوا تكريس ولائهم للعراق.

وهكذا يتمتع كل الغزاة، وهم غرباء ما عدا يوسف السعدون، بمحاباة الحكومة العراقية وتأييدها، بينما أصبح الظفير، القبيلة العراقية التي كانت ضحية لهجوم الإخوان، في وضع مهين، وعُدّ زعيمهم حمود بن سويط خارجاً على القانون ومعتزلاً في الصحراء. في الحقيقة، إن دورة دولاب الحظ في الصحراء الجنوبية عجيبة. ولم تنته الحكومة بعد من صب جام غضبها على حمود ـ وهو غضب يجب الاعتراف بأن وراءه يوسفَ السعدون، المتحدر من سلالة أُمراء، السياسي الحاذق الذي يعرف كيف يتعامل مع المحاكم. وكان حمود بدوياً أمياً بسيطاً يخشى الجو غير المألوف في المدن والمكاتب الحكومية.

كان هناك شيخ من الظفير أقل مرتبة من ابن سويط[٢٥]، اسمه «لزّام أبا ذراع» (و«أبا ذراع» اسم يدل على شرف محتد هذه العائلة). وكان لزام ظاهرة نادرة، فهو بدوي بدين، ولا يعلم أحد كيف استطاع ذلك لأنه مدقع في فقره. وكان رثّ الهيئة.

وعلى المستوى الشخصي كنت دائماً أحبه، إذ كان يتميز بالدعابة والدهاء. ولدى العرب طريقة لطيفة عندما يعدونك بعمل شيء يقولون: «على رأسي» أو «على عيني». لا أستطيع تمالك نفسي من اجتناب الضحك كلما تذكرت الشيخ لزّام الطاعن في السن (كان في العقد السادس من عمره) وهو جالس في بيت الشعر بثوبه الرث وعباءته المهلهلة وأنا أُلقي عليه

(٢٥) من المعروف أن قبيلة الظفير تنقسم إلى جذمين كبيرين هما البطون والصمدة. وشيخ شمل القبيلة هو ابن سويط، بينما أبا ذراع هو شيخ جذم الصمدة.

محاضرة عن ضرورة منع الغزوات. وعندما أنهيت المحاضرة، نظر إليّ نظرة وقار قائلاً: «أوامرِكْ على هالْخَشْم (الأنف)» [أي سوف أقوم بتنفيذ أوامرك بكل سرور] وأظهر استعداده للعملَ رافعاً سبابته إشارة إلى أنفه المكعبر.

وفي مناسبة أخرى، ارتكب أتباعه، على نحو غريب، قطع الطريق بشكل عنيف بهدف السرقة، فبالغ في إعلانه الجازم عن ولائه، وقام بخلع كوفيته [شماغه]، فانكشف شعره المجدول، وصاح بصوت عال موجهاً كلامه إلى كل المجتمعين قاطبة في مجلسه: «تراكم شهود يا رجاجيل، أبغي أشتريَ خوذة، تراني رجّال إنجليزي».

وفي هذه الأثناء، أصدرت الحكومة قراراً مفاجئاً تم بموجبه تعيين الشيخ لزّام زعيماً أعلى للظفير. لقد كان العثمانيون يمارسون على نطاق واسع سياسة زعزعة النظام القبلي وتأجيج الصراع بين الشيوخ المتنافسين، والآن تأتي الحكومة العراقية ـ العربية ظاهرياً ـ وتحاول اتباع السياسة نفسها، مع العلم أن العثمانيين كانوا أكثر مهارة. فقد جرت العادة أن العرب لا يعطون الأولوية في المشيخة للابن الأكبر، فإذا توفي شيخ القبيلة وابنه غير قادر على تولي مهام المشيخة، يأتي إلى سدة المشيخة أخوه أو ابن عمه، أي يجب أن يكون خليفته من العائلة نفسها. وكان بإمكان الحكومة أن تعيّن فرداً من عائلة آل سويط بديلاً من حمود، ولكن لا يجوز أن تعيّن شخصاً ليس من عائلة الشيخ.

غير أن هذه القصة المدهشة عن سوء الإدارة لا يجب أن تسبب شجباً كاملاً للمسؤولين في بغداد والناصرية. إذ يعود الخطأ بدرجة كبيرة إلى النظام نفسه، الذي كان بموجبه يكلف موظف بإدارة منطقة واسعة ذات كثافة سكانية، وإضافة إلى ذلك تعهد إليه المسؤولية عن حوالي ١٥ ألف ميل مربع من الصحراء يقطنها بدو رحَّل. وكادت المنطقة المذكورة تكون غير مستكشفة على الإطلاق، ولم يعرف سوى القليل عن القبائل القاطنة فيها، وكأن رئيس بلدية لندن المنهمك في شؤون مدينة عظيمة، يكلف في الوقت نفسه بالمسؤولية عن الملاحة وحقوق الصيد في بحر الشمال، فليس لديه الوقت للذهاب إلى هناك، وربما يقبل نصيحة أول غريب مقنع يدّعي أنه خبير بالمنطقة. وفي الصحراء الجنوبية كان يوسف يطمح إلى شغل وظيفة مستشار الحكومة لشؤون الصحراء.

الفصل الرابع

الخطوات الأولى في الصحراء

الخطوات الأولى في الصحراء

بعد أسبوع أو أسبوعين من تعيين «لزّام أباذراع» شيخاً أعلى للظفير وصلتني منه رسالة مستعجلة، وأنا في الناصرية، يحملها بدوي يمتطي جملاً، ويلبس أسمالاً بالية، وتتضمن الرسالة شكوى ضد فخذ القواسم (الجواسم) من الظفير، حيث كانوا على وشك الهجوم على لزّام ويرغب في دعم رسمي ضدهم. وهذا الوضع يحرج الحكومة خاصة أنها قد نصبته قبل أيام قليلة زعيماً أعلى للقبيلة كلها، لذا فإن السلطات لا ترغب في أن يشق أتباعه عصا طاعته ويعادوه.

والمفارقة أنه لا أحد يعرف أين تقطن القبيلة، فالصحراء لم تكن مكتشفة بعد ولا توجد بها خرائط، وعندما ترحل القبيلة من منطقة الفرات فإنها تتوارى في فضاءات الصحراء، ومن النادر أن تعرف الحكومة عن مكان وجودها أو أخبارها إلى أن تعود إلى ضفاف النهر بعد ستة أشهر أو سنة.

كان من المفروض في تلك الأيام، كما هي الحال الآن، أن تهبط الطائرات أو تقلع فقط من المطارات. وقبل بضعة أسابيع حاولنا أن نجرّب الهبوط في قطاعات صحراوية منبسطة مفتوحة، وقد اخترنا مواقعها أثناء الطيران في الجو ومن غير استكشاف مسبق عن مدى صلاحية تلك الأرض للهبوط. ولو تم الهبوط على هذا النحو بشكل منتظم وعلى نطاق واسع، فبلا شك سيسهل ذلك عمليات السيطرة من الجو، لأنه قبل تدخل القوات الجوية لقمع أي اضطرابات، سيكون هبوط طائرة ممكناً في منطقة مفتوحة وبالقرب من بؤر الاضطرابات، وتكون الفرصة سانحة من خلال هذه الطريقة لضابط الاستخبارات لاستجواب السكان والحصول على آخر المعلومات عن الوضع. وتلك العمليات لا تخلو من المخاطر:

ـ أولاً لأنه من الصعوبة بمكان التأكد والطائرة في الجو من أن الأرض منبسطة جداً وتصلح للهبوط عليها بأمان.

ـ ثانياً: قد يكون هبوط الطائرة على سكان معادين مما يعرضها لفتح نيرانهم عليها قبل إقلاعها ثانية.

على الرغم من هذه المخاطر إلاّ أن هذه الوسيلة تستحق محاولة تجربتها وكما شرحت في الفصول السابقة فإن مشكلة كيفية الحصول على معلومات في أوضاع متغيرة، وكيفية تحديد الأصدقاء من الأعداء تبدو لي عقبة كأداء أمام استخدام الطائرات في الأمن الداخلي في المناطق القبلية، خاصة عندما تقطن القبائل الموالية والمعادية متجاورة أو مختلطة.

وبالنسبة إلي فإن شكوى لزّام على القواسم قد تكون فرصة سانحة لممارسة هذه التكتيكات الجديدة، وعليه فقد تطوعت بأن أطير إلى الصحراء وأهبط عند القبائل لأتحقق ممّا حدث، وقبل المسؤولون الحكوميون المحليون اقتراحي بابتهاج.

كانت هناك طائرتان من نوع «دي هافيلاند نيناك» De Havilland رابضتان في مطار الناصرية، وكان «غرنفيل» Grenfell قائد السرب قد أبدى استعداده للقيام بالمهمة، فقفزتُ إلى قمرة الطيار وجلست خلفه، وانطلقت بنا الطائرة مزمجرة في الهواء.

وأخذت طائرتنا تحلق باتجاه الجنوب الغربي، وعندما عبرنا سكة الحديد كنا نشاهد صحراء شاسعة ذات لون بيجي تمتد تحتنا، تشبه بحراً غير واضح المعالم لا متناهياً. وبعد ٤٠ دقيقة من الطيران شاهدنا تحتنا بعض البقع السوداء الصغيرة واتضح لنا أنها خيام (بيوت شعر) لإحدى قبائل أصحاب الأغنام وليست للظفير تلك القبيلة البدوية من أصحاب الإبل. وتمكنّا من مشاهدة الحمير وهي ترعى بالقرب من تلك الخيام، وخيام أصحاب الأغنام صغيرة الحجم وهم مجبرون على ذلك لأن الحمير لا تستطيع حمل الخيام الكبيرة التي يحملها البدو على جمالهم ونقلها.

ولأننا لا نعرف هذه المواضع، ولا نعرف أين يقطن لزّام أباذراع، فقد طلبت من غرنفيل أن تهبط طائرتنا وأن نستوضح من أصحاب الأغنام عن ذلك. إن مهمة اختيار الأرض المستوية في الصحراء لهبوطنا، وحبس أنفاسنا حتى لامسنا الأرض، قد شغلت فكرنا لعدة دقائق. وما إن توقفت الطائرة تماماً على الأرض حتى قفزت منها ومشيت إلى الخيام. وكنت في الوقت المناسب لأرى الهلع الذي سيطر على هؤلاء الناس، فأخذوا يفرون مسرعين وبطريقة جنونية، وقد ارتعدت فرائصهم وهم يلقون بنظراتهم بين حين وآخر إلى الطائرة الرابضة على الأرض وقد خلت تماماً خيامهم الصغيرة التي لا يتجاوز حجمها حجم السرير الكبير وعددها ما بين الست أو السبع.

وانطلقتُ راكضاً لملاحقتهم ورأيت أمامي ثلاث نساء منطلقات كالسهام، على الرغم من أنهن يرتدين ثياباً سوداً طويلة تصل إلى الأرض وكأنهن مشاركات في مسابقات رياضة الجري ولم أستطع اللحاق بهن. وعلى يميني، رجل في متوسط عمره وقد لف جسمه بثياب بالية، وقد خفّتْ سرعة جريه، لأنه كان يحمل طفلاً على متنه ويجرجر طفلاً آخر لم يتقن المشي بعد، وأحرزت تقدماً بالاقتراب منه بسرعة، فألقى عليّ نظرة مروّعة بالتفاته، وأدرك عدم جدوى الفرار، وفجأة استدار وأخذ يعدو نحوي وحاول رمي نفسه على أقدامي وهو لايزال ممسكاً بالطفلين بإحكام. وأخذ يصرخ بطريقة تفوق الوصف، بشكل محزن ومثير للمشاعر قائلاً: «الرحمة.. الرحمة.. إنهم أطفال» ثم نهض وبجهود مضنية حاول تقبيل أنفي ووجنتيّ.

فبادلته القبلات حتى يطمئن قلبه، على الرغم من وخزات لحيته الكثة، وقلت له إن كل شيء على ما يرام ووضعت ذراعي على متنه وأخذت الطفلة الصغيرة التي تدْرج على الأرض بيدي، ومهما فعلت، فقد استغرقتُ عشر دقائق لإعادة ثقة الرجل المسن بنفسه. وبدأنا نسير بخطوات بطيئة عائدين إلى الخيام الخالية بينما بدأ بعض الأشخاص بالعودة إلى خيامهم من هنا وهناك وهم يراقبوننا بحذر شديد عن بُعد.

وقد تكلمت مع هذا الرجل عن عدد من الموضوعات غير المهمة حتى أهدّئ من روعه. وبعد مدة سألته وبنبرة عادية عن مكان تواجد لزّام أباذراع وقبيلته الظفير، وسمىّ لي مكان وجودهم إلاّ أنني لم أسمع بهذا المكان من قبل ولا توجد لدينا خرائط. وأخيراً طلبت منه أن يشير إلى الاتجاه. وأشار وحددت اتجاه ذراعه بواسطة البوصلة. ومن خلال التجوال لعدة شهور متتالية في صحراء قاحلة متموجة كثيراً ما وجدت أن البدو يمتلكون خاصية معرفة الاتجاهات ويمكن الاعتماد تماماً على معرفتهم تلك، وبمقدورهم تحديد اتجاه الأماكن البعيدة بدقة متناهية.

ودّعتُ صديقي الجديد وداع محبة وقبّلت الأطفال كدليل على نزعة الحكومة إلى عمل الخير. وعدت إلى الطائرة ووجهت قائد الطائرة إلى الاتجاه المنشود وأقلعت بنا الطائرة مرة أخرى. وبعد ١٥ دقيقة طيران شاهدنا قطيناً [مضارب] كبيراً، تحيط به قطعان من إبل ترعى، وعندما حامت الطائرة فوق هذه المضارب استطعت أن أرى عدداً من رجال القبيلة المسلّحين وهم جالسون على الأرض مكونين دائرة كبيرة بالقرب من بيت الشعر الكبير الخاص بالشيخ. وبالقرب منهم ترفرف أعلام حرب ثلاثة والخيل والإبل المعدة للقتال قد أحاطت بالبيت من كل جانب، فكل شيء يوحي بأنهم على أهبة الاستعداد للقتال، ومن المحتمل أنهم يعقدون اجتماعهم الأخير قبل البدء بتنفيذ مهمتهم. ويبدو أن هذه المضارب تعود لأحد الفريقين اللذين

من المرتقب أن يتحاربا، ولكنني لا أستطيع التأكد من أنهم مجموعة لزّام أباذراع أو خصومه القواسم. ولم تكن لي معرفة شخصية بالظفير غير أن السلطات في الناصرية قالت لنا إن جماعة لزّام ودودون، بينما القواسم قد يكونون عدائيين. وفي الناصرية يعتقد الكثير أن الظفير كلهم عدائيون وخارجون على القانون، وفي الحقيقة فإن توحش أصحاب الأغنام الذين هبطت طائرتنا عندهم أول مرة لا يعطي انطباعاً بأن قبائل الصحراء تستقبلنا بمودة وحرارة.

وكانت المشكلة التي تواجهنا هل تهبط طائرتنا في منطقة قبيلة معادية أم لا، فالطائرة على الأرض هدف سهل، وهبوطنا في منطقة لا نعرف تضاريسها قد يؤدي إلى عطب الطائرة يعرضنا للخطر فنصبح تحت رحمة رجال القبيلة المسلحين. وأخذنا نحوم حول الموقع لبضع دقائق آملين من رجال القبيلة إما إطلاق النيران باتجاهنا أو التلويح لنا بطريقة ودودة إلاّ أنهم ظلوا جالسين ولم يُبْدوا أي حركة. عندئذ وعلى عجلٍ كتبتُ ملاحظة لغرنفيل - قائد الطائرة - طالباً منه الهبوط هنا.

ونحن في الجو بدت لنا الأرض وكأنها مستوية ولكن ما إن لامسناها حتى أدركنا أنها تتكون من رمال ناعمة متموجة. وهبطت الطائرة فوق إحدى الأمواج الرملية مرتطمة بمنخفض، ومقتلعة إحدى الشجيرات، وانغمس أحد جناحيها في الأرض ثم استدارت بشدة على شكل زاوية قائمة، وأخيراً توقفت وهي لا تبعد عن كثيب رمل [طعس] (٢٥) سوى أقدام قليلة. وكان عذاب الهبوط كله قد استغرق ثانيتين أو ثلاثاً: من ارتطام إلى ميلان مفاجئ إلى أحد الجانبين إلى اقتلاع الشجيرات، وخلاله كنتُ متمسكاً بمقعدي بكلتا يدي.

والأسوأ من ذلك أن غرنفيل خلال لحظات هذا العذاب قد أوقف محرك الطائرة، التي تحتاج غالباً عند إعادة تشغيلها إلى القائد وثلاثة رجال آخرين، وكانت الطائرات في تلك الأيّام لا يوجد بها مشغل ذاتي بل تحتاج إلى أفراد يديرون مروحتها يدوياً حتى يتم تشغيلها. ها نحن الآن في موقف صعب، فمحرّك الطائرة قد أُوقف ولا يوجد أحد يستطيع مساعدتنا على إعادة تشغيله والأرض لا تصلح لهبوط طائرة أخرى بجانبنا لمساعدتنا في الوقت نفسه، نحن لا نبعد سوى ٣٠٠ متر عن مضارب البدو، ونرى عدداً كبيراً من الرجال متأهبين للحرب.

إن أول شيء يجب علينا عمله هو إعادة تشغيل محرك الطائرة، ونجحنا في ذلك بمعجزة، إلا أن وضعنا المزعزع مَنَحَنا نحن الاثنين، قوة تعادل قوة أربعة أشخاص. وكنت في الوقت نفسه أنظر بحذر إلى مضارب البدو خشية أن يتقدم إلينا رجالها. وأخذت أركض بحثاً عن مكان يصلح لإقلاع طائرتنا. وقد وجدت هذا المكان، ولكن المشكلة لازالت عالقة، فكيف

(٢٥) يسمِّي أهل البادية الكثبان الرملية «طعوس» ومفردها «طِعْس»، وهي محرّفة عن أصلها الفصيح «دُعوص» و«دِعْص». [المترجم]

يمكننا قيادة الطائرة إليه لتشق طريقها خلال الشجيرات وبين الكثبان الرملية، والصعوبات التي ستواجهنا عند قيادتها على الأرض، إنها في الواقع لا تستطيع التحرك إلى الخلف، بل تستطيع التحرك إلى الأمام فقط، وفي حالة الطائرة ذات المحرك الواحد مثل طائرتنا الـ(نايناك) ninak تحتاج إلى مساحة واسعة تدور فيها، ولكي تتجنب الشجيرات وتدور الطائرة بزاوية قائمة حول الكثبان الرملية، يتوجب علينا الإمساك بأحد جناحيها بخفة. وأسرعت إلى الجناح الأيسر وقام غرنفيل بتشغيل المحرك بقوة ودارت الطائرة إلى اليسار، وأطلق غرنفيل صيحة قائلاً: «ادفع الجناح الآخر». كانت الصيحة التي أطلقها غرنفيل وهو قابع في قمرة الطائرة مختلطة مع زمجرة المحرك وانطلقت بأقصى سرعة إلى مقدمة الطائرة لأقوم بتحويلها وأتحاشى سرعة دوران المروحة، وتحركت الطائرة إلى الأمام لبضعة أمتار، ومدّ قائد الطائرة عنقه ليرى بشكل أوضح ما أمامه من أرض، وصرخ قائلاً: «أوقف جناح الطائرة الأيمن».

وثبّت قدميّ باستماتة حتى غاصت في الرمال، وأطبقت أسناني، وبذلت كل ما في طاقتي من جهد بالضغط على طرف الجناح، فزمجر المحرك مرة أخرى ودارت الطائرة حول طرف كثيب رملي يعيقنا. وأثارت الطائرة زوبعة رملية غشتنا جميعاً وملأ غبارها أعيننا وأنوفنا وملابسنا.

وأخيراً، عندما خارت قواي، تمكنا من تحريك الطائرة خارج الطعوس ووصلت إلى قطاع صلب يغطيه الحصى، والمحرك لازال يدق دقات خفيفة وغيمة الغبار التي أثارتها الطائرة بدأت تهدأ، والطائرة الثانية لا تزال تحلق فوق رؤوسنا منذرة بالخطر. وفي هذه اللحظة، شاهدنا اثني عشر رجلاً ممتطين خيلهم متجهين نحونا. وعلمت فيما بعد أن رجال القبيلة هؤلاء قد أحسوا بالفزع، مثلنا، عندما هبطت طائرتنا بين كثبانهم الرملية، وقد مكثوا حوالي ربع ساعة يتناقشون فيما بينهم عما يفعلون بشأننا. وهذا أعطانا وقتاً كافياً لتحريك الطائرة بين الكثبان.

ولقد تبين لنا أنهم من القواسم «الأعداء» الذين بدوا بعد هذا كله أنهم أناس مسالمون ودودون. واشتكوا من استبداد لزّام الذي قالوا عنه إنه يقطن على مسافة أربعة أميال عنهم، وكان على وشك الهجوم عليهم، وإن استعداداتهم للحرب كانت محض دفاعية! ووافق شيخ القواسم في النهاية على إنزال أعلام الحرب والرحيل إلى مكان يبعد عدة أميال عن لزّام حتى لا تحدث مناوشات بين الفريقين.

وبهذا وضعنا حداً لهذا النزاع بطريقة مرضية، ومن ثم أقلعت بنا الطائرة عائدين إلى الناصرية، فاحتمال وقوع قتلى وجرحى في معركة قبلية تجنبناه خلال الطيران لمدة ثلاث ساعات.

وهذه الحادثة البسيطة أعطت انطباعاً مغايراً عميقاً بين كل القبائل البدوية في تلك المنطقة، الذين اعتادوا دائماً على أن سلطات الحكومة محصورة فقط على ضفاف النهر وفي القرى والبلدات الحضرية.

لقد أثار أول نجاح أحققه اهتماماتي، وكنت متلهفاً لمعرفة المزيد عن قبائل الصحراء، ففي الناصرية لم أعرف إلاّ القليل عنها، لذا قررت أن أقوم بنفسي برحلة قصيرة استكشافية.

وكانت الخريطة الوحيدة المتوفرة في تلك الأيام لوسط الجزيرة العربية بمقياس رسم واحد إلى مليون (١ : ١,٠٠٠,٠٠٠) ونادراً ما وضحت عليها الأسماء أو التضاريس الطبيعية، عدا قليل من الخطوط المنقطة عبر الصحراء تمثل الطرق التي سلكها مكتشفو الجزيرة العربية العظام أمثال والين Wallin سنة ١٨٤٨، وهوبر Huber سنة ١٨٨١، وبلونت Blunt سنة ١٨٧٩، وليتشمان Leachman سنة ١٩١٢. لا أحد، إن لم يخبر الصحراء، يستطيع تخيل العواطف التي تثيرها آفاقها الزرق البعيدة ولا الإدراك أن أي أوروبي لَم يَرَ أبداً ما تخفيه هذه الآفاق. وكانت الخريطة صمّاء، فلا تعرف ما هي الوديان أو التلال أو الآبار أو القبائل، ولا أحد يستطيع أن يخبرني عن تلك الأشياء.

لقد نجحت في استئجار أربعة جمال، واحد لاستخدامي والثاني لاستخدام علي اليونس، خادمي الخاص، والثالث لاستخدام مرافقي الظفيري والآخر لرجل شمري. وكنت في خشية أن ترفض قيادة الطيران السماح برحلتي المقترحة، لكنهم في البداية اقترحوا أن يقوم الطيران بالاستطلاع مرتين يومياً على أماكننا. ويبدو لي أن تجربتنا في الهبوط في الصحراء قد أثارت اهتمام سلاح الجو الملكي البريطاني. فقيام الطيران بالاستطلاع مرتين يومياً له إيجابياته وسلبياته. فقد منحني شعوراً بالرضا أن قيادة الطيران اعتقدت أننا نقوم بعمل عظيم ويرغبون في تشجيعنا، ولكن للخطة سلبياتها أنه من الممكن أن يتم استدعائي في أي لحظة. إضافة إلى ذلك، فإنني لم أفصح لهم عن نيتي في التوغل في مسيرنا حتى الحدود النجدية. ومن المحتمل أن توقف السلطات مسيرنا ونحن في منتصف المسافة مخافة أن أسبب مشكلة مع ابن سعود.

وبدأنا رحلتنا من محطة تل اللحم في صبيحة يوم من أيام يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٢٤ وسرنا لمدة ثلاث ساعات في صحراء منبسطة قليلاً، ومغطاة بكثافة بشجيرات صغيرة ارتفاعها ما بين ١٢ و١٨ بوصة، وبعدها دخلنا حزاماً رملياً يتكون من كثبان رملية مرتفعة تتناثر على يميننا ويسارنا على امتداد البصر. ولقد تأكدت من أن هذه الكثبان الرملية تمتد على مسافة مقدارها ١٥٠ ميلاً من الشنافية إلى شقراء موازية للفرات وتبعد عن النهر ما بين ١٠ و١٢ ميلاً، وهكذا فهي تشكل حاجزاً فاصلاً يفصل منطقة النهر مع بساتين نخيلها، وقبائلها المتوطنة وشبه المتوطنة، وسكة الحديد والحكومة ومكاتبها وأعمالها يفصلها عن الصحراء المفتوحة، التي تحتضن البدو الرحل، وتمتد حتى البحر الأحمر والمحيط الهندي. ويصل عرض هذا الحزام الرملي أحياناً إلى خمسة أو ستة أميال ويصل ارتفاع كثبانه إلى ٥٠ قدماً. وهذا القطاع هو المنطقة الرملية الوحيدة في تلك الصحراء الشاسعة داخل الحدود العراقية وتتكون البقية من سهوب واسعة منبسطة،

تلبس حلة قشيبة من الأعشاب البرية بعد هطول الأمطار في الشتاء، وفي سنوات الخير عندما يسقط المطر مدراراً تتحول الأرض إلى بساط زاهي الألوان مزركش بالأزهار البرية. إلا أنه في شهر أبريل/ نيسان من كل عام عندما تسلّط الشمس حرارتها على تلك الأعشاب تذبل وتتحوّل إلى تبن وهي في مكانها وتصبح مرعى «جافّاً» جيداً طوال فصل الصيف.

في أوروبا، نجد أن القش المتحول عن الأعشاب، إذا ترك في مكانه ولم يقطع، يصبح غير ذي فائدة حيث يصبح مُبْتلاً ومشبعاً بالماء، أما في الجزيرة العربية، فعندما تصل الأعشاب في نموها إلى أقصى ارتفاعها تتوقف الأمطار فجأة، مما يفسح المجال للحيوانات بأكلها وهي قائمة على سيقانها فتستمتع بغذاء طبيعي.

أول ليلة في رحلتنا قضيناها في الحزام الرملي في ضيافة لزّام أباذراع الشيخ «الحكومي» الجديد الذي اتخذته الحكومة كأداة تتمكن من خلالها السيطرة على الظفير، ولم يكن تعيين لزام نجاحاً للحكومة. وارتحلت القبيلة جنوباً إلى الحدود النجدية مع حمود بن سويط وخشي لزام من اللحاق بهم لئلا يصبّوا جام غضبهم عليه لاغتصابه السلطة. وفي الصحراء فإن حمود بن سويط هو المهيمن دون خلاف على ذلك على الرغم من أن الحكومة تعدّه خارجاً على القانون.

وتشكل منطقة الكثبان الرملية مأوى جيداً، إذ يتوفر فيها الحطب الذي يعد مهماً لرجال القبائل (ونساء القبيلة بالذات اللاتي يعددن جمع الحطب من واجباتهن) ويُعدُّ الجلوس حول النار وتناول القهوة الترفيه الرئيس بالنسبة إلى البدوي، ووفرة الحطب تجعله ينغمس في إشعال النار التي تضفي عليه جواً من الفرح والحبور.

كذلك فإن ضآلة ملابس البدوي، المكونة من ثوب قطني وعباءة، والبرد القارس في ليالي الشتاء في صحراء مفتوحة جعلا إشعال النار ضرورياً. والفائدة الأخرى التي يجدر ذكرها، هي أن سكن هذا البدوي البسيط في المنطقة الرملية يمكنه من الجلوس والنوم على أرض لينة. فلا تجد بدوياً يحمل سريراً، ولا يوجد لدى الكثير منهم فرش أو مراتب، بل يستلقون أحياناً على سجادة مهلهلة على أرض صلبة. لذلك فالنوم على الرمال يعد رفاهية إلا أن هذا الحزام الرملي يصبح غير مرغوب فيه عندما تعصف الريح مثيرة الغبار، فتدخل حبيبات الرمل العين والفم والملابس والطعام على السواء. وفي ظل هذه الظروف تصبح الأحوال بائسة إلى أن تهدأ العاصفة.

في فجر اليوم التالي غادرنا بيت لزام واجتزنا آخر كثيب رملي مع بزوغ الشمس التي انسلت أشعتها على أديم الأرض الشاسعة. وأمامنا شاهدنا أرضاً منبسطة مرصوفة بالحصى وفي وسطها توجد قلعة أثرية. إنها «أبوغار» التي كانت في يوم من الأيام معقلاً لسعدون بن سعدون الكبير الذي كانت الحكومة تعده في وقته خارجاً على القانون، مثل وضع حمود بن

سويط اليوم. ومع هذا عاش بعض الوقت مستقلاً كملك صغير في الصحراء حتى أدى طغيانه إلى تمرد البدو ضده.

وقام سعدون بدعوة ابن رشيد لمساعدته في إخضاع الظفير لإرادته، ودارت معركة على سفح «أبوعجاج» ذلك التل الرملي العملاق الذي كانت تسير عليه نجائبنا. وتزين أشعة الشمس مرتفعات صحراء الحجرة ونسمات الشتاء عليلة نقية كالنبيذ البارد، لقد تركنا حياة المدينة المضجرة وراءنا وحياة الحرية في الصحراء الشاسعة أمامنا، وانفجر مرافقاي البدويان بالغناء [الهجيني] العفوي بصوت عال وغريب، إنه غناء قبائل الصحراء وانحدرت نجائبنا وهي تَعْدو خَبَباً بتأرجح قاطعة السفح الطّويل.

إن هناك شيئاً من الجاذبية العجيبة لهذا الأفق الأزرق اللامتناهي للصحراء والممتد على مدى البصر. والبدوي في تلك الأيام التي تتسم بالبساطة وعدم التعقيد، تجده صامتاً واجماً عندما يسير في شوارع المدينة، وكثيراً ما تجده يسد أنفه بخرقة تحميه مما يعدّها روائح الشيطان المنبعثة من الأماكن التي تعج بالناس. وعندما تصطحب بدوياً كرفيق طريق يبدو لك للوهلة الأولى أنه عابس ومكتئب، ولكن ما إن يجتاز الحقول الزراعية وآخر تجمع سكاني حضري ويكون كل ما حوله صحراء حتى يتخلى عن كآبته. ويبدأ بمداعبة راحلته بعصاه القصيرة المعوجة لتنطلق في خبب مُدهش، رافعاً ذراعيه إلى أعلى ومرفقاه منخفضان قليلاً، بطريقة تبدو يده اليمنى وهو ممسك بهذه العصا القصيرة وكأنه قائد فرقة موسيقية (مايسترو) يعطي إشارة البدء لفرقته بالعزف الموسيقي.

ثم يعلو ويهبط على ظهر بعيره وهو يصدح بغناء الهجيني العجيب، وهو غناء راكبي الإبل، الذي يتناول حياة البادية ومآثرها. وفي هذه الأثناء تنزلق عباءته البنية من على متنه وكوفيته تطير من على رأسه، فيصبح حاسر الرأس فيظهر شعره الأسود، وقد ربطه على شكل ضفائر، مذكراً بمالكة بيت إنجليزية من العصر الفكتوري ذات شعر بمشابك تجعيد.

ويذهل الغريب عندما يجد رفيق الطريق المكتئب والصامت سرعان ما ينفجر ضاحكاً وينادي بفرح متسائلاً: «هل سمعت بغزو ابن علي على عنزة؟» أو «هل تعرف ماذا قال ابن مجلاد يوم الثلج؟». إن نشوة البرية الشاسعة قد أسرت قلبي مرافقيّ الاثنين عندما حثثنا الخطا مسرعين وكأننا في سباق نجتاز أمواج الرمال نحو القلعة الأثرية.

وهبطت علينا ثلاث طائرات من طراز نايناك في أبوغار ومن ثم أقلعت إلى الناصرية وعندما أقلعت أثارت عاصفة رملية فغطتنا غيمة من الغبار. وبعد الظهر امتطينا نجائبنا، وعبرنا بعض التلال الصخرية، وعثرنا على مجموعة من خيام أصحاب أغنام وهم البدور، ومكثنا

ليلة بضيافتهم. والمسافر في الصحراء عندما يشاهد مضارب البدو يختار البيت الذي يود أن يحلّ عليه ضيفاً. وإذا كان هناك شيخ ضمن هذه المضارب فيكون بيته كبيراً، وينصب هذا البيت أمام تلك البيوت الأخرى، لكي يتجه إليه الضيوف مباشرة من الصحراء، بدلاً من أن يتخطوا أطنابها ويشقوا طريقهم بين البيوت الأخرى. ويمكن معرفة بيت الشيخ من كثرة الرجال الجالسين فيه وهم يتناولون قهوته، وهو عبارة عن غرفة الضيافة، والنادي الاجتماعي لهذه المضارب إضافة إلى كونه سكن القائد. وتسكن عائلته ونسائه في النصف الثاني من البيت الذي تفصله ستارة عن النصف الأول المخصص للرجال.

ولا يعبر البدوي المسافر من الطرف الذي يتضمن الجزء المخصص للعائلة من البيت لأنه عادة يكون مفتوحاً وليس من اللباقة والأدب أن يمر من أمام النساء أو ينظر إليهن. لذلك تجده يقوم بالتفافة كبيرة ويأتي إلى البيت من الجهة المخصصة للرجال. ثم يقوم بإناخة راحلته على بعد بضعة أمتار ويقوم بلف عباءته على جسمه، ثم يتجه نحو مجلس الرجال بخطوات متثاقلة، وهم جلوس حول النار ثم يلقي التحية عليهم قائلاً «السلام عليكم»، وعندما يقوم المسافر بنزع الشداد (الرَّحْل) عن ظهر الجمل وحمله إلى بيت الشعر فهذه إشارة إلى أنه ينوي المبيت هذه الليلة.

وحتى إن كان متواضعاً وترك الشداد على ظهر الجمل وكان الوقت عند الغروب، فإن مضيفه سوف يطلب من أصحابه القيام بنقل الشداد من الجمل قائلاً: «هاتوا القشّ يا عيال»، وهذا يعني دعوة الضيف للمبيت.

ولكن مجموعة صغيرة من أصحاب الأغنام، مثل تلك التي مررنا بها، قد لا يكون معها الشيخ، وقد لا يكون هناك بيت كبير. ولكن كبير تلك المجموعة يعد القهوة في بيته ـ دلالة على قيادته لهم ـ وبالنسبة إلى من يقوم بإعداد القهوة التي يجتمع حولها القوم فهي دلالة على الوجاهة، لذلك إذا ما سألت عن أحد تعرفه، فقد يأتيك الرد بأنه كان موفقاً في الحياة حتى إن بيته الآن مقر لتناول القهوة.

أخذنا الأشدة من على ظهور جمالنا وحملناها إلى أكبر بيت في المجموعة ووضعناها على الأرض ثم عدنا إلى جمالنا، وقيدنا الأرجل الأمامية لجمالنا، ولم نضيق قيدها لكي نسمح لها أن ترعى. وتحتاج الجمال الرعي كلما سارت لمسافات طويلة، لذلك من الحكمة أن نتركها ترعى لعدة ساعات خلال رحلتنا الطويلة. واجتمع القوم لسماع الأخبار من الضيوف وقد دهشوا عند رؤيتهم ضابطاً يركب جملاً، وهي خبرة جديدة بالنسبة إليهم ولم تحدث من قبل. قال أحدهم: «عندما رأيت الخروج تتدلى على الشداد ظننته أحد شيوخ السعدون». وقال آخر: «ولكن لم يعد هناك أي من السعدون ولكنني ظننته ابن سويط». وخلف الستارة التي

تفصل مجلس الرجال سمعنا صوت مضيفنا وهو يجادل زوجته في إعداد العشاء لنا، وعدّ مرافقانا البدويان هذا النقاش المسموع غير لائق.

وصباح اليوم التالي اتجهنا جنوباً وعلى يميننا «شعيب لويحظ»، أحد الشعاب الجافة [التي تجري بها السيول وقت الأمطار] وسطح الأرض مليء بأعداد لا تحصى من تلك الشعاب. وتسيل هذه الشعاب أربعة أو خمسة أيام في السنة. وإذا ما سمع البدوي عن سقوط أمطار في الصحراء فإنه يستوقف كل قادم من تلك الجهة سائلاً: «كيف الأمطار هناك؟» و«هل سالَتْ الأرض؟» وتأتي الإجابة: «إي باللّه، لويحظ سال». وبعد كل سيل، يخلف وراءه الغدران «الخباري» الكثيرة في الحجرة وفيَ هذه الشعاب، ويعم نفعها كل القبائل فيشربون ويسقون أنعامهم.

في العاشرة والنصف صباحاً ظهرت لنا الطائرات مرة أخرى في السماء ولكن الطيارين في البداية لم يستطيعوا رؤيتنا. فقطعنا شجيرات بسرعة وأشعلناها فتصاعد دخانها للفت انتباههم ثم طاروا نحونا وأخذوا يحومون فوق رؤوسنا. وعندما كنت أراقب القائد وهو دون شك يبحث عن مكان ليهبط فيه، سمعت أصوات العرب وهم يرددون بهلع: «الله! الله! الله!» فنظرت حولي فاذا بإحدى الطائرات تدور ومقدمتها نحو الأرض وارتطمت بالأرض مثيرة غيمة كبيرة من الغبار، وتركنا جمالنا وركضنا بأقصى سرعتنا نحو الحطام. لقد تناثرت الطائرة إلى قطع لكنها لم تحترق والطيّار مستلق على طرف الجناح لكنه مازال يتنفس وفاقداً الوعي. أما المراقب الجوي، فإنه مصاب في رأسه بجرح كبير، وقد فارق الحياة.

وبمساعدة مرافقي العرب الثلاثة استطعنا انتشال الطيار من الجناح، ووضعته ممدداً على ظهره على الأرض ووضعت وسادة تحت رأسه. إنني أعرفه جيداً ولطالما رافقته برحلاته كمراقب. أما قائد الطيران الملازم طيار جينكنز Jenkins فقد هبط بصعوبة في الصحراء بالقرب منا، وبعد استشارات عاجلة قررنا أن يطير إلى البصرة ويحضر طبيباً، وتوقع أن يعود إلينا بعد ساعتين. وزمجرت طائرته عند إقلاعها مثيرة غيمة من الغبار، وبابتعاده اختفى صوت الطائرة تدريجياً. وجلس العرب الثلاثة المرافقون لي على بعد ٥٠ متراً منه وهم يتحادثون بهمس. وخيّم علينا صمت الصحراء مرة أخرى، ووجدت نفسي أجلس وحيداً في صحراء قاحلة شاسعة ورأس رجل ميت في حضني. وسرعان ما فتح عينيه وهو يغمغم «أعطني ماء من أجل الله» ولكنه يبدو أنه فقد الوعي مرة أخرى، ولم يكن معنا ماء، ولكن في هذه الأثناء أقبل فارسان من البدور ودخن كل منهما سيجارة وحدقا بنا بغطرسة وقال أحدهما للآخر: «إنه ميت».

سألتهما أين تقع آبار بصية، معتقداً أنها قريبة منّا، وبالكاد أشار أحدهما بيده جهة الغرب، دون أن يتكلم، ورجوتهما أن يصبا بعض الماء في قربتي، وبالنسبة إليهما فمن السهولة بمكان أن يذهبا إلى الآبار على ظهري فرسيهما ويجلبا الماء خلال دقائق. لكن أحدهما أجاب بطريقة

حادة بأنهما مشغولان وانطلقا معاً تاركين إيانا، ومن المؤكد أن الحكومة غير مرغوب فيها لدى أبناء قبائل الصحراء. غير أنه بدا لي غريباً أن أصحاب الأغنام كالبدور أكثر عداوة للحكومة من البدو الأقحاح. وبعد دقائق مات الطيّار بين ذراعيّ دون أن يستعيد وعيه. وفي حوالي الساعة الواحدة عادت طائرتان ومعهما الطبيب، وليس هناك من شيء ليقوموا به ما عدا نقل الأجهزة والأسلحة من الطائرة المنكوبة. وخلال ذلك وصل عدد من رجال القواسم، أحد أفخاذ قبيلة الظفير، وتجمعوا حولنا.

لقد هزتني حادثة الطائرة تلك، وأصبحت قلقاً خشية أن استْدعى قبل زيارتي لمنطقة الحدود. وطلبت من قائد السرب ألا يرسل أي طائرة للبحث عني مرة أخرى. كنت أيضاً حذراً بأن لا أخبره إلى أين أنا متجه، وهي خطوة أكثر فعالية من طلبي منه عدم العودة إلينا. فاحتمال أن تجد الطائرة أربعة رجال على جمالهم هو واحد إلى ألف في مساحة ١٢ ألف ميل مربع ليست لها خرائط وتتناثر بها هنا وهناك بيوت شعر البدو وقطعانهم من الإبل والأغنام الراتعة. وكنت آمل من خطتي تلك أن أستغل الوقت لأنفذ ما نويت القيام به. وفي غضون ذلك وصل «حليس بن عفيصان» أحد شيوخ القواسم ودعانا لقضاء الليلة في ضيافته في بيته. وبما أن الوقت كان عصراً قبلت دعوته، وبحزن ركبنا جمالنا. وهؤلاء القواسم هم أنفسهم الذين هبطت طائرتنا بنجاح بالقرب منهم قبل ثلاثة أسابيع عندما كانت أعلام الحرب ترفرف وهم يعدون لهجوم على لزّام. ولسوء الحظ لم تكن تجربة الطائرة في الصحراء بالنسبة إليهم في المرة الثانية من النوع الذي يظهر هيبة الحكومة كما في المرة الأولى.

وجدنا بساطاً مهلهلاً قد مد على الأرض لنجلس عليه بالقرب من موقد نار قهوة حليس. وكان تناول الشاي نادراً عند البدو ومن الترف تقديمه للضيوف. إذا أحضرنا غذاءنا معنا إلى بيت مضيفنا يعد إهانة له، ولكننا لم نتردد في وضع إبريق الشاي الصغير على النار. وفي غضون ذلك ألقى مضيفنا الكريم كلمات الترحيب بنا بصوت مرتفع قائلاً إنها لساعة مباركة. وانشغل بنفسه بتحميص القهوة ودقها.

ويقوم اقتصاد العمل في البادية على أن من واجبات النساء الطبخ الذي يتم في الجزء الخاص من البيت المخصص للنساء بينما يقوم الرجال بتحضير القهوة والشاي في الجزء المخصص للرجال. ويُعد الشاي مشروباً حديثاً نسبياً بينما القهوة موغلة في القدم. ويتم إشعال النار أو تجديدها إذا كانت خامدة في موقد صغير في حفرة قليلة العمق في أرض صلبة مغطاة بالحصى في الصحراء. وتخرج حبات القهوة من كيس جلد ناعم صغير وتوضع في مقلاة [محْمَاس]. وبعد تحميص القهوة توضع في هاون نحاس أصفر [نجْر] من ثم تدق بيد الهاون حَتى تكون مسحوقاً ناعماً ويد الهاون مصنوع أيضاً من مادة الهاونَ نفسها، (في سورية يصنع الهاون ويده

أحياناً من الخشب الصلب). إن دق حبات القهوة فن يجب أن يُتعلّم، فإن من يدق حبات القهوة لا يقوم فقط بسحقها، بل ما بين دقة وأخرى يضرب بيد الهاون جوانبه، وكلما استمر بهذه الطريقة انسابت أنغام منتظمة متناسقة. وعندما يصدح الهاون بنغم يشبه صوت الجرس فهذا يعني أن الشيخ يحضر القهوة، وأنه يدعو الجميع للحضور والمشاركة في تناول القهوة، وهكذا فإن دقات هاون القهوة هي دليل على كرم صاحبها.

وفي الحال غربت الشمس بلون قرمزي متألق مبدلة ألوانها عبر السماء من البرتقالي والأصفر إلى البنفسجي الزاهي في الشرق. وارتفعت أعمدة مستقيمة من الدخان في بيوت الشعر المنصوبة بالقرب منا، ومن على بعد تسمع أصوات غير واضحة للرعاة وهم يقودون إبلهم ببطء عائدين إلى البيوت من المراعي، ونيران المضارب تومض عند الغسق. وكل راع من الرعاة ينادي [يُدوِّه] إبله بنداء [دُوَّاهَه] خاص تعرفه هذه الإبل فتتبع صاحبها، والراعي نفَسه يركب ناقة مسنة [فاطر] وتتبعه الإبل تلقائياً.

واخترقت نداءات الرعاة لإبلهم سكون الصحراء في تلك الأمسية . . . «. . د . و . . و . . . . . د . . و . . و . . . . د . . و . . و . . و . . و . » وأحياناً تتغير هذه النداءات إلى «اب . اب . اب».

وجاء أربعة رجال من زاوية الستارة التي تحجب عنا جزء البيت الخاص بالنساء وهم يتمايلون بشدة حاملين طبقاً ضخماً مملوءاً بالأرز تعلوه شاة مطهوّة وقد ذبحت قبل ثلاث ساعات تكريماً لنا كضيوف، وحسب التقاليد البدوية وضع الطبق على الأرض أمام البيت، وكان مضيفنا حليس مشغولاً بصب مرق اللحم على الطعام وطلب ماء لنغسل أيدينا.

وأخيراً وقف على طوله بعد أن كان منحنياً على طبق الطعام لمدة ليست بالقصيرة، ثم دعانا لتناول العشاء قائلاً: «تفضلوا». وقمنا نحن الضيوف الأربعة، وخطونا إلى الأمام وجلسنا حول الطبق الضخم، وحسرنا أكمام أيدينا حتى الرسغ، وبدأنا تناول الأكل بكلمة: «بسم الله» وغمس اليد اليمنى في الأرز.

ويهتم البدو اهتماماً كبيراً بالتزام دقائق الأمور في آداب تناول الطعام. صحيح أنهم يأكلون مستخدمين أيديهم، وهي طريقة تؤدي إلى التصاق الدهون بأيديهم. وقد يعدّها المتحضرون في بعض الأحايين طريقة مقززة، ولكنهم حريصون على اتباع عاداتهم بقصد راحة الضيف. وهكذا إذا ما شبع شخص ورأى أن الآخرين لا يزالون جائعين فسيستمر في تناول الأكل ولكن بطريقة بطيئة لأنه إذا توقف عن الأكل فسيسبب إحراجاً لزملائه الذين يأكلون معه وبالتالي يتوقفون هم كذلك عن الأكل، وللسبب نفسه يصر البدو على أن يقوم جميع الذين يأكلون عن

الطبق في آن معاً [٢٦] . إذا كانت العادات الحسنة بأن تكلف نفسك ليتناول ضيفك الطعام بارتياح فإن هذه العادات غير المعقدة عادات حسنة .

والغريب أن أهل القرى المتحضرين في فلسطين وسورية كثيراً ما لا يتبعون هذه العادات بل كلما شبع أحدهم قام وظل الآخرون على المائدة، ويقومون واحداً واحداً، وقد يحرجون من يرغب في أن يأكل أكثر . ويضع بعض البدو، وخاصة قبيلة عنزة، الطبق (المائدة) بضعة أمتار أمام البيت، حتى لا يحرج الضيف بأنه يشاهد وهو يأكل [٢٧] .

وبعد فترة نهضنا من المائدة شاكرين مضيفنا : «كثر الله خير المعزّب» . وأصبحت أيدينا اليمنى (اليسرى لا تستخدم إطلاقاً في الأكل) ملوثة بالشحم لأننا استخدمناها بدلاً من الملعقة والشوكة وتحتاج إلى غسيل جيد، عندئذ يصبح الغسيل بالماء والصابون ضرورياً . ولكن الماء يعتبر حاجة نفيسة بالنسبة إلى البدو الفقراء . وإذا كان من الصعوبة بمكان الحصول عليه للشرب فما بالك باستخدامه للغسيل، ففي مثل هذه الحالة يتوجب على الضيوف ان يمسحوا أيديهم بطرف البيت .

إن الشعور بالراحة بعد تناول وجبة شهية يعد إحدى الحقائق المؤثرة في تركيبة جسم الإنسان يزعج على الأقل أولئك الذين يدعون إلى تفوق الروح على المادة . وخفف التمدد بالقرب من النار أوجاع أطراف جسمي، وأراحنا تناول الأرز مع قطع اللحم، وخفّف وقع مأساة ذلك اليوم المؤلم . وتحلقنا حول موقد النار وجمره الملتهب، نتجاذب أطراف الحديث حول حياة الصحراء مع ناس ودودين ملتحين .

وأخيراً نهضنا من مجلسنا ومشينا بضعة أمتار في الصحراء، ثم لففت عباءتي على جسمي واستلقيت على الأرض لأنام وكنت منهكاً، لكنني لم أستطع النوم وأخذت أحملق في النجوم الزاهرة . وانشغل فكري بخبراتي الجديدة؛ فعلى الرغم من إدمان هؤلاء الناس على العنف وإراقة الدماء، وتفشي القمل في ملابسهم، وتناولهم الطعام بأيديهم، إلا أن هناك شيئاً جذبني إليهم : هل هو مجرد بعدهم تماماً عن التعقيد؟

ان البدو الرحل فقراء، بل فقرهم مدقع حسب مفاهيم الغرب، ومع ذلك ليست لديهم أي

(٢٦) يذكر داود الشريان (جريدة **«الحياة»** اللندنية في ٢٥/ ١/ ١٩٩٩م) أنه «في بداية حكم الملك عبدالعزيز دعته إحدى القبائل لتناول طعام الغداء . وكان الناس قد اعتادوا في بعض قبائل الجزيرة العربية أن يتوقفوا عن الأكل إذا توقف الضيف حتى لو لم يشبعوا فإذا قام الضيف وقال : أنعم الله عليكم، قام الجميع إكراماً له وهم يتضورون جوعاً، أو في أنفسهم بقية من طعام .
حين هم الملك عبدالعزيز بالقيام التفت إلى الناس وقال لهم : «تراه من اليوم سعودية، لا يقوم منكم إلا من شبع من طعامه» . [المترجم]

(٢٧) والظفير يعدون مائدة وجبة العشاء عن البيت ويطفئون النار إذا كانت مشتعلة حتى لا يُشاهد الضيف وهو يأكل فيسبب له نوعاً من الإحراج . ويُترك الضيف وحيداً على المائدة لا يُشاركه أحد لكي يأخذ حريته كاملة في تناول الوجبة . [المترجم]

رغبة في أن يصبحوا أغنياء، وليس لديهم الطموح لتغيير نمط حياتهم، ولم يدركوا أن فقرهم يجعلهم أقل مرتبة من غيرهم من المجتمعات الأخرى، وعلى النقيض من ذلك فإنهم يعدّون أنفسهم صفوة الجنس البشري. إن الذين نشؤوا في ظل الحضارة المادية يعدون عدم وجود رغبة في الثروة مؤشراً على فقرهم الروحي المقيت. وقد ينظر الأوروبيون إلى هؤلاء الناس على أنهم غير قادرين على مسايرة التقدم العصري. ويعدّون جنساً بشرياً دونياً يجب أن يُفنَى.

ومع ذلك عندما تعرف هؤلاء الناس يتأكد لك أنهم أهل بعد روحي، وفخر، وشجاعة، ولديهم روح المبادرة وأنهم متخلفون فقط لأنهم لم يستوعبوا بعد المبدأ القائل إن جمع المال هو أهم هدف في الحياة. إن البدو لهم قابلية تبني وجهة النظر هذه كنتيجة لاتصالهم الحضاري، ولكن عندما تعرفت عليهم جيداً فإن ظروف حياتهم عزلتهم عن عدوى هذه الأفكار. ولم يدركوا حتى أن الأغنياء والمتعلمين أو المتحضرين كانوا يتفوقون عليهم، وكانوا يرحبون بكل الغرباء على حد سواء بكل ود واحترام كاملين ولم يعوا إطلاقاً المخاوف التي تفسد العلاقات الإنسانية والتي تزداد أكثر فأكثر سنة بعد سنة وهي المخاوف من الشعور بالمهانة.

وتتمثل جاذبيتهم الكبيرة للأوروبيين القليلين الذين التقوا بهم في كونهم يعيشون في عالم مختلف لا يعرف الوعي الطبقي ولا الوعي العرقي، وبالتالي لا يعانون العدوانية ولا الخنوع اللذين يميزان المجتمعات التي تخامر أعضاءها الشكوك في قيمتهم بالمقارنة مع المجموعات الأخرى التي يكونون على اتصال بها. ومن صفات الإنسان الأكثر جاذبية عدم وجود أي استشعار للنفس، أي أن يتصرف الإنسان بشكل طبيعي تماماً. إن البدو قبل ثلاثين أو أربعين سنة لم يعرفوا عن وجود تفاوت بين الناس من حيث الطبقة أو العرق، وبالنتيجة كانوا يعاملون الجميع بمساواة بلا شعور، ودون حيرة عقلية أو تحفظ.

وفي ذلك اليوم بالذات رأيت شخصاً ملتحياً يلبس ملابس رثة وهو جالس في بيت الشعر يضرب بعصاه الأرض أمامه للفت الانتباه، صرخ في وجهي: «يا رجل ما فائدة حكومتك؟ وهي لا تستطيع الدفاع عن رعاياها!».

أليس تلك الصراحة المطلقة الواضحة هي التي تشكل بهاء البداوة.

الفصل الخامس

لاجئو الإخوان

لاجئو الإخوان

في صباح اليوم التالي غادرنا بيوت مضيفينا القواسم وقد لاحظنا أن رقاب رواحلنا وأذرعها قد خضبت بلون أحمر، وهذا اللون هو عبارة عن دم الشاة التي ذُبحت على شرفنا ليلة البارحة. وهذه العادة عند البدو تصور الكرم الحاتمي لمضيفينا وتوضح مآثرهم الحميدة. فخلال الارتحال وعندما نقابل بدواً آخرين فإنهم سيلاحظون الطلاء الأحمر ويقولون: «من أين أتيتم اليوم؟».

ان البدوي كريم جداً، لكنه يؤمن بمبدأ سلوكي لا يرقى إليه الشك في أن لا يعمل الخير في السر.

ارتحلنا جنوباً مقتفين جال «الحنيّة» (٢٨) و«الدبدبة» (٢٩) وهي هضبة مستوية تغطيها الرمال

(٢٨) يرى أحمد بن محارب الظفيري أن الحَنِيَّةَ هي ما تعرف قديماً بحنو ذي قار، وقد ورد ذكر حنو ذي قار في قصيدة الأعشى القيسي التي مدح بها بني شيبان:

أذاقوهم كأساً من الموت مرة
وقد بذخت فرسانهم وأذلّت
فصبّحنهم بالحنو، حنو قراقر
وذي قارها منها الجنود فغلّت

[المترجم]

انظر: أحمد بن محارب الظفيري، معركة ذي قار الواقعة والمكان **(مجلة الكويت، أغسطس ١٩٩٨)**، ص ص ٤٦-٤٨.

(٢٩) يعرف الشيخ حمد الجاسر الدّبْدبة: بأنها أرض صلبة يخترقها وادي الباطن فيقسمها قسمين، القسم الجنوبي يقع بين فليج الجنوبي وبين الفأو الممتد من الدهناء حتى وادي الحفر، الذي هو وادي الباطن. والقسم الشمالي يمتد من فليج الشمالي شرقاً حتى الحدود الشرقية ومن مرتفعات القلت والوقباء غرباً حتى وادي الباطن شرقاً.

ويضيف: لعل اسم الدبدبة مأخوذ من دبدبة الصوت وهي ما يُسمع عند المشي على الأرض الصلبة. واسم الدبدبة قديماً «الدوّ». [المترجم]

انظر: حمد الجاسر. **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، شمال المملكة**، ص ٥٢٧.

والحصى، ومغطاة بشجيرات صحراوية بكثافة، وتمتد إلى منخفض الباطن شرقاً، والباطن هو واد طويل ضحل يجري من وسط الجزيرة العربية إلى البصرة. وتمتد هذه الهضبة غرباً إلى شعيب لويحظ الذي يجري باتجاه شمال جنوب.

وإذا ما نظرت غرباً وأنت في شعيب لويحظ، فإن الانحدار التدريجي لحافة هضبة الدبدبة يشكل سلسلة طويلة من التلال، وهذه السلسلة تسمى «الحنيّة». وإلى الغرب من شعيب لويحظ تتغير تضاريس الأرض فيصبح سطحها مكسواً بالحجر الجيري وفي مساحة كبيرة وهي ما يطلق عليها «الحجرة».

ووصلنا وقت المساء إلى مضارب بدو من أصحاب الأغنام في موضع يسمى «مويلحات». وخلال يوم ارتحالنا رافقنا صبي بدوي، وقد لحق بنا وهو يسير على الأقدام بمفرده في فضاءات هذه الصحراء، وأخبرنا أنه قدم من العراق (منطقة النهر) ويبحث عن الظفير، وقد شرع في رحلته قاطعاً مسافة ١٢٠ ميلاً في الصحراء ولم يحمل معه غذاءً أو ماء بل معتمداً على كرم ضيافة البدو الرحل. وحاول أحد مرافقينا، وهو صالح المعضادي الشمري، أن يثنيه عن مرافقتنا خشية أن يقوم هذا البدوي الغريب الذي لا يملك قوت يومه بسرقة أحد جمالنا الأربعة في أثناء مشينا ليلاً. ولكن الصبي يبدو أميناً لذلك أصررت على السماح له بمرافقتنا، ولحسن الحظ فإنه لم يخب ظني به، ولولا ذلك لظل صالح يلومني، لأنه يعد من الناس الذين هم دائماً على حق. وحالما وصلنا إلى خيام أصحاب الأغنام بدأ مرافقنا بتقييد قوائم جمالنا ودفعها إلى المرعى، بعد سؤاله أصحاب الأغنام عن وجود العرفج الأخضر بالقرب من بيوتهم (والعرفج شجيرات صغيرة تعدّ غذاء مفضلاً للإبل). ويبدو أنه مسرور بمرافقتنا، وحريص على رضانا. وحقاً إنه من حسن حظه أنه كان يرافقنا، فهو يرافق أناساً مميزين وهذا يعني أنه كل ليلة يتناول طبقاً من الأرز واللحم.

وقبل ظهر اليوم التالي شاهدنا أمامنا على سلسلة التلال أشياء صغيرة داكنة متحركة، تلك التي اعتاد المرتحلون والغزاة البحث عنها، إنها إبل ترعى. وعند الظهيرة توسطنا قطعاناً كثيرة وعندها عرفنا أننا بالقرب من مضارب كبيرة للظفير. وقابلنا رجل مسن ذابل الوجه، وقد كسا شعره الشيب، ونادى بصوت جهوري اخترق فضاءات الصحراء «السلام عليكم».

في وسط مضارب البدو المتنقلة في هذه البراري العظيمة ينشدون المراعي الأفضل على الدوام ويقفون على أهبة الاستعداد لمخاطر اللصوص أو الغزاة، ويجب على كل عابر غريب أو مسافر أن يخضع للاستجواب للحصول على أخبار تنقلات القبائل وغزواتها، وبالنسبة إلى البدوي فإن هذه المعلومات تعد مسألة حياة أو موت.

قال الرجل العجوز: «السلام عليكم. ما هي الأخبار؟» وهو يضرب جمله بالعصا ليقترب منا ويكون على مستوى قريب منا جنباً إلى جنب.

وأردف قائلاً: «حياكم الله أيها المسافرون.» ومن الواضح أنه بدأ حديثه بكل أدب ممهداً الطريق لتوجيه مجموعة أسئلة كالمعتاد:

- «منْ وَيْن انْتَمْ جايين؟» أي من أين جئتم؟
- «من هم العَرب الذين رأيتموهم في طريقكم؟»
- «وكيف حال المراعي؟»
- «هل سقطت أمطار على منطقة النهر؟»
- «هل رأيتم خباري[(٣٠)] إثر سقوط الأمطار؟»
- «وهل لزام سيرحل إلى الصحراء؟»

وأخذنا نجيب عن أسئلته حسب قدرتنا وبعضها تغاضينا عنها، وبدأنا بتوجيه أسئلتنا إليه مباشرة:

- «أين ابن سويط؟»
- «أين الظفير؟»
- «أين شمّر؟»
- «ما هي أخبار الإخوان؟»
- «كيف حال المراعي؟»

وقال لنا: إن ابن سويط على بعد بضعة أميال أمامنا في منطقة مغيزل.

وصاحبنا الجديد هو «جالي بن جُريّد» كبير آل كثير أحد أفخاذ الظفير وهو رجل مشهور بغزواته ومعرفته بالصحراء (دليل) وعلى شداده علق جربوعاً وهو حيوان يعد طعاماً شهياً جداً بالنسبة إلى البدو مع أن شكله يشبه الجرذ، الأمر الذي يمكن أن يثير الغثيان.

وقال هذا الشيخ: «بالله عليكم لا يجب أن أترككم تمرون دون أن تمالحونا [تتناولون طعاماً في بيتنا] ولكن قومي في رحيل».

مع أنني كنت شديد الرغبة في مقابلة حمود بن سويط كان وضعي حساساً خاصة أنه قد

(٣٠) الخباري: «تطلق في الأصل على الروضة التي يجتمع فيها ماء المطر فيمكث زمناً يرده المحتاج إلى الماء، والكلمة مأخوذة من الخبر وهو السدر والأراك ويقال الخبرة وتجمع على خبر وخبروات وخباري»
انظر. حمد الجاسر، المصدر السابق، ص٥٧٨-٥٧٩. [المترجم]

أعلن رسمياً أنه خارج على القانون لكنه هنا في هذه الصحراء لايزال الشيخ الحاكم ورئيس قبيلته. وإني كضابط شعرت أنه لا يحق لي أن أسعى عمداً إلى صحبة رجل خارج على القانون. ولحسن الحظ أن أول بيت شعر استقبلنا كان بيت عجمي بن سويط ابن عم حمود، وقررنا أن نتوقف هنا لتناول الغداء. وكنت متشوقاً جداً لأجتمع مع القبيلة التي يصف كل من في الناصرية أفرادها بأنهم عصابات من قطاع الطرق يقطعون الأعناق التي نادراً ما خبرها المسؤولون الحكوميون أو اختلطوا بها.

يمثل عجمي البدوي النموذجي من وسط الجزيرة العربية، نحيل وقصير ووديع، شاحب الوجه، ذو لحية سوداء غير كثة. وأسرع بنفسه يمد بيديه أفضل بساط لنجلس عليه، ومن ثم تحلقنا حول النار التي يحمص عبد أسود القهوة عليها. وطبعاً، من المستحيل أن تفلت ليلتنا من الضيافة المعتادة، من نحر شاة، ومن ثم تقديمها على طبق نحاسي كبير مملوء بالأرز يعلوه لحم الشاة، وللاحتفاء بنا أكثر، يجلبون الطاسة بعد الطاسة وهي مملوءة بالدهن أو اللبن أو السمن ويفرغونها، وأخذ عجمي يسكب اللبن المحلّى من الصميل على قطع اللحم وعندما كنت أتناول هذه الوجبة وكلما اعترضت على ذلك، كان جوابه المزيد من صب اللبن والدهن، قائلاً بصوت مرتفع: «يا مرحبا بكم! هذي الساعة المباركة! يا أهلاً وسهلاً».

وبعد تناول الغداء، عدنا إلى موقعنا وكوّنا دائرة حول موقد النار التي تصطف فيه دلال القهوة. وشاهدنا ثلاثة رجال يركبون مطاياهم قادمين إلينا من الصحراء و«الخروج» الطويلة التي تتدلى منها شراشب على مطاياهم وألوانها المبهجة تدل على أنهم رجال ذوو منزلة مهمة، ها هو حمود، الخارج على القانون، إنه رجل متوسط الطول، يناهز ٤٥ عاماً من العمر، وقسمات وجهه قبيحة إلى حد ما، فم واسع ولحية ضئيلة، وقيل عنه إنه داهية جداً في سياسة الصحراء، وكزعيم قبيلة بدوية فنادراً ما تجد عكس ذلك.

وعلى كل حال، فإن قرار الحكومة باعتباره خارجاً على القانون لم يقلل من ولاء أفراد القبيلة نحوه. ولكنه بدوي في جوهره، وُلد وترعرع بين أحضان الصحراء وتربى على القتال، والغزو، والإجلال، والرجولة والشهامة، والكرم، والسخاء حسب مفاهيم النظام الاجتماعي القديم، ولم يستوعب الإدارة المدنية الرسمية الجديدة مع محاكم العدل، والانتظام في دفع الضرائب، وساعات العمل الرسمية، وفوق هذا كله لم يدرك (كما أدرك خصومه) الطريقة الجديدة في التعامل مع الأعداء وذلك بتشويه سمعتهم في أسماع الحكومة، وإذا أدرك ذلك، لم يكن قادراً على استخدام معرفته. إن البدو القدماء الذين نشأ بينهم ليسوا ملائكة. إنهم لا يرون في عمليات السرقة أو السلب أو القتل أي خطأ، لكنهم كرجال الكثير من المجتمعات الأخرى الذين يعيشون في جو من العنف، صريحون إلى حد عجيب. لم يكن

حمود بن سويط ولا أي فرد من أفراد قبيلة الظفير كلها يجيد القراءة أو الكتابة. وقد استخدم حمود حضرياً كاتباً خاصاً له كان يبيع رسائله إلى أعدائه من وراء ظهره.

إنه تفكير مُحبط، طبقاً للميل القوي لدى الغرب الحديث إلى اعتبار استخدام العنف جريمة نكراء، أن كثيراً من الحقب التي شاع بها العنف أوجد أنواعاً جيدة من الرجال. إن إقامة قوة حاكمة الأمن العام تحوّل القيادة من البسطاء والشجعان والصادقين إلى الحاذقين المحتالين الخادعين. ومن الممكن على المدى الطويل، أن يؤدي اضمحلال العنف إلى سمو الأخلاق، ونبل الأفكار والارتقاء الروحي، ولكن الأثر المباشر للتخلي عن القوة البدنية كثيراً ما يؤدي إلى تثبيط المعايير الأخلاقية.

إن لهجة البدو تختلف كثيراً عن لهجات أهل المدن، إلا أن اختلاط ساكني البلدات مع البدو في شمال الجزيرة العربية منذ سنة ١٩٢٤ قد ساعد على خفض الاختلافات في اللهجة، ومع ذلك فلا زالت الاختلافات قائمة. في العشرينيات كان البدوي أكثر حرية وديمقراطية من غيره، لا يستخدم الألقاب ويقول ما يعني دون خوف. وكان فخوراً جداً بعرقه ولكنه غالباً ما كان لا يهتم بمظهره، وكان بعض الأشخاص المهمين جداً يلبسون ثياباً رثة وسخة مثل بقية أفراد قبيلتهم.

وبالنسبة إلى الرسميين الأتراك أو العراقيين فقد اعتادوا في تخاطبهم على استخدام «صاحب المعالي» و«صاحب السعادة» وألقاب التفخيم هذه التي تكرس استخدامها في المدن. وكثيراً ما كانت حرية الكلام لدى البدو تبدو لهؤلاء الرسميين وقاحة، والملابس الرثة والوسخة رمزاً للهمجية. وهنا يجب أن نتذكر نفسية الشباب القوميين وشعورهم بالإهانة في بداية اليقظة القومية (العربية) في بلادهم ورغبتهم في محاكاة الغرب. فاقتنعوا بأن التعليم هو الذي منح أوروبا تفوقها على الآخرين. وكانوا محبين للعلم بتعطش، وكان همهم الأول الذي يسيطر على عقولهم هو محاربة الجهل، إذ يبدو لهم وضيعاً ومقيتاً. ومن الطبيعي، في ظل تلك الظروف، أن يختلط عليهم الحابل بالنابل بالنسبة إلى نوعية الرجال وإنجازاتهم، وبما أن رجال القبيلة أميون فإنهم أعداء التقدم، لذا يجب تحطيمهم. وكان من النادر أن يخطر على بالهم أنه يمكن تعليم رجال القبائل كالآخرين. وإذا ما تم تعليمهم فإن قدرتهم على التحمل وشدة بأسهم تجعلهم مواطنين صالحين مهمين من عدة نواح. ونتيجة لهذه المعتقدات والتحامل ضد البدو كانت الطبقات الحاكمة الجديدة في الأقطار العربية الشمالية تشعر بميل إلى التعامل مع قبائلها بشيء من النفور والكراهية.

والحقيقة يجب أن تقال، إن خلط الملابس الرثة مع الانحطاط الأخلاقي ليس امتيازاً خاصاً لدى قوميي الشرق الأوسط. ففي إحدى المرات بعد عشرين سنة، اصطحبتُ مراسلاً صحفياً

أمريكياً لزيارة مخيم بدوي. وعند دخولنا بيت الشعر وقف كل رجل فيه احتراماً لنا، وبعد جلوسنا كلما جاء بدوي قام من حولنا من الجالسين وعرض عليه الجلوس في مكانه. وهذا منظر يومي في كل خيمة عربية، وبعد مغادرتنا المخيم لم يتمالك صاحبي نفسه فصاح قائلا: «لا أصدق ذلك أن هؤلاء أصحاب الملابس المهلهلة مؤدبون لهذه الدرجة».

كان حمود حريصاً على أن نبتعد عن مسمع الرجال الجالسين في بيت عجمي، فدعاني للحديث خارج البيت. وهذه في الواقع هي الطريقة الوحيدة لتأمين سرية المحادثات الخاصة بين رجال القبيلة المقيمين في بيوت شعر مفتوحة. وجلسنا على الأرض على بعد ٣٠ متراً من بيت الشعر وأبدى رغبته بأنه عاقد العزم على تسوية الخلافات مع الحكومة قائلاً إنه، على الرغم من ترحيب ابن سعود به، إلاّ أنه لا يرغب في مغادرة العراق إلى نجد أو أي مكان آخر لأن قبيلته تعتمد على الأسواق العراقية سواء لبيع أنعامهم، أو لشراء مؤنهم. واشتكى بمرارة من سوء معاملة الحكومة العراقية له، خاصة اعتباره خارجاً على القانون وتنصيب منافسه لزام بدلاً منه. وقال، وكان صادقاً في قوله، إنه لم يرتكب أي خطأ، بل العكس هو المُعتدى عليه من طرف الإخوان بزعامة يوسف بن سعدون الذي يعدُّ مقرباً الآن من الحكومة مرة أخرى.

وكل ما قاله كان صحيحاً. وكان موقفي إلى حد ما صعباً، لأنني لا أملك صلاحيات، وكذلك تأثيري، إذا ما وجد، على القرار الحكومي ضعيف، فأنا لست إلاّ ضابط استخبارات عسكرية بريطاني. وكل ما وعدتُ هو أن أنقل كلمات حمود إلى السلطات، وأخيراً أشار إلى أنه لا يجرؤ على الذهاب إلى الحكومة دون ضمانات، آخذاً بعين الاعتبار أن كلمة أعدائه مسموعة لدى السلطات، والذين دون شك يصفونه بأنه شرير وخائن، ويخشى إذا ما سلم نفسه للسلطات فسيزجون به في السجن دون محاكمة أو تحقيق. وخوفه في محله، فكان مثل ذلك يحدث (على الأقل في العهد العثماني) بشكل متكرر جداً في الماضي. وفي الحقيقة، سيلاحقه ظلم أعدائه حتى قبره، وسيلاحق قبيلته حتى بعد وفاته. إن أسلوب الحكومة في سوء تعاملها مع الظفير يبدو غير معقول. ويمكن تفسير ذلك فقط بأن البدو في تلك الأيام يعيشون في عالم مختلف تماماً عن عالم الرسميين. ولم تكن لدى الحكومة المعرفة ولا الاهتمام بشؤون قبائل الصحراء وهي إلى حد كبير تجهل حقائقها.

وعلى الرغم من توسّل عجمي وإلحاحه علينا لنمكث الليلة في ضيافته إلا أننا ركبنا جمالنا حوالي الساعة الثالثة عصراً متجهين نحو «الأمغر» حيث يقطن حمدان بن طوالة أحد شيوخ شمر. أصبحت قبائل ابن رشيد التي ظلت في نجد بعد سقوط عائلته، بالطبع، من رعايا نجد، لكن غالبيتها لم تنضم إلى المذهب الوهابي بحماسة كبيرة، واستمرت في شراء قُوتها من العراق. وعند ابتعادنا عن مضارب الظفير وقطعانهم الرائعة، قطعنا مسافات طويلة دون أن

نرى أثراً للحياة. وامتدت الصحراء الواسعة المنبسطة أمامنا تغطيها شجيرات الرِّمْث الخضراء، لتذوب في التلال الزرقاء البعيدة. وعند غروب الشمس كان كل ما يحيط بنا هو الهدوء واتساع الطبيعة الصامتة، ومن المحتمل أننا سنمضي ليلتنا في برد قارس وفي منطقة مكشوفة. غير أنه بعد الغسق لاح لنا من على بعد وميض نار، بعدها تعززت روحنا المعنوية مرة أخرى، فقد ينتظرنا عشاء وسمر، وحثثنا جمالنا على العدو خبباً. وعلى سفوح سلسلة التلال المشرفة على آبار الأمغر وجدنا ستة بيوت شعر صغيرة للأسلم، من شمر. ووصلنا آبار الأمغر التي تقع في واد عميق طوله حوالي أربعة أميال عند الصباح الباكر، وعلمنا أن ابن طوالة قد ارتحل إلى الجَنوب. هذه حالة عدم اليقين في الترحال في الصحراء خاصة في فصل الشتاء والربيع، فالبدو الرحل دائماً في ارتحال مستمر. وعلى الرغم من رغبتي في مقابلة شخص من عائلة مشهورة مثل ابن طواله إلا أنه قد مضى عليّ ستة أيام غياب عن عملي، وأصبحت كطالب يتغيب عن مدرسته من غير عذر، منذ تملصي من الطائرات بعد الحادث، وكنت متردداً في التعمق في تجوالي جنوباً، خاصة أننا لا نزال في المنطقة المحايدة بالقرب من الحدود السعودية التي لا أستطيع عبورها.

وفي الأمغر رأينا مجموعة أصحاب أغنام ولكننا حاولنا أن نتحاشى المرور بهم، لأننا متلهفون للسير لمسافة أطول قبل توقفنا. وبمقدورنا رؤيتهم عن بعد وقد تجمع الرجال في خيمة واحدة، وعندما عبرنا اتجه نحونا أحدهم راكضاً، ملوحاً بعباءته منادياً: «شرفونا، الغداء جاهز». وعليه انحرفنا نحوهم وأنخنا مطايانا بالضرب الخفيف على رقابها بعصينا وترجلنا من على ظهورها وأبقينا «الخروج» والأشدة على ظهرها.

وكان أصحاب الأغنام يمضون فصل الصيف على ضفاف الفرات حيث ترعى أغنامهم ما يبقى من الزرع بعد الحصاد، والأعشاب التي تنمو على حافة الأهوار. وفي فصل الخريف تكون أغنامهم ضعيفة ونحيلة وحالما ينزل أول المطر وتنمو الأعشاب في الصحراء، يحملون بيوتهم الصغيرة على الحمير ويسرعون في الرحيل، ومن ثم تتحسن حالة الغنم ويكثر اللبن عندهم. وبالطبع فإن البقر لا يتحمل العيش في الصحراء، ويحصلون على الدهن واللبن والسمن من الأغنام والماعز، وعندما يكثر اللبن يمخضونه لصنع الزبدة، وهذا دليل على ربيع رخاء وخير.

ويسأل المسافر: «كيف حال الرعي؟» وإذا قيل: «العرب يخضّون»، أي يمخضون اللبن لصنع الزبدة فهذه إجابة كافية شافية.

وعندما يأتي فصل الرخاء هذا، فإن كل عائلة تنحر بدورها خروفاً سميناً، وتدعو جيرانها للمشاركة في تناول وجبة الشكر الذي يسمونه «ذكر الله» مثل وجبة الغداء التي دعونا لتناولها،

إنها وجبة شهية دسمة تتكون من لحم طري يعلو تلاً من الأرز وطاسات من السمن واللبن.

إن الرحالة الأوروبي الوحيد الذي زار هذا الجزء من الصحراء الذي عبرناه هو ليتشمان واستعمل الطريق التي سلكناها ذاتها، جنوب شعيب لويحظ. وهي في الحقيقة الطريق الاعتيادية التي تربط منطقة المنتفق بنجد حيث تتخللها الآبار، وقررت أن تكون عودتي عبر صحراء الحجرة، وحسب علمي، لم يعبرها أي أوروبي من قبل. فدخلنا في منطقة جروف صخرية جيرية يبلغ ارتفاع بعضها ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ قدم، والأرض مغطاة بصخور رمادية وحجر صوّان أسود وتقسمها سلاسل تلال وجروف صخرية شديدة الانحدار وبينها تقع أراض منخفضة تغطيها مروج خضر زاهية وترتع فيها قطعان من الأغنام. وقمنا بزيارة «شرشاب بن زويد» شيخ قبيلة البدور من أصحاب الأغنام، وجدنا بيوت أفراد قبيلة متناثرة هنا وهناك. ونادراً ما يبعث أي شيء البهجة والجو العائلي المريح أكثر من أن تقطع الميل إثر الميل في صحراء خالية ثم تدور حول جرف حجري وبعده فجأة تجد روضة خضراء جميلة بين التلال والأغنام ترعى أعشاباً خضراً قصيرة طرية وحوالي ستة بيوت شعر صغيرة، وأعمدة دخان أزرق كثيف يرتفع من نيرانها، ومجموعة فتيات يقطعن الشجيرات للحطب.

وتعتمد السعادة في الحياة على التناقض، فهاهم قوم مرتحلون منهكون يمتطون النجائب، ربما أمضوا ليلتهم الفائتة دون تناول العشاء خوفاً من أن إشعالهم النار قد يعرضهم لخطر الغزاة، ثم يضحكون وينادي كل منهم الآخر، «يا للحظ! لقد وجدنا مضيفنا».

وعندما تجاوزنا مضارب البدور قادمين من صوب نجد جرى خلفنا رعاة الأغنام مستفسرين وبتلهف عن أخبار الإخوان وعندما علموا أنني ضابط ألحّوا عليّ أن أحدثهم عن العلاقة بين الحكومة وابن سعود، وسألوا لماذا لا تحمي الحكومة رعاياها عندما يرعون داخل حدود بلادهم.

وبعد الظهر مباشرة غادرنا تلك المنطقة وتركنا من ورائنا كل بيوت أصحاب الأغنام واتجهنا شمالاً ومشينا ساعات طويلة نطوي أرضاً صلبة منبسطة مغطاة بالحصى، ولا ترى فيها أثراً للحياة عدا مشاهدتنا في بعض الأحايين طائر الحباري يفرّ فجأة أو غزالاً يجفل منا فيعدو بعيداً أو يقفز بأرجله الأربع معاً. وأخذت الشمس تغرب ولازلنا نسير منهكين في أرض جرداء منبسطة، ولسوء الحظ، لا توجد حتى الشجيرات البرية التي قد نستغلها لإشعال النار. وكانت أمامنا ليلة كئيبة وقارسة البرد، مع عشاء لن يتعدى رغيفاً من خبز يابس مما ثبط روحنا المعنوية الضعيفة، واندفع مرافقنا صالح المعضادي إلى الأمام ليلقي نظرة استكشافية أخيرة فوق أحد التلال قبل غروب الشمس. وصاح قائلاً إنه رأى أغناماً هناك فخففنا من عدو نجائبنا، ونزلنا في وادٍ ضيق ودرنا حول كتلة صخرية واقتربنا من مجموعة صغيرة من أصحاب الأغنام وهم

ثلاثة رجال وأربع نساء يسوقون حوالي ١٢ حماراً محملة، وبالقرب منهم ترعى بضعة أغنام. ولسبب لا أعرفه، فإن أصحاب الأغنام من المنتفق يرتحلون مساء بينما يرتحل البدو الآخرون صباحاً. وكان هؤلاء الذين التقيناهم على وشك نصب بيوتهم وفي الحال نصبوا بيتين صغيرين لا يتعدى طول كل منهما ١٠ أقدام وبعرض ٥ أقدام. وقام أحد الرجال بمد بساط صغير لنجلس عليه قائلاً: «أهلاً وسهلاً! قواكم الله! شرّفتونا».

وأحضرت امرأة الحطب من جذور الشجيرات وغصونها، وحفر مضيفنا حفرة صغيرة بفأس لتكون موقد نار وما هي الا لحظات حتى وضع إبريق الشاي عليها. وقد لاحظت أنهم في فقر مدقع؛ لذا اقترحت على مرافقيّ أن نساهم في تزويدهم بالطحين والدهن من مؤونتنا الخاصة الضئيلة لتحضير العشاء لنا. ولكنهم همسوا في أذني أن ذلك مستحيل، سواء كان قصدهم توفير مؤونتنا أو أنهم يخشون أن يسبب إهانة لمضيفنا.

وبعد أن شربت كأس الشاي توقعت أن يكون عشاؤنا خفيفاً، إلا أن مضيفينا على الرغم من كل شيء خرجوا من الخيمة بعد ساعتين يحملون لنا طبقاً كبيراً مملوءاً بالأرز ويعلوه خروف مطبوخ بكامله على الرغم من أن ما يملكه أصحاب الخيمة من أغنام لا يتجاوز ١٥ رأساً. وقد اعتذروا لنا عما إذا لم تكن الوجبة كافية وهكذا فإن مضيفينا هؤلاء قدموا لنا عشاءً يساوي ٧٪ من ثروتهم. ولأوضح حساب تكلفة الضيافة بالنسبة إلى هؤلاء العرب الفقراء، لندع القارىء يقوم بحساب مجموع قيمة أصوله، ويتخيّل أنه يصرف منها ٧٪ كوجبة واحدة لأربعة غرباء.

وهذه البيوت الصغيرة يشغلها أربع نساء وستة أطفال وستة خراف مربوطة بحبل [ربْق] برقابها. وقد قررنا أن ننام خارج الخيمة في الخلاء ونلف عباءاتنا حول أجسادنا، ولما كنا نَعد أنفسنا لذلك، جاءنا مضيفونا يصرون على وضع بساطيهم المهلهلين تحتنا كفراش. وبعد أن خلد المرافقون الثلاثة للنوم أدركت أن كل مفروشات وأغطية هاتين العائلتين هما قطعتا البساطين اللتين قدموهما لنا. كانوا لا يرتدون سوى ثياب قطن والطقس بارد جداً لا يستطيعون النوم دون أن يلفوا أجسادهم بقطعتي البساط الباليتين. وأمضوا ليلتهم جاثمين حول موقد النار.

وفي اليوم التالي وصلنا الناصرية بعد مسيرة طويلة قطعنا خلالها حوالي ٦٠ ميلاً مررنا خلالها بمنطقة «نبعة» و«أور»، وفي الناصرية اتضح لي أنه تم استدعائي قبل أربعة أيام وأنهم أرسلوا طائرات للبحث عني دون جدوى، ولو لم أتملص منهم لانتهت رحلتي مباشرة بعد حادثة الطائرة. وكنت مشغولاً خلال الأيام القليلة التالية برسم خريطة طريقنا وإضافة أسماء أماكن جديدة كثيرة إلى الخريطة القديمة، وصدرت بعد قليل طبعة جديدة لخريطة منطقة البصرة بمقياس واحد إلى مليون تتضمن معلوماتي الطوبوغرافية الجديدة، وكذلك ظهرت الطريق التي

سلكتهـا على شكل خط منقط، كـالمكتشـفين الأوروبيين الأوائل: هوبر سنة ١٨٨١، وليتشـمان سنة ١٩١٢ وغلوب سنة ١٩٢٤. وطوال ثلاثة أعـوام والرغبة تحدوني ونفسي متيمة بأن أكون أحد مكتشفي الجزيرة العربية. وعندما اندلعت الحرب مع الإخوان سنة ١٩٢٧ تدفقت قوات الجيش، والشرطة والطائرات إلى الصحراء وتم مسح الأراضي الصحراوية وكتابة الأسماء على الخريطة. وأغفلت الخريطة الجديدة الطرق التي سلكها المكتشفون الأوائل. وهكذا أصبحت في الواقع أنا آخر المكتشفين كـالمولود الذي جاءت ولادته قبل موعدها. ومن الآن فصاعداً تولّى محرك الاحتراق الداخلي مهمة استكشاف الصحراء.

وبعد ذلك بقليل توجب على الحكومة العراقية منح حمود بن سويط عفواً، وهي خطوة كان من الممكن أن تتخذها في الصيف الماضي لتجنب عدة أشهر من الفوضى، ناهيك عن الظلم، وإرث دائم من النفور بين البدو والسلطات المدنية.

* * *

لقد تسامحت الحكومة مع يوسف بن سعدون لغزوه الظفير في آخر صيف سنة ١٩٢٣ وسمحت له بإدخال رجال القبائل من الإخوان الذين شاركوه بمغامرته إلى العراق، ولم يكن هؤلاء الأفراد في الحقيقة كثيرين، لكنهم يتضمنون أسماء مشهورة، جلهم من أبناء شيوخ القبائل أو أبناء عمومتهم. أما البدو غير المعروفين الذين شاركوا في الغزو فيحتمل أنهم نجحوا في التهرب من كشف ابن سعود لهم ومعاقبتهم.

وأهم أسماء ما يدعون «لاجئي الإخوان» هم علي أبو شويربات وشريان بن لامي من قبيلة مطير، وفيحان الذويبي من قبيلة حرب، ونايف بن حميد من قبيلة عتيبة. وشكلت هذه العصابة الصغيرة قوة مساندة مفيدة لقوات يوسف بن سعدون في صراعه ضد قبيلة الظفير، غير أن هذه الأخيرة كانت متفوقة عليه تفوقاً كبيراً من حيث العدد، فلم يجازف في الخروج إلى الصحراء ناهيك عن القيام بهجوم عليها.

وكان كثير من لاجئي الإخوان الذين انضموا إلى يوسف قد فروا من نجد بعجلة خشية أن يعتقلهم ابن سعود وتركوا خلفهم عائلاتهم وبيوتهم وأنعامهم، وفي العراق وجدوا أنفسهم معوزين ومحرومين، ولم يملك يوسف مالاً ليعطيهم. وفي ظل هذه الظروف ليس لدى البدو من مصدر دخل سوى الغزو. وقد يكون الظفير هم الضحايا الطبيعيون إذا لم يكونوا قريبين جداً وأقوياء جداً فينتقموا منهم على الفور بشراسة. وكان البديل الآخر بالنسبة إليهم هو غزو نجد، ويكون غزو نجد أسهل من غيره لأن نجداً بلدهم الأصلي يعرفون كل شبر فيها، يعرفون الحجر والشجر. وعليه شرعت مجموعات صغيرة من اللاجئين تسرق الإبل من نجد.

ومن الضروري لتقدير هذا الوضع أن يؤخذ بعين الاعتبار طبيعة الإمارات نصف البدوية لابن سعود وابن رشيد. فلم تكن لدى هؤلاء الأمراء في تلك الأيام جيش خاص، لأن مواردهم المالية غير كافية. لذلك كانوا يعتمدون على تجنيد رعاياهم للدفاع عن بلادهم أو اجتياح أراضي جيرانهم، أو قمع الفتن أو العصيان، وكانت أكثرية هؤلاء المجندين من القبائل البدوية، لذلك فهم ليسوا بالنسبة إلى الأمير دافعي ضرائب أو رعايا فحسب بل جزء من جيشه. وقد يكون البدو أكثر الناس تحركاً على وجه الأرض. ويمكن تحميل كل ما يملكونه على جمالهم، ومن أجل البقاء، لا يطلبون أي شيء سوى قطعة من الصحراء ترعى بها أنعامهم. ونتيجة لذلك فإن القبيلة البدوية إذا لم ترض عن حاكم البلاد فهي ليست بحاجة لأن تثور ضده، بل غالباً ما تحمل كل ممتلكاتها على ظهور إبلها، وتنقل ولاءها إلى حاكم آخر.

ونظراً لتقلب الجيش الذي يعتمد عليه، كان أهم هاجس لدى الأمير العربي هو خشيته من أن تتخلى قبائله عنه وتنضم إلى منافسه. وكان في الوقت نفسه يطمح بشكل أساسي ويعمل على إغراء قبائل البلدان المجاورة للانضمام إليه. وكانت هذه القبائل نفسها تستخدم وبحرية سلاح التهديد في التخلي عنه، إذا ما ظهرت أي علامات للاستبداد لدى هذا الحاكم. وهكذا فإن السياسة في وسط الجزيرة العربية، قبل النفط وقبل اكتشاف أي مصدر دخل آخر، كثيراً ما كانت تقوم على منافسة الأمراء في إغراء قبائل الأمراء الآخرين، حتى لو كان هؤلاء المتنافسون يعيشون بسلام مع بعضهم مثل بقية العالم. وفي وضع العالم الحالي، مع مساعي روسيا لتكسب صداقة آسيا وإفريقيا، وتخلق مشكلات بينهما وبين الغرب وإن كانت هذه الصورة أكبر، قد لا يختلف الأمر كثيراً.

وفي حالة لاجئي الإخوان فإن ابن سعود قد أرسل قوة لمعاقبة بعض رعاياه لغزوهم العراق. فلجأ الغزاة إلى العراق حيث لم يستطع ابن سعود الوصول إليهم. وليس ذلك فحسب، بل من المكان الذي منحوا فيه حق اللجوء يشرعون بمهاجمة أصدقائهم السابقين في نجد. إن منح اللجوء لهؤلاء كان مشيناً ولم يكن حكيماً كما أثبتت الأحداث، ولكن هذا التصرف لم يكن فظيعاً كما يبدو للناس الذين لا يفهمون حالة الجزيرة العربية في تلك الأيام.

ويجب الاعتراف بأن الحكومة العراقية كانت غير مبالية تماماً بالبادية سواء بصحرائها أو قبائلها، وتعيش في عالم آخر مختلف، لكن الملك فيصلاً قد تربى كأمير من النظام القديم. وفيما تقع هذه الحوادث في العراق، كانت عمليات غزو وغزو مضاد تتم على الحدود بين نجد والحجاز. ولا شك أن الملك لم يعتقد أن ابن سعود قام بمعاقبة رجاله بسبب غزوهم للعراق بسبب محبة يضمرها لذلك البلد، ولكن لأنه ينوي القيام بهجوم على والد الملك فيصل، الملك حسين في الحجاز، لذلك لا يرغب في ارتكاب أي مشكلات على الحدود العراقية حتى ينهي

مشكلته مع الملك حسين. ونتيجة طبيعية أن يرغب الملك فيصل في خلق المشكلات على الحدود العراقية، حتى يخفف من الضغط الواقع على والده.

هذا وقد أشير إلى الصعوبات التي ترتبت على خلق حدود ثابتة في الصحارى العظيمة، ففي زمن الأتراك كان من النادر أن تحاول الحكومة تمديد سيطرتها إلى أكثر من ميلين أو ثلاثة أميال خارج ضفة النهر. ولو لم يتم التفاوض على بروتوكول العقير لأعاد التاريخ نفسه، وسيطر الإخوان على منطقة لا تبعد إلاّ ميلين أو ثلاثة أميال عن ضفة النهر، ولكانت هناك حدود أمر واقع، ولكن على بعد ثلاثة أو أربعة أميال عن الفرات بدلاً من ١٥٠ ميلاً.

وكان هذا الوضع قائماً في عصر الوهابية الأول من سنة ١٨٠٠ إلى سنة ١٨١٢ الذي نتج عنه كما رأينا هجمات متوالية ليست على قبائل العراق فحسب بل على كل منطقة الفرات من كربلاء حتى البصرة أيضاً، ولو تجرأ الوهابيون أكثر، لكان من الممكن أن تقع مجزرة في بغداد، شبيهة بمذبحة كربلاء. وعلاوة على ذلك أصبحت سكة الحديد، الآن، ممتدة في الصحراء من السماوة الى البصرة، وكما رأينا، لم يجد يوسف بن سعدون ومجموعة من الإخوان أي صعوبة في الغزو عبرها.

ومن الملاحظ أن سلطة والي بغداد في سنة ١٨٠٠ كانت اسمية على قبائل العراق ومن المؤكد أنه لم يكن قادراً على جباية الضرائب منها بشكل منتظم. وهكذا فإنه لم يكن للقبائل مساهمة في الإدارة في بغداد، وبالتالي لم يكن هناك مبرر ليطالبوا الحكومة بالحماية. غير أن حكومة العراق في عام ١٩٢٢ كانت تطمح إلى جمع ضرائب قانونية من قبائلها، ولهذا كان يتوجب عليها حمايتهم.

من الممكن تقدير موقف ابن سعود لعدم رغبته في حدود ثابتة، إلاّ أنه من الصعوبة بمكان التفكير في أي طريقة بديلة تنظم العلاقات بين الدول في الظروف العصرية. صحيح أن وجود البدو يدعو إلى حرية التنقل عبر الحدود لهم ولماشيتهم، ولكنه لم يكن فرض الحدود الثابتة على البدو هو ما تسبب في الاضطرابات اللاحقة. ويمكن عزو السنوات الثماني من الأعمال العدائية إلى سببين، أولهما تعصب الإخوان، وثانيهما العداوة وعدم الثقة بين آل سعود والأشراف.

وهكذا كان لاجئو الإخوان مجرد بيادق شطرنج في سياسة القوى بين الأشراف وآل سعود، وكان الضحايا، كما سيتضح في هذا الكتاب، قبائل العراق من أصحاب الأغنام الفقراء، الذين غمرونا بكرم ضيافتهم أثناء رحلتنا في الصحراء.

في اليوم الأول من مارس/ آذار سنة ١٩٢٤، حصلت على إجازة بالغياب لمدة شهرين، وغادرت الناصرية. وبعد أيام قليلة هاجم فيصل الدويش زعيم قبيلة مطير ومعه قوة كبيرة من

الإخوان قبائل العراق من أصحاب الأغنام بالقرب من أنصاب في الطرف الغربي من المنطقة المحايدة على الجانب العراقي من الحدود، وكانت الحكومة العراقية قد تلقت إنذاراً بأن الغزو وشيك، فقامت الطائرات بطلعات يومية استكشافية. وقد اتخذ سلاح الجو الملكي البريطاني الخطوة الأولى في عملياته في الصحراء عندما اتصل بي أثناء رحلتي في يناير/ كانون الثاني، والآن أصبح على استعداد لتوسيع عملياته إلى الحدود النجدية. ولكن عملياته لم تتم حسب خطة وكان رجاله يجهلون أحوال البلد وقبائله إذ لا أمل في البحث في مساحة تُقدّر بثلاثين ألف ميل مربع عن ألفين أو ثلاثة آلاف غاز، عندما يكون الطيار لا يعرف أي مكان يبحث فيه. في الوقت نفسه فإن القبائل العراقية متناثّرة في أرجاء الصحراء وبالتالي كانت أمام الإخوان مجموعة واسعة من الأهداف ليختاروا بينها.

وعندما لم تعثر الطائرات على الغزاة، جاءت الأخبار عن وقوع غزو بعد عدة أيام من شنّه، وبعد أن وصلت فلول اللاجئين إلى الفرات، وكان الضحايا هذه المرة من بني سلامة واليعاجيب، وكلتا القبيلتين من أصحاب الأغنام الذين يسكنون ما بين السماوة والشنافية. ونتج عن هذا الهجوم قتل مئات العراقيين، وسلب آلاف رؤوس الأغنام مع الحمير والبيوت والمال والغذاء والملابس وغير ذلك.

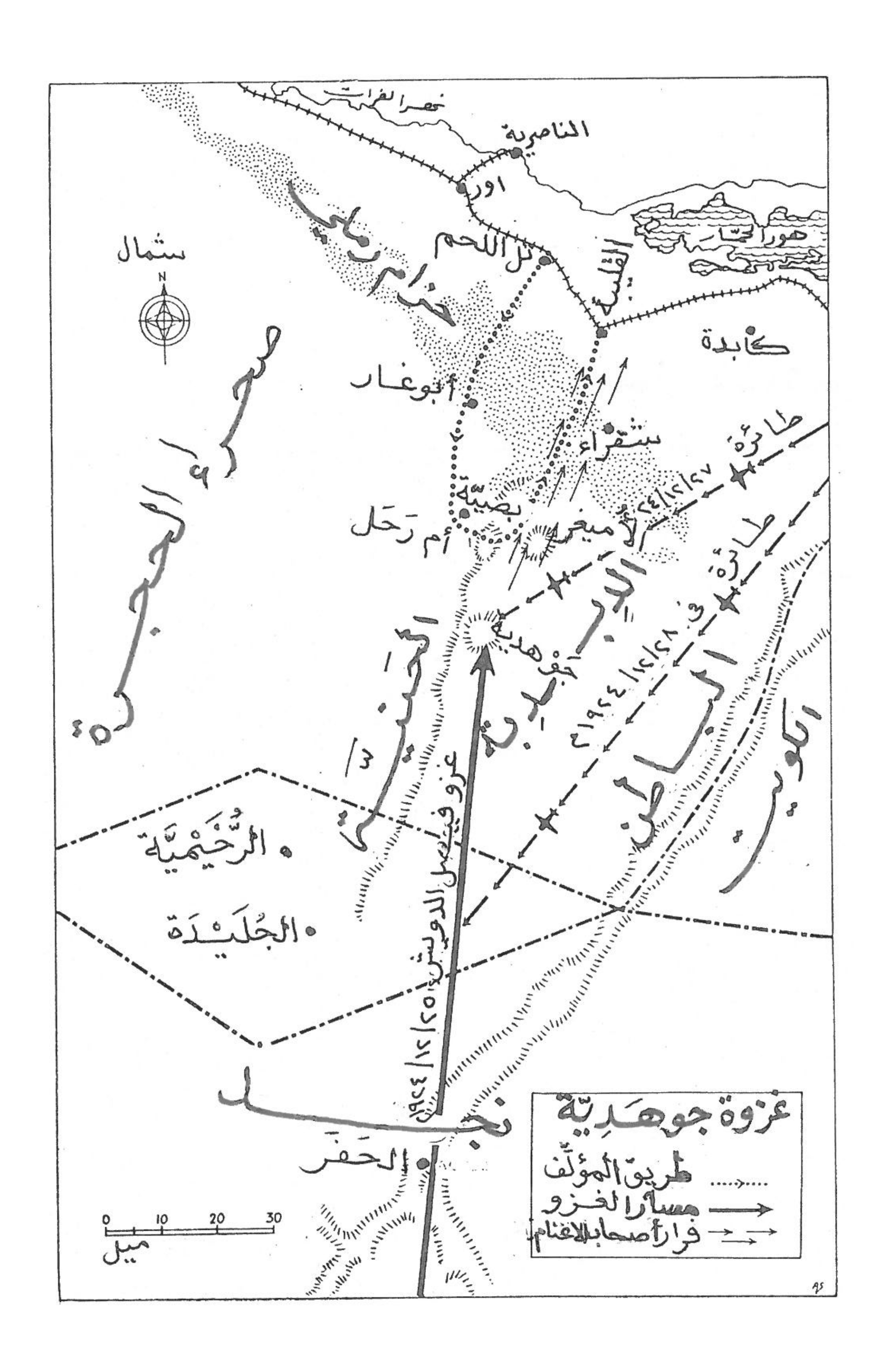
وقد أخفقت عمليات الطيران في مارس/ آذار وأبريل/ نيسان من سنة ١٩٢٤ إخفاقاً ذريعاً في حماية القبائل العراقية، ولكنها أثبتت أن كلاً من سلاح الجو الملكي البريطاني والحكومة العراقية أخذا يدركان أخيراً ضرورة اتخاذ إجراءات ما. كما ساهمت إلى حد محدود في توفير الخبرة، أو على الأقل في التأكد من أن غزاة الصحراء ليسوا هدفاً يسهل العثور عليه. وربما كانت أهم عبرة يجب استخلاصها أن هناك أمس الحاجة إلى الحصول على معلومات استخبارات أكثر، وأنه لا يمكن توقع النجاح مادامت السلطات تجهل شؤون البدو وأحداث الصحراء جهلاً تاماً. وبالطريقة نفسها تماماً كان الوهابيون قد تمكنوا من مباغتة كربلاء وإثارة الذعر والفزع في بغداد ودمشق على التوالي بظهورهم المفاجئ وغير المتوقع بالقرب من هاتين المدينتين. إن معلومات الاستخبارات لا تأتي إلى من ينتظرها إلا إذا خرج للبحث عنها. وبعبارة أخرى، لكي تبقى الحكومة على اتصال بأحداث على بعد مئات الأميال في الصحراء، يجب عليها الذهاب إلى هناك. ولسوء الطالع كان موظفو الحكومة وضباطها ينظرون إلى فترة من الخدمة في الصحراء بنفور، بل حتى بفزع حقيقي.

ولاشك أن ابن سعود قد وافق على هذا الغزو الوحشي ليظهر استياءه من تصرف العراق بمنحه حق اللجوء للإخوان اللاجئين، ولكن رده على الاحتجاجات الرسمية كان أنه لم يكن على علم بنية الإخوان في شن الغزو. وعندما احتج ابن سعود على قيام لاجئي الإخوان

بغزوات للسلب، كانت الحكومة العراقية ترد بالطريقة نفسها، وكان ردها صحيحاً لأنها كانت تجهل تماماً ما يحدث في الصحراء. وخلاصة الأمر أن تبادل التهم بين الطرفين لم يؤدّ إلى أي نتيجة.

الفصل السادس

جَوٌّ هَدية



نهر الفرات
الناصرية
اور
تل اللحم
هور الحمار
كابدة
شمال
N
أبو غار
شقراء
بصية
أم رحل
الأميغر
جوهدية
الدبدبة
الباطن
الكويت
الرخيمية
الجليدة
نجد
الحفر
غزوة جوهدية
طريق المؤلف
مسار الغزو
فرار أصحاب الأغنام
0 10 20 30
ميل

جَوُّ* هَديـة

خلال بقاء الإخوان تحت رعاية يوسف بن سعدون استمروا في سياسة سرقة الإبل من نجد التي تدر إيراداً كبيراً لهم. والحكومة البريطانية هي الخاسر الرئيسي لهيبتها جراء هذه الفوضى. ولم تكن هناك أي محاولة أو تحريات لمراقبة نشاطات الإخوان اللاجئين مما سبب امتعاضاً بالغاً لابن سعود، بينما تثير الغزوات المتكررة والمتزايدة التي يقوم بها الإخوان مخاوف جميع قبائل بادية الشام والعراق.

والمعروف عموماً ان ابن سعود تربطه اتفاقية علاقات مع الحكومة البريطانية. وهيبة بريطانيا لا زالت عالية نتيجة لانتصاراتها على الأتراك في الحرب العالمية الأولى وكذلك قمعها لثورات سنة ١٩٢٠ في العراق. لذا فإن القبائل كلها مقتنعة بأن بريطانيا تستطيع، وبسرعة إذا رغبت، وقف غزوات الإخوان وأن عدم قيام البريطانيين بذلك ترجعه القبائل لأمور سياسية تهدف إلى «إضعاف كلا الطرفين العراق ونجد» إضافة إلى «أن الإنجليز يرغبون في أن يحارب كل واحد الآخر».

وهنا يبدو لهم التفسير واضحاً وقد اعتادوا عليه لسنوات طوال إبّان الحكم العثماني، إذ كانت سياسة الحكام الأتراك المحليين الرئيسية تقوم على مبادىء «فَرّقْ تَسُدْ»، ورأى العرب أنه من الصعوبة بمكان الاعتقاد بأن الحكومة البريطانية غير قادرة أو فاعلة. وعندما تبدو سياسة البريطانيين غير ملائمة للعرب يعزونها إلى درجة غير عادية من الحذاقة الملتوية.

---

* الجَوُّ: هو أرض متسعة خالية من الآكام والجبال تحيط بها مرتفعات. [المترجم]

انظر: حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ـ المنطقة الشرقية**، جـ١، ص ٤١٥.

وعندما انتصف خريف سنة ١٩٢٤ وحان الوقت الذي تضطر فيه القبائل إلى الخروج إلى الصحراء، وبدأ القلق يسيطر على القبائل من أصحاب الأغنام والقبائل البدوية الأخرى، قام «الزيّاد» في السماوة، و«البدور» و«الجوارين» في الناصرية بمحاصرة مكاتب الحكومة لمعرفة ما هي الخطوات التي اتخذتها لحمايتهم. وكانت إجابتها المعتادة «إن شاء الله، كل شيء على ما يرام» وهي إشارة لا تشفي غليلهم.

وشاركتُ أصحاب الأغنام احتجاجهم وحاولت حث السلطات على ضرورة التحضير على الأقل لدراسة المشكلة ومعرفة تضاريس المنطقة، واقترحت تعيين ضابط تكون مهمته جمع المعلومات، والإنذار المسبق عن الغزو المتوقع. وفي حالة التحضير لهجوم كبير للإخوان فإن رجال القبائل في نجد يحتاجون إلى عدد من الأيام حتى يتجمعوا تحت راية الحرب. فبالإمكان جمع المعلومات عن الهجوم قبل أيام من وقوعه، على الرغم من أن هذه المعلومات قد لا تتضمن وجهة هذا الغزو. وفي السنوات الماضية، كانت القبائل تحصل مقدماً على معلومات مع أن الحكومة كانت تجهل كل ذلك، لأن مهمة الحصول على معلومات ليست مناطة بأحد.

لم يكن نقل المعلومات من الصحراء إلى الحكومة سهلاً بأي وسيلة من الوسائل، إذ تنتقل القبائل العراقية في الصحراء وعلى مسافات تبعد ١٥٠ إلى ٢٠٠ ميل عن الفرات الذي توجد فيه كل الدوائر الحكومية. وهكذا حتى لو حصلت تلك القبائل على إنذار بالخطر وهي بعيدة في الصحراء لا تستطيع نقل هذا الإنذار إلى الحكومة، وبالتالي فقد اقترحت على الحكومة إنشاء مركز مزود بأجهزة لاسلكية في قلعة ابن سعدون القديمة في أبو غار.

بناء على تلك الاقتراحات، فقد قررت قيادة الطيران تعييني ضابطاً مسؤولاً عن جمع المعلومات فيما يتعلق بغزوات البادية، وأخليت مسؤوليتي من الواجبات الأخرى. ولم تكن هناك أي موافقة على التدابير الوقائية أو إعداد الخطط المناسبة لها، أو حتى الحديث عنها. إلا أنه تم تسيير عربات مدرعة كتدبير غير كاف لتقوم بمهمة الاستطلاع في الصحراء الجنوبية وتزور «لصف» و«السلمان» و«أبو غار».

وهذه العملية لا بأس بها كاستطلاع صغير الحجم، لكنها ضئيلة الجدوى لحاجاتنا الفورية. ولكنه كان من الأفضل تنظيم أي شيء دائم، مهما كان صغيراً، ليكون بمثابة قاعدة للتجارب وللبناء عليها. إن قيادة رتل من العربات المدرعة في الصحراء، والعودة بها مرة أخرى إلى بغداد ليصل الجنود قبل عيد ميلاد المسيح (الكرسماس) تبدو لي طريقة غير كافية في الدفاع عن الحدود. فالغزو لا يتم بالضبط في اليوم الذي تكون فيه العربات المدرعة موجودة في المنطقة. وقد كتبت في حينها أن عملية الاستطلاع تشبه تسيير سيارات فرقة المطافئ في المدينة لعلها تجد بيتاً مشتعلاً فتقوم بإخماد نيرانه، وفي حال عدم وجود حريق، منح رجال المطافئ إجازة

بدعوى أنه ليس هناك أي عمل يقومون به .

وحالما عادت العربات المدرعة إلى قواعدها لقضاء عطلة عيد الميلاد جاءتني الأخبار إلى الناصرية بأن الإخوان من قبيلة مطير تحت قيادة فيصل الدويش يعدون لشن غاراتهم . ولم يرحل الظفير ، تحت قيادة الداهية وثاقب البصيرة حمود بن سويط ، إلى الصحراء بعد . ولأنهم قبيلة من أصحاب الإبل فإنهم وثيقو الصلة بوسط الجزيرة العربية أكثر من القبائل أصحاب الأغنام وتصلهم المعلومات بشكل أفضل . ولأنهم يتوقعون قيام الإخوان بغزو جديد وارتكاب مذابح ، ظل معظمهم يقيم بالقرب من سكة الحديد في منطقة تل اللحم على الرغم من أن أنعامهم تعاني قلة المرعى .

ولسوء الحظ لم تسقط الأمطار بعد حول منطقة سكة الحديد أو النهر ، بينما سقطت أمطار غزيرة جنوب خط السلمان - بصيّة ، وأسرعت القبائل من أصحاب الأغنام بالرحيل إلى الأماكن التي تتوفر بها الأعشاب الخضر اليانعة ، والتي تبشر بمراع جيدة لأغنامهم التي أضعفتها حرارة شمس الفرات . وفي الحال بلغت قيادة الطيران معلوماتي ، ولكن عطلات عيد الميلاد كانت على وشك أن تبدأ .

مع أن القيادة لم ترفض اتخاذ الإجراء المناسب في حالة وقوع الغزو إلاّ أنها وبطريقة مهذبة عبّرت عن شكها ، وطلبت معلومات إضافية وتفصيلات أكثر وأجّلت بحث الأمر . كان آل غليظ وبعض من الزياد والبدور ، وكلهم من أصحاب الأغنام ، مقيمين في «جو هدية» .

وجوّ هدية منخفض صغير يشبه الطاسة يقع إلى الشرق من ظهرة الحنيّة ويبعد ٨٠ ميلاً إلى الجنوب من تل اللحم . ويعود أصل مسمى هدية إلى أسباب قد لا تكون لشرحها أهمية . فبعد استقرار ابن سعدون - المشهور بسوء علاقاته مع من حوله - في أبو غار ، في أعقاب إعلان الأتراك أنه خارج على القانون ، قام بشن غارة كبيرة عبر الصحراء ضد الرولة وانضوى البدو وأصحاب الأغنام ، على السواء تحت لوائه ، وذلك قبل شجاره مع الظفير . والظفير محاربون عظماء في الصحراء ، لكن سعدون وأصحاب الأغنام ربما تنقصهم الخبرة في القتال . ويكفي القول إن الرولة حققت انتصاراً ساحقاً وإن سعدوناً المهزوم عاد مع بقية قواته . وحالما عادت هذه القوات الغازية إلى أهلها تبلغوا انذاراً بان ابن سعود يتقدم للهجوم عليهم ، وكان ذلك مباشرة بعد أن فتح الشاب عبدالعزيز الرياض ، وعندما كان ابن رشيد لايزال يحكم قسماً كبيراً من نجد .

وسعدون شجاع غير هيّاب ، فلم يكترث بالخطر الجديد الذي هدده ، وقام بزيارات شخصية إلى مختلف القبائل يناشدها ويلم شعثها ويحثها على القيام بعمل مشترك لمواجهة هذا الخطر . وتمكن من هزيمة الغزاة هزيمة نكراء في ذلك المكان بالذات وحقق سعدون انتصاره بسهولة .

حتى إن المكان الذي وقعت فيه المعركة سُمّي بـ «هدية»[٣١] وهذه حال الدنيا فهي متقلبة، والآن تكفي قبيلة واحدة من قبائل ابن سعود لأن تزرع الرعب في كل قبائل العراق. ويبدو لي أن سبب هذا التغير كان القيادة في نجد، فقيادة عبدالعزيز بن سعود تتفوق على قيادة العراقيين. ففي العراق هناك غياب تام لأي قائد وعدم مبالاة السلطات واضحة. وكدت أستطيع القول وبكل أسف إن سعدوناً لم يعد إلى جانبنا.

وكنت يائساً من أن الحكومة ستتخذ إجراءً سريعاً، فقمت بزيارة حمود بن سويط في تل اللحم، واستأجرت صاحب جمل ليبلغ تعليماتي إلى أصحاب الأغنام في جو هدية ويحذرهم من هجوم الإخوان الوشيك ويطلب منهم الانسحاب من مكانهم. وكان الشخص الذي حمل تعليماتي من أتباع حمود، ففهم أصحاب الأغنام أن كل ذلك ما هو إلاّ مؤامرة من الظفير. فاعترتهم الشكوك بأن الظفير يرغبون في انسحابهم لكي يحتلوا مكانهم الذي تكثر به المراعي الجيدة. وهذه طبيعة التفكير غير المستقيم في ذهنية العرب فهم دائماً يتسرعون في نسبة أسوأ الدوافع إلى عمل الآخرين.

وفي الحقيقة فإن أمنية البدو مؤسسة على تفكيرهم، فالصحراء التي خلفهم والممتدة حتى الفرات لم تسقط عليها الأمطار الأولى وأصبحت جرداء مثيرة للغبار، بينما المساحة الممتدة من أمّ رحل إلى جو هدية مغطاة ببساط أخضر قشيب من العشب وكل يوم يمضي في هذه المروج يعني الكثير من الحليب والسمن، والمزيد من الخراف السمينة والقوية. ومن المؤكد كما يعتقدون أن الإنذار مبني على الكذب.

وحالما تبلّغت بان أصحاب الأغنام قد أهملوا تحذيراتي لهم، قررت أن أذهب إليهم بنفسي وأطلب منهم الانسحاب. ولم أكن مسؤولا عن أمنهم، فأنا مجرد ضابط استخبارات والحكومة المدنية هي المسيطرة، إلا إذا استدعت سلاح الجو الملكي البريطاني، ولكنني بدأت أعرف هؤلاء الناس وأتلمس مشاعرهم، وشعرت أنه إذا لم أعمل شيئاً من أجلهم فلن يقوم به الآخرون.

وعليه طلبت من حمود أن يجهز جمالاً في صباح ٢٣ ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٩٢٤ وخرجت من الناصرية بالسيارة إلى بيوت الظفير في تل اللحم وعلى الرغم من أن حموداً قد وعدني بإعداد الجمال، لكنني عندما وصلت لم أر تلك الجمال. وهذه في الحقيقة، طبيعة رجال القبائل الثابتة والمزعجة. فإذا طلبتهم أن يزودوك بأي شيء فسيجيبونك بأنه سيكون

---

(٣١) في سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م حدثت وقعة بين الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت وبين الشيخ سعدون باشا السعدون رئيس المنتفق وانهزم فيها الكويتيون. ويقول مؤرخ الكويت عبد العزيز الرشيد: «سميت هذه الوقعة بهدية، لأن أهل الكويت سلموا أموالهم لسعدون وقومه مثل تسليم الهدية بدون حرب يستحق الذكر». [المترجم]
انظر عبد العزيز الرشيد: **تاريخ الكويت**. دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٣، ص ١٥٨.

جاهزاً عندما تريد، ولكنه في الواقع عندما تطلبه تحتاج إلى يومين حتى يقدموه لك أو أنه لا يوجد إطلاقاً، وما حصل لي ليس مستثنى من ذلك، وأوضح لي حمود بأن الجمال راتعة في المرعى وأن الرجال الذين من المفترض أن يرافقوني غير موجودين الآن لأنهم غير متأكدين من أنني سآتي أم لا، وقال بابتسامة كريمة: «على كل حال، إن غداً سيكون جيداً مثل اليوم، في الوقت نفسه فإننا نسعد بصحبتك». فاضطررت إلى كبح جماح غضبي، وأمضيت يومي بين التدخين وأحاديث القيل والقال حول موقد نار القهوة في بيت حمود والتأكد من أن كل شيء مُعدّ لرحلة الغد، ومع أننا لم نعرف ما تخبئه لنا الأيام عندئذ، تبين أن العناية الإلهية هي التي أخرتنا يوماً.

وفي المساء اكتشفت أن حموداً قد أمر أربعين من رجاله بجمالهم على مرافقتي موضحاً أن الصحراء خطيرة ومن الممكن أن يعترضنا الإخوان الغزاة، وأضاف أنه ليس هناك شخص بمنزلتي يرتحل بوقار وكرامة دون مرافقين أو حرس. لكن ميزانيتي لا تسمح، فالمعتاد بعد هذه الرحلة أنه يتوجب عليّ تقديم العطايا لكل واحد من مرافقي الأربعين في نهاية الرحلة. لذلك فقد أقنعت حموداً بتخفيض مرافقي إلى أربعة وهم رومي بن سويط وهو أخو عجمي، وشريدة بن جندل، وغنيم بن شويش من الظفير، إضافة إلى عبد أسود يدعى علياً واستأجرت جملين أحدهما لي والآخر لخادمي علي اليونس.

كانت الشمس مرتفعة عندما غادرنا مضارب الظفير وعبرنا سكة الحديد متجهين جنوباً في الصحراء، في يوم من أيام الشتاء المفعمة بالحيوية، فالجو صحو والسماء صافية، والهواء بارد يسري منعشاً، والشمس معتدلة الدفء، والأفق أمامنا عريض كالبحر. وانفجر البدو يغنون [يهيجنون]، حالما أخذنا نضرب رقاب نجائبنا بالعصي ضربات خفيفة نحثها على العَدْو. وأهزوجة عَدْو الجمل [الهجيني] من الأهازيج المتعارف عليها بين البدو، ولدى كل بدوي ذخيرة كبيرة منها. وقد أحضر شريدة معه صقراً وضعه على شداد جمله، وسلوقياً يجري خلفنا على أمل أن يصطاد أرنباً برياً أو حبارى.

وعند المساء وصلنا قطيناً للظفير في الشمال الغربي من أبو غار، في منطقة كثبان رملية [طعوس]، وترجلنا عن النجائب عند أقرب بيت رأينا فيه مجلس رجال يشكلون دائرة حول النار وسمعنا دقات هاون [نجْر] القهوة. وهذا البيت محصور بين كثيبين رمليين مرتفعين في أرض منخفضة، وحولت النّار المتوهجة داخل البيت إلى لون ضارب إلى الحمرة، متورّد متغاير بشدة مع سواد الصحراء الشاسعة في الليل وصمتها، وأمام البيت كومة حطب من شجر الغضا، التي تنمو بكثرة في الحزام الرملي، مما يعدنا بالنور والدفء في تلك الليلة وخارج مجلس الرجال المتحلقين حول النار ذوي الوجوه الوضاءة تبرك جمال تجترّ، تحت نجوم سماء الصحراء الزاهرة.

وكانت أجسامنا نصفها جالس والنصف الآخر متمدد في الرمل الناعم، وحتى نريح أكتافنا كنا نتكىء على الشداد، وننظر إلى الدلة الموضوعة على موقد النار، وتذكرت أنها ليلة عيد الميلاد.

غادرنا في الصباح الباكر (من اليوم التالي)، والبدو عادة لا يتناولون فطور الصباح، وتجاوزنا آخر كثيب من الحزام الرملي ونظرنا إلى هضبة صحراوية زرقاء اللون، وقد قررنا أن نمكث ليلة في أقصى الجنوب عند قبائل أصحاب الأغنام في جو هدية وأن نقنعهم بأن ينسحبوا إلى الخلف في اليوم التالي وأن يبعدوا عن مكانهم بقدر ما استطاعوا حتى «شقراء» على الأقل، إلى أن نحصل على رد أو قرار من الحكومة.

ومن الكثبان الرملية باتجاه شقراء شاهدنا بدويين على ظهر جوادين، وانطلقا مسرعين باتجاهنا، ترتفع ثيابهما البيض الطويلة عن السرج تاركة ساقيهما عاريتين متدليتين، وقاما يدوران حولنا وهما مسرعان قبل توقفهما، وقالا لنا وبصوت مرتفع إنهما سمعا في هدأة الفجر إطلاق نار من جهة أم رحل. وقد تبيّن أنهما من الإخوان اللاجئين الذين يخيّم بعضهم في شقراء. لقد كنا متجهين إلى أم رحل، ولكن بعد سماع هذا الخبر، توقفنا مراراً لكي نكشف الأراضي التي أمامنا بواسطة منظار الميدان. كان على يسارنا يمتد خط أزرق طويل هو ظهرة الحنية فتحجز الرؤية عما وراءها. وأمامنا تماماً صحراء منبسطة. والشمس تلمع لمعاناً ضعيفاً والهواء يسري دافئاً.

وعند وقت الضحى رأينا بقعة داكنة على طول ظهرة الحنية تتحرك جنوباً. ويبدو أنها قطيع من الحمير تعود إلى أصحاب الأغنام، كانت أقرب إلينا من منطقة أم رحل، وبما أنها تتحرك جنوباً دون اكتراث على ما يبدو، استنتجنا من ذلك أنه قد يكون ما أخبرنا به الرجلان غير صحيح. والتحذيرات من الغزو في تلك الأيام كانت متكررة في الصحراء.

وعند الظهر وصلنا سفح ظهرة الحنية دون أم رحل، وقررنا التوقف لنتناول شيئاً من الطعام، فنحن لم نأكل شيئاً منذ الصباح، وكذلك لندع جمالنا ترعى لمدة نصف ساعة. واخترنا «تلعة» (مجرى جاف لمياه الأمطار) على سفح الظهرة وترجلنا لكي نحتمي فيه من الهواء البارد الذي يتخلله دفء الشمس. وسرعان ما ذهبنا نحطب الشجيرات وأشعلنا النار وتحلقنا حولها مادين أيدينا فوق لهب النار نلتمس الدفء. وأرخينا قيد جمالنا لتتمتع بحرية نسبية في الرعي ووضعنا فطورنا المؤلف من الخبز والتمر ولحم بارد على قطعة قماش، والصحراء بكل ما فيها والتلال الزرقاء تبدو خالية صامتة ما عدا صوت الريح الذي يخرق صمتها.

وبعد نصف ساعة صعدنا سفح الحنيّة شديد الانحدار، وخلال عشر دقائق ارتقينا قمة الظهرة وعندما عبرنا الحنية، ظهرت فجأة أمامنا صورة حية. وعند هذه النقطة يقع الأميغر، وهو منخفض طوله حوالي ٤ أميال وعرضه حوالي ميل واحد، غرب الحنية وموازياً لها، وهنا تصبح للحنية ظهرتان بدلاً من أن تكون في أماكن أخرى فقط الوجه الغربي لهضبة الدبدبة. ومنخفض الأميغر[٣٢] الذي يقع تحتنا مليء بقطعان الأغنام والحمير، كلها تتحرك باتجاه الشمال. وتجد هنا وهناك رجالاً يمتطون جياداً وآخرين يركضون ويستعجلون مواشيهم، كل هؤلاء أصحاب الأغنام مرتحلون إلى الشمال يغطون وجه الصحراء كأنهم حشود مندفعة من النمل.

وعندما صعدنا أعلى الحنية وقد تجاوزنا الأفق، لم أدرك دلالة هذا المنظر في البداية، لكن البدو أدركوه في الحال وقدروا معناه، وقال شريدة: «إن الناس يهربون فزعاً، لابد أن مكروهاً حدث لهم.

وبما أننا لم نسمع إطلاق نار، ظننا، في البداية أن ظهورنا كان نذير خطر بالنسبة إلى أصحاب الأغنام الذين ربما كانوا متوترين بعد إنذارنا الأول لهم عن قرب حدوث الهجوم عليهم. ومن المعروف أنه ليس هناك أي بدوي يقطن بالقرب من أصحاب الأغنام هؤلاء وعندما رأونا أمامهم تحت الأفق ونحن ستة رجال يمتطون جمالاً، ربما أثرنا ذعرهم. وقد تفاجأنا تماماً حين صعودنا أعلى الظهرة فجأة، لنأتي إلى منظر الفوضى هذا، وبالنسبة إلي لم أستطع التفكير بسرعة.

ولم يكن لدينا الوقت الكافي لنتبادل الأفكار حتى انطلقت رصاصة فوق رؤوسنا، وأخرى، وأخرى. ونحن بمقدورنا رؤية أصحاب الأغنام القريبين منا عندما توقفوا عن فرارهم، وركضوا نحونا بضعة أمتار، وأخذوا أماكنهم لإطلاق النار مصوبين بنادقهم نحونا، فنزع رفاقي البدو عباءاتهم ملوحين بها من فوق رؤوسهم، ولكن لا جدوى من ذلك وانهمر علينا الرصاص بكثافة وسرعة. وبما أن أصحاب الأغنام لا يبعدون عنا سوى ٦٠٠ متر، فالوضع أصبح سيئاً، فنادى رومي بن سويط بأن ننسحب إلى الشعيب.

وأخذنا نضرب جمالنا بحدة بالعصي، وأخذت تعدو بسرعة إلى منحدر السفح، ونزلنا في تلعة رملية أنخنا فيها جمالنا وترجلنا منها، وهنا توارينا عن أنظارهم، ومع هذا فالطلقات لازالت مستمرة فوق رؤوسنا «ويت - ويت - ويت»، وزحفنا على بطوننا إلى الضفة الأخرى للشعيب.

---

(٣٢) الأميغر: مأخوذ من المَغْرة (نوع من الطين أحمر اللون)، وهو واد فيه منهل يقع على الحدود العراقية شمال الوقباء تنحدر فروعه من الرخيمية وهو في أسفل الرخيمية. [المترجم]

انظر حمد الجاسر. **المعجم الجغرافي**، مصدر سابق، ص ص ١٣٧ - ١٣٨.

ومازال انطباعنا بأن أصحاب الأغنام قد أخطؤوا معنا بسبب الذعر الذي اعتراهم، معتقدين أننا غزاة، فكانت القاعدة في الصحراء في تلك الأيام «أطلق الرصاص أولاً ثم أسأل بعد ذلك». وعندما استمر أزيز الرصاص فوق رؤوسنا أخذنا نشتمهم وبشيء من التوتر، وبعد أن أشعلنا سجائرنا، أطلق شريدة بن جندل ضحكة عالية قائلاً: «الله ياخذ أعمار أهل الغنم» عندما أخطأتنا طلقات الرصاص، «حتى ما يعرفون كيف يطلقون الرصاص!».

قال رومي بن سويط: «هل تريدهم أن يصيبونا؟» ويبدو أنه لم يحتمل أن أولئك الناس الذين أتينا لإنقاذ حياتهم يطلقون النار علينا.

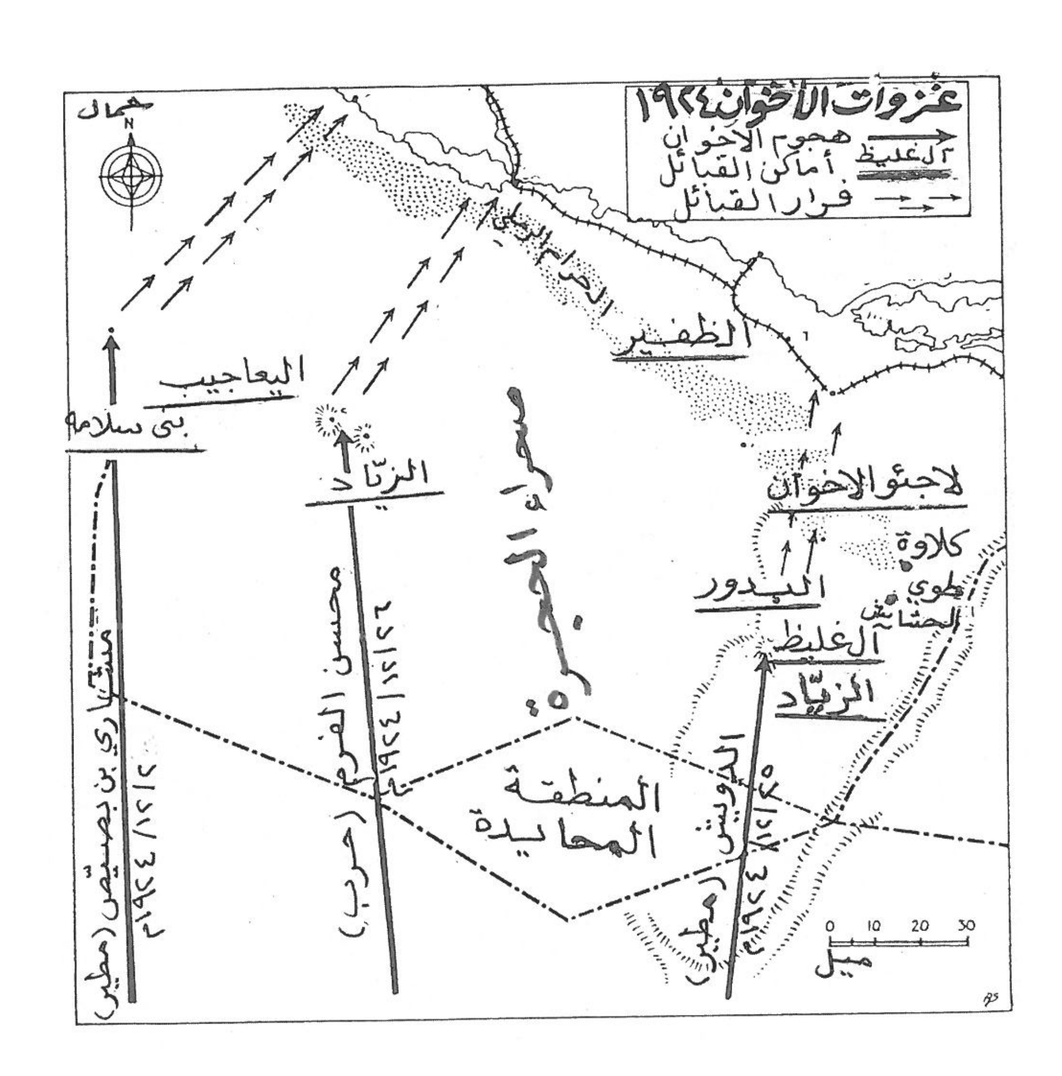
في غضون ذلك قررنا أن نرسل علياً، الخادم الأسود، ليخبر أصحاب الأغنام عن هويتنا، وطلبنا منه أن يسير على طول الوادي الذي أنخنا فيه حتى يكون متخفياً لا يرونه ومن ثم يقوم باستدارة كبيرة حتى يأتيهم من اتجاه آخر. وقد شاهدناه وهو يزحف وسط الوادي ثم ركض في أرض منبسطة أسفل الوادي. وأخذ يلوح بعباءته لرجل بالقرب منه كان يسوق أغنامه أمامه. غير أن الراعي عندما رآه رمى معظم ملابسه وترك أغنامه مطلقاً ساقيه للريح، وحاول صاحبنا اللحاق به ولكن دون جدوى.

وقال شريدة وباشمئزاز، «جعلهم كلهم في نار جهنم».

وأخيراً استطاع صاحبنا التحدث إلى رجل يمتطي جواده، أسرع لتحذير الآخرين. وبالتدريج تم وقف إطلاق النار، وركبنا نجائبنا ونزلنا السفح المغطى بالأشجار.

الفصل السابع

عيد ميلاد سعيد



غزوات الأخوان ١٩٢٤
هجوم الاخوان
آل غليظ
أماكن القبائل
فرار القبائل
شمال
N
العاجيب
بنى سلامه
الزناد
الظفير
لاجئو الاخوان
البدور
كلاوة
طوي
الحشانش
آل غليظ
الزياد
صحراء الحجرة
المنطقة المحايدة
مشاري بن بصيص (مطير) ١٩٢٤/١٢/٢م
محسن الفرم (حرب) ١٩٢٤/١٢/٢
الدويش (مطير) ١٩٢٤/١٢/٥م
0 10 20 30
ميل

عيد ميلاد سعيد

على الرغم من أن أصحاب الأغنام قد عرفوا هويتنا، إلاّ أن الكتل المتحركة من الأغنام والحمير والرجال لم تبد أي إشارة إلى تخفيف الذعر الذي انتابهم. وعندما وصلنا وادي «الأميغر» أحاطت بنا مجَموعة من الرجال بعضهم راجل وبعضهم راكب، وقد خيّم عليهم الذهول والهلع. وصاحوا جميعاً، وبعضهم صمت لثوان بعد أن كان يجري بسرعة، وكان آخرون يتدافعون نحونا ويصطدمون بجمالنا أو يمسكون بأرسنتها.

«الإخوان! الإخوان! كون! كون! الإخوان!» هذا كل ما ميزناه في ظل هذه المعمعة.

وبعضهم عندما رآني بالزي العسكري أخذ يصرخ: «أيّها الضابط! أين الحكومة؟ لماذا لا تحمينا؟ هل جلبت لنا حماية؟ الإخوان! الإخوان!».

لقد كان الصخب والجلبة يفوقان الوصف وأنا نفسي كنت في شك من الأمر، فليست هناك قصص متتالية أستطيع الحصول عليها من هذا الحشد الغوغائي المذعور.

ودفعنا جمالنا بقوة ووحشية بين هذا الحشد المتجمهر الذي يحيط بنا، وحجزنا شخصاً أو شخصين في طرف هذا النهر الإنساني الذي يتدفق خلفنا بسرعة وطلبنا معرفة ما الذي حدث. وأجاب أحدهم يبدو أنه يتمتع بيقظته أو بجزء منها: «نحن العويليون أحد أفخاذ قبيلة البدور». وأضاف: «إن آل غليظ والزياد ينتجعون جنوباً في جو هدية. وبعد فجر هذا اليوم جاءنا رجل مسرع يمتطي جواده أخبرنا بأنهم تعرضوا لهجوم من قوة كبيرة، وكل أفراد القبيلة قتلوا وهو الوحيد الذي نجا من القتل. ورأى بأم عينيه رايات الحرب، اثنتان خضراوان وواحدة حمراء، وكانوا يلاحقوننا طوال اليوم. أيّها الضابط إنهم الإخوان».

وابتعد لملاحقة قطيع الغنم قبل أن نستوضح الكثير منه وهو يصرخ راكضاً: «إمش إمش الله يحفظنا! الله يحمينا!».

وبعد سماع هذه القصة من الرجل قال شريدة على نحو حاسم: «إنه الدويش».

فقلت: «هل أنت متأكد؟» وأضفت «قد يكون هناك فصيلان من أصحاب الأغنام قاتل كل منهما الآخر وهؤلاء سمعوا إطلاق النار فاعتراهم الهلع».

ولكن مرافقي البدو قد تسربت إليهم العدوى قائلين: «يا سيدي، إنهم الإخوان! لنغادر، إنهم الإخوان».

لم أتخذ قراراً ولا أعرف ماذا أعمل. والقيادة دائماً تشكو من ندرة التحذيرات التي تصلهم وخطئها. إن العودة من الصحراء لتقديم تقرير عن غزو للإخوان بينما هو شجار بين قبيلتين من أصحاب الأغنام، سوف تسيء إلينا وتنم عن غبائنا. ومن جهة أخرى، فلا يجب أن نظل على ظهور جمالنا بينما هناك نهر متدفق من اللاجئين المذعورين الفزعين يمر بنا. وإذا كان الإخوان قد أغاروا فعلاً على أصحاب الأغنام فإن المقاومة مستحيلة. فعدد رجال الإخوان قد يصل إلى ألفين أو ثلاثة آلاف مقاتل، أما نحن فستة رجال فقط. وكنت غير مسلح، والبدو الأربعة متوترون جداً، وخادمي علي اليونس بدا وحده هادئاً، رابط الجأش. وأصحاب الأغنام قد فقدوا صوابهم من الرعب والرهبة.

ونحن نقف في شعيب الأميغر كانت رؤيتنا محدودة لأن حافة الهضبة الممتدة بمسافة ميل إلى الجنوب منا تحجز الرؤية عما وراءها. وأمرت علياً، الأسود، أن يقتفي أثرنا حتى سفح الحنيّة الذي مررنا به، فقد يستطيع من على الأرض المرتفعة أن يرى فوق الظهرة الجنوبية ويخبرنا عما يحدث وراءها.

وبعد لحظات قليلة، سمعنا فرقعة إطلاق نار بنادق من جهة الجنوب، مما جعلنا فجأة نُدير رؤوسنا. وكان آخر قطعان الأغنام تساق نحونا على السفح الذي يسد طرف وادينا. وفجأة رأينا طابوراً كبيراً من راكبي الإبل وقد اعتلوا الظهرة دافعين إبلهم بأقصى سرعتها لملاحقة فلول أصحاب الأغنام المنسحبين. وتوقف أولئك الذين في وسط الطابور وترجلوا من على ظهور إبلهم وفتحوا نيران بنادقهم بقوة على الرعاة والأغنام. واستمر رجال على الجانب الآخر بانطلاقتهم بسرعة من على ظهور الإبل للالتفاف حول قسم من الهاربين وقطع الطريق أمامهم. وتخلى الرعاة الراجلون عن أغنامهم، وأخذوا يرمون حتى عباءاتهم ويفرون باتجاهنا بأقصى ما أوتوا من سرعة، وسقط بعضهم بعد تعرضه للإصابة من إطلاق الغزاة النار، وأخذ آخرون يسابقون الريح بركضهم. وأثناء ذلك هناك هاربون يتدفقون بسرعة أحياناً وهم يلقون

بنظراتهم المروعة بالتفاتات من فوق الأكتاف وبعضهم بدؤوا بالتخلي عن أغنامهم حولنا، وفروا جرياً على الأقدام. وتعلو صرخة الألم المبرح عندما تدفق هؤلاء الغزاة منحدرين من السفح يطاردونهم: «هُم، جُونا! (جاؤوا إلينا) اقتربوا منا! يا رب احمنا!».

وهذه تبدو إجابة شافية عن تساؤلاتنا فيما كان هؤلاء الغزاة هم الإخوان أم لا، إنهم الإخوان بعظمهم ولحمهم، فأنخت جملي وترجلت عنه، وأخذت دفتر رسائلي من الخرج، وكتبت رسالتين: برقية موجهة إلى قيادة الطيران في بغداد، ذكرت فيها أن القبائل العراقية تعرضت لهجوم كبير من قبل الإخوان في صباح ذلك اليوم وأن القتال لازال محتدماً بالقرب من أم رحل.

وطلبت فيها إرسال طائرات إلى الموقع في الحال، ونظرت إلى ساعتي فكانت تشير إلى الخامسة مساءً وأرسلت الرسالة الثانية إلى رئيس محطة القليبة طالباً منه استعجال إرسال هذه البرقية وإعطاءها الأولوية على كل الرسائل الأخرى التي تشغل خط التلغراف. وأعطيت كلتا الرسالتين إلى غنيم بن شويش، الذي يبدو الأكثر فزعاً في مجموعتنا. وطلبت منه أن يركب جمله ويوصل هاتين الرسالتين إلى محطة القليبة بأقصى سرعة ممكنة وأن لا يتوقف في الطريق حتى يسلمهما هناك. لا شيء تعافه النفس، وشرع في رحلته نحو الشمال، وهو يخبط راحلته بعصاه فتفر بسرعة.

في غضون ذلك ازداد قلق مرافقيّ البدو أكثر فأكثر، لأنهم في هم وغم عندما يرون جملي منيخاً وأنا مترجل.

«يا سيد، اركب.. اركب بسرعة! إنهم قادمون».

والآن لا يبعد عنّا الجيش المتقدم من أصحاب الإبل سوى ألف متر. وإذا ما تقدموا إلى الأمام مباشرة فإنهم سيصلوننا في بضع دقائق إلاّ أنهم ضيعوا وقتاً بالتفافهم حول قطعان الأغنام وقتل الرعاة. وجاء علي الأسود، مسرعاً على جمله منحدراً من السفح وهو الذي كنت قد أرسلته إلى أعلى الهضبة ليستطلع الأوضاع. وقال وهو يلتقط أنفاسه إنه رأى مجموعة كبيرة من راكبي الإبل وهي تحمل راية الحرب متجهة إلى الشرق منا، ومن دون شك إنهم ينوون الالتفاف من الشمال لقطع الطريق أمام انسحابنا. «تعال يا سيد، دعنا نفر، اركب بسرعة. إن الإخوان سوف يقطعون طريقنا بسرعة».

لن نكسب شيئاً إذا ما بقينا في مكاننا، فقفزت على ظهر جملي، وانطلقنا مع سيل الهاربين المتجهين شمالاً. ولاحظت أن مع علي اليونس بندقية ومسدساً، وطلبت منه إعطائي المسدس الذي يتسع لست طلقات، والمسدس ليس بذلك السلاح الجيد في حرب الصحراء، لكنه

أفضل من لا شيء، وفجأة تذكرت أن هذا اليوم هو يوم عيد الميلاد في إنجلترا.

إنها مأساة المرور بين عدد كبير من الحمير المحملة بالأمتعة المتواضعة من ممتلكات أصحاب الأغنام، قدر طبخ، وأكياس أرز أو تمر، وقربة ماء مصنوعة من جلد الماعز، وخيمة ملفوفة. وقافلة الحمير تسوقها النساء وتحثها على المسير بسرعة، وهن يركضن خلفها عاريات الأقدام، منفعلات بحدة من الخوف، وكثيرات يحضن أطفالاً على صدورهن ويدفعن ويضربن الحمير الصغيرة، ويلتفتن باستمرار نائحات: «يا علي، يا حسين، يا الله احفظنا!»[٣٣].

وإذا أدركهن أصحاب الإبل (الإخوان)، لا يعني هذا فقط خسارة كل شيء يملكنه في هذه الدنيا فحسب، بل قتل آبائهن وأزواجهن وإخوانهن وأبنائهن أيضاً، وقيل إن الإخوان ينتزعون الأطفال الرضّع من صدور أمهاتهم ليروا ما إذا كانوا ذكوراً أو إناثاً، فإذا كانوا ذكوراً يقطعون رقابهم ويلقون بجثثهم على الأرض، وإذا كن إناثاً يعيدونهن إلى أمهاتهن.

وبعد أن قطعنا مسافة بسرعة المشي على الأقدام، بدا لنا مرة أخرى أن هؤلاء الغزاة قد تأخروا عن اللحاق بنا لانشغالهم بتجميع المزيد من الأغنام. لم نكن قادرين على مساعدة هؤلاء الفارين، لكنني غريزياً، كرهت كرهاً شديداً أن أهرب وأتركهم، لأن سرعة جمالنا هي التي مكنتنا من ذلك. ونتيجة لذلك فقد تحركنا مع المسيرة وسط هذه الحشود المروّعة وواكبنا حشود تدفقها كالنهر. وقررنا لاحقاً أن نشرع في مسيرنا، خشية أن يحل الظلام، فالغسق يغشانا. لقد شعرت بالخجل وأنا أتخلى عن هؤلاء المشردين الفقراء لترتكب ضدهم المذابح، ولكن يبدو أن ما تبقى من هؤلاء الضحايا قد يهرب تحت جنح الظلام. وكان أهم شيء أن ننقل هذه المعلومات إلى مكتب البرقيات في القليبة التي تبعد حوالي ٦٠ ميلاً، وأخذنا نسير بسرعة إلى الأمام باتجاه شقراء.

وعندما صعدنا أول تل من التلال في الحزام الرملي، قابلنا بعض الإخوان اللاجئين على ظهور خيلهم، تغمرهم الفرحة العظيمة، يعدو كل منهم خلف الآخر على شكل دائرة، وصيحات الحرب تعلو، وكانوا حاسري الرؤوس، تتطاير شعورهم الطويلة في الهواء. وعلّقتُ بشيء من المرارة على تطور ولع هؤلاء الأوغاد بالحرب، الذين لا يزالون يبعدون أكثر من ٨ أميال عن أقرب الأعداء. بالإضافة إلى ذلك، كانوا هم أنفسهم مسؤولين عن تلك المذابح التي ارتكبت ضد أصحاب الأغنام نتيجة للاحتكاك بين العراق ونجد بسبب سرقتهم إبلاً عبر الحدود. لقد حلّ الظلام عند وصولنا خيمهم في شقراء ووجدنا «فيحان الذويبي» سليل عائلة أحد شيوخ قبيلة حرب، وأحد قادة الإخوان اللاجئين.

---

(٣٣)لأن هذه القبائل من أبناء المذهب الشيعي فهم يذكرون في دعائهم اسم علي بن أبي طالب وابنه الحسين لأنهم من آل بيت النبي محمد [ص]. [المؤلف]

وقال مرافقي البدوي إن الجمل الذي أركبه تملكه أرملة ظفيرية فقيرة، قد توفي زوجها قبل ستة أشهر، وإن حمود بن سويط رتب تأجير هذا الجمل لي من تلك السيدة لحاجتها للنقود التي سأدفعها لها لقاء التأجير. ونتيجة لأنه يعود إلى أرملة فإنه لم يركب بصفة منتظمة، ولأنه أمضى فصل الصيف يرعى على ضفاف نهر الفرات، فإنه كان هزيلاً ضعيفاً ويبدو منهكاً. نحن الآن على بُعد أربعين ميلاً عن القليبة التي قررتُ أن أصلها هذه الليلة حتى أرسل برقية إلى سلاح الجو الملكي البريطاني طالباً هجوم الطائرات على الغزاة في اليوم التالي. غير أني استطعت الحصول على مهرة من فيحان الذويبي لنفسي، وأخرى لشريدة بن جندل، وقررت أن أواصل الليل مندفعاً بسرعة لأقطع ٤٠ ميلاً حتى أصل القليبة. ووعدني رومي بن سويط بالسير مع جمالنا ورفاقنا الآخرين إلى مضارب حمود بن سويط.

والمهرة التي استلفتها كانت مهرة فيحان الخاصة، مهرة عربية أصيلة جميلة، ذات لون كستنائي. ومن الواضح أنها تُعدُّ مفخرة للعائلة، وعلق برقبتها عقد من الخرز الأزرق ليحميها من عين الحسود ويتدلى من العقد جرس صغير ترن عندما تعدو خبباً. ومهرة شريدة رمادية اللون أقل أصالة من مهرتي.

وعندما يركب البدوي الفرس، يضع فوق ظهرها فقط دثاراً من قماش القنب المحشو بالصوف وبدون ركاب، وعادة لا يستخدم العنان أو اللجام، بل فقط الرسن وهو قطعة حبل واحدة. وهكذا كان تجهيز خيلنا، وشرعنا في رحلتنا، أنا وشريدة، دون انتظار طعام أو شراب وعند انطلاقنا إلى القليبة كان الجو ملبداً بالغيوم والظلام دامساً. وقطعنا خلال ثمانية الأميال الأولى من رحلتنا منطقة الحزام الرملي، وكانت قوائم جيادنا تغوص في تلك الرمال المتحركة حتى كواحلها، وكنا نصعد وننزل هذه التلال الرملية [الطعوس] كثيرة الآجام (شجيرات صغيرة كثيفة)، وانطلقت المهرة الكستنائية بسرعة، وبالنسبة إلى الذين امتطوا الخيل باستخدام المعدات الإنجليزية مثل اللجام والعنان سيجدون من الصعوبة بمكان أن يصدقوا بأن استخدام الأيدي وحدها يكفي لتوجيه والسيطرة على الفرس الأصيلة أثناء عدْوها وهي مربوطة بالرسن فقط. وكانت متعة مشوقة وأنا أشعر أن المهرة تسير بخطى واسعة أثناء امتطائها، ويداي خفيفتان أثناء إمساكي للرسن.

كانت ليلة حالكة الظلام، سماؤها ملبدة بالغيوم المنخفضة، وريحها شديدة، وعاصفة عنيفة، وفي الحال بدأ سقوط المطر. وراقبت النور وهو يخفت في الغرب خلف الغيوم لأطول مدة ممكنة حتى تلاشى، وأصبحنا محاطين من كل جانب بجدار من الظلام.

وأخيراً، شعرنا من خطوات خيلنا أننا خرجنا من الأراضي الرملية إلى أراض صلبة مغطاة بالحصى. وتعدو مهرتي بأقصى سرعتها باتزان، وبما أنني لا أستطيع رؤية الأرض التي تحت

أقدام المهرة، أوكلت أمري لها.

وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات من مسيرنا، أصبحت القليبة لا تبعد سوى سبعة أو ثمانية أميال حسب تخميني، سمعت نداء شريدة من ورائي فأوقفت فرسي. وقال لي شريدة إن فرسه لا تستطيع العَدْو، حيث وقفتْ وحَرَنَتْ، رافضة التحرك. كنا قد قطعنا مسافة تقرب من الثلاثين ميلاً منها ثمانية أميال في رمال ناعمة دون راحة. ترجّل شريدة عن فرسه وبدأ يسير على قدميه وأخذ يسوقها أمامه. وكان يتوجب عليّ الاستمرار في مسيرتي. إلاّ أنني لست متأكداً من أنه باستطاعتي وحدي الوصول إلى القليبة في مثل هذا الظلام الدامس وفي صحراء غير واضحة المعالم. وعليه قررنا أن لا نفترق وهذا يعني أن مسيرتنا ستكون مشياً على الأقدام، على الرغم من أن فرسي لازالت نشيطة وبإمكانها العَدْو.

والآن أصبحت الأمطار تهطل بشدة، وكانت الريح تهب في البداية من جهة اليمين والآن يبدو لي أنها تهب من جهة اليسار. فناديت على شريدة قائلاً: «يا شريدة، هل أنت متأكد من أنك تعرف أين نحن؟» فأجاب: «بالتأكيد.» وكان يصارع الريح الهوجاء وهو يسحب مهرته الرمادية برسنها من خلفه.

وكنت أرتجف من البرد لأن ملابسي قد نقعت بالماء، وأصبح ظهري يؤلمني وأعتقد أن الساعة كانت الحادية عشرة، وكنا نتحرك لمدة ١٧ ساعة دون أكل عدا قطعة اللحم البارد التي تناولناها ظهراً قبل إطلالتنا على منظر المعركة. وفجأة لاحظت أن الريح أصبحت خلفنا وهي التي كانت حتى الآن تهب على خدي الأيسر.

وصرخت مرة أخرى: «يا شريدة، هل أنت متأكد من أنك تعرف طريقنا؟».

فأجاب: «أعتقد ذلك»، وبثقة أقل عما قاله من قبل.

واستمررنا في صراعنا مع الطبيعة. واستمرت زخات المطر تهطل، والماء يتصبب على وجهي وظهري وساقيّ كنهر متدفق. وبعد هنيهة عندما كانت الريح تبدو خلفنا أولاً ثم في مواجهتنا، سألته مرة أخرى قائلاً: «يا شريدة، هل أنت حقاً متأكد أنك ستجد القليبة؟» وأجاب: «إن شاء الله سوف نصلها».

وأدركت أن إجابته اعتراف بأنه ضل سبيله. وانحنى يتلمّس الأرض بيديه، ولازال الليل حالك السواد. وقال: «هذه تُربة القليبة ونحن قريبون منها، لكني لست متأكداً في أي اتجاه هي».

وعليه قررنا أن نتوقف حتى الفجر. كانت الساعة ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة ليلاً حسب تخميني، فالظلام دامس ولا أستطيع رؤية الساعة. جلسنا على الأرض ونحن نمسك بأرسنة خيلنا التي أدارت ذيلها باتجاه الريح ووقفت بائسة مطرقة رؤوسها إلى أسفل والمطر

لازال ينهمر مدراراً مصحوباً بوابل من البَرَد .

كانت الساعات طويلة بشكل يدعو إلى الملل فاضطجعت وأنا أرتجف من البرد . وركبتاي تلامسان حنكي ، غلبني النعاس ، لأغفو لبعض الوقت ثم أستيقظ وجسمي متصلّب من البرد ، وقبل الفجر توقف هطول المطر وتبدد الظلام قليلاً . ومع أنني كنت أرتدي الزي الكاكي العسكري المصنوع من نسيج صوفي متين وعباءة عربية ثقيلة مصنوعة من جلد الحَمَل [فرْوَة] إلا أنني عانيت بمرارة من شدة البرد الذي يكاد لا يطاق . وعلى بعد أمتار قليلة رأيت شريدة متكوراً يغط في سبات عميق ، لا يغطي جسمه سوى ثوب قطني وعباءة خفيفة . وكنت أعتقد في قرارة نفسي أنه بالإمكان تصور قدرة البدو على تحمل شدة حرارة الصيف اللاهبة ، لكنني لم أتخيل قدرة البدو على تحمل شدة البرودة أيضاً وعدم اكتراثهم بها .

كان نوم شريدة عميقاً ، حتى إن رسن الفرس قد فَلت من يديه ثلاث مرات دون أن يشعر بذلك ، فأنهض من مكاني متمايلاً في مشيتي وأعيد الفرس ، ولحسن الحظ فإن الفرس قد أنهكها الطريق وشدة البرد فلا تستطيع أن تذهب بعيداً .

كانت تلك الليلة ليلة عيد الميلاد من سنة ١٩٢٤ .

وأخيراً انبجس الفجر ثم بدأ النهار . وتمتد الصحراء حولنا على نحو متشابه بلا ملامح مميزة . ولايزال شريدة نائماً فيجب عليّ إيقاظه . وعندما لمسته نهض واقفاً على قدميه بيقظة تامة ، وألقى بنظرات إلى ما حولنا ثم أشار إلى الشمال الغربي قائلا : «القليبة . إنها هناك قريبة منّا» .

كانت فرس شريدة منهكة لا يستطيع امتطاءها فتركته يمسك برسنها لتسير خلفه ، وامتطيت المهرة الكستنائية قاصداً الجهة التي أشار إليها ، وجعلتها تعدو على مهل ، وبعد ميل صعدت أرضاً مرتفعة ، وعلى بعد نصف ميل رأيت خزان مياه محطة القليبة وأكواخها من الصفيح المموج . وكان مظهري غريباً بالتأكيد عند وصولي من الصحراء ، فملابسي تنقع بالماء حتى الجلد وممرغة بالطين وفرسي ملطخة بالوحل ترتجف من البرد .

هذا ولم يصل غنيم الشويش بعد إلى القليبة هو ورسالتاي . وبعد خمس دقائق هيأ لي مشغل المحطة خط البرقيات إلى بغداد طالباً إرسال طائرات من الشعيبة على الفور لمهاجمة الغزاة . وفي الحال قدم لي أنتوني المدراسي [نسبة إلى مدراس في الهند] ، رئيس المحطة ، كوباً من الشاي الساخن ثم ألحقه بصينية من الأرز والكاري ، فأنا لم أتناول أي طعام لمدة ٣٦ ساعة . وبعد أكل الأرز والكاري غلبني النعاس فنمت .

ولكن السلام لازال بعيداً ، وبدأت البرقيات تصلنا . فالبرقية الأولى من قيادة الطيران في

بغداد تضمنت أمراً إلى السرب الرابع والثمانين في الشعيبة بالتوجه فوراً إلى القليبة لأخذي معهم لتعقب الغزاة، والبرقية الثانية من السرب الذي يجهز طائراته لضرب الإخوان بالقنابل، والبرقية الأخرى من السرب نفسه تفيد أن الطقس غير ملائم للطيران. وبرقية أخرى تقول إن الطائرات على وشك الإقلاع والسماء صافية لكن الطقس بارد حيث هبت رياح هوجاء. وجلست في كوخ من الصفيح المموج لمحطة الشعيبة وأنا أرتجف حيث ملابسي متشربة بالماء. وأطرقت أفكر متسائلاً: «لماذا لم تقم الطائرات بالهجوم مباشرة على الغزاة من قاعدتها بدلاً من تضييع الوقت للمجيء هنا لأخذي معهم؟» فقد أرسلت إليهم التفاصيل عن موضع الأعداء على الخريطة.

بعد ذلك ساد صمت مطبق ولم تصلنا أي برقية. وبحلول الساعة الواحدة نفد صبري فأرسلت برقية مباشرة إلى سرب الطيران طالباً منهم التوجه فوراً إلى أم رحل دون المجيء إليّ. وإذا لم يجدوا الغزاة هناك عليهم الاتجاه جنوباً على طول ظهرة الحنية إلى أن يجدوهم، فالنهار أصبح قصيراً.

ووصلتني برقية من الشعيبة الساعة الثالثة عصراً تفيد بأنه تم إرسال ثلاث طائرات نايناك إلى القليبة لأخذي إلى الشعيبة، وأن هذه الطائرات ستقوم بعملياتها ضد الغزاة في اليوم التالي. وضاع اليوم هباء منثوراً بدلاً من ملاحقة الغزاة الإخوان الذين لا يبعدون سوى ٦٠ ميلاً عن القليبة.

وبحلول ذلك الوقت، وعلى الرغم من هطول الأمطار الكثيفة لليلة البارحة، فقد هبت رياح غربية هوجاء على الحزام الرملي مثيرة عاصفة رملية شديدة. فالهواء مليء بحبات الغبار المتطاير التي تجعل الرؤية مستحيلة لأكثر من بضع مئات من الأمتار. إنه طقس متقلب جداً لا يصلح للطيران في تلك الأيام. وأخيراً وصلت طائرة واحدة إلى القليبة. فقد هبطت إحدى الطائرات الثلاث اضطرارياً وهي في طريقها إلينا، والأخرى هبطت بالقرب منها لتقديم المساعدة، إنه فصل جديد من الحوادث. وقبيل حلول الظلام وصلتُ الشعيبة بطائرة واحدة على الرغم من العاصفة الرملية الشديدة.

وسوء الطالع يواجهنا من جديد، فسفينة نقل الجنود ستبحر في اليوم التالي من البصرة، وكان أفراد سلاح الجو الملكي البريطاني لا يخدمون إلا لمدة سنتين في العراق، لذا يجب أن يغادر نصف أفراد السرية في اليوم التالي ليستبدلوا بآخرين مساوين لهم بالعدد. وهكذا فإن الطائرات ستكون بنصف قوتها، إضافة إلى أن الطائرتين اللتين هبطتا اضطراريا وهما في طريقهما إلى القليبة لم تعودا في تلك الليلة، مما نتج عنه أن الطائرات وملاحيها كانوا معطلين عن مواصلة القتال، ومع ذلك فقد أخذت حمّاماً ووجدت ملابس غير مبللة، وتناولت

فطوراً، ووجدت سريراً لأنام عليه.

وفي صباح اليوم التالي، ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٤، شرعنا ببدء الرحلة بالطائرات الثلاث المتوفرة لنا فقط ورأينا آثار المعركة من خيول ميتة وجثث آدمية تغطي أديم الصحراء بين أم رحل وجو هدية، وبعد تحليق منخفض فوق مكان الغارة، اتجهنا جنوباً، وكانت ظهرة الحنية على يميننا، واتبعنا الطريق المحتمل لانسحاب الغزاة. وبعد دقائق أشار قائد الطائرة إلى شيء أمامنا فرفع مقدمة الطائرة، وأصبح يرتفع إلى الأعلى. وأجهدت عينيّ واستطعت أن أميّز أشياء صغيرة شبه ميكروسكوبية كالنمل منتشرة هنا وهناك.

وبعد دقائق كنا فوق هذه الأشياء الصغيرة. وفي مساحة قدرها ثلاثة أميال طولاً وميلان عرضاً كانت الصحراء مغطاة بشكل متفرق برجال يمتطون إبلاً، وتجد اثنين أو ثلاثة يمتطون جملاً واحداً، وآخرين يسوقون قطعاناً من الأغنام أو الحمير.

فإلقاء القنابل على أناس مبعثرين ومتفرقين كهدف يعدّ عملاً محبطاً، ومن الصعوبة بمكان أن تصيب هدفك بدقة. كان انبعاث الدخان والغبار المثار جراء انفجار القنابل واضحاً لنا بسهولة ولكننا غير متيقنين من إصابة هذه القنابل أهدافها المنشودة. وفي الواقع العملي، فإن شظايا القنابل تتناثر حول موقع الانفجار وقد تسبب إصابات، ولكنه يستحيل علينا ونحن في الجو معرفة عدد هذه الإصابات. ويا ليت لو كانت لدينا طائرات أكثر، أو الأفضل أن تكون هناك قوات برية فتساعدنا باستعادة الأسلاب.

غير أن إلقاء القنابل بحد ذاته أثار شيئاً من الهلع في نفوس ممتطي الإبل الذين استطعنا رؤيتهم وهم يفرّون مسرعين بكل اتجاه، مُتخلين عن غنائمهم من الأغنام، التي تجمعت في مجموعات وكأنها تواجه هجوماً أرضياً جديداً، ولكنها غير متأكدة من ماهية هذا الخطر الجديد. ومن الواضح أنه حالما تتوقف عمليات إلقاء القنابل من الطائرة فإن الغزاة سيقومون بتجميع غنائمهم من قطعان الأغنام ويواصلون مسيرتهم. وامتلاكهم الغنائم هي علامة انتصارهم.

وعندما عُدنا إلى الشعيبة كان الوقت متأخراً لشن هجوم آخر في اليوم نفسه. ومع هذا فقد حققنا بعض الشيء من هدفنا. لقد كنا غير محظوظين عندما ضللنا السبيل إلى القليبة في ليلة عيد الميلاد، ولو وصلنا المحطة التي كانت لا تبعد عن المكان الذي بتنا فيه سوى ميل ونصف الميل لوصلت برقياتنا إلى بغداد والشعيبة قبل منتصف الليل. وكذلك كنا غير محظوظين عندما هبت العاصفة الرملية الهوجاء يوم ٢٦ ديسمبر/ كانون الأول، وكذلك كانت المصادفة أن قوات الطيران في نصف قوتها يوم ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول، اليوم الوحيد في السنة الذي

يحدث فيه ما حدث .

ومن جهة أخرى، فكنا محظوظين لوصولي في اليوم الأول من المعركة، ولو لم أكن هناك لوصلتنا الأخبار بعد ثلاثة أيام من وقوع الغارة عندما تصل فلول الناجين الفارين المنهكين إلى القليبة، وفي تلك الحالة فإن الغزاة سيهربون دون أن يصابوا بأذى .

لقد عرفت أن أعظم سمة من حسن طالعي أن حمود بن سويط لم يقم بإعداد المطايا لي في ٢٣ ديسمبر/ كانون الأول، كما طلبت منه . ولو التزم الموعد الذي حددته له، لكنا نائمين في مضارب عشيرة آل غليظ صباح عيد الميلاد، التي لم ينجُ منها إلا رجل واحد هرب على فرسه .

وتأكدنا فيما بعد أن هولاء الغزاة قد مروا بالظروف البائسة نفسها التي مررتُ بها من برد قارس، وأمطار تهطل بشدة في ليلة عيد الميلاد، لذلك فقد أقاموا في أم رحل طيلة اليوم التالي ليرتاحوا وتجف ملابسهم . والفكرة أنهم سيُلاحَقَوْن أو تلقى عليهم القنابل لم تدر في خلدهم، وبالتالي عملوا على مهلهم دون قلق . وقد وصلتنا معلومات مؤكدة أيضاً تفيد أن فيصل الدويش بشخصه كان يقودهم .

في اليوم التالي في ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٩٢٤، قام سرب الطائرات بأكمله بالطيران ولحقوا بالغزاة، لحسن الحظ إلى الشمال من حدود نجد بعدة أميال وهي التي تمنع الطائرات من عبورها . وفي غضون ذلك قد عدتُ إلى القليبة ثم إلى الناصرية لأمضي يوماً واحداً فقط هناك، وكنت متلهفاً للعودة إلى القليبة بأسرع وقت لأساعد ضحايا المعركة من أصحاب الأغنام .

* * *

كثيراً ما لفت الانتباه إلى الأسلوب الذي يقوم به الضباط البريطانيون، المشتتون في أرجاء المعمورة، بتأدية واجباتهم عن طيب خاطر وبحماسة في المجتمعات التي يطلب منهم تأدية خدمتهم فيها . إن أجناساً لا تحصى، مثل السيخ والمالاويين والنيجيريين، قد أثارت مشاعر الود لدى ضباط بريطانيين متعاطفين معها .

وتجربتي في ليلة عيد الميلاد قد حرّكت مشاعري بعمق نظراً إلى الهلع الذي انتاب النساء أثناء فرارهن، والآلام المبرحة التي تبدو على وجوه الأطفال، والمنظر البائس للحمير وهي محملة بممتلكات عائلات أصحاب الأغنام البسيطة، كل تلك المناظر وغيرها عزّزت هيامي وولعي بهم، وجعلتني أغلي سخطاً على الحالة المزرية لهؤلاء الناس الذين يعتمدون في حمايتهم على الحكومة التي أنا أحد موظفيها . وبحيوية الشباب أخذت على نفسي عهداً بتكريس كل طاقاتي لأضع نهاية لمثل هذه الأشياء البغيضة .

الفصل الثامن

شتاء في أبو غار



شتاء في أبو غار*

عندما عُدت إلى الناصرية وجدتُ غاي مور في انتظاري، وهو ضابط الاستخبارات للمهمات الخاصة في منطقة الديوانية ويشغل المكتب المجاور في العمل، وكان برتبة نقيب طيار في سلاح الجو الملكي البريطاني، وكان قد قاد طائرات في الحرب العالمية الأولى، ولكنه أصبح الآن مهتماً بالعرب، فترك الطيران في الوقت الحاضر على الأقل. وطبقاً لنظام غير عملي في التقسيم الإداري في الصحراء فقد أُلحقت الشعيبة والسلمان بمنطقة الديوانية. وبما أن سلاح الجو الملكي كان يعمل في نطاق حدود إدارية، كان مور مسؤولاً عن هذا القطاع من الصحراء الجنوبية. وكنا نجاهد لسنوات لتغيير هذا النظام ونحن نعتقد أن الصحراء عالم بذاته ويجب أن تكون منفصلة عن المناطق الأخرى.

وجلسنا في بيتي الصغير في الناصرية نناقش تجاربي مع غزو الإخوان، وسمعنا طرقاً على الباب وإذا ببرقية موجهة إلى مور بيد صبي ومكتوبة بالعربية، وكانت مرسلة من خادمه الذي تركه في السماوة تقول: «أغار الإخوان على أصحاب الأغنام، ووصل الفارون منهم إلى السماوة».

ماذا يعني هذا؟ أنه يستحيل على الفارين من غزو جو هدية الوصول إلى السماوة، فهم لم يصلوا القليبة بعد. وهل هذا غزو آخر؟ وفي الحال أرسلت برقية إلى القائمقام (الضابط المسؤول) في السماوة، طالباً تفصيلات أكثر، وتلقيت الإجابة، «لم يصل فارون إلى

* يرى المستشرق التشيكوسلوفاكي موسيل (Musil) أن «أبو غار» هو ما يعرف قديماً باسم «ذي قار» وقد ذكر في جغرافية بطليموس باسم Edikari إديكاري. ودارت في «ذي قار» معركة بين بني شيبان وبين الفرس في سنة ٦١٣م انتصر فيها بنو شيبان. انظر .Alois Musil. Northern Negd. (New York 1928), P. 169 [المترجم]

السماوة. أغار الإخوان على أصحاب الأغنام في جو هدية». واعتقدت أن أخبار غزو الدويش قد نقلت دون شك إلى السماوة عن طريق القطار الذي يمر بمحطة القليبة، وأن وصول الفارين هو خطأ ارتكبه خادم مور. ومع ذلك فقد قرر مور الذهاب إلى السماوة في اليوم التالي، ليأخذ خادمه ويحقق لماذا أرسل تلك البرقية التي يذكر فيها أن فارين قد وصلوا إلى هناك. أما أنا فقد عدت إلى القليبة.

وعندما وصل مور إلى السماوة وجد فارين من عشيرة الزيّاد أخبروه أنهم تعرضوا لغزو منذ أربعة أيام وهم في السلمان[٣٤]، وكان ذلك في ٢٦ ديسمبر/ كانون الأول، وتُعد ملاحقة الغزاة بعد أربعة أيام من الهجوم غير ذات جدوى، لأن حدود نجد لا تبعد سوى ثمانين ميلاً عن السلمان. ومع ذلك فقد أرسلت قيادة الطيران ثلاث طائرات إلى السماوة لأخذ غاي مور والذهاب إلى السلمان للحصول على تأكيدات وتفصيلات أكثر.

وأثناء الطيران من السماوة جنوباً استكشفت طائرات الاستطلاع بضعة أشخاص مبعثرين يسيرون في الصحراء في نقطة تبعد بضعة أميال إلى الشمال عن السلمان، فهبطت بالقرب منهم. وتبين أنهن نساء منهكات من الناجين من الغارة يحاولن الوصول إلى السماوة مشياً على الأقدام. وأكدن أن الزيّاد تعرضوا لغزو كاسح من الإخوان بقيادة محسن الفرْم، أحد شيوخ قبيلة حرب، وأنهم لا زالوا مخيمين على آبار السلمان. فأقلعت الطائرات على الفور، وها هي في منحدر وادي السلمان العميق صفوف مترامية من الخيام وقطعان من الإبل الراتعة وأعداد كبيرة من الأغنام والحمير المنهوبة من أصحاب الأغنام العراقيين. ولم يحدث مسبقاً أن شكل غزاة الإخوان هدفاً سهلاً بهذا الشكل، ولكن كل طائراتنا الثلاث لم تحمل أسلحة! فحلقت الطائرات حول تجمعاتهم دون أن تصيبها بأذى وعادت إلى السماوة.

ويبدو أن الإخوان كانوا يزدرون الحكومة العراقية وقبائلها حيث أقاموا أربعة أيام في موضع انتصارهم، يقيمون ولائمهم من الأغنام المسلوبة وغيرها من المؤن، ويرتاحون تحت دفء الشمس المشرقة في فصل الشتاء. وفي اليوم التالي وصلت طائرات أخرى من بغداد إلى السماوة، ونجحت في ملاحقة الغزاة وإلقاء قنابل عليهم مرتين قبل أن يعبروا حدود نجد. لكنهم كانوا متناثرين على أديم الصحراء في حركة مستمرة، كما حدث معنا عندما لحقنا بالدويش.

---

(٣٤) جاء في معجم البلدان: السلمان منزل بين عين صيد وواقصة والعقبة، والسلمان ماء قديم جاهلي وبه قبر نوفل بن عبد مناف أحد أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو طريق إلى تهامة من العراق في الجاهلية. وفي الجمهرة: وسلمان كان من مياه بكر بن وائل ويوم سلمان من أيام العرب المشهورة لبكر بن وائل على بني تميم أسر فيها عمران بن مرة الشيباني الأقرع بن حابس ورئيساً آخر من بني تميم فلذلك قال جرير:

بئس الحماة لبيت يوم سلمان   يوم تشد عليكم كف عمران

[المترجم]

وبعد أربعة أيام، وصل تدفق جديد من النساء المنهكات إلى نهر الفرات في الشنافية، من عشيرتي اليعاجيب وبني سلامة، حيث باغتهم الإخوان من عدة قبائل بهجوم تحت قيادة مشاري بن بصيص في الشبيكة[٣٥].

وعلى طول خط الحدود الممتدة من البصرة إلى النجف وصل من تبقى من قبائل أصحاب الأغنام العراقية المحطمة والمفزعة وقد عادت إلى ضفاف نهر الفرات في هلع واضطراب. ونتج عن تلك الغزوات الثلاث ذبح المئات من العراقيين وسلب الآلاف من الأغنام، إضافة إلى الحمير وبيوت الشعر والملابس والطعام والأواني والنقود، إنها كارثة ماحقة.

في غضون ذلك، في ٣٠ديسمبر/ كانون الأول عدت إلى القليبة، ووجدت أن الصحراء المحيطة بمباني محطة القليبة مزدحمة بعدد كبير من الخيام وقطعان الأغنام والحمير وأصحاب الأغنام الذين عادوا مرعوبين إلى ما عدّوه مكاناً آمناً عند سكة الحديد. وجلست حشود من النساء والأطفال على رصيف المحطة، وجلهم نصف عارين، ومنهكون، هزيلو الأجسام من قلة الطعام، إنهن نساء آل غليظ والزياد الناجيات، اللواتي قتل كل أقاربهن الذكور. وكن يواصلن عويلاً مرهقاً للأعصاب ليلاً ونهاراً، إنه نحيب على أولادهن ولكنه لن يواسيهن بفقدهم. لقد كنّ قبل اسبوع أمهات وزوجات وأخوات في عائلات بسيطة من أصحاب الأغنام يسودها الرضا، والآن تحولن إلى أرامل ويتيمات أنصاف عاريات، معوزات تماماً. سلب الإخوان ملابس النساء الخارجية وحليهن، ولكني لم أسمع قط أنهم قاموا بالاعتداء على النساء أو اغتصابهن، وهذا شيء لافت للنظر أن يملك هؤلاء مانعاً ذاتياً في هذا الصدد، وهم الذين يتميزون بالوحشية والفجاجة في قتل ضحاياهم وسلبهم.

أمضيت يومين مُرهقين في ترتيب إجلاء طوابير النساء البائسات مع الأطفال الإناث بوساطة القطار إلى الناصرية والسماوة، واللاتي سيتوزعن على مختلف القرى لاستضافتهن وإطعامهن، وعلى الدوام فإن مشاعر العربي الإنسانية تغمر بالعطف والشفقة أولئك الفقراء والمعدمين، فيستقبلون الضحايا ويدخلونهم بيوتهم دون أي تردد.

ووجدت أن أصحاب الأغنام لا يقفون موقف الاستياء من الحكومة فحسب، بل موقفاً

---

(٣٥) هي تصغير شبكة. وقد جاء في (معجم البلدان): الشبيكة بين مكة والزاهر على طريق التنعيم منزل من منازل حجاج البصرة بينه وبين وجرة أميال. قال عدي بن الرقاع العامري:

عرف الديار توهماً فاعتادها	من بعد ما شمل البلاء بلادها
إلا الرواسي كلهن قد اصطلى	حمراء أشعل أهلها إيقادها
بشبيكة الحور التي غربيها	فقدت رسوم حياضها ورّادها

[المترجم]

عدائياً. فهم واثقون من أن باستطاعة رجال الحكومة ـ وخاصة البريطانيين ـ وقف تلك المذابح الجائرة المحزنة إذا ما رغبوا في إيقافها، وكانت أغلبيتهم تعتقد بأن هناك دافعاً سياسياً ينمُّ عن غياب الضمير يجعل السلطات تتواطأ في المجازر ضد قبائلها، أو حتى تشجع ارتكابها. وليس بغائب عن الذهن موقف الحكومة العثمانية منذ سنوات عندما شجعت الحرب الأهلية في منطقة المنتفق. لذا فإن الاستهزاء والتمتمات والنظرات العابسة كانت تلاحقني كلما صعدت أو نزلت من رصيف محطة سكة الحديد أو ذهبت إلى تجمعات الفارين حول الآبار بالقرب من مباني المحطة.

وفي غضون ذلك استيقظت الحكومة بصدمة عنيفة، حيث وافقت على اقتراحي بإنشاء مركز في أبوغار في الحال، وهو الذي كنت أنتظر طويلاً الموافقة عليه. وكانت أول مشكلة واجهتها هي كيف يمكن نقل الجنود ثم نقل المؤن إليهم، فهناك حزام رملي يقع بين أبو غار وخط سكة الحديد. وفي صباح أحد الأيام، انطلقت في شاحنة فورد صغيرة من القليبة في محاولة لإيجاد طريق من خلال الكثبان الرملية. وكانت الأميال العشرة أو الاثنا عشر ميلاً الأُولى في الطريق من القليبة عبر صحراء منبسطة مغطاة بالحصى تتناثر عليها الشجيرات الصغيرة بوفرة، يقدّر ارتفاعها بما بين ١٨ بوصة وقدمين. بعدها دلفنا إلى سلسلة طويلة من الكثبان الرملية تمتد عبر الأفق من اليمين إلى اليسار. وسرنا جيئة وذهاباً على حافة الحزام الرملي محاولين إيجاد أي فجوة، ولكن دون جدوى. وعبرنا هنا وهناك ظهرة رملية صغيرة تنتهي بأرض مسطحة حصوية وبدا لنا أننا نعبر سطحها بخفة بملامستها لمساً رقيقاً دون مشكلات. وتعمقنا بحذر في المسير إلى مسافة أبعد في الرمال، ووجدنا أنفسنا نبحر فوق كثبان رملية صغيرة، والبهجة تملأ نفوسنا ونحن نستمتع بالمشاهد الطبيعية. وواقع الأمر أن باستطاعة السيارات الخفيفة السير على البحار العظيمة من الرمال بحصانة وهي التي أصبحت بالنسبة إلينا الآن أمراً مألوفاً، ولكننا لم نحلم أبداً بإمكانية ذلك في سنة ١٩٢٥. إذ تتكون على مساحة شاسعة من الرمال قشرة سطحية تستطيع السيارات الخفيفة ذات الإطارات الكبيرة السير عليها بسهولة ويسر، وكأنها تسير على طرق ممهدة بالإسمنت. صحيح أنه إذا ما انهارت هذه القشرة فإن المركبة ستغوص في الرمال حتى محور العجلات، وقد يكون من الصعوبة بمكان انتشالها، لكنه مع وجود السيارة المناسبة والقائد الخبير ستسهل الأمور. وإذا كان هناك عدد كبير من المركبات تسير على الطريق نفسه، قد يؤدي ذلك إلى انهيار قشرة السطح، بحيث يغوص الكثير من هذه السيارات في الرمال.

كانت هذه التجربة لا تزال تنتظرنا في يناير/ كانون الثاني ١٩٢٥. وبعد ساعة ونصف الساعة وصلنا أبو غار وكانت دهشتنا كبيرة بعد أن قطعنا كل الحزام الرملي. وبعد ساعتين كنا

في محطة القليبة، وبلهفة أرسلت برقية إلى بغداد قائلاً إن سيارة الفورد الصغيرة قد عبرت الحزام الرملي وإن باستطاعتنا تزويد القوات بالمؤن بواسطة السيارات ولسنا بحاجة لتحميل الأمتعة على قوافل من الجمال. وفي أوائل يناير/ كانون الثاني ١٩٢٥ وصلت أبوغار سرية مشاة من الجيش العراقي واحتلت القلعة الأثرية العائدة إلى الزعيم المشاكس سعدون، وأقامت محطة اتصالات لاسلكية. وأنشأتُ بنفسي أيضاً قيادة خاصة في أبو غار مكونة من أربعة أفراد من العرب وأربعة جمال وثلاث خيام. أما القبائل التي فرت بعد هجوم الإخوان إلى سكة الحديد فجازفت مرة أخرى في العودة إلى الصحراء حتى شقراء وأبو غار.

ولم يكن لدينا بعد أي نظام استخباراتي ينبئنا عن الغزوات المحتملة من نجد، كما لم تنظم الدوريات ولا الحراس. والأسوأ من ذلك كله أننا لم نستطع السيطرة على قبائلنا التي تقف منا موقف عدم الثقة بنا بدلاً من الولاء لنا، وحتى إذا حصلنا على معلومات عن هجوم وشيك، كانت قبائلنا لا تصدق تحذيراتنا وهي نفسها تعيش محطمة الأعصاب، فعند سماعها أي إشاعة عابرة عن غزو، يصيبها الهلع فتفر مذعورة، وتتقدم في أعماق الصحراء مما يعرضها للمخاطر، تستنهضها شجاعتها المتهورة، من أجل البحث عن مراعٍ جديدة.

ووقفت الطبيعة في صف الإخوان في تدمير قبائل العراق في ذلك الشتاء الرهيب، إذ تشكل الصحراء أفضل المراعي، بل المراعي الوحيدة، للإبل والأغنام في الشتاء، إلا إن الأمطار الوافية ضرورية، وكثيراً ما يكون سقوط الأمطار متقلباً ومحلياً. فتجد هنا وهناك مساحات من الصحراء تلبس حلة جديدة قشيبة من الأعشاب الخضراء في ديسمبر/ كانون الأول نتيجة سقوط الأمطار المبكرة في فصل الخريف، وقد تكون هناك مساحات أقل حظاً تظل جرداء بنية اللون طوال الشتاء والربيع، وكأنها في منتصف فصل الصيف. وكانت المصادفة المشؤومة أن الوسم، أي سقوط الأمطار الباكر، في تلك السنة قد أخطأ المنطقة المحيطة بشقراء وأبو غار، مما حرمها من وجود المراعي الجيدة، بينما هناك أراض بكر تغطيها الأعشاب التي يصل ارتفاعها إلى ست بوصات تقع ما بين أم رَحَل وحدود نجد، ولكن لا يجرؤ أحد أن يخيم فيها. ليس كل هذا فقط، بل إن الطقس في شهر يناير/ كانون الثاني كان بارداً وبصورة استثنائية، فكانت لياليه تتميز بصقيع شديد. وبالنسبة إلى الإبل والأغنام التي يتوفر لها الكلأ الوفير فبإمكانها مقاومة البرد، أما التي تتضور جوعاً فإن الوهن يجعلها لا تطيق قسوة البرودة. فصباح كل يوم تجد أمام بيوت الشعر جثثاً متناثرة من الأغنام أو الماعز أو الإبل. فلم يكن من الممكن الحصول على الكلأ في أي مكان، وعليه فإن هذه القبائل سيئة الطالع مجبرة على التنقل من مكان إلى آخر بشكل يومي تقريباً لتتجنّب الجثث المتعفنة من حيواناتها، وعندما ترحل القبيلة فإن مخلفاتها تشبه أرض معركة، فتجد أجساماً لحيوانات نافقة مبعثرة هنا وهناك.

والقبائل العراقية محتشدة في منطقة ضيقة حول أبوغار وشقراء متكبدة خسائر فادحة في مواشيها نتيجة البرد والجوع في يناير/ كانون الثاني وفبراير/ شباط ١٩٢٥ كما عانت الغزوات الثلاث الكبيرة للإخوان في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٤ .

في غضون ذلك فإن القبائل النجدية في أمانٍ من الهجوم الانتقامي المعاكس وتنتشر على جانبي الحدود متمتعة بالماء والكلأ الطيب .

* * *

ومع وجود وسائل نقل محدودة وليس هناك رجال تحت تصرفي ، إضافة إلى أنني لازلت أجهل شؤون القبائل والصحراء إلى حد ما ، لذا فكل ما أستطيع عمله هو أن أوطد علاقاتي وأكون على اتصال مباشر مع القبائل القاطنة حول أبو غار . وقد عُيِّنت اسمياً مسؤولاً في غضون ذلك عن كل الجبهة التي تمتد إلى ٣٠٠ ميل من البصرة إلى وادي الخرّ، وكان لقبي الوظيفي «ضابط خدمة خاصة ـ دفاع ضد الإخوان» . لاشك أن جمع معلوماتَ الاستخبارات على طول الجبهة كان ضرورياً ، ولكن لم تكن لدي وسائل نقل أرضية سوى الجمال . وكان مركز أبوغار هو الوحيد الذي توجد به محطة اتصال لاسلكي في كل الصحراء . ولحسن الحظ نقل غاي مور إلى السماوة ومعه ثلاث طائرات يستخدمها للطلعات الاستكشافية في صحراء الحجرة .

وبدت تلوح في الأفق بعض المستجدات في المنطقة ، فإن أحد الشيوخ الصغار للزيّاد يدعى «دريول الخلاوي» قد جمع عدداً من مناصريه من العشيرة وشرع في الرحيل سراً إلى حائل ، بعد أن اقتنع بأن حكومتي العراق وبريطانيا تشجعان أهل نجد على ارتكاب مذابح ضدهم ، أو على الأقل لا ترغبان في حمايتهم . وطلباً للرأفة رموا بأنفسهم في أحضان ابن مساعد ، حاكم حائل وابن عم ابن سعود . واستقبل ابن مساعد هؤلاء بكل حرارة ومودة وأكرم وفادتهم كعادة العرب الأصلاء ووعدهم بالحماية من غزو الإخوان . فأمرهم أن يخيموا على الحدود في الجميمة وأرسل جامعي الضرائب لتحصيلها من قطعانهم . وشجعهم وعده لهم بحمايتهم ، هذه الحماية التي لا تستطيع أو لا ترغب الحكومة البريطانية أو العراقية في توفيرها لهم ، فحل أصحاب الأغنام هؤلاء في منطقة الحدود التي ينمو فيها الكلأ الأخضر الوفير ، وقاموا بدفع الضرائب [الزكوات] إلى الحكومة النجدية بمحض رغبتهم .

وكان رد ابن سعود ، على الاحتجاجات المكتوبة من الحكومتين العراقية والبريطانية على غزوات الإخوان في ديسمبر/ كانون الأول ، أن الإخوان كانوا يخالفون أوامره . لكن المخالفين من زعماء الإخوان العظام . مثل فيصل الدويش ومحسن الفِرْم ، لم يعاقبهم ابن سعود ، بل

ظلوا مقربين جداً منه. وفي الوقت نفسه فإن الرعب في نفوس القبائل العراقية قد ساهم في زيادة عدد القبائل التي تدفع الضرائب طوعياً إلى نجد لتحصين نفسها من غزوات الإخوان، مما زاد مداخيل ابن سعود. وإذا كانت غزوات الإخوان فعلاً مخالفة لأوامر ابن سعود، فمن الغريب أن القبائل التي دفعت الضريبة لمحصليه (وليس لشيوخ القبائل الغازية) أصبحت محمية من الاعتداءات.

صحيح أن حكومة نجد حاولت في أوقات أخرى معادلة «غزوات» الإخوان اللاجئين بغزوات الدويش ومحسن الفرم، على أن ذلك تصفية للحساب. وأخبرت حكومتا بريطانيا والعراق ابن سعود بأن غزوات لاجئي الإخوان كانت مخالفة لأوامرهما، وهذا بلا شك صحيح تماماً. وكان ابن سعود يرد أن غزوات فيصل الدويش ومحسن الفرْم كانت مخالفة لأوامره، وهذا غير صحيح. وفي الوقت نفسه كان فيصل الأول ملك العراَق وعائلته يعدون ألد أعداء أسرة ابن سعود الحاكمة. ومما لا شك فيه أن ابن سعود مقتنع بأن الملك فيصل كان يشجع اللاجئين الإخوان بشن هجماتهم ضد نجد، على الرغم من نفي حكومة العراق ذلك. وربما قال ابن سعود لنفسه: «إن فيصلاً يشجع الغزوات ضد نجد ومن ثم ينفي ذلك، فإنني سأقوم بالمثل، سأشجع الاعتداءات ضد العراق وأنفي علمي بها».

ومهما كانت المراوغة الدبلوماسية التي استخدمت فإننا في العراق كنا نعاني إعاقة شديدة، فبينما كانت الغزوات القبلية، في تلك الأيام، وإغراء القبائل من الدول الأُخرى من بين أدوات السياسة الخارجية السعودية، كانت بالنسبة إلى حكومة العراق (إذا لم تكن بالنسبة إلى الملك فيصل) إزعاجاً خارجاً عن سياق سياستها. إن رغبة الحكومة العراقية في تحويل بلادها إلى دولة حديثة، جعلتها تنظر إلى القبائل وغزواتها بنفور واستياء، وكادت تكره بدوها كما تكره بدو ابن سعود وتتمنى لهم جميعاً وباء الطاعون الذي يمحقهم.

والإعاقة الثانية التي واجهتنا كانت في استخدام الكلمات، فنشأ عن مجرّد استخدام كلمات معينة الكثير من سوء الفهم والتشويه في فكر الإنسان. ففي قولنا: «غزا» لاجئو الإخوان نجداً، و«غزا» الإخوان العراق، فلا فرق بين الكلمتين في العبارتين أعلاه بالنسبة إلى المراقب الخارجي. ولكن لو تمعنت أكثر تجد أن لاجئي الإخوان يقومون بعمليات سرقة صغيرة، ١٢ جملاً مثلاً، ويقسمون أنفسهم إلى مجموعات صغيرة ما بين ثمانية إلى عشرة أفراد، بينما غزو الإخوان يتفوق عليهم قوة، فعددهم يصل ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف فرد، حاملين رايات الحرب ويرتكبون مذابح يروح ضحيتها المئات من البشر. إن حماقة الحكومة العراقية في منحها حرية كبيرة للاجئي الإخوان وتسهيل تحركاتهم وأفعالهم، أعطى مبرراً لاستمرار مذابح الإخوان بحق رعاياها.

كانت بريطانيا في سنة ١٩٢٥ لاتزال المسيطرة سيطرة شبه تامة ودون منازع على مصيري نجد والعراق على السواء. وكلاهما يشكو الآخر إلى بريطانيا بحدة، فابن سعود يشكو من غزوات العراق على نجد (في الواقع حملات سرقات لاجئي الإخوان) والعراق يشكو من الغزوات من نجد. كيف يفرق مَنْ في وايتهول Whitehall [مقر الحكومة البريطانية] بين تلك الشكاوى، لاسيما أن شكوى ابن سعود غالباً ما كانت أكثر صَخَباً.

والمفارقة الأُخرى في ذلك الوضع هو أن كلا الفريقين ـ لاجئي الإخوان والإخوان ـ كانا من البدو الرحل أصحاب الإبل، الذين يستخدمون الإبل في تنقلاتهم كوسائط نقل، وكانت الصحراء عنصراً فطرياً في حياتهم وهم إلى حد ما قادرون على الدفاع عن أنفسهم. لكن أصحاب الأغنام العراقيين، الذين يستخدمون الحمير في ترحالهم كوسائط نقل، لا يستطيعون التنقل إلى أماكن بعيدة وبسرعة لأن ما يملكونه من قطعان هي أغنام، لذا فإنهم عاجزون تماماً عن مواجهة البدو فأصبحوا هدفاً لهجمات الإخوان الوحشية الانتقامية.

ورجال القبائل العراقية لا يساورهم الشك أبداً ولو لحظة واحدة في أن ابن سعود نفسه أمر بغزوات ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٩٢٤. في الوقت نفسه وبما أن ابن سعود يحتفظ بعلاقة صداقة مع بريطانيا فيفترضون أن هذه الأخيرة متواطئة معه.

وكانت أجواء يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٢٥ مشحونة بالإشاعات عن اعتداءات وشيكة، فيقال إن فيصل الدويش قد أقسم إنه سوف يفني مركز أبو غار. وكانت معلوماتي عن الإخوان ضئيلة وشهرتهم بالنسبة إليّ مرعبة كما تبدو للقبائل العراقية. وفي فبراير/ شباط وصلتنا تقارير من نجد تفيد بأن ابن سعود أصدر أوامر مشددة لوقف أي غزوات أخرى ضد العراق في الوقت الراهن. وقد اتفقت وجهات نظر كل القادمين من نجد بالإجماع بأن عمليات الغزو ستكون بعيدة الاحتمال بعد إصدار ابن سعود أوامر منعها.

في غضون ذلك فإن ابن سعود قد انشغل في حرب ضروس في الحجاز مع الملك حسين واستولى على مكة [المكرمة]. وفي ٦ يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٢٥ بدأ محاصرة جدّة وقد فقد الملك حسين ولاء أهل الحجاز لأسلوبه الاستبدادي والتعسفي في الحكم. وتعود نجاحات ابن سعود إلى حد كبير إلى استياء الحجازيين من حكامهم الأشراف أكثر من انتصاراته العسكرية.

وبحلول شهر يناير/ كانون الثاني ١٩٢٥ أصبح من الواضح أن لا شيء يعوق ابن سعود من إلحاق الحجاز بنجد سوى تدخل دولة عظمى خارجية. إن استخدام الطائرات البريطانية ضد الإخوان أثناء هجومهم على العراق قد أقلق ابن سعود. وفي الوقت الذي تسير فيه الأمور على ما يرام في الحجاز فليس من الحكمة أن يثير عداء بريطانيا، إضافة إلى أن الحجاز في تلك الفترة

يمثل منفذاً جيداً ليمارس فيه الإخوان طاقاتهم الحربية وسوف يحصلون على أسلاب وفيرة.

وطوال شهر يناير/ كانون الثاني كانت هناك طلعات جوية متكررة لطائراتنا فوق الصحراء أمام أبو غار وأغلب الطائرات تقلع من قاعدة الشعيبة في الصباح وتهبط في أبو غار لتأخذني معها في طلعات استكشافية ثم تهبط في أبو غار لأعود ثانية إلى مكاني قبل ذهابها إلى الشعيبة. خلال تلك الفترة تم التوسع في تكتيكات نظام الطيران في الصحراء.

لقد تقدمنا كثيراً منذ أول هبوط لنا في الصحراء عند القواسم قبل ١٤ شهراً، وكنا في السابق نرسل الطائرة لتبحث في الصحراء في مساحة تبلغ ثلاثين ألف ميل مربع بشكل يومي دون تحديد خطة معينة. وعلمتنا التجارب أن هذه الطريقة لا طائل من ورائها، وأنه من الضروري أن نجد طريقة أخرى أكثر فاعلية.

وكثيراً ما كنا نتلقى الإنذار عن أي هجوم وشيك قبل أسبوعين من وقوعه، وفي ظل تلك الظروف فإننا اقترحنا أن يتم الإعلان عن فترة الإنذار، وخلالها تقوم الطائرات بطلعات يومية استكشافية، وعليه لا فائدة من الطلعات اليومية الاستكشافية في الصحراء دونما هدف. وكان واضحاً أن الغزاة عندما يشنون هجومهم يكون هدفهم القبائل العراقية، ويتم الهجوم عادة عند الفجر وذلك ليشكل عنصر المفاجأة وكذلك فإن ضوء النهار يسمح لهم بتجميع الأسلاب. وإذا تم خلال فترة الإنذار قيام الطائرات بطلعات جوية صباحية يومياً للمضارب العراقية البعيدة فإنه من المؤكد نظرياً أن هذه الطائرات تستطيع التدخل في الساعات الأولى من المعركة. فمع أنها لا تستطيع منع بداية الانقضاض العنيف الأول وبالتالي فإن كثيراً من الأرواح قد تزهق قبل وصول الطائرات، فعلى الأقل يمكن التأكد من تدخل الطائرات في المعركة في يوم وقوعها نفسه. ومن المحتمل تلقين المهاجمين درساً لن ينسوه يجعلهم يفكرون أكثر من مرة إذا ما حاولوا معاودة الاعتداء.

غير أن هذه الطريقة تقتضي تدابير معينة لجعلها أكثر فاعلية. أولاً: من الضروري أن نعرف تماماً أين تقطن القبائل العراقية المهمة لإرسال دوريات حراسة فوراً في حال وجود إنذار. وهذه ليست بالمهمة السهلة في أن نعرف باستمرار أماكن وجود مضارب كل القبائل المهمة نظراً إلى الأعداد الكبيرة من مجموعات البدو الرحل الذين يرتحلون على الدوام من مكان إلى آخر وفي مساحة كبيرة تضاهي مساحة إنجلترا. وهذه المهمة أخذت الكثير من وقتي وتفكيري في ذلك الشتاء في أبو غار. وفي النهاية تم تنفيذ هذه المهمة وبنجاح جزئي عن طريق توظيف عدد من البدو، ليطوفوا المضارب على ظهور الجمال. بالإضافة، إلى ذلك تم الآن تخصيص سيارة فورد لاستعمالي وكنت على الدوام استخدمها في جولاتي الصحراوية في حالة عدم حاجة قادة الطائرات إلى مصاحبتهم في طلعاتهم الجوية الاستكشافية.

وثالث طريقة كنت استخدمها في الحصول على أخبار تنقلات القبائل هي افتتاح خيمة خاصة للضيوف قريبة من مخيمي، خلف كثيب رملي يبعد حوالي ٣٠٠ متر عن قلعة أبو غار. وكان خدمي الاثنان أو الثلاثة نشطاء في مفاتحة المسافرين وراكبي الجمال الذين يمرون بالقرب من أبو غار ويدعونهم لتناول قهوة، أو وجبة، أو المبيت ليلة، ويتم تبادل الأحاديث، والخوض في السير، ومن هنا فإن التأكد من أماكن وجود هذه القبائل يتم بشكل يومي.

* * *

ولا أعتقد أن الدوافع الدينية كانت مسيطرة عليّ في تلك المرحلة من حياتي. ومع هذا فإن اهتماماتي الإنسانية القوية وحبي للعرب المحيطين بي قد تكون قريبة للدين إلى حد كبير، كما جاء على لسان حنا [في الإنجيل] «من لا يحب أخاه، الذي يراه، كيف يحب الله الذي لا يراه؟». وقد يكون عكس هذه العبارة أيضاً صحيحاً أي من يحب إخوانه قد يكون فيه من دون وعي بعض الشيء من حب الله.

«عندما نحب، نعيش لأنفسنا أقل مما نعيش لمن نحب، وكلما أحببنا أكثر، أقمنا حياتنا أكثر ما بعد أنفسنا... نحن لا نشعر دائماً عندما نحب... ولكن نعرف أننا نريد الحب، وعندما نريد الحب، نحبُّ»(٣٦). والعبارة الأخيرة قد تعطينا مفتاح حل المسألة. وهكذا فبالنسبة إلى معنى الحب، فهو لا يعني العاطفة، وبالتأكيد لا يعني الإفراط المقرف في العاطفة، بل هو التصميم على المساعدة والخدمة والمشاركة الوجدانية مع كل الناس، وتواضع الإدراك أنه لا نحن شخصياً ولا طبقتنا ولا جنسنا ولا شعبنا يستطيع ادعاء التفوق على غيره، إن نكران الذات يكون في تكريس الجهد من أجل إخواننا الكثر من الجنس البشري.

والناس الذين يحيطون بي كانوا كلهم مسلمين، ومع ذلك لم تكن لديّ الرغبة أبداً في أن أصبح مسلماً. وكل الذين حولي من البدو يؤمنون بالله إيماناً راسخاً، ولا تساورهم شكوك عقائدية وميتافيزيقية. واسم الله لا يفارق شفاههم «إن شاء الله»، و«الحمد لله»، و«يحفظك الله»، و«بارك الله فيك». هذه العبارات تكاد تدخل في كل جملة. والمطر رحمة من الله، والغذاء من فضل الله، وكل مناقشة تنتهي بجملة إن الله وحده يعلم بكل شيء. وأغلبهم يؤدي صلاته بشكل متكرر خمس مرات في اليوم وأعتقد أن ذلك كثيراً ما يكون تلقائياً ودون تفكير، ولكن الصلاة إذا تكررت حتى بلا تفكير تحدث تأثيراً كبيراً في العقل بوجود عالم آخر ما بعد هذا العالم الملموس. في شهر رمضان المبارك يصوم المسلمون ويحرصون على ألاّ يفعلوا ما يتنافى مع الأخلاق، وخلال هذا الشهر لا يشربون ولا يأكلون ولا يدخنون من قبل

---

(٣٦) شارل دو فوكو Charles de Foucauld. [المؤلف]

الفجر حتى غروب الشمس. والأشهر عند المسلمين هي الأشهر القمرية، وعدد أيام السنة (الاثني عشر شهراً قمرياً) يقل عن عدد أيام سنتنا الـ ٣٦٥ يوماً بأحد عشر يوماً. وبالتالي يأتي رمضان كل سنة متقدماً عما قبلها بأحد عشر يوماً تقريباً بالنسبة إلى سنتنا. فعلى سبيل المثال إذا كانت بداية رمضان في الأول من يناير/ كانون الثاني، فستكون بدايته في السنة المقبلة في العشرين من ديسمبر/ كانون الأول وفي السنة التي تليها في التاسع من ديسمبر/ كانون الأول. وإذا وقع شهر الصيام في فصل الصيف فسيكون الصيام قاسياً للغاية لمن يضطر إلى قضاء يومه بكامله تحت شمس الجزيرة العربية اللاهبة، فاليوم الطويل من الفجر حتى الغروب دون تناول أي قطرة من الماء، إنه لمؤلم حقاً.

ويقع الأفراد الذين لا يصومون في حرج خلال شهر رمضان، لأن العرب يصرون على إعداد مائدة كبيرة لضيوفهم، حتى وإن كان الضيف فرداً واحداً ولا يحق لغيره أن يأكل منها.

في سنة ١٩٢٥ كان شهر رمضان على ما أعتقد موافقاً لشهر أبريل/ نيسان، وكنت أعيش مع الظفير فعلياً في ذلك الوقت فصمت شهر رمضان كاملاً معهم. ولم يكن صيامي لدوافع دينية مباشرة بل كان انسجاماً مع المبادئ العسكرية، فالضابط يجب أن يكون قُدوة لجنوده وأن يقوم بما يقومون به، وأنه يخجل أن يعطي نفسه امتيازات ويحرم رفاقه منها. وعندما يصوم المسلمون يستيقظون قبل الفجر لتناول آخر وجبة [السحور] أو على الأقل يشربون ماء، قبل الساعات المرهقة التي تفصلهم عن غروب الشمس. ولا أزال أتذكر بجلاء عندما تم إيقاظي وأنا نائم على كثيب رمل بالقرب من شقراء وقد انحنى مضيفي حمدان الضويحي الشيخ الوقور بقسمات وجهه ولحيته الكثة قائلاً وهو يهز كتفي «استيقظ، استيقظ». وكان يحمل بيده إناء [طاسة] كبيرة مملوءة بحليب النوق تعلوها الزبدة «هذا سحورك، استيقظ فالفجر على الأبواب».

* * *

من المشكلات الأولى التي واجهتنا أثناء تخطيطنا لتكتيكات الطلعات الجوية في الصحراء هي كيف ندرب قادة الطائرات ليجدوا طريقهم في الصحراء. في عشرينيات القرن العشرين، كانت أعداد أدوات الملاحة الجوية قليلة جداً. وكانت طائرات نايناك ninak تحمل بوصلة مغناطيسية، وعلى الطيار أن يجد طريقه من خلال النظر إلى الأرض. وكان من الصعوبة بمكان للطيارين أن يكتسبوا خبرة في الصحراء، لأنه يتم تغييرهم كل سنتين.

وسطح الصحراء عندما تشاهدها وأنت على الأرض، تجده متموجاً متنوعاً مختلفاً عما تراه وأنت في الجو، حيث يبدو كأنه سطح بحر ذو لون بني، والجدير بالذكر أن معالم الأرض

عندما تشاهد من فوق تكون ناقصة. وهكذا حتى إذا حُدِّد مكان الغارة وتم إشعار قواعد الطيران لاسلكياً بذلك، فإنه يصعب على الكثير من الطيارين معرفة طريقهم إلى مكان الغارة.

ويعد الطيران لمسافات طويلة وظيفة مضجرة جداً. وفي تلك الأيام، كانت قمرة الطيّار مفتوحة في الهواء ويتحتم على الطيار والمراقب الجوي الذي يصاحبه أن يلبس كل منهما ملابس خاصة للطيران وخوذة ونظارة واقية من أشعة الشمس أو الغبار وكلاهما مُقيّد. وفي مناسبات كثيرة لولا وجود الحزام لقُذفت خارج الطائرة. ولم تكن هناك وسيلة للاتصالات الداخلية ما بين الطيار والمراقب في طائرات نايناك عدا كتابة الملاحظات على الورق وتمريرها له باليد، ثم يقرؤها ويعيدها.

وبعد ٣٥ سنة، أجدني أتخيل بصعوبة الطيران في الصحراء في سنة ١٩٢٥، وكم هو محفوف بالمخاطر والمجازفات، فالهبوط الاضطراري كان قاعدة وليس استثنائياً. وكانت رحلات الطيران الطويلة مرهقة للأعصاب، لأنه في تلك الأيام لم نكن نعرف الصحراء جيداً، والطيران فوق الصحراء في حقيقة الأمر شبيه بالطيران فوق البحر. ففي بعض الأحايين في دورياتنا الجوية كنا نطير لمدة ساعتين أو أكثر، ولا نستطيع التعرف على معالم الأرض من تحتنا. والأسوأ إذا أُجْبرتْ الطائرة على الهبوط الاضطراري، فالاهتداء إلى مكانها أمر مشكوك فيه والموت البطيء من الظمأ في الصحراء على بعد ١٥٠ ميلاً قد يكون مصيراً غير سعيد لمن فيها.

وفي بعض الأحايين كنا نشعر بقلق حاد ولكنه أقل استمراراً. كنت أرافق العقيد الطيار جنكنز، أحد قادة سرب الطيران ٨٤، في طيرانه أكثر من أي طيار آخر في ذلك الوقت، وفي أحد الأيام هبطنا في مخيم رعاة أغنام يقع في واد صخري ضيق في الغرب من الشبيكة. تحدثنا إلى الرعاة وحصلنا على المعلومات التي نريد وأدرنا الطائرة إلى منحدر الوادي الضيق استعداداً للإقلاع، ووجدنا أنفسنا محاطين من كل جانب في الوادي بجرف صخري يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً. وأرضية الوادي كشعيب صغير تعوق حركة الطائرة لوجود الشجيرات والصخور. وعلى بعد ٢٥٠ متراً ينحني الوادي يساراً على شكل زاوية قائمة تقريباً. ونحن لا نزال بين الجرف الصخري ذي الثلاثين قدماً ارتفاعاً في كل جانب. وينتج عنه أن واحداً من الجرفين سيكون مواجهاً لنا عند الالتفاف وبالتالي سيغلق مدرج الطائرة الذي يمتد ٢٥٠ متراً. وطائرة النيناك من المفترض أن تقلع بعد ٢٠٠ متر، لذا قفزنا إلى قمرة الطائرة، وفتح جنكنز الصمام الذي يتحكم بالبنزين إلى المحرك، وبعد تحرك الطائرة على المدرج بمسافة ٥٠ متراً، انفجر أحد إطارات الطائرة ومن المعتقد أنه بفعل صخرة حادة، فتأرجحت الطائرة نحو اليسار واصطدمت بشجيرة مرتفعة ذات أشواك وانخفضت سرعتها إلى النصف. وبعد عدة أمتار انفجر الإطار الآخر، مسبباً هزة عنيفة نحو اليمين. ونحن نسير بوساطة إطارين معطوبين وأصبحنا مواجهين

تماماً للجرف الصخري وخلال ثوان واجه جنكنز خيارين - إذا أوقف المحرك فهل تستطيع الطائرة الوقوف قبل الجرف الصخري، وإذا أعطاها دفعة قوية من خلال صمام الوقود فهل بالإمكان كسب السرعة الكافية لإقلاعها؟ وما هي إلا لحظات حتى أمسكت بإحكام بمقعدي وقادها جنكنز للإقلاع وطرنا باتجاه الجرف الصخري مباشرة.

كان هناك اصطدام، والطائرة تتمايل، وفي الحال فكرت أن كل شيء قد انتهى، وبعدها أخذنا نحلق على ارتفاع ٣٠ قدماً عن سطح الأرض. وقد اصطدمنا بكومة من الصخور في أعلى الجرف الصخري، ولو انخفضنا ١٢ بوصة لكنا نحن الاثنان في عداد القتلى. إنه واحد من تلك المواقف التي ليس لديك الوقت لتخاف، لكن نبضات قلبك تبدو متوقفة عندما يزول الخطر.

وأخذنا نرتفع في طيراننا إلى ما يقرب من الألف قدم، وبعدها كتب لي جنكنز ملاحظة: «هل باستطاعتك أن ترى إذا كانت عجلات الطائرة لا تزال موجودة؟» ومددت عنقي بأقصى ما يمكن واستطعت رؤية العجلة اليسرى، إذ لازالت موجودة، ومع هذا بدت لي وكأنها ملتوية. والعجلة اليمنى لا أستطيع رؤيتها وأنا في القمرة الخلفية. ومررت ملاحظاتي إلى جنكنز الذي هز رأسه. وعندما اقتربنا من الهبوط كتب لي ملاحظة «تمسك جيداً عندما نلامس الأرض للهبوط لا أعرف كم بقي لنا من عجلات الطائرة». ولكن بمهارته هبطنا بعجلة واحدة دون أن يحدث أي انقلاب.

وعند الهبوط في أبو غار بعد رحلة طيران تستغرق ما بين أربع أو خمس أو ست ساعات، تجدني أسير إلى خيمتي الصغيرة مترنحاً. فالضجيج يملأ رأسي والصمم يعتري أذني، عندما أدلف إلى خيمتي المتواضعة التأثيث، سجادتان صغيرتان، وشداد وصندوق خشبي.

وكنت لا أزال فقط في منتصف يوم عملي. أتناول كوباً من الشاي وأدخن سيجارة ومن ثم أستمع إلى الأخبار. وقد علمت أن سرحاناً أخا شرشاب بن زويد شيخ البدور موجود في خيمة الضيوف ولابد لي من أن أراه. فحييته قائلاً: «مساء الخير، يا سرحان، كيف حالك؟ الله يحفظك».

«أين جماعتكم؟ وكيف حال المراعي؟»

«من يقطن بالقرب منكم؟ وأين الظفير؟ . . . .»

وبهذه الطريقة، إلى حد ما، من الممكن على الأقل أن أكون على تواصل مع تحركات البدو الرحل المستمرة وبعدها فالضيف في دوره كان يرغب في معرفة الأخبار.

«كيف حال حكومتنا؟ وهل ستحمينا الآن؟»

«وما هي علاقاتها مع ابن سعود؟»

« وما هي أخبارك عن الإخوان؟»

«هل بمقدورنا الرحيل إلى أم رحل؟ إن الأعشاب الربيعية الخضر تكثر هناك».

لقد نفق الكثير من أغنامنا، أقسم بالله، إن من يملك مئة رأس من الغنم أصبح الآن يملك ما بين العشرة أو الخمسة عشر رأساً وبعضهم أضحى لا يملك غير عصاه.

إذا قلت لهم إن بإمكانهم الرحيل إلى تلك الأماكن وتعرضوا للاعتداء فإنني أكون مسؤولاً عن دم الضحايا، وقد يقال إني ختنتهم عمداً. وإذا لم يرحلوا إلى المراعي الجيدة فإن قطعان أغنامهم ستنفق نتيجة لقلة الرعي وبالتالي ستكون مسؤوليتي، لأنني لم أقم بحماية هذه القبائل حيث ترعى قطعانها.

وكانت تعليمات بغداد تتطلب أن أُخْطِر القبائل بأنهم إذا شرعوا في التوغل أكثر إلى الأمام فإننا غير مسؤولين عن سلامتهم. ولكن منَ الصعوبة بمكان أن نتهرب من القضية الأساسية باتباع تلك الوسيلة. كان رد أصحاب الأغنام أن الرحيل إلى أم رحل، التي تقع شمالي الحدود النجدية، يستغرق يومين. لماذا يستفسرون هل يدفعون ضرائب للحكومة، وإذا ما دفعوا، فلكي يبقوا آمنين داخل حدودهم؟ وأشاروا إلى أن الذين يدفعون الضرائب لابن سعود قد ضمن سلامتهم.

وعندما كتبت كل ذلك إلى بغداد، كان ردهم أنهم يأسفون لأنهم لا يستطيعون حماية تلك القبائل إذا ما توغلت إلى الأمام ولكن الحقيقة يجب الاعتراف بها أنه لا مفر من ذلك. وكانت كتابة ذلك في مذكرة في أحد مكاتب القيادة أسهل بكثير من تفسيره لمجموعة من رجال القبائل سيئي الطالع الذين تنفقُ أغنامهم من الجوع وهم لا يبعدون عن المراعي الخضر الغنية سوى ٢٠ ميلاً.

تلك كانت مشاعري في ذلك الشتاء البارد المُنهك. إن المعاناة المتواصلة من البرد مثبطة للروح المعنوية، واستحوذ على تفكيري القلق والانزعاج وكنت أواجه على الدوام أسئلة كثيرة ومحرجة من رجال القبائل غير المحظوظين. ولم آخذ المشكلات والصعوبات التي تواجه السلطات العليا بعين الاعتبار مثل القلاقل في كردستان، والنزاع مع تركيا حول الموصل، والأزمات السياسية المتعاقبة في العراق. وحينذاك كنت شاباً وكعادة الشباب اعتقدت أني أعرف أكثر من غيري.

وواقع الأمر، أن الحكومة المركزية كانت مثقلة بأعباء ومشكلات لا يمكن تفاديها، لم يسهل عليّ مهمة مساعدة القبائل العراقية والسيطرة عليها ولا تفسير ما عدّوه جريمة اللامبالاة

الحكومية تجاه مصالحها. والوضع المؤسف الذي لا يمكن معالجته حسب رأي المسؤولين في بغداد كان مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى أصحاب الأغنام. فالكثير منهم قد فقدوا إخوانهم أو أبناءهم، أو آباءهم نتيجة للمذابح التي ارتكبها الإخوان في غزواتهم مؤخراً، ويتعرض الناجون للمجاعة بسبب الجوع المدمّر لأغنامهم لقلة الرعي. فلماذا لا تقوم الحكومة بإرسال قوة حماية تتقدم فقط لمسافة ٢٥ ميلاً لتمكنهم من الانتجاع هناك حيث يتوفر الكلأ الأخضر لأغنامهم، إنها مراع بكر تقع إلى الجنوب من أم رحل؟ وفي النصف الأخير من شهر فبراير/ شباط وشهر مارس/ آذار، تحسنت الظروف إلى حد ما، فسقوط المطر المتأخر ودفء شمس الربيع قد ساهم في نمو العشب والأزهار البرية في منطقتي شقراء وكلاوة. وأشارت التقارير التي تصلنا من نجد إلى أن أوامر ابن سعود المتشددة لوقف الغزوات في الوقت الراهن كان تأثيرها واضحاً في الإخوان.

في غضون ذلك كان مخيمي الصغير في أبو غار قد كبر، فقد نصبت خيمتي على بعد ٤٠٠ متر من القلعة القديمة التي أصبحت مقراً للحامية العسكرية العراقية. كان من الصعوبة بمكان أن أنصب خيمتي داخل الأسلاك الشائكة التي تحيط بالقلعة، بسبب تجمع عدد من رجال القبائل في مخيمي بين جيئة وذهاب. وبالطبع فإن العسكريين لا يسمحون للمدنيين بدخول الأسلاك الشائكة، غير أننا شجعنا كل رجال القبائل بلا استثناء لاستقبالهم في خيمة الضيافة، لكي نحصل على الأخبار منهم.

كانت آلية الضيافة سهلة نسبياً، عدد قليل من البسط المصنوعة محلياً من الصوف مُدّت في أرضية الخيمة وفي الوسط موقد النار التي يتكون حطبها من غصينات تحترق ببطء ومن غير لهب، وخمس أو ست دلال ترتكز بين الجمر في الموقد. وخلف خيمة الضيافة توجد خيمة صغيرة ذات عمود واحد، تجلس فيها امرأة أرملة لا أستطيع تحديد عمرها، تقوم بمهمة الطبخ لنا مقابل أجر. وفي منتصف النهار يقدم إلى الضيوف طاسة مليئة بالتمر وأرغفة خبز من دون خميرة أو طبق من الأرز والدهن. وفي وقت الربيع تحول طاسات اللبن والسمن التمر الجاف المغبّر إلى وليمة لذيذة، وبالنسبة إلى وجبة العشاء فلا تختلف عن وجبة الغداء إلاّ إذا حضر ضيف محترم ففي هذه الحالة يُذبح له خروف. وبواسطة هذه الوسائل البسيطة نجحنا في إبقاء البيت مفتوحاً دون تحملنا مصاريف عالية. وأصبحت خيمة «أبو حنيك» للضيافة مكاناً للعابرين بشكل متكرر.

إن «أبو حنيك» هي كُنْيَتي التي أطلقها عليّ العرب حال وصولي إلى العراق وظل الاسم خالداً إلى هذا اليوم. فقد أُصبت بجروح في وجهي في معركة أراس سنة ١٩١٧ ونتيجة لذلك فقدت جزءاً من فكي الأسفل، وحنيك بالعربية تصغير لحنك، أي «الفك الصغير».

لم تمض مدة طويلة على إقامة مخيمي الصغير في أبو غار حتى شاهدت في أحد الأيام بيت شعر كبيراً نصب بالقرب من مخيمنا. وتبين لي أنه يعود إلى سلمان الغوّال، أحد الشخصيات المرموقة من الظفير، وكان في السابق وقوراً غنياً، أما الآن فإنه يمر بظروف صعبة شأنه شأن الكثير من أفراد عشيرته الذين تعرضوا لغزو الإخوان وسوء المراعي، فقد نفقت معظم إبله، وعلى طريقة البدو المرحة فقد التحق بنا بكل سهولة. فعندما جئت في إحدى الأمسيات وجدت بيت الشعر الخاص به وقد نصب بالقرب من خيمتي. وجاءني ومد يده قائلاً: «يا طويل العمر لقد خيمت بجنبك».

وكان سلمان طويل القامة، ملامحه متناسبة، ولحيته سوداء قصيرة، وسلوكه الهادئ والمهذّب هو مثال لسلوك البدو الطيبين، وإن كان يميل إلى الخجل، إلا أنه حاد الذكاء. وكان في الخامسة والثلاثين من العمر. وكان يرتدي زبوناً، وهو سترة طويلة تلبس فوق ثوب أبيض، وفوقها عباءة بنية. وهذه الملابس الأنيقة كانت هدية من ابن سعود عندما كان سلمان مرافقاً لحمود بن سويط في إحدى زياراته لابن سعود، في السنة التي كان فيها يوسف السعدون قائداً لقوات البادية [الهجانة].

وخيمة سلمان مقسمة إلى نصفين بستارة [ساحة] كبيرة تاركة مساحة كبيرة لإعداد القهوة واستقبال الضيوف. وكان وجوده من ضمن مخيمنا نافعاً، لأن البدو العابرين سيزورونه ويمضون بعض الوقت في بيته لتناول القهوة، ويحدثونه عن الأخبار التي سيرويها لي في المساء.

وكنت أستلقي في خيمتي بعد عودتي من دورية جوية وأسمع في الحال نحنحة في الخارج، ويظهر سلمان يحمل في يساره دلة القهوة النحاسية وفي يمينه فناجين القهوة، قائلاً: «أسعد الله مساءك بكل خير» ويقدم إليّ فنجاناً من القهوة التي قام هو بإعدادها بمقدار ملعقة، لأن تناول القهوة عند القبائل العربية كتناول المشروبات الروحية عندنا.

وبعد مراسيم تناول ثلاثة فناجين من القهوة، حسب التقاليد المتبعة أبدأ بتساؤلاتي قائلاً: «ما هي الأخبار اليوم، يا سلمان؟» وهو بالطبع، كان بانتظار هذا السؤال بالذات. فيضع الدلة والفناجين على الأرض ويجلس على الأرض على باب خيمتي، فالأخبار في الصحراء جد نفيسة، وتستحق التقدير، وسلمان هو المصدر المناسب لها. ومن الطبيعي أنه يحب سرد الأخبار بنكهته الخاصة، فيضيف ويبهر الحكايات ويسهب بعضها.

ويبدأ قائلاً: «والله، لم أسمع شيئاً يستحق الذكر اليوم،» ثم بعد ذلك يتوقف عن الحديث، ليستميل شهية المستمع، ثم يكمل في صوت عادي: «حمد بن جدعان تناول القهوة عندنا اليوم وقد جاء من ابن سويط». وأسأل مبدياً اهتماماً ذكياً مناسباً: «وما هي الأخبار التي حملها؟»

لكن سلمان لم يتهيأ بعد للإجابة لاشباع لهفتي، ويجيب وهو يهز رأسه متأسفاً: «والله

الأخبار في هذه الأيام كثيرة، ولكن الشخص لا يصدق معظمها. فالصدق قد انتهى وحل مكانه زمن الكذب».

ويبدو لي أنه حان الوقت لاستخراج بعض الحقائق بدلاً من هذه الخطبة عن الانحطاط الأخلاقي. فأسأله: «أين ابن سويط؟» و«أين الظفير؟».

«والله ابن ضويحي في كلاوة مع ابن عقاب، والعريف في طوي الحشاش».

- «وكيف حال المراعي؟»

«لم يتحدثوا عنها بسوء، فالعرفج أخضر، والنّصِي متوفر في الفياض[٣٧] جنوبي كلاوه. . .».

- «وأين لزّام؟ . . .» وهكذا نتناول قائمة طويلة من رؤساء البدو وأصحاب الأغنام، والأفخاذ المتبقية.

ثم نتحول إلى موضوع جديد: «هل جاء أحد من فوق (عالية نجد)؟ فنجد هضبة مرتفعة تنحدر نحو الفرات والخليج.

«والله يقولون جاء رجل من جماعة ابن طواله من نجد وبات ليلة عند الظفير وهو في طريقه إلى الزبير».

«وماذا قال؟».

لكن سلمان لا يحبّذ طريقة الضغط عليه واستنباط المعلومات التي تستغرق عدة ساعات في حديثه اللبق: «يتوجب على الرجل أن لا يعيد كل شيء سمعه». قال ذلك وهو يكثر من المواعظ المضجرة. «يتوجب على الرجل أن يذكر الأشياء التي رآها بعينيه لا الأشياء التي سمعها بأُذنيه، يقولون. . . يقولون. . . كثير من الناس الذين يقولون. . .».

وقاطعته هذا مفهوم، «ولكن ماذا قال، حتى وإن كان لا يعتمد عليه؟».

فأجاب: «قال الشمري إنه سمع أن الدويش قد أقسم إنه سيطرد الكفرة من الصحراء حتى يسقي خيله من الفرات».

وعلقت قائلاً: «إن أهل نجد يتكلمون كثيراً، كان من الأفضل له أن يتحدث بعد أن يفعلها، لا قبل ذلك».

وأشار منددأً بعدم دقة قول الناس: «الله بكل شيء عليم».

«وماذا قالوا بعد؟»

---

(٣٧) الفياض (جمع فيضة): يقصد مفيض الوادي، وهي متسع من الأرض منخفض. [المترجم]

«والله، قالوا إن رُسل ابن سعود إلى الإخوان قالوا لهم حذار، حذار من غزو قبائل الحكومة. سوف تصادر كل أملاكه ولن يأمن سلامة رقبته وقد أعذر من أنذر».

وقلت «حسناً، وأين يقطن ابن طوالة؟» وهكذا أستمر في أسئلتي.

والبدو متحفظون في تكرار الأخبار بشكل يدعو للتعجب، خاصة للغرباء، مع أن الحصول عليها يشكّل وظيفة أساسية من حياتهم نصف المعطلة. ولانتزاع الأخبار منهم يتطلب الكثير من الصبر والمعرفة الواسعة لهم ولشؤونهم، إنهم لم ينجحوا في استيعاب عصر السرعة، أو فكرة أنّ الوقت من ذهب. والحديث بإيجاز وبعدد قليل من الكلمات ثم الانسحاب من الحديث ليس طريقتهم.

والمثل العربي يقول: «العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن».

بعد سنتين اكتشفت أن هناك قصة حب رومانسية تدور في أيام الربيع بالقرب من مخيمنا، كان بيت شعر سلمان يبعد عن مخيمنا حوالي خمسين متراً، وكثيراً ما يجلس رجالي معه لتناول القهوة. المرأة البدوية لا تعيش حياة منعزلة عن الرجال وحقيقة الأمر أن الانعزال التام عن الرجال في محيط بيت الشعر هو صعب إذا لم يكن مستحيلاً، إلا إذا كان صاحب البيت غنياً، بالإضافة إلى أن المرأة البدوية تكون مشغولة طوال اليوم.

وبالنسبة إلى الرجل في تلك الأيام، عندما يدنو من امرأة في الشارع في إحدى البلدات العربية ليسألها عن الطريق قد تعد فضيحة لم يسبق لها مثيل، فالمرأة الحضرية قد تنكمش من الخوف وتصرخ في وجه من يسألها. لكن بالنسبة إلى من يرتحل في الصحراء، عندما يصل إلى مخيم غريب، عادة ما يلتقي بالمرأة البدوية بعيدة عن بيت الشعر وهي تحطب الأشجار بالفأس لاستخدامها في إشعال النار. وبعد أن يشد رسن جمله يقول: «قواك الله، يا بنت». فتقف في مواجهة السائل وترد تحيته بقولها:

- «يا مرحباً بك».
- «من هم العرب هؤلاء؟».
- «عرب ابن سويط».

وقد تجيب باعتداد بالنفس كاملاً. وبالإضافة إلى جمعها الحطب، قد تساعد في رعي الإبل، أو تقديم العلف للمهرة، أو حلب الأغنام، وتحميل الأمتعة أثناء الرحيل، إنها ليست كالمرأة الإنجليزية اليوم لكنها أكثر حرية من الأخيرة قبل مئة عام.

في ظل تلك الظروف وقع أحد رجالي في حب امرأة متزوجة، لديها طفلان عمرها أكثر بقليل من العشرين سنة، إلا أنها كانت حازمة برفضها له وبتمسكها بعدم خيانة زوجها.

ورضي المحبان بقسمهما المشترك على الإخلاص. فهي مستمرة بالعناية ببيتها، وأطفالها، وزوجها، كما تدرك أنه واجبها يجب أن تؤديه، ولكي لا تدع الألسن التي تحب الفضائح تتحدث عن أي خطأ قد ترتكبه. وفي ظل مجتمع بيوت الشعر فإن النزاع الزوجي من الصعوبة بمكان إخفاؤه.

وبعد سنتين، عندما كنت في الناصرية جاءتني في أحد الأيام تلك المرأة تسوق جملاً هزيلاً أوقفته أمام بابي وزوجها المسكين ممدد على حمالة. وقد أرسلت إلي رسالة من قبل مع رجل توضح فيها أن زوجها مريض. فأستأجرت غرفة لهما في المدينة واستدعيت طبيباً لعلاجه، لكنه توفي بعد أيام قليلة إثر إصابته بمرض السُّل. وقد اعتنت زوجته به بإخلاص حتى وُوري الثرى، وأخيراً بعد انقضاء فترة الحداد تزوج المحبان.

ليس كل النساء البدويات مخلصات إلى هذه الدرجة أو حريصات على أن لا يفعلن ما يتنافى مع الأخلاق في علاقاتهن الزوجية، ولكن العادات التي تأمر بقتل الزانية من الطبيعي أن تؤدي إلى إخفاء عدم الإخلاص بشدة. إن عار السلوك اللاأخلاقي للمرأة يصيب عائلتها وليس زوجها، فالأخير عادة ما يترك أو يطلق الزوجة غير المخلصة، لكن والدها، أو غالباً أخاها، سوف يقتلها.

وهناك سمة مميزة للعرب عن غيرهم هي الكرامة والحشمة. فهم لا يحدثون أصواتاً أو تهريجاً إلاّ مع أصحابهم الحميمين ولا يضحك العربي بصوت مرتفع ويشير الحديث إلى أن النبي محمداً [ص] لم يكن يضحك كثيراً بل يبتسم (٣٨).

وفي المنحى نفسه، فإن البدو متشددون في عدم إظهار المودة الجنسية أمام العامة حتى وإن كان شرعياً. شاهدت شباباً عائدين من رحلات طويلة أو غزوات بعد غياب أسابيع أو شهور يستقبلون زوجاتهم أمام بيت الشعر. ومع أن الزوجين قد يتحابان كثيراً، إلا أنهما لا يظهران أي علامات لذلك أمام العامة. فبعد تبادل الاستفسارات الشفهية كما هي بين الأصدقاء فقد يذهب الشاب إلى بيت الشيخ لتناول القهوة. وفيما بعد عندما يدخل الجزء المخصص لعزلته، خلف الستار الفاصل فقط قد يقبل زوجته وبناته. وهذه العادات لا تعني بالضرورة قلة مودة أو محبة لكنها التقاليد المسيطرة.

وهكذا عندما يتم لجم العواطف المشروعة، فإنه من المتوقع أن أي شيء من نوع الحب غير المشروع سيكون ممنوعاً بتشدد. إن النساء المنحلات بوضوح لا يوجدن في القبائل البدوية.

---

(٣٨) قد يقصد المؤلف الحديث الشريف: «لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».
أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة، وأخرجه الترمذي وقال الترمذي هذا حديث غريب، أورده الشيخ الألباني في مجلده الثاني من **سلسلة الأحاديث الصحيحة** رقم ٥٠٦. [المترجم]

ولكن كأي مجتمعات، فإن حالة الزوجات غير المخلصات بخفية قد لا تكون نادرة الوجود. والنساء البدويات يتجولن بحرية حول المضارب وهكذا فإن السلوك الشهواني الأحمق قد يظل في دائرة العائلة الضيقة. وفقط عندما يأتي الغرباء يجب على النساء ألاّ يشاهدن أو يسمعن.

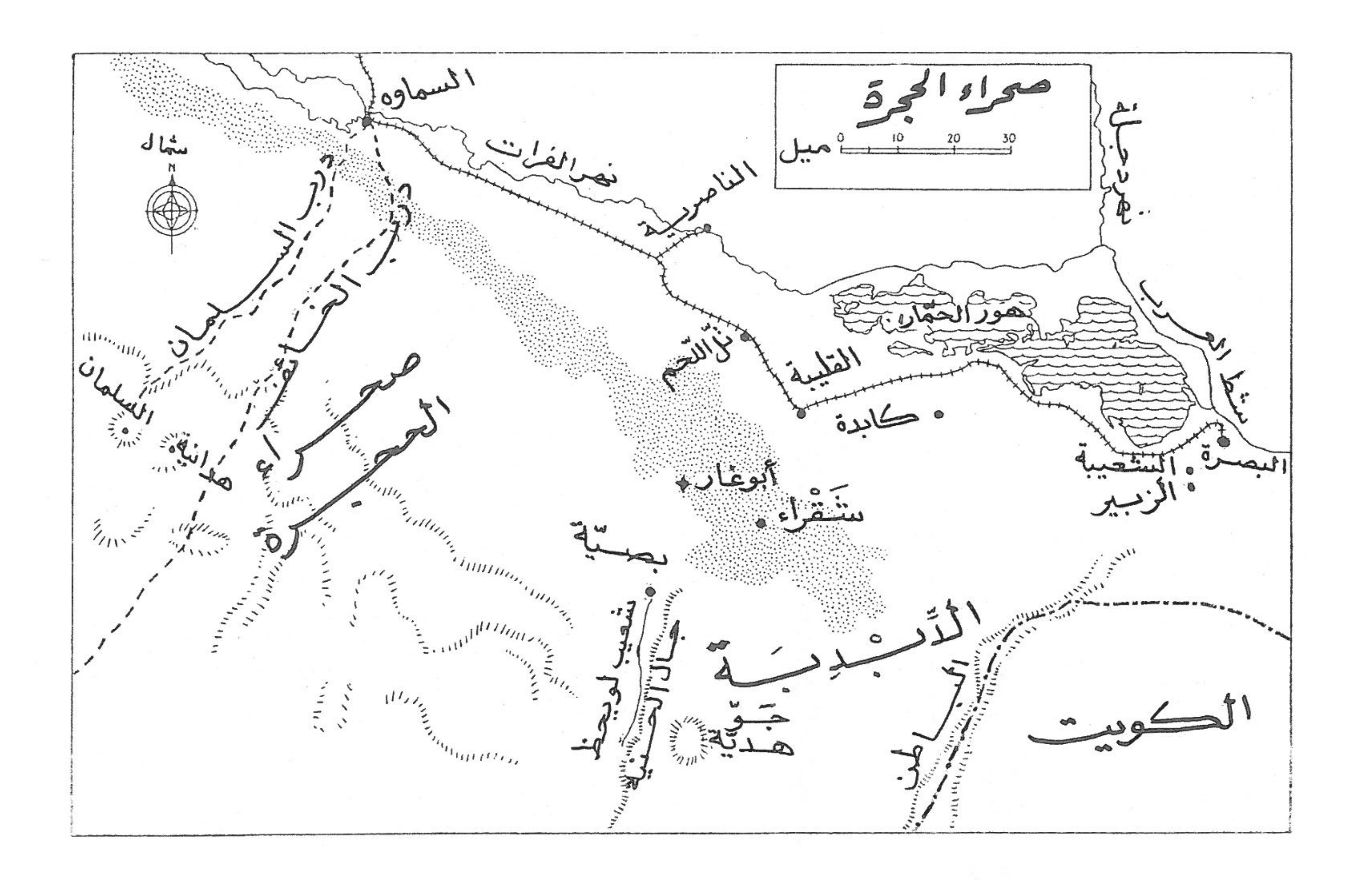
وعندما كنت أرتحل في الصحراء بلباس عربي أترجل أحياناً عن مطيتي عندما أشاهد بيت بدوي صغيراً، ثم أجد أن جميع الرجال قد خرجوا. فتأتي المرأة أو حتى الفتاة اليانعة وترحب بالضيوف، وتمد بساطاً لنجلس عليه، وتقدم لنا اللبن والتمر والخبز، حتى إن بعضهن تجلس وتبادلنا الأخبار. ولكنهن عندما يكتشفن أنني إنجليزي يتوارين عنا، ويرفعن الستارة بسرعة في منتصف بيت الشعر ويقدمن طلباتنا من تحت الستارة باليد خفية. ومؤخراً عند بعض القبائل الذين عرفوا شخصيتي جيداً، أخذت تخف بعض المحاذير وغالباً من قبل النساء المسنات. وهؤلاء النسوة قد يظهرن حول الستارة ويلقين عليَّ التحية قائلات، «صباح الخير»، ويشكرنني على مساعدة أبنائهن. أو يصرخن من أعماقهن قائلات: «احمنا من الإخوان». وإذا كان أي رجال حاضرين، فيرد أحدهم قائلاً: «حسناً يا عمة، الضابط يفهم».

ثم تختفي المرأة العجوز خلف الستارة مرة أخرى، وتستمر في الثرثرة قائلة: «بارك الله فيه وفي حكومته، وبدونهم لما بقينا على قيد الحياة، لكُنّا في عداد القتلى من ضحايا الإخوان. أطال الله عمرك!».

والبدو هم المجتمع الوحيد الذي لازال يحتفظ على الأقل بتقاليد الحب الرومانسي. وفي مجتمعات أخرى والتي لم تعد تسكن بيوت الشعر/ الخيام فإن عزل النساء في بيوت قد دمر الغزل العفيف ولا يعني تدمير الأخلاق.

الفصل التاسع

طلعات في صحراء الحجرة



صحراء الحجرة
ميل
0 10 20 30
السماوه
نهر الفرات
الناصرية
شط العرب
هور الحمّار
القليبة
تل اللحم
كابدة
البصرة
الشعيبة
الزبير
أبوغار
شقراء
بصيّة
الدبدبة
جوّ هديّة
الباطن
الكويت
السلمان
هدانية
شمال
N
صحراء الحجرة

طلعات في صحراء الحجرة

نشأ هدوء الأوضاع المتوترة الذي ساد في شهري فبراير/ شباط ومارس/ آذار سنة ١٩٢٥ عن انتشار أوامر ابن سعود بين الإخوان بوقف الغزوات، وكان لها تأثير معنوي في وظيفة أبو غار، وفي دوريات الطيران المستمرة، وعلى نمو الأعشاب في منطقتي أبو غار وشقراء، مما دعانا إلى تخفيف إجراءات التدابير الاحترازية. وهكذا تمكنتُ من مغادرة أبو غار بعد أن كنت ملتصقاً إلى جهاز اللاسلكي أو كنت على أهبة الاستعداد في انتظار هبوط طائرة الاستكشاف لمصاحبة قائدها في الطيران. وانتهزت الفرصة قبل قدوم الصيف حيث يؤدي إلى نضوب مصادر المياه، لكي أستكشف مجاهل هذه الصحراء القاحلة التي لا أعرف عنها الا النزر اليسير.

كانت أولى رحلاتي في صحراء الحجرة[٣٩] إلى السلمان اخترقت خلالها مئة ميل عبر مناطق لم تستكشف من قبل، وعلى الرغم من أن غاي مور كان يقوم بالطلعات الجوية في صحراء الحجرة ويهبط في السلمان لعدة مرات، بينما كنت أقيم في أبو غار، إلاّ أن الأرض ما بين السلمان وأبو غار لم تستكشف بعد.

وكان بعض البيوت من الزيّاد قد شجعتهم طلعات غاي مور الجوية من السلمان فجازفوا في الترحال إلى السلمان في فبراير/ شباط حيث تتوفر المراعي الجيدة. وشرعتُ من أبو غار في رحلتي في صبيحة أحد أيام الربيع، كانت الشمس مشرقة، والسماء صافية، تكتنفني نشوة

(٣٩) يقول الشيخ حمد الجاسر إن اسم الحَجْرة يطلق على أرض ذات آكام وأودية ومناهل متعددة، تقع شمال وادي الباطن والدهناء ممتدة من الجنوب من الهذاليل إلى وادي الخرّ شمالاً بمحاذاة اللّبّة لبّة ـ الدهناء من الجنوب، ومن الشمال إلى مشارف العراق حيث يقع قسم من الحجرة داخل حدوده. [المترجم]

انظر حمد الجاسر. **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، شمال المملكة**، مصدر سابق، ص ٤٠٠.

صباحية عارمة ربما لا تبثها إلا الصحراء في الشتاء. لقد تغيّرت الأحوال، فلم نعد نمتطي الجمال في رحلتنا ولم تعد جمالنا تخب في مرح وسرور وسفايف الخرج المهدّب تتدلى من الشداد، وأصحابي البدو يصدحون بقصائد الهجيني التي لا تحصى. هذه المرة كنا نستقل سيارة فورد في رحلتنا، تشق طريقها بين الصخور والشجيرات متأرجحة، ومثيرة غيمة من الغبار.

وصحراء الحجرة التي تبدأ من أبو غار ترتفع تدريجياً باتجاه الجنوب الغربي، ومع ذلك فإن هذا الارتفاع التدريجي غير مُدرك بالعين، ويصل إلى (١٤٠٠) قدم عن مستوى سطح البحر في الجميمة بينما يصل في أبو غار إلى (١٦٠) قدماً فقط.

وعند غروب الشمس كنا لا نزال وسط أرض مقفرة خالية تتخللها التلال الصخرية. ومن غير المرغوب فيه أن تشعل ناراً خشية أن تجتذب النارُ الغزاة، فأمضينا ليلة موحشة باردة بين صخور شهب وكان عشاؤنا يتكون من رغيف خبز جاف لكل منا.

بزغ الفجر بارداً بلون الفضة على سفوح الصخور الجيرية الداكنة. وتوقفنا لهنيهة أمام منخفض شديد الانحدار أو بالأحرى جُرْف هاو تتناثر فيه جلاميد ضخمة، وسرنا إلى قاع واد متعرّج، وفجأة شاهدنا، ونحن في إحدى انحناءاته الضيقة، منظراً بدّل صمتنا ووجومنا إلى ضحكات فرح. فأمامنا يقع منخفض [جو] على شكل طاسة محاط من ثلاث جهات بتلال صخرية بسيطة، ومن الغرب محاط بحافة جرف شاهقة، وكان حوض المنخفض أخضر ساطعاً وضاء، تتناثر فيه بيوت الشعر لأصحاب الأغنام، وتبدو من بُعد كأنها بقع سوداء وسط هذا البساط الأخضر، وترتفع منها أعمدة دخان رمادية تعانق عنان السماء بزرقته الخفيفة، في يوم من أيام الشتاء، وتنتشر في المرعى قطعان الأغنام والحمير تتحرك هنا وهناك بأمن وسلام، والأشخاص يتمشون متنزهين من بيت إلى آخر، ونباح الكلاب وأصوات نداءات الرعاة تنقلها إلينا نسمات الصباح. وجرت فتاة باتجاهنا وهي تطارد خروفاً منطلقاً. وبعد ليلة لم نتناول فيها عشاء، والقلق الذي ينتابني من حدوث أمر غير متوقع مثل انفجار إطارات السيارة، أو نفاد الوقود أو الماء، كان مشهد الرعاة أمامنا أحد أجمل المشاهد التي رأته عيني.

وترجلنا من سيارتنا عند أكبر بيت شعر، واستقبلْنا بابتسامات الترحيب، وجرى الرجال مهرولين لإحضار أفضل بساط عندهم، ومدوه لنا لنجلس عليه، وأوقدوا النار ودفعوا بإبريق الشاي وسط الجمر، وتحلقنا حول النار مادين أيدينا لتدفئتها، وأخذنا نجيب عن الأسئلة الملحة لهؤلاء البسطاء والطيبين، وكان بيت الشعر يخص «عودة الحسن» [٤٠] شيخ أحد أفخاذ الزيّاد.

---

(٤٠) إن أسماء رجال القبائل من أصحاب الأغنام في هذا الفصل وفي فصول قادمة قد تم تغييرها لأن كثيراً منهم لازالوا على قيد الحياة. [المؤلف]

على قيد الحياة عند نشر هذا الكتاب في عام ١٩٦٠. [المترجم]

وبعد ثلاث ساعات قدّم مضيفنا طبقاً ضخماً مليئاً بالأرز واللحم وسكب عليه اللبن والسمن، وكان ذلك تعويضاً عن صيامنا في اليوم السابق.

وبعد منتصف النهار شرعنا في رحلتنا بعد أن أستدللنا منهم وجهة آبار السلمان. وعند الغروب وجدنا جماعة أخرى من الزياد وأمضينا ليلتنا عندهم. وفي الصباح رافقناهم عندما شدوا رحالهم، وكنا نسير بين مجموعة صغيرة من الحمير التي كانت تحمل بيوتهم ومؤنهم وأمتعتهم. وبعد الظهر نصب مضيفونا بيوت الشعر في «هدانية» وهي واد عميق طوله حوالي الميلين وعرضه حوالي الميل، ومحاط من كل الجهات بجرف صخري يصل ارتفاعه إلى ١٥٠ قدماً ويبعد عن السلمان حوالي ١٢ ميلاً جهة الشرق.

وقبل مغادرتي أبوغار، وكخطوات احترازية، طلبت من سلاح الجو الملكي أن يزودني بالوقود في هدانية، وعليه اخترنا في صبيحة اليوم التالي أرضاً سهلة مفتوحة في الصحراء وأوقفنا سيارتنا انتظاراً لهبوط الطائرة فيها، ولكننا انتظرنا حتى المساء دون جدوى. غير أن ذلك اليوم كان دافئاً جميلاً مشمساً تتخلل سماءه الزرقاء غيوم بيضاء ناصعة، تبث روح السعادة بين أصحاب بيوت الشعر. وكان التباين في الألوان ما بين أعشاب الرياض الخضر الساطعة وبين الصخور الجيرية الرمادية التي تحيط بها، وهواء الصحراء النقي والهدوء الذي يخيم على مضارب أصحاب الأغنام في يوم من أوائل أيام الربيع كل ذلك يجعل صحراء الحجرة أركاديا حقيقية [٤١].

وفي اليوم التالي وعندما لم تصلنا الطائرة قررت أن نتجه إلى السماوة، وقدّرت أن وقود السيارة يكفي لإيصالنا إلى هناك ولكنه غير كاف لإعادتنا إلى أبوغار. وأصرّ كاظم الحمزة، شيخ الفخذ الذي استضافنا، على مرافقتنا لأنه كمّا يدعي مسؤول عن سلامتنا، وأنه عار عليه إذا ما تعرضنا لمكروه وقد تناولنا ملحه.

وانطلقنا في اليوم التالي في طريق عودتنا إلى السلمان. وعلى الرغم من أننا أخذنا خمسة إطارات جديدة كاحتياط من السماوة إضافة إلى كمية من البنزين، استغرقت رحلتنا يوماً كاملاً قطعنا خلاله ٨٠ ميلاً وهي المسافة بين السماوة والسلمان، بسبب تعرض إطارات السيارة للعطب لعدد لا يحصى من المرات في صحراء الحجرة. وعند حلول الظلام وصلنا حافة جرف يحيط بمنخفض السلمان العميق. وقد تركنا الزياد في هدانية أمس الأول واتفق كاظم مع أخيه عباس على الرحيل إلى السلمان خلال غيابنا. وتأرجحت سيارتنا ببطء لدى نزولها من الجرف وأمامنا منخفض السلمان يخيم عليه ظلام دامس، وليس هناك أي وميض لنيران مخيّم

---

(٤١) أركاديا: منطقة جبلية في بلاد اليونان اشتهرت بأنها موطن الرعاة البسطاء القانعين بما قسم لهم. [المترجم]

يستقبلنا. وأصبح كاظم قلقاً يردد هذه العبارة «ماذا دهاهم؟» إن عدم التيقن والأخطار التي تكتنف حياة الصحراء تحيق على الدوام بأولئك الذين كان نصيبهم الحياة في صحراء قاحلة.

أوقفنا سيارتنا ونزلنا منها وأوقفنا محركها وكتمنا أنفاسنا لنسترق السمع، لربما سمعنا نباح كلب أو صوت إنسان من المخيّم، ولكن الصمت كان كاملاً في هذا الظلام الدامس، بحيث لم تلتقط الأذن أي صوت على الإطلاق وليس هناك هدوء أكثر من ليل صحراء خالية. فقررنا أن نسير بسيارتنا إلى الآبار فقد نجد آثار أحد قد ورد الماء فنقتفي أثره ليقودنا إلى المخيّم.

وسرنا ببطء في أرض صعبة التضاريس تتناثر فيها الصخور وتنتشر الشجيرات البرية في قعر منخفض السلمان، وأنوار سيارتنا تضيء الصحراء أمامنا، بينما الظلام الدامس يكتنفنا من الجانبين وكأننا محاطون بجدارين مرتفعين سوداوين. وأتخيله في بعض الأحايين كأنه طريق يقودنا إلى منزل إنجليزي كبير تحيطه أشجار سود عملاقة من الجانبين.

وفجأة ظهر رجل يركض إلى المساحة المضاءة أمام سيارتنا، ورفع طرف عباءته ملوحاً لنا، واتجه نحونا مظللاً عينيه بيديه لاتقاء شدة نور السيارة. إنه عباس، الأخ الأصغر لكاظم، شاب يافع عمره ما بين الـ ١٨ و ٢٠ سنة، وجدائل شعره الطويلة تتدلى على صدره.

قال مرحباً: «أهلاً بالمسافرين» واقترب من السيارة. «السلام عليكم، أين كنتم؟» وأضاف: «نحن قلقون عليكم». وأجابه كاظم بابتسامة ملتوية: «ونحن قلقون عليكم، أين مخيمكم؟» وصعد عباس إلى السيارة قائلاً: «قُد السيارة وسوف أوجهك إلى مخيمنا؟».

وقُدْنا السيارة لمسافة ٢٠٠ متر واستدرنا حول جُرف صخري لم ندرك رؤيته وسط هذا الظلام، ووجدنا بيوت أصحابنا في صف متناثر في أحد فروع الوادي وأمام كل بيت نار متوهجة، والأغنام ترقد مجتمعة، ومن خلال نور السيارة رأينا الأعشاب الطويلة تنتشر مختلطة بالأزهار هنا وهناك.

وعندما تفحصنا سيارتنا الفورد صبيحة اليوم التالي وجدنا أن الإطارات الخمسة التي حصلنا عليها من السماوة كلها ممزقة ولا يمكن إصلاحها. وهذا دفعني للبقاء مع مضيفي الزياد الكرماء، وطلبت من أحدهم بأن يركب فرسه ويذهب إلى السماوة بعد أن حملته رسالة أطلب فيها تزويدي بخمسة إطارات جديدة.

وبعدها انقطعت تماماً عن العالم الخارجي، ولكن هذا الانقطاع لم يذهب سدى. لقد غمرني هؤلاء البسطاء من أصحاب الأغنام بمحبتهم وودهم النبيل.

لقد خدمتُ ست سنوات في الصحراء الجنوبية وخلالها لم أتلق إلاّ الولاء والصداقة الشخصية والود والتعاون من الزياد الذين تعرفت عليهم بصورة جيدة خلال إقامتي في

خيمهم. ولم ألتق أي إنسان بمثل بساطة كاظم وأمانته وشجاعته بأي بلد ومن أي جنس بشري.

وأخيراً جاءت طائرة وسلمتنا خمس إطارات جديدة، وودعنا مضيفينا الطيبين قافلين إلى أبو غار. ومرة أخرى وصلت سيارتنا إلى هناك ولكن من غير إطارات. وأنهينا رحلتنا ونحن نتحرك ببطء بخطوات وئيدة، وبطانياتنا مربوطة فوق العجلات الأمامية. وتعطي هذه التقلبات فكرة عن طبيعة التضاريس الصخرية لصحراء الحجرة، فخلال رحلتنا قطعنا ٤٥٠ ميلاً مستخدين ١٥ إطاراً لسيارتنا.

* * *

وفي بداية تشتيت القبائل العراقية في الصحراء وإبادتها من جراء غارات الإخوان في ديسمبر/ كانون الأول، ومن ثم تجمعت هذه القبائل في أبو غار مما أدى إلى نفوق الكثير من أنعامهم بسبب البرد والمجاعة، استقر الإخوان اللاجئون في المنطقة الواقعة ما بين كابدة والزبير، وبدؤوا من هناك بطاقات متجددة بالقيام بسلسلة من السرقات الصغيرة في نجد، ولم يتجاوز عدد هؤلاء اللاجئين عشرين أو ثلاثين عائلة، وبالنسبة إلى حكومة تجهل الصحراء فإنه ليس من السهل أن تجدهم وسط هذه البرية الشاسعة التي تقطنها آلاف بيوت الشعر. ولم توظف الحكومة العراقية حينذاك أي مسؤول مدني أو عسكري في الصحراء. وكان الوجود الحكومي الوحيد في الصحراء يتمثل فقط بسرية مشاة في قلعة أبو غار التي لم يخرج من محيطها أي فرد من أفرادها أبداً.

وكلما زرتُ أبو غار يطرح الضباط العرب عليّ الأسئلة عن القبائل. صحيح أن الطيارين البريطانيين كانوا يقومون بطلعات جوية كدوريات مراقبة للصحراء لكنهم لم يكونوا قادرين على توثيق العلاقات مع قبائلنا. ونتيجة لذلك نجد أن «غزوات» الإخوان اللاجئين الصغيرة، بمعدل عشرة رجال لكل غزوة يقومون بها، كانت تحدث دون أن تنتبه لها السلطات العراقية.

غير أن نشاطاتهم (اللاجئين الإخوان) كانت ذات تأثير ضار جداً في العراق بينما لم يكن لها أثر يذكر في نجد. بما أنهم يقومون بنشاطاتهم على شكل مجموعات صغيرة فإن ما يقومون بسلبه من إبل أو غيره لا يستحق الذكر، فجل نشاطاتهم السرقة، لذا لم يوقعوا أي إصابات بشرية ولا أثاروا أي رعب. في الوقت نفسه، فإنهم أثاروا استياء ابن سعود وأعطوه مبرراً لرد الفعل.

وحقيقة الأمر أنه لم تقم أي قبيلة عراقية بالهجوم على الإخوان حينئذ، عدا انضمام أفراد قليلين إلى غزوات الإخوان اللاجئين، وسبب ذلك جلي، فالأمان في المراعي يعدّ أساسياً

للاستقرار المعيشي لقبائل العراق. إن نشاطات عشرين أو ثلاثين عائلة من اللاجئين النجديين كانت، بسبب عدم الاكتراث، تثير الشكوك حول مصداقية نوايا كل من الحكومتين البريطانية والعراقية.

ولحسن الحظ قرر الإخوان اللاجئون شن هجوم كبير موحد على نجد في مارس/ آذار ١٩٢٥، ونجحوا في حشد ٤٥ فرداً لهذا الهجوم الذي يمثل كل قوتهم البشرية في أكبر هجوم يقومون به. ومن محاسن الصدف أن إحدى طائراتنا في طلعاتها الجوية قد حددت أماكنهم وهم يتأهبون لاجتياز الحدود إلى نجد، وأبلغت عن ذلك.

وكنت في مرات عديدة أبدي اعتراضاتي على غزوات الإخوان اللاجئين، وكان المسؤولون يطالبونني بتقديم الدلائل لإثبات اتهاماتي. وقُبِلَ ما أبلغت عنه الطائرة كمصدر مستقل معززاً تقاريري السابقة، واستدعت السلطات رؤساءَ الإخوان اللاجئين إلى الناصرية. واستدعيت أيضا لمواجهتهم في حضور المسؤولين المدنيين ولكي أواجههم بالدلائل التي تسند اتهاماتي لهم بغزوهم نجداً. وعلى الرغم من نفيهم كل الاتهامات الموجهة ضدهم، كان باستطاعتي تقديم التفصيلات الكافية لإقناع المسؤولين الحكوميين المدنيين بأن ما قلته صحيح.

وعليه اتخذ قرارٌ بنقلهم بقضهم وقضيضهم إلى منطقة الرمادي على نهر الفرات إلى الغرب من بغداد، وتم تنفيذ هذا القرار في الصيف التالي وبتكاليف كبيرة مع جهد جهيد تحت إشراف غاي مور. فالبحث عن ثلاثين بيت شعر في صحراء شاسعة في مساحة تضاهي مساحة إنجلترا ليس سهلاً. وكانت المسافة ما بين البصرة والرمادي تقارب ٣٩٠ ميلاً عبر الصحراء، وتعادل المسافة ما بين لندن وأدنبره تقريباً. وخلال شهرين تقريباً وفي حرارة الصيف اللاهبة، كانت القافلة الصغيرة تتجمع من بئر إلى بئر آخر حتى تم تسليمهم في النهاية إلى فهد بن هذال شيخ قبيلة عنزة في العراق الذي وعد بمنعهم من خلق أي مشكلات أخرى.

طلب الإخوان اللاجئون حالاً من ابن سعود العفو عنهم، بالمقدرة المفاجئة لتغيير الولاءات التي تميز البدو، وعلى الفور استجاب ابن سعود لطلبهم لأن همه الوحيد كان أن يوضح لقبائله الأخرى أنه لا فائدة من المحاولات بالالتجاء إلى العراق لتحاشي سلطاته. وخلال العام التالي عاد إلى نجد كل الإخوان اللاجئين ـ ما عدا أربعة بيوت ـ وانضموا إلى الإخوان في غزواتهم ضد العراق.

* * *

انتهى فصل الرعي الشتوي في أبريل/ نيسان ١٩٢٥، في جو من الأمن والأمان في الصحراء الجنوبية، ومن جهة فإن التقارير التي وصلتنا من نجد تؤكد أنَّ ابن سعود مصمم على

منع غزو العراق المنطلق من أراضيه، ومن جهة أخرى، فإن معالجة الحكومة العراقية لمشكلة الإخوان اللاجئين أشاعت جواً من التفاؤل على العكس تماماً من اليأس الذي ساد في ديسمبر/ كانون الأول الماضي.

وانسحبت الحامية العسكرية العراقية من أبو غار في أبريل/ نيسان ١٩٢٥ وانخفض عدد أفراد استخبارات سلاح الجو الملكي خلال فصل الإجازات، وغادرت أنا شخصياً إلى أوروبا في إجازة من العمل لمدة ثلاثة أشهر. وهنأ رجال القبائل والرسميون أنفسهم بتوطيد السلام على الحدود النجدية الملتهبة. وشعر الظفير بالارتياح على الرغم من أن الحكومة سحبت حاميتها العسكرية من أبو غار، ومكثوا محتمين في المناطق المحيطة بقلعة أبوغار بينما ترعى إبلهم بعيداً في شعاب صحراء الحجرة ووديانها.

في فصل الشتاء عندما تتجمع مياه الأمطار مكونة غدراناً [خباري] في الوديان، يرتحل البدو بصورة متكررة، يستقون من هذه الغدران المنتشرة في الصحراء وترعى إبلهم عشباً قفراً بصورة يومية تقريباً. وفي ظل هذه الأحوال يستطيع قطيع [ذود] الإبل الرعي طوال النهار حول بيت الشعر ولا يبعد سوى ميل أو ميلين، وعند غروب الشمس تعود الإبل إلى بيت الشعر. ولكن غُدران الماء [الخباري] تجف في فصل الصيف، فيقوم البدو بنصب بيوتهم بالقرب من الآبار الدائمة النادرة، وقد يمكثون بالقرب منها لأسابيع متتالية عديدة.

إن الآبار العميقة [الطوال] تعد لغزاً من ألغاز صحراء الحجرة، ففي بعض الأراضي المنخفضة قليلاً في صحراء مكشوفة متموجة، لا ترى أي مصدر للمياه في مئات الأميال المحيطة، تجد فوهة بئر، قطرها ما بين ١٠ أقدام إلى ١٢ قدماً، مفتوحة في الأرض وفي عمق ٣٠٠ قدم تحت سطح الأرض تجد مياهاً جوفية غير قابلة للنضوب. وكثيراً ما حُفر النفق العمودي للبئر بتقطيع طبقات الصخور، ولا تزال آثار الإزميل باقية على جنبات البئر الداخلية ترى بالعين المجردة. ولا يعرف أحد متى تم حفر هذه الآبار، ولكن لابد أن عمليات حفرها قد استغرقت سنوات كثيرة، وقد يكون الحفارون رجلين أو ثلاثة رجال يستخدمون في الوقت نفسه مطرقة وإزميلاً تحت سطح الأرض بعمق مئات الأقدام، ثم يحملون مخلفات الحفر من الرقائق الصخرية في دلاء جلدية تُمْتَح للأعلى بالحبال إلى سطح الأرض. كيف كان يعرف هؤلاء المهندسون الأوائل، ربما منذ آلاف السنين، أين يحفرون بحثاً عن الماء، الذي يوجد فقط على عمق ٢٠٠ قدم أو ٣٠٠ قدم تحت سطح الأرض؟ هل كانوا يحفرون عشرات الآبار، ويتركون منها ما لم توجد بها مياه؟ وإذا صح ذلك فإن آثار حفرهم قد تلاشت بفعل التقادم.

ويخرج البدو المياه من البئر بوساطة دلو كبير مصنوع من الجلد، ووزن هذا الدلو يتناسب مع ربطه بحبل طوله ٣٠٠ قدم، وهو من الصعوبة بمكان أن يُجذب إلى أعلى بالأيدي، لذا فإنهم

يستخدمون الجمال لجذب الدلاء من هذه الآبار العميقة (والبدو لسبب أو لآخر يطلقون على هذه الآبار اسم «طوال» وليست «عميقة» وقد يكون ذلك عائداً لتطلبها حبالاً طويلة لربط الدلاء أثناء استخراج الماء).

وكل مجموعة من الرعاة تجلب حاملاً [مقاماً] وبكْرة [محّالة] وتثبتها على فوهة البئر، ويُنزل الدلو الجلدي (الذي قد يكون مصنوعاً من جلد كامل) إلى قعر البئر ويمرر الحبل [الرشاء] على البكرة وتلحق نهايته الحرة برسن الجمل وبعد أن يمتطى الجمل يوقف بالقرب من فوهة البئر. وبعد رمي الدلو وعندما يمتلئ بالماء، يقوم من يمتطي الجمل بإبعاده عن البئر، وبالتالي ينجذب الحبل ويُشدّ الدلو إلى سطح الأرض، ويقف رجلان بالقرب من الحامل والبكرة على أهبة الاستعداد لاستقبال الدلو وسكبه في مجرى قناة تفرغ في حوض سقاية الإبل. ثم يرميان الدلو الفارغ في البئر مرة أخرى، ويعود راكب الجمل إلى فوهة البئر وبالتالي يسمح بارتخاء حبل الدلو ليسهل نزوله إلى قاع البئر مرة أخرى.

وعندما يكون الجمل بين جيئة وذهاب يشق طريقاً يبتعد عن فوهة البئر. وقد يكون هناك أكثر من ستة أو ثمانية حوامل وبكرات منصوبة حول فوهة البئر في آن معاً ويوجد العدد نفسه من الجمال التي تقوم بمهمة استخراج الماء من البئر.

وهكذا فالبئر يتكون من شكل كالعجلة حول البئر، محورها فوهة البئر، وطريق الجمال من وإلى فوهة البئر تكون شعاع العجلة. وتبدو واضحة لرجال سلاح الجو الملكي البريطانية وهم في الجو على شكل نجمة فأطلقوا عليها اسم الآبار النجمية.

وعندما يقطن البدو حول هذه الآبار الطوال، فإن فوهة البئر تمثل منظراً مفعما بالحيوية والنشاط، فتسمع رغاء الإبل وتدافعها حول حوض الماء وهي تمد رقابها الطويلة إلى الأسفل للحصول على الماء، ومجموعات من الشباب اليافعين حاسري الرؤوس، أثوابهم مثنية إلى رُكبهم تشبه تنورة الكلْت (Kilt) [٤٢] يمسكون بالدلاء الجلدية الكبيرة عندما تصل إلى مستوى الأرض ويفرغون المياَه الزلال في الحوض، والجمال التي تستخدم في إخراج الماء [السواني] تراها تقطع الأرض جيئة وذهاباً بانتظام.

ومن واجبات المرأة البدوية جلب الماء إلى بيت الشعر للاستخدام المنزلي. فتجد مجموعة من الفتيات اليافعات وهن يحملن قربهن واقفات بالقرب من فوهة البئر بانتظار وصول الدلو ليملأن القرب. وأثناء كدح هؤلاء الشباب يغنون «أهزوجة السواني» عن مَتْح الماء من البئر في الصحراء التي تساعد على التخفيف من ضغوطات العمل النفسية:

(٤٢) التنورة التي يرتديها الرجال في اسكتلندا. [المترجم]

الغِــــروْ أبو جـــــديلَهْ
أبو غْـيـــونٍ كَــحِــيلَهْ
واقِفْ على النّثِــــيلَهْ
واقف يَـدير الحــــيلَهْ
وِشْ حــيلتُـهْ وِشْ حــيلَهْ

وعندما تقطن قبائل كثيرة بالقرب من الآبار الطوال فإن المراعي المحيطة بها بمساحة دائرية يصل نصف قطرها أميالاً عدة سرعان ما تُستهلك، ويتوجب على قطعان الإبل أن تذهب بعيداً إلى حقول رعي أخرى لتجد فيها الشجيرات والأعشاب. والإبل تتحمل العطش لمدة ثلاثة أو أربعة أو خمسة أيام دون أن ترد الماء، مما يمكنها من الرحيل بعيداً عن الآبار لمسافة تصل ٢٠ أو ٣٠ ميلاً للبحث عن الكلأ. ويمكث الرعاة في المرعى لليال عدة، يتزودون بصرة من الطحين أو التمر [وقربة ماء]، وفي بعض الحالات يتزودون بكيس صغير من الطحين أو التمر، أو في بعض الحالات يعتمدون في غذائهم على حليب النوق، وفي الليلة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة وأحياناً قد تكون أطول من ذلك - فإنهم يردون الآبار ويبيتون ليلة عند المضارب ثم يعودون ثانية إلى المرعى.

وعندما تكون الإبل في المراعي تبعد كثيراً عن المضارب فإنها تصبح صيداً للغزاة لأن عدد الرعاة قليل، فلا يستطيعون الدفاع عن إبلهم بصدّ العدوان، والمحاربون من القبيلة قابعون في بيوتهم. وفي بعض الأحايين، عندما يصل إلى مسامعهم نذر خطر غزو فإنهم يرسلون مجموعة مسلحة كحراسة [جَنَب] ترافق الرعاة إلى مناطق المراعي. لكن مجموعة الحراسة سرعان ما يعتري أفرادها السأم في أداء هذه المهمة المملة، تحت وطأة حرارة الصيف اللاهبة التي لا ترحم، ومكوثهم بعيدين عن بيوتهم، وشعورهم أنهم عاطلون من العمل، وعملهم معقود على حدوث الغزو، وإذا لم يعترضهم غزو يعودون إلى المضارب.

وكانت إبل الظفير ترتع بهذه الطريقة، عندما شنّ قسم من الإخوان، من قبيلة مطير بقيادة علي بن عشوان، هجوماً ضخماً مفاجئاً عليها، في ٢٢ يونيو/ حزيران ١٩٢٥، وقتلوا الرعاة، واستولوا على ١٧٠٠ بعير تعود إلى فخذ العُريف من الظفير. ولبعد المسافة فلم تصل أخبار الغزو مضارب الظفير إلاّ متأخرة على الرغم من أنهم هبّوا مسرعين لملاحقة الغزاة المبتهجين بالنصر ومطاردتهم، إلاّ أنهم فشلوا في اللحاق بهم.

وكان لهذه الكارثة وقع الصاعقة على البدو في العراق. فتبددت آمالهم وثقتهم السابقة في

احتمالات السلام. ولم يكن هناك أي حديث حينئذ عن عدم مبالاة الحكومة مع الغزاة أو تواطئها، وقيل بين القبائل إن البريطانيين بذلوا ما في وسعهم من إجراءات دفاعية مناسبة وضغوطات للتأثير في ابن سعود إلاّ أنه من الواضح أن هذه المهمة فوق طاقة البريطانيين. فالإخوان لا يُقهرون، ولا يكترثون بالتهديدات أو إرسال قوات حكومية ضدهم.

لقد فقد العُريف كل ما يملكونه من إبل تقريباً، وكان لابد لهم من أن يطلبوا أو يستعيروا جمالاً لنقل عائلاتهم وممتلكاتهم إلى ضفاف الفرات، حيث إن كل ما يتوفر في بيوتهم من مؤن قد لا يكفيهم إلاّ لبضعة أسابيع.

إن مثل هذه الغزوات دائمة الحدوث في الصحراء. وفي الأيّام الخوالي عندما يلاحق سوء الطالع القبيلة فإنها تقوم بشن غزوات مكثفة فربما تتمكن قبل الخريف من سلب ما يكفي من الإبل ليمكنها من شراء الغذاء للشتاء. وعندما كانت الغزوات غير خاضعة للسيطرة، كان يتم تدوير الإبل بين القبائل على هذا النحو فالبدوي لا يقطع الأمل أبداً حتى وإن كان غير محظوظ بفقده كل إبله، فإنه يعيد بناء نفسه تدريجياً بجهده الذاتي، إن تدخل الحكومة قد قلب التوازن الطبيعي لذلك النظام، فالحكومة لم تكن قوية لدرجة تمنع الغزو تماماً، لكنها تتدخل لمنع ضحايا الغزو من شن غزوات مضادة لاستعادة خسائرهم. وهذا بالضبط ما تم في هذه الحالة.

وأبدت الحكومة العراقية سخطها من هذا الاعتداء الصارخ الذي ارتكبه الإخوان، خاصة أنه جاء بعد وعود ابن سعود في الربيع بوقف الاعتداءات، وأخبرت الضحايا بأنه يتحتم على الإخوان إعادة إبلهم المسلوبة، وفي الوقت نفسه، أصدرت أوامر مشددة إلى الظفير بعدم القيام بغزو معاكس. وكانت الحكومة محقة في تشددها لأن الغزوات المضادة ستجلب المزيد من غزوات الإخوان. وظل العُريف هادئين لمدة ثمانية أو عشرة أسابيع. وعندما اقترب فصل الشتاء تضاءلت آمالهم باستعادة إبلهم المسروقة، وأخذ مخزونهم من المؤونة يتناقص شيئاً فشيئاً، وموسم بيع الإبل السنوي على الأبواب. وتهددهم مجاعة ماحقة. وانطلقت مجموعة غازية تلو أخرى في محاولات لغزوات ضد الإخوان أو عنزة أو شمر ليكسبوا الإبل ويزوّدوا عائلاتهم باحتياجاتها من الغذاء لمواجهة فصل الشتاء.

وكانت الحكومة البريطانية قلقة للغاية بسبب غزوات الإخوان للعراق، خلال الشتاء المنصرم، فأرسلت بعثة إلى الحجاز تمثل الحكومة البريطانية برئاسة السير جلبرت كلايتون Gilbert Clayton للتفاوض مع ابن سعود. وكانت الأعمال العدائية لاتزال قائمة بين الأشراف وابن سعود ولكن البعثة مرت عبر الخطوط الأمامية لكل من ابن سعود والأشراف بسلام. وعُقد مؤتمر في بحرة، على الطريق بين مكة وجدة، وانتهى بالتوصل إلى اتفاقية بحرة، التي تم التوقيع على بنودها في اليوم الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٥.

وتنص المادة الأولى من الاتفاقية على اتفاق الحكومتين على فرض عقوبات قاسية على الغُزاة. وتنص المواد ٢ و٣ و٤ على تعهد الحكومتين بعدم تشجيع القبائل من رعايا الحكومة الأخرى على الهجرة إلى أراضيها بتقديم الهدايا لها أو رشوتها لهذا الغرض. وكما شرحت سابقاً، فإن من أهم النشاطات السياسية الرئيسية للأمراء العرب هي اجتذاب قبائل الأمراء الآخرين إلى جانبهم.

لم تكن شروط اتفاقية بحرة على درجة كبيرة من الأهمية بحد ذاتها، بل المهم أن مفاوضات قد جرت وتم التوقيع على اتفاقية جديدة، وعُقدت الآمال على أن يكون هذا الدليل على حسن النوايا عاملاً فاعلاً لوضع نهاية لتلك الاعتداءات الصارخة التي حدثت سابقاً.

وهكذا عند اقتراب فصل الرعي الجديد وعودتي إلى موقع العمل بعد انقضاء إجازتي في خريف ١٩٢٥، كان يبدو أن الشتاء القادم سيكون بشير خير ونذير سوء معاً. فعلى مستويات عليا، كانت فرص السلام تلوح في الأفق، فجل قوات الإخوان محتشدة لحرب الحجاز إذ لا يزال ابن سعود يحاصر جدة. وتبشر اتفاقية بحرة بعهد جديد من التعاون بين العراق ونجد. ولكن على الصعيد المحلي، فليس هناك أي ذكر عن استرداد إبل الظفير التي سلبها علي بن عشوان، والعريف، وهم الضحايا، مشغولون بغزوات لاستعادة ثرواتهم المسلوبة، وهذا يعطي العذر للإخوان بالقيام باعتداءات أخرى ضد العراق كرد انتقامي. إنها دائرة مفرغة وعصيبة تواجه من يتصدى لوقف الغزوات. وعلى الرغم من التخلص من الإخوان اللاجئين إلاّ أن العُريف أخذوا مكانهم.

ومن الحوادث المهمة في صيف ١٩٢٥ غياب حمود السويط، الذي أصيب بالتهاب الصفاق الحاد نتيجة السل، فأرسل إلى مستشفى في بغداد، وبعد إدخاله المستشفى لعدة شهور توفي هناك. وهو الرجل الوحيد القادر على قيادة الظفير خلال السنوات العصيبة التي لازالت تنتظرهم في المستقبل. وبوفاته فقدت الظفير آخر رؤسائها المشهورين.

ومع اقتراب الشتاء وتلاشي الآمال باسترداد الإبل التي نهبها ابن عشوان، أخذ أصحاب الأغنام العراقيون يتوجسون خيفة من فصل آخر من القتل والسلب. وكان بعض الرجال من الزياد قد استنتجوا أن الحكومة ضعيفة ولا يمكن الاعتماد عليها، وأرسلوا موفدين سراً إلى حائل في أوائل الخريف، مبدين رغبتهم الشديدة في أن يأذن لهم ابن مساعد حاكم حائل بدخول منطقة الإخوان، لدفع الضرائب [الزكاة] للحكومة النجدية وليضعوا أنفسهم تحت حماية ابن سعود.

وعندما بدأت القبائل بالخروج إلى الصحراء في ديسمبر/ كانون الأول، عاد الجيش العراقي

إلى شغل قلعة أبوغار وأعيد بناء محطة اللاسلكي . إلاّ أن هذه القبائل كانت غير مطمئنة وظلت متهيبة تخيم بالقرب من القلعة . وكان شيوخ القبائل من أصحاب الأغنام المترددين يدعون الحكومة يومياً تقريباً ويسألونها إن كانت قادرة على ضمان سلامتهم من غزوات الإخوان أم لا .

وخلّف حمود بن سويط وراءه بعد وفاته ابناً رضيعاً اسمه نايف . وبدا أن ابن عمه عجمياً ، هو أبرز رجل لايزال على قيد الحياة ، وبدأ الظفير يعدونه قائدهم . لكن عجمياً كان حذراً ، وقرر أن لا يكون هو شيخ القبيلة [٤٣] ، خشية أن يتورط مع الحكومة ويكون مصيره كمصير حمود ، لأن تقليد اعتقال الشيخ والزج به في السجن كلما اتهمت قبيلته بجريمة ، وهو تقليد يعود إلى زمن الأتراك ، قد أضعف سيطرة الحكومة . لذا لا أحد يرغب في المشيخة ، ولم تجد الحكومة أي وسيلة أخرى لضبط القبائل إلاّ عبر رؤسائها . وشهد الشتاء المنصرم صعوبات جمة في ضبط تحركات الكتل البشرية الكبيرة من قبائل البدو الرُّحل العراقية . والآن إذا انتكست أوضاع الظفير إلى فوضى دون قائد ، فإن مهمتنا الدفاعية ستتعقد أكثر . فقمت بزيارة لعجمي في الصحراء آملاً في إقناعه بالموافقة على أن يكون الشيخ الرسمي للقبيلة . وجلسنا سوياً على الأرض بالقرب من مجموعة من الشجيرات البرية ، نبعد حوالي مئة متر عن بيت الشعر . واعترفت لعجمي بأن حموداً لم يكن محظوظاً [بتعامله مع الحكومة] وعرضت على عجمي أن أصطحبه معي وأقدمه إلى المتصرّف ، وهو الحاكم العربي للمنطقة في الناصرية .

لكن جهودي في إقناعه ذهبت سدى ، وقال لي : «أنا لا أستطيع التفاهم مع الحكومة» . وأضاف ، « أنا لستُ رجل الحكومات» ، فأحبطت وعدت إلى الصمت . كنا جالسين القرفصاء على رمال الصحراء ونحن نحدق إلى الأفق البعيد الأزرق . ومر علينا رجل يمتطي جملاً ، وبصوت مرتفع يدوي في فضاءات الصحراء ألقى علينا التحية قائلاً : «السلام عليكم» .

مدّ عجمي يده إلى شجيرة صغيرة بالقرب منا وقطع عوداً منها ، ورفعه بين أصابعه قائلاً بهدوء : «وحياة هالعود والرب المعبود ، إنني لن أخونك ولن أتركك وحدك طالما بقيت بوظيفتك هذه في هذا البلد» . (والشجيرات البرية والأعشاب التي تتغذى عليها الأنعام تعد مصدر حياة البدو . فهم يطلقون اسماً على كل نبتة برية من تلك النباتات المختلفة التي لا يحصى عدّها والقسمُ بعود النبات تقليد موغل في القدم قبل الاسلام) . وهذا كل ما استطعت الحصول عليه منه . سوف يعمل معي في الصحراء لكنه لن يذهب إلى الناصرية ناهيك عن بغداد .

---

(٤٣) يبدو أن الشيخ عجمياً يرفض أن يكون شيخاً مرتبطاً بالحكومة ، لكنه لا يرفض اختياره شيخاً للقبيلة وهو الذي يتم حسب تقاليد قبلية معينة . [المترجم]

على الرغم من أن التوقعات الحكومية رأت أن الهدوء سيسود هذا الموسم إلاّ أن القبائل رفضت بقوة أن ترحل خارج أبو غار، ودون شك فإنّ الحشود الكثيرة من القطعان بالقرب من أبو غار ستؤدي إلى استهلاك المراعي المحيطة وبالتالي إلى كارثة نفوق الكثير من الأنعام مرة أخرى، مهما كانت الأمطار الشتوية جيدة.

وأسرعتُ في زيارة الظفير لأستشير عجمياً عما يمكن عمله. فقال لي: إذا لم تقدّم الحكومة الدعم الملموس لهذه القبائل، فلن تخرج إلى الصحراء. ويفضل الناس أن يموتوا جوعاً في أبو غار على أن يتعرضوا لاحتمال مجزرة مرة ثانية. وأضاف: «إذا مكثوا في أبوغار كل هذا الشتاء فإن أغنامهم وإبلهم ستنفق ومع هذا فإنه أفضل لهم من حياة الرعب التي تهددهم بقطع أعناقهم. إذا رحلوا إلى الصحراء فإنهم يعتقدون أنهم سيفقدون إبلهم وأغنامهم وأرواحهم على حد سواء».

غير أن الحكومة العراقية وسلاح الجو الملكي ابتهجا كثيراً باتفاقية بحرة، وعندما أبلغتهما بحالة الذعر التي تنتاب القبائل كان ردهما أن السلام قد ثبت ولا حاجة للتدابير العسكرية الدفاعية. وأصبحنا في ورطة من أمرنا. فقد فقدت الحكومة اهتمامها بالموضوع. ولكن القبائل لن ترحل إلى الصحراء ما لم ترافقها قوة حكومية. وشرحت الأوضاع لعجمي بصراحة وسألته ماذا ينبغي علينا عمله فقال لي: «يجب أن ترافقنا أنت شخصياً». وأضاف، «وبهذه الطريقة فقط يمكن أن ترحل القبائل إلى الصحراء وبالتالي يمكن المحافظة على الأنعام والأرواح»، وبيننا نحن الاثنين أعدنا خطة خاصة.

في الشتاء المنصرم، استخدمت شاباً أسود من شمر عندما كنت مخيماً في أبوغار. فالقبائل العربية يوجد بها عدد من السود، كان قد تم استيرادهم من إفريقيا منذ قرون كعبيد. وإذا كان العبد من نصيب عائلة غنية فإنه يهنأ بحياة سعيدة في المجتمع البدوي. فيترعرع كأحد أفراد العائلة، فتجد الطفل الأسود الإفريقي يجري هنا وهناك يلعب مع أطفال سيده ويطلق العبد لقب «عم» على سيده، وتسند إلى العبد المهمات الصغيرة كإعداد القهوة أو الشاي في بيت الشعر، أو مرافقة «عمه» أثناء رحلة لحراسته.

إن المجتمع البدوي البسيط يظهر رفضه لأي شيخ منه يلبس حريراً أو عباءة [بشْت] ذات شريط ذهبي، لكن الشيخ العظيم من حقه المشروع أن يظهر ثراءه وفخامته عن طريَق حاشيته من العبيد الذين يلبسون ملابس متعددة الألوان وأغماد سيوفهم من الفضة. حتى إن ابن سعود المحافظ يلبس ثوباً قطنياً ونعالاً جلدية (دون جوارب) ويقوم على خدمته عبيد يلبسون ملابس قرمزية ومزركشة بشرائط ذهبية. ويلقى العبد احتراماً كبيراً من شهرة «عمه» فتلتقي الشهرة والمجد. ويحرمه جنسه من استحقاق القيادة ولكن متى كسب ثقة سيده ومثله خير تمثيل فإن

سيده قد يؤمّره على العرب الأحرار.

وبما أنه لا يمكن تفادي نهوض العائلات الشريفة المحتد أو سقوطها أو الزيادة الطبيعية لعبيدهم، فإنه كثيراً ما يؤدي إلى وجود عبيد لا يستطيع أسيادهم الإنفاق عليهم، فعليه تحتم الظروف أن يكسبوا معيشتهم كأحرار. ولم أصادف أبداً حالة شراء عبيد أو بيعهم بين البدو. فهم عاشوا وترعرعوا في مجتمع القبائل الحر، فمما لاشك فيه أنهم لا يطيقون معاملتهم كعبيد. إن الحياة المفتوحة في مجتمع بيوت الشعر التي تقوم على الترحال الدائم جعل من المستحيل الاحتفاظ بعبيد مستاءين أو نساء يقبعن خلف ستار. وفي مدن نجد والحجاز كانت تجارة العبيد لا تزال موجودة، وفي بعض الأحايين تتم تحت ظروف مأسوية. والكثير من العبيد الذين تم عتقهم يمارسون حياتهم كالأحرار، وقد يملكون قطيع إبل أو بساتين نخيل، أو أرضاً زراعية.

إن البدو والسود أوجدوا طريقة عيش أفضل بكثير من النظام المتبع في إفريقيا وأمريكا، فلا توجد فوارق اجتماعية بين العرب والسود، فهم يعيشون ويأكلون مع بعض. وكثيراً ما يشغل السود وظائف كبيرة في البلاد العربية كحكام أو محافظي مناطق يمثلون أسيادهم. والاستثناء الوحيد هو عدم التزاوج معهم.

حامد البلال عبد من شمر وكان «أعمامه» من فخذ الأسلم، كان يملك بستان نخيل وإبلاً وأغناماً في نجد. ولكن عندما هاجم الإخوان شمراً، وَشَى به بعض أبناء عمومته بأنه يدخن التبغ وبالتالي أصبح عدواً لله. وكانوا يهدفون من ذلك أن يرثوا ممتلكاته من بساتين وأنعام. والوهابية مثل أي مذهب ديني شمولي قد يمارس معتنقوه أحياناً النفاق ونشر الفضائح والإشاعات وحديث الإفك. ووجد حامد نفسه فجأة قد جُرّد من كل ممتلكاته وأعطيت إلى أبناء عمه المتزمتين. ونتيجة لاضطهاده وتوبيخه على نحو مهين، ترك منزله وحمل خيمة على ظهر جمله الذي تُرك له، مع بعض الأثاث، ورحل مصطحباً أمه وأختيه حزيناً مهيض الجناح ميمماً العراق هرباً من الظلم الذي يحيق به، آملاً أن يودع نساءه في الزُّبير ويشرع في تنظيم غزوات ضد الإخوان، فتكون العراق قاعدة تنطلق منها غزواته. وبالتالي يضرب عصفورين بحجر، فمن ناحية، يثأر لنفسه من الإخوان ومن ناحية أخرى يحاول استعادة ثروته. ونفوق جمله الوحيد وضع حداً لكل آماله، فلا يستطيع أي رجل أن يغزو في الصحراء دون أن يمتطي جملاً أو فرساً. وفي ربيع ١٩٢٥ ساقته الأقدار إلى أبوغار عندما استعملته راعياً لركابنا براتب شهري قدره جنيهان إسترلينيان مع طعامه اليومي. إنه قصير القامة، متين البنية أسود كليل حالك، وأسنان مصفوفة ناصعة البياض، وشعر كالصوف الأسود. وكان خجولاً صامتاً في البداية، وربما لم ير أو يتكلم مع أوروبي إلاّ عندما قابلني في أبو غار. لكنه تحول فيما بعد إلى

مهرج ساخر بدعاباته اللطيفة وحلو معشره فحول جلسات ليالي الشتاء الطويلة حول النار إلى ضحك متواصل. وأخيراً رغب في أن أكون «عمه» واستمر معي لعدة سنوات تقاسمنا خلالها السراء والضراء وكان مخلصاً وفياً.

كان ذلك هو الرجل الذي اخترناه أنا وعجمي بن سويط لمنصب رفيع ليمثل حكومة صاحب الجلالة البريطانية والحكومة العراقية معاً في الصحراء الجنوبية. وكان ذا شخصية تتّقد ذكاء وسرعة بديهة أكثر من الكثير من كبار المسؤولين الذين عرفتهم.

ولم يعد هناك أمل يرتجى من الحكومة بأن ترسل قوات ترافق القبائل في ترحالها، ولا شيخ يرضى بأن يقودها، والقبائل ترتعد فرائصها من الخوف فلا تجرؤ إلى شد الرحال إلى المراعي، وعليه قررنا [أنا وعجمي] اتباع سياسة المخادعة. فأعطيت عجمياً خيمة عسكرية بيضاء صغيرة وحامداً العبد وأعدّ عجمي جملاً لحملهما. وكان يتعين على الحظ والذكاء إكمال المهمة. وبالنسبة إلى تسمية حامد البلال بحامد العبد، فهذا بالطبع لا يعني أن وظيفته كعبد، بل كان يعد نفسه أحد أفراد قبيلة. وإذا سُئل من أين هو فإنه يجيب «أنا شمري من فخذ الأسلم». فهو أمضى كل حياته حراً كأي بدوي آخر. وفي اللغة العربية فإن كلمة «عبد» تعني الإفريقي. فحامد العبد تعني حامد الإفريقي. وبالنسبة إلي فإن حامد العبد هو زميل عسكري ومرافق خاص في الوقت نفسه.

أخذ عجمي الخيمة البيضاء وحامد تجسيداً للحكومة وانطلق إلى الصحراء. وكان نبأ «أن ابن سويط قد رحل إلى الصحراء» مثيراً وانتشر من بيت شعر إلى آخر كانتشار النار في الهشيم. وشدّ الآخرون الرحال تدريجياً إلى الصحراء للحاق به، وبحذر شديد نصبت بيوت الشعر خلف مخيمه لكي يكون هناك متسع من الوقت للهرب إذا ما حصل اعتداء. وتركوا مسافة معقولة بينهم وبينه لتأمين بيوتهم وإبلهم، وامتطوا ركابهم لمقابلة الشيخ وتقصي الأخبار ودهشوا لرؤيتهم خيمة بيضاء (فالعرب يسكنون بيوت الشعر السوداء) بجانب خيمة الشيخ.

- وكان الزوار يسألون: «لمن تلك الخيمة؟».

- ويجيب عجمي دون اهتمام: «تلك؟ تلك خيمة الضابط وبها عبده».

واختلس الزوار النظر داخل الخيمة معبرين عن شكوكهم ليروا حامداً العبد، متبلداً يسحب نفساً طويلاً من غليونه (وهو الغليون نفسه الذي جعله عدو الله)، وباحترام ألقوا عليه التحية: «السلام عليكم» (وكان يرتدي معطفاً متعدد الألوان اشتريته له).

فرد عليهم التحية دون التعبير عن أي عواطف، «وعليكم السلام». وسألوه عن غير اقتناع: «أين الضابط؟»

فأجابهم: «يبغى يجي هالحين» (سوف يأتي الآن)، وأزاح باب الخيمة وهو ينظر إلى الخارج متوقعاً قدومي. فركبوا مطاياهم عائدين إلى مخيمهم.

وسألهم رجال القبيلة بلهفة: «إلى أين يذهب ابن سويط؟ وهل يعرف عن أخبار الإخوان؟». ويجيبون: «إن الحكومة مع ابن سويط، فلا شيء يخيفه. غداً سنرحل وننضم إلى مخيمه».

ولو وافقت السلطات على منحي جهازاً لاسلكياً لتغيرت الأحوال، ولكنها عنيدة. إن اتفاقية بحرة تنص على السلام مع ابن سعود ولا داعي لأي التزامات في الصحراء.

كان القلق لايزال ينتابني. صحيح أننا نجحنا وبأسلوب ماكر في التأثير في القبائل للخروج إلى المراعي الجيدة، لكنها زادت من أعبائي. فلو ارتكب الإخوان مذبحة ضدهم، فإنني الوحيد الذي سيلومه كل الأطراف. وسيعود رجال القبائل لتأكيد شكوكهم القديمة ويقتنعون بأنني دفعتهم لحتفهم لأن الحكومة البريطانية تشجع ابن سعود سراً. وستلومني السلطات في بغداد لأنني لم أترك القبائل تتركز في المنطقة ما بين أبو غار والنهر. (وبينما تعتقد القبائل العراقية أن البريطانيين يخونونهم لمصلحة ابن سعود، كان الأخير مقتنعاً بأن حكومة صاحب الجلالة [بريطانيا] تتعامل معه بطريقة غير عادلة لإرضاء العراق).

لا المسؤولون البريطانيون ولا المسؤولون العراقيون يبدو أنهم يفهمون الأسس الاقتصادية لحياة البدو الرحل التي هي مفتاح الحل لكل مشاكلنا. فكان كثير من الناس يعتقدون أن تنقلات القبائل إلى الصحراء تهدف إلى خلق مشكلات للحكومة، وهي الفكرة نفسها التي كانت ملتصقة بذهن الأتراك. لاشك أن أي إنسان يعيش بالقرب من البدو في تلك السنوات يلاحظ توتر حياتهم وهلعهم من المذابح وخوفهم من الخروج إلى الصحراء، ولكن على الرغم من ذلك الرعب، فإنهم استمروا في الخروج. إن الضرورة الاقتصادية هي التي تضطرهم إلى ذلك. فإن الأعشاب الربيعية التي تسد حاجة حيوانات كثيرة لا توجد إلا في الصحراء فيعتمد عدد الولادات، وبقائها على قيد الحياة على نوعية المراعي في الشتاء والربيع، وكذلك كمية منتجات الأغنام من دهن، وشحوم، وأصواف، إضافة إلى سمن الإبل أو الأغنام وأسعار بيعها إلى القصابين. وتعتمد المداخيل المالية للأفراد وعائلاتهم خلال السنة اعتماداً كلياً على فترة الأربعة أشهر من الرعي من ديسمبر/ كانون الأول إلى أبريل/ نيسان. ولكنه ليس دخلهم لتلك السنة وحده الذي يتعرض للخطر إذا اضطروا إلى قضاء الشتاء دون رعي، بل قد يموت نصف أنعامهم (أو ربما أكثر) أيضاً.

وبمعنى آخر، إذا لم يتسنَّ للبدوي الانتشار في الصحراء في فصل الشتاء، فإنه سيفقد

المداخيل التي تمكنه من العيش في السنة القادمة ومن الممكن خسارة النصف أو أكثر من النصف من رأسماله. ويبدو أن رجال السلطات في بغداد سواء أكانوا بريطانيين أم عرباً لم يستوعبوا ذلك ويتضح هذا عند طلب القبائل للحماية، فسرعان ما يجيب المسؤولون: «إذا كان رجال القبائل خائفين فقل لهم أن لا يخرجوا إلى الصحراء هذه السنة».

ويبدو أني أمضيت الكثير من حياتي أفهم وجهتي النظر في بعض المسائل، وأحاول أن أوضح لأمة أو مجموعة أو مجتمع لماذا يسلك الآخرون سلوكاً معيناً. وأُكافأ عن هذه المهمة أحياناً بشر الجزاء ولكنها أحدثت لدي انطباعاً عميقاً بصعوبة فهم وجهات نظر الآخرين أو وضع أنفسنا في مكان الآخرين، وقلما يحاول أحد بجدية أن يفعل ذلك. إن أغلبية البشر راضون عن أنفسهم ووجهات نظرهم الخاصة بهم ولا يتخيلون أنفسهم أبداً في مكان الآخرين، ولا يحاولون تحليل دوافعهم. ويا له من عالم مختلف لو فعلنا ذلك جميعاً!

الفصل العاشر

سنةُ الخيمة



سنة الخيمة
عريبدار: أسماء القبائل
شمال
N
السلمان
صحراء
الزيّاد
الحجرة
أبو غار
شقراء
البصرة
الزبير
بصيّة
الزيّاد
عريبدار
بني مالك
الجوارين
البدور
الظفير
مغيزل
عريبدار
الرخيمية
المنطقة المحايدة
أنصاب
شمّر نجد
مطير
0 10 20 30
الحفر

سنةُ الخيمة

لم أستطع البقاء بشكل دائم في خيمتي مع عجمي لأن قيادة الطيران كانت تطلب مني كتابة التقارير والرد على المراسلات وأن أكون على اتصال مع الدوائر المدنية. وكنت أخشى إذا جادلتهم أن يمنعوني من الذهاب إلى الصحراء منعاً باتاً. وعليه لم أتمكن إلا من القيام بزيارات سريعة (إلى منطقة الخيمة)، وفي الفترات الزمنية الطويلة التي تفصل بين هذه الزيارات فإن الحكومة تكون ممثلة بحامد العبد.

واتفق عجمي معي على أن يرحل مباشرة إلى «لقطة»، حيث توجد غدران تكونت إثر أمطار مبكرة سقطت هناك، وحيث بدأ ظهور الأعشاب الخضر وشجيرات الصحراء ذات أوراق خضر صغيرة. وعندما وصل لقطة انطلقت لزيارته في سيارتي الفورد، بعد أن نقلت مكتبي وأثاثي إلى أبوغار مرة أخرى. وأثناء سيري باتجاه الجنوب في صحراء الدبدبة المنبسطة شمال لقطة شاهدت بيوت شعر كثيرة للظفير وقبائل أصحاب الأغنام، من البدور والجوارين. وأكبر بيوت الشعر هناك كان بيت عجمي وبالقرب منه الخيمة البيضاء الصغيرة مع حامد العبد.

وحالما جلست في مجلس عجمي، ضمن دائرة كبيرة من الرجال الملتحين الذين يتناولون القهوة، استؤنفت نقاشاتهم المحمومة بعد أن قوطعت بسبب وصولي. كان أحد الرعاة قد جاء لتوه مسرعاً من قطيع إبله التي ترعى على بعد أميال قليلة إلى الجنوب ليخبرنا بأنه رأى ثلاثة رجال مجهولين يمتطون جمالاً قد ظهروا على أحد التلال المشرفة على الإبل الراتعة، ثم حالما رأوها عادوا مسرعين باتجاه نجد من حيث أتوا. واقتفى آثارهم راعيان من الظفير لعدة أميال، وأظهرت آثارهم أنهم كانوا مرتحلين بسرعة مشياً نحو الشمال قبل رؤيتهم إبل الظفير. وانحرفوا جنوباً بخطى حثيثة بعد أن حدّدوا مواقع الإبل، ولم يتوقفوا إطلاقاً بعد ارتدادهم

للمسافة التي تمكن الرعاة من قطعها. وأوضح فحص رَوْث [دِمَن] إبلهم أنها تتغذى على أعشاب جافة [حميس] وشجيرات بريّة.

ويمتد الحزام الأخضر الذي تكثر به الأعشاب والشجيرات البرية وتقطنه قبائلنا إلى مسافة ٣٠ ميلاً فقط إلى الجنوب من لقطة وما بعد ذلك لم تسقط عليه الأمطار حتى الآن وليس فيه إلاّ أعشاب جافة بنية اللون من السنة الماضية. وفي عالم الصحراء عندما يعتلي راكبو جمال تلاً ليستكشفوا مضرباً أو إبلاً ترعى فإنهم ما إن يشاهدون حتى يهربوا بأقصى ما أوتوا من سرعة بالاتجاه الذي قدموا منه، إنه من المعقول الافتراض بأنهم أعداء ومن المحتمل أن يكونوا أفراداً مستطلعين لمجموعة غازية. وفي هذه الحالة، فإن وجهة هروبهم، ونوعية تغذية ركائبهم تشيران إلى أنهم من الإخوان من مطير. وكانت وجهات نظر أغلبية كبار السن في القبيلة أن هجوم الإخوان المروّع علينا سيكون فجر اليوم التالي. وكان بيت الشّعر الخاص بعجمي، والخيمة البيضاء الصغيرة، وبيت شعر أو اثنان كلها تقع بضعة أميال إلى الجنوب من بقية بيوت القبيلة. ولا مناص من أن تكون أول ضحايا الغزو المتوقع، فناديت على عجمي للخروج من البيت وسرنا لمسافة ٥٠ متراً حتى لا يسمع أحد محادثتنا ثم جلسنا على الأرض للمشاورات الخاصة.

كانت تساورني الشكوك في أن نتعرض للغزو. فعند اعتداء الدويش على أصحاب الأغنام في جو هدية قبل سنة وصلت الإشاعات عن تحضيره للهجوم قبل أسبوعين من وقوعه. والآن لم تصلنا أي تقارير أو تحذيرات تفيد بذلك، فابن سعود نفسه لا يزال في الحجاز بعيداً عن نجد، ولكنه يبدو أنه أعطى أوامر صريحة بمنع غزو العراق. وقد ارتكب أوائل الوهابيين قبل مئة وعشرين سنة خطأً بإثارتهم حنق الحكومات المجاورة بشدة مما أدّى إلى تدميرهم. وقد أثاروا الأتراك والمصريين الذين غزوا نجداً بمشاة وعلى ظهور الخيل. والآن فإن جيرانهم يحتمون ببريطانيا التي تملك الطائرات القادرة على إلقاء القنابل على وسط الجزيرة العربية خلال ساعات قليلة، إضافة إلى ذلك فإن ابن سعود لايزال يقاتل الأشراف وقد يقلب التدخل البريطاني في هذه المرحلة الأوضاع رأساً على عقب ويمكّن الأشراف من قلب الطاولة على ابن سعود. ولا يبدو أنه سيجني أي مكسب من غزو العراق خاصة في هذا الوقت وهو في حرب في الحجاز.

ومن ناحية أخرى، فإن فيصل الدويش قد عاد من حرب الحجاز وقيل إن ابن سعود كان غاضباً منه. وإذا استثني من المشاركة في حرب الحجاز، فربما يرغب في أن يظهر أنه قادر على شن حرب بنفسه. لا يستطيع أحد التأكد من ذلك الأمر ولا من عكسه. ولكن الشيء الواضح هو أنني بدأت حيلة مرافقة خيمتي القبائل فيتحتم عليّ المحافظة على استمراريتها. وإذا هربنا

من مكاننا الآن حسب رغبة القبيلة، وإذا لم يصبح الغزو حقيقة واقعة فتكون تصرفاتنا حمقاء وتفقد الخيمة قيمتها المعنوية. قررتُ أن لا حل أمامنا إلا المجازفة في البقاء حيثما كُنّا، ووافق عجمي في أن أقوم بأي عمل أراه لمصلحة الجميع، مع أنه ربما كان خائفاً مثلي ولكنه لم يظهر خوفه.

أعتقد أني لم أشعر بالخوف مطلقاً أثناء مشاركتي في الحرب العالمية الأولى مثلما شعرتُ به في الصحراء، ففي الحرب العالمية الأولى، كنت مُحاطاً بالزملاء، رفاق السلاح، سريتي الخاصة أولاً ثم ملايين آخرين خلفنا ثانياً، كلهم يقومون بأداء الواجب نفسه. لقد قضى كثير منهم نحبهم قبلنا، ونحن لازلنا أحياء على الأقل في تلك اللحظة، ويبدو الموت أنه أقل رهبة عندما يعني اللحاق برفاق ذهبوا قبلك، ولكن هنا أنا وحدي. اتخاذ القرار متروك لي وحدي وقال رجال القبيلة إنهم ملتزمون بتنفيذ قراراتي أيّاً كانت.

نعم، أنا في الصحراء وحيد، والحكومة غير مكترثة ولم تأمرني بقيادة القبائل، واقتنع رجال القبائل الآن إلى حد ما أنني أبذل قصارى جُهدي لمساعدتهم، ولكن إذا ساءت الأمور، فسوف ينقلبون عليّ. وفي كثير من ليالي الصحراء الطويلة الباردة، عندما تهب الرياح من فضاءات الصحراء المفتوحة كان أكثر الأسئلة إلحاحاً هو: «هل سيأتون عند الفجر؟».

وإذا ما جاؤوا فنحن من دون شك سنُقتل جميعاً وليست لدينا مقومات المقاومة، مجرد بيوت شعر بدو ضئيلة متناثرة في الصحراء تقتحمها جموع غفيرة تعدادها ما بين ألفين وثلاثة آلاف مقاتل متوحش دون رحمة فإذا سقط رجل جريحاً يجثو على صدره وغد مُلْتحٍ ويقطع عنقه بالخنجر. إنها ليست مجرد حرب بل إنها مذبحة ـ ولكي تسرح إبلنا إلى المرعى فنحن نقامر فيما إذا «هُم» سيأتون أم لا. فالرهان هنا على حياتنا بدم بارد وبقطع أعناقنا بالخناجر.

وبعد حلول الظلام أرسلنا رجلين يمتطي كل منهما جواداً للاستطلاع إلى الجنوب منا، إلا أن ثقتي بهما كانت ضعيفة أو معدومة. والبدو شديدو البأس وشجعان ودُهاة، ولكن لا يوجد لديهم انضباط داخل القبيلة وفلسفتهم القائمة على التساهل تجعلهم يرون أنه من الطبيعي للفرد أن يخاف من الموت ويهرب منه. وعليه فلا يمكن الاعتماد عليهم لمهمة الاستطلاع أو الحراسة التي يقومون بها إلاّ إذا كان المرء يعرفهم شخصياً. وعلى كل حال، لا فائدة كبيرة من المستطلعين على ظهر الخيل، لأن الغزاة المتقدمين يترقبونهم، وعند رؤيتهم سيطاردونهم بحماسة لمنعهم من العودة إلى القبيلة وإنذارها. وحتى إذا لم يلق القبض على المستطلعين ويقتلوا، يحتمل أنهم لن يصلوا إلى المضارب إلا قبل هجوم الغزاة ببضع دقائق فقط.

وعلى الرغم من أننا قلقون إلاّ أنه يتوجب علينا أن نجعل الأمور تبدو أقل سوءاً أمام العامة.

أمضينا جلّ ليلتنا، في بيت عجمي، في نقاشات ونحن جالسون في حلقة من الرجال الملتحين بعباءاتهم حول النار الرّافة التي تتقد بشكل غير منتظم. وحاول بعضهم التظاهر بالابتهاج، لكن الكثير منهم ترتعد فرائصه خوفاً.

قال «دهلوس السالمي» وهو كهل من السويط ذو لحية بيضاء: «يجب أن نطبق هدنة في صيد الأرانب والحبارى في الصباح، وأي رجل يرى أرنباً يجب أن لا يعترضه».

لو أطلقت رصاصة من بندقية بالمصادفة عند الفجر لأدت إلى فرار جماعي مفاجئ من لقطة إلى أبوغار.

ومن المؤكد أن الظفير لم يناموا إلا قليلاً في تلك الليلة، فمن الغَسق وحتى الفجر كانوا مشغولين بتحميل أمتعتهم على ظهور الجمال استعداداً للرحيل. وكل فرس قد أسرجتْ وألجمتْ وربطتْ من رسنها فقط بدلاً من الصفاد الذي يقيد أرجلها حتى يسهل إطلاقها وامتطاؤها لأي طارئ.

وكان حامد، هادئ الأعصاب كالمعتاد، يسحب أنفاساً عميقة من غليونه طوال الليل، واضعاً بندقيته على ركبتيه، ويسلي نفسه بمداعبة السائق الجديد لسيارتي الفورد، وهو حضري من البصرة غير متعود على الطوارئ في الصحراء، قائلاً: «سيقولون بسم الله قبل أن يقطعوا عنقك!». وأضاف شارحاً للبصري: «وهذه رحمة عظيمة، لأنهم يذبحونك حلالاً، فقد تذهب إلى الجنة مباشرة، هذا إذا لم ترتكب بعض الآثام في البصرة».

«مصائب قوم عند قوم فوائدُ»، وهكذا فإن السائق، بعد تلقي هذه النصيحة، أمضى ليلته منشغلاً بتنظيف السيارة مرات ومرات، فقام بتلميع البواجي، ومسح على التوصيلات الكهربائية للسيارة بورقة الصّنْفَرة. ولم تتمتع سيارتنا أبداً بمثل هذه العناية في أوقات السلام. لم يترك أحمد أي شيء للحظ، فإذا ما رغبنا في تشغيل السيارة على عجل في الصباح فإنها تكون على أهبة الاستعداد. والشيء الوحيد الذي تبادر إلى ذهني هو هل سيتذكر أحمد أنه يجب أن يأخذني وحامد معه قبل أن يذهب إلى البصرة. وحامد بالطبع استمر في ملاحقته باستهزائه السافر.

قال حامد: «الحصان الأسود سيحتاج إلى قوائمه عندما تظهر الرايات الخضراء من على التل» بعد أن أخرج غليونه من فمه ومشيراً به إلى الفورد مضيفاً: «والله، سينتهون منك بسرعة. أنت مُشرك وحليق لحية وجيوبك مليئة بالتبغ والسجاير».

وبدأ أحمد بتشغيل السيارة قبل الفجر بوقت طويل. فاعتبره من الأفضل أن تكون السيارة على أهبة الاستعداد ومحركها قد تم تسخينه قبل أن تظهر الرايات الخضراء فوق التل القريب.

وانتاب أهل البيوت البعيدة الهلع إثر سماعهم لعلعة صوت محرك السيارة، واعتقدوا لأول وهلة، أنها أصوات حوافر خيل غازية. أما الناس القريبون منا فاعتقدوا أنها صوت طائرات، فخرجوا من بيوتهم وهم ينظرون إلى السماء قائلين: «اتصل أبوحنيك لاسلكياً بالطائرات وأتت لمساعدتنا، بارك الله فيه وحفظه».

وعند بزوغ النهار كان هناك ضباب خفيف ومطر رذاذ وسماء ملبدة بالغيوم، وكأنه أحد أيام ديسمبر/ كانون الأول في إنجلترا لا في الجزيرة العربية. وكان الهدوء يخيّم علينا، عدا أصوات هنا وهناك تنبعث من بيوت الشعر مخترقة الضباب ونباح كلب أحياناً، ومن بيت عجمي انبعث عمود دخان خفيف معلناً عن قهوة الصباح. وعند وضح النهار اقترحت أن نقوم برحلة استكشافية على السيارة الفورد حتى حدود نجد، لنبدّد المخاوف ونقتل الشك باليقين. وبدأنا رحلتنا الساعة الثامنة صباحاً أنا وعجمي ومعتق بن شبعان من الظفير المعروف عنه بأنه مرشد وضليع في شؤون الصحراء.

قعقعت سيارتنا وتمايلت من جانب لآخر وسط الضباب، تصطدم أحياناً بالشجيرات البرية وتقتحمها أحياناً أخرى، والدبدبة منبسطة ومنحدرة قليلاً لكنها خالية من المعالم الطبيعية الواضحة وممتدة من كل الجوانب بشكل لامتناه وسط هذا الضباب. وتوقف المطر إلاّ أن السماء لا تزال ملبدة بالغيوم الخفيفة التي تحجب عنا الشمس. والعشب والشجيرات البرية تغطيها قطرات النّدى. ولم يسمح الضباب بالرؤية إلاّ على بُعد ميل أو ميلين. وهنا وهناك حزم بيضاء من الضباب الأرضي ينساق على سطح الأرض الصحراوية.

وتقدمنا بحذر، عبر أرض منخفضة، ومتى صادفنا مرتفعاً من الأرض أوقفنا سيارتنا قبل أن نصل إلى قمة الظهرة وترجل أحدنا راكضاً إلى الأمام ومن ثم يزحف على الأرض حتى يصل إلى القمة ويطوف نظره باحثاً عما خلف الأفق. وبعد ساعتين من مسيرنا قدّرنا أننا قطعنا ٢٠ ميلاً نحو الجنوب، وقابلنا فارسين وهما اللذان أرسلناهما الليلة البارحة كمستطلعين، أكّدا لنا أنهما لم يسمعا أو يريا أي شيء، لذا فقد قرّرا العودة إلى المضارب. واعتقد معتق أننا الآن بالقرب من «شعيب العوجا». وقررنا أن نندفع قليلاً إلى الأمام حتى نصل منخفض الباطن الكبير.

في هذا الوقت بدأ يتلاشى الضباب وتحسّن مجال الرؤية لمسافة ميلين أو أكثر قليلاً. واستمررنا في تقدمنا بحذر من ظهرة إلى ظهرة ونزحف بالتناوب إلى قمتها مستخدمين المنظار (الدربيل). وبعد ساعة من مقابلتنا الرجلين كان دوري لأستطلع خلف ظهرة، ووقفت السيارة تحت الأفق، فانطلقت راكضاً إلى الأمام وأنا أنحني انحناءة كبيرة ثم انبطحت ووجهي على الأرض خلف شجيرة برية عند قمة الظهرة. وعندما وضعت المنظار على عيني شعرتُ أن

نبضات قلبي قد توقفت فجأة. ففي منخفض بسيط يبعد حوالي ميلين أو ثلاثة أميال استطعت أن أرى وسط الضباب الخفيف أعداداً ضخمة من أشياء صغيرة متحركة. وكانت معتمة بسبب حالة الضباب ولكنه من الواضح أنها إبل وتبدو لي أنها تتحرك باتجاهنا. وأعطيت إشارة لعجمي ومعتق ليأتيا إلى جنبي. وأخذنا كلنا، الواحد تلو الآخر، ننظر إليها من خلال المنظار. وزحفنا بحذر إلى الخلف تاركين قمة الظهرة من ورائنا وقفزنا إلى داخل سيارتنا واتجهنا إلى وجهة الإبل ونحن نسير في أرض منخفضة. وسرنا في مجرى أحد الشعاب عبر جو واسع وصعدنا تلاً أقرب إليها بحوالي نصف ميل. فإذا استطعنا التأكد من أنهم غزاة فلدينا متسع من الوقت لإشعار قبائلنا وبإمكانهم أن يرحلوا إلى أبوغار بانطلاقهم قبل وصول الغزاة بوقت كاف.

أخذنا كلنا نزخف جنباً إلى جنب إلى قمة التلّ التالي ونحن الآن قريبون منهم، ولكن لا نزال غير قادرين على تمييز ما إذا كانت الإبل عليها أشدّة أو لا. وإذا كانت عليها أشدة فهذا يعني أنهم غُزاة. إنها مئات من الإبل وتبدو أنها منتشرة ترعى، تتجول هنا وهناك. ويمكن أن يتوقف غزاة للراحة في الصباح الباكر، بعد مسيرة طويلة في ليلة قارسة البرد، ولكنه لا يبدو أنهم كذلك، لأنهم لم يبعدوا سوى ٢٥ ميلاً عن مضربنا، ولاشك أنهم عرفوا موقعه من الأشخاص الثلاثة المستطلعين الذين شاهدهم الظفير قبل يوم. انسحبنا إلى الخلف من قمة الظهرة زاحفين وعقدنا مشاورات سريعة، وكان كل منا يمسك ببندقيته. ورأينا من بُعد بقعة بيضاء تشبه خيمة صغيرة. وكان بعض زعماء الإخوان الكبار يحملون خياماً صغيرة معهم أثناء غزواتهم. ولكنه من الغريب أن تنصب هذه الخيمة بالقرب من مخيمنا. ورأى عجمي أنه من الجائز أن يكون هؤلاء قافلة من التجار القادمين من وسط الجزيرة العربية، وربما خرج بعضهم لصيد الحبارى بالصقور، وظنّ رُعاتنا خطأً بأنهم مستطلعون. وزحفنا إلى قمة المرتفع لإلقاء نظرة أخرى. ورأينا على اليمين قطيعاً صغيراً من الإبل منعزلاً تقريباً عن البقية، ورأينا رجلاً واقفاً وسط الإبل. وقررنا أن نترصد المجموعة ثم نقوم بهجوم مفاجئ بسيارتنا على الرجل، وإذا استدعت الضرورة سنقوم باختطافه ونقله بسيارتنا ونهرب به بعيداً ومن ثم نستجوبه عندما نصل إلى بر الأمان. وإذا ثبت لنا أنهم أعداء، يحتمل أنه سيكون لدينا متسع من الوقت للفرار قبل أن تصله التعزيزات من زملائه، ولكن بسبب وجود الشجيرات البرية الكثيرة على سطح الأرض لا تستطيع سيارتنا السير بسرعة أكثر من ١٠ إلى ١٥ ميلاً في الساعة. وعبرنا سلسلة من المنخفضات باتجاه هدفنا حتى وصلنا آخر وادٍ صغير، وتأكدنا من أن الرجل وإبله على مقربة منا، خلف الظهرة التالية مباشرة.

ووضع كل منا بندقيته على ركبته، وإصبع يده على الزناد وأمرنا السائق بالتحرك.

وصعدت سيارتنا إلى أعلى الظهرة وانطلقتْ بأقصى سرعة نحو الراعي المنعزل ثم توقفنا فجأة، وترجل عجمي من السيارة وهو مُلثّم بكوفيته لا تظهر إلا عيناه. وتقدّم بحذر، يمشي بتؤدة، مصوباً فوهة بندقيته إلى الأمام نحو العدو، ونادى قائلاً: «السلام عليكم». ورد عليه الغريب بكل هدوء، «وعليكم السلام». وإذا ردّت التحية، فهذا يعني أنهم ليسوا أعداء. وكان البدوي ملثّماً أيضاً ليحمي وجهه من البرد.

وسأل عجمي على نحو مقتضب، وهو لا يزال يصوِّب بندقيته نحوه:

«من هم أولئك الناس هناك؟».

لم يجب، فقال عجمي مرة أخرى وبشكل حاد، بينما كانت أصابعنا تتحسس أزندة البنادق: «لمن هذه الإبل ولمن تلك الخيمة؟»

وأجاب الغريب: «أي إبل؟».

فرد عليه عجمي وهو يشير مومئاً: «تلك الإبل هناك».

أجابه الغريب باستغراب قائلاً: «تلك إبلك وتلك خيمة أبوحنيك». وأضاف: «ألا تعرف جماعتك؟».

فأماط عجمي الكوفية عن وجهه وابتسم بخجل قائلاً: «حنّا مِنَجْمينْ. لقد ضللنا الطريق وتُهنا بسبب الضباب وكنّا نترصد مخيمنا».

* * *

هذه الحادثة المضحكة خففت التوتر في المضارب حيث عُدنا إلى فطور متأخر. ورأيت أن الجميع سعداء مرة أخرى، فقررت أنهم في أمان إذا ما غادرتهم ليوم. فقد سمعت أن بعض قبائل الكويت قد اجتازت الباطن وتقطن داخل المناطق العراقية، وقررت أن أقوم بزيارة لهم، وتحركت بعد الظهر ووعدت أن أعود في اليوم التالي.

وتحولت الغيوم والضباب إلى مطر مستمر [ديم]، ونحن نجتاز هذه الصحراء الواسعة المملة شاهدنا شعاباً صغيرة وهي تسيل على نحو خفيف منحدرة إلى الفياض مكونة غُدراناً [خباري] في قعر هذه الفياض. وحامد العبد، كأي بدوي، أظهر ابتهاجه قائلاً: «ما شاء الله!» وباندهاش مليء بالمشاعر أضاف: «ستكون هذه السنة سنة خير وسينعم العرب بها بالعشب الكثير والفقع الوفير (والفقع من الفطريات التي تنمو في الصحراء ويسميه أهل الشمال «الكمأ» وأهل نجد «الفقع»).

ويتكون أتباع شيخ الكويت البدو من تجميع عناصر مختلفة من أفخاذ وعائلات من الهاربين أو النازحين من نصف القبائل العربية. وأهم تلك القبائل هي قبيلة العجمان من الأحساء، هذه

القبيلة التي أثارت سخط ابن سعود سنة ١٩١٦ فقام بحملة تأديبية ضدها مما جعل كثيراً من أفرادها يلجأ إلى الكويت. وكنت متلهفاً وبصدق إلى التعرف على جيراننا من قبائل الكويت، خاصة أنهم مهددون على الدوام بأخطار غزوات الإخوان.

وفي الأيام الخوالي، إبان عهد الشيخ مبارك الصباح، كان «عريبدار»[٤٤]، كما يطلق عليهم، مجموعة قبلية قوية. وكان الشيخ يجذب البدو إلى منطقته بانتظام، وكان كريماً في دعمهم، لكي يستخدمهم في حماية بلده الصغير الغني نسبياً من نهب جيرانه العرب. وكانت الكويت في تلك الأيام مزدهرة وغنية تعتمد في اقتصادها على الغوص على اللؤلؤ في الخليج.

لكن الشيخ أحمد الجابر، حفيد مبارك، توقف عند مفترق طرق، فلم تكن علاقاته ودية مع ابن سعود، وفي الوقت نفسه، أهمل تقوية قبائله، كذلك لم يطلب وسيلة حماية من بريطانيا[٤٥].

وكان قد قلص الدعم الذي يقدمه مبارك الصباح للقبائل وكان كثير من رعاياه السابقين، بعد أن دمرتهم غزوات الإخوان قد هجروا الكويت والتجؤوا إلى ابن سعود. أما عاثرو الحظ المتبقون في الكويت فكانوا ضعافاً لا يقدرون على المقاومة ويعيشون تحت ظروف حياتية غير مستقرة، ترعبهم باستمرار الإشاعات عن هجوم وشيك للإخوان. كذلك لا يوجد تنسيق سياسي أو دفاعي بين الكويت والعراق (وربما كان ابن صباح يخاف إلى حد ما أن يبتلعه جاره الأكبر)، غير أن القبائل وجدت أنها تواجه المأزق نفسه، مما جعلها تتعاطف في مصايبها.

استقبلني الكويتيون بحفاوة وحماسة، على أني أجسد إلى حد ما الأمل في إنقاذ قبائل العراق، ووجدنا مجموعة صغيرة من أصحاب بيوت الشعر في منخفض الباطن الكبير.

وأوقفنا سيارتنا على بُعد بضع مئات من الأمتار عنهم، وأرسلنا حامداً العبد ليسأل عن مكان مبارك الحجرف الذي كان رئيساً لقبائل الكويت. وأوقفنا سيارتنا عن قصد على مسافة بعيدة لأنها تعد إهانة لصاحب بيت شعر لو أوقفناها بجانب بيته ثم تابعنا السير ليستضيفنا غيره، ولكن خطتنا أخفقت، فقد خرج الرجال من الخيمة متجهين نحونا وهم يضعون عباءاتهم فوق رؤوسهم يصارعون الريح والمطر حتى وصلوا إلى السيارة. وألقوا التحية علينا

---

(٤٤) يعرف السعيدان عُرَيْب دار أو «عريبدار» بأنهم طبقة من الناس في الكويت بين البدو والحضر، ويختلفون عن البدو لكونهم إلى الحضارة أقرب. ويحترفون الصيد والغوص والمسابلة والفلاحة البسيطة. ويختلفون عن أهل المدينة لكون لغتهم إلى العربية أقرب لم يخالطها ألفاظ دخيلة وهم عرب أقحاح من الجزيرة العربية ويقطنون القرى. والبدوي في الماضي لا يألف العيش في القرى والمدن كما يفعل أبناء عريب دار. [المترجم]

انظر حمد محمد السعيدان. **الموسوعة الكويتية المختصرة**، ج١، ط١ (الكويت) ١٩٧٢، ص٢٤.

(٤٥) من المعروف أن هناك اتفاقية حماية وقعها الشيخ مبارك الصباح مع بريطانيا سنة ١٨٩٩ انتهت سنة ١٩٦١. [المترجم]

من بعد «السلام عليكم»، مخترقة أصواتهم العاصفة. ورددنا عليهم التحية، «وعليكم السلام، من هم العرب هؤلاء؟»

فكانت إجابتهم: «خدّامك، عرب ابن صباح». وأضافوا: «ترجّلوا من السيارة في ضيافتنا، فالليل على الأبواَب».

ولم يقبلوا اعتذارنا، وقالوا لنا إن مضارب الأمير[٤٦] بعيدة عنا (مستخدمين الاصطلاح النجدي - يقصدون ابن حجرف)، ولم نقدر على تجاوزهم إلى أناس آخرين في تلك الليلة. وكان مضيفنا مَبْخوت بن مكراد، من قبيلة العجمان، وأيضاً ابن حجرف. ويعتمد مصدر عيش عجمان الكويت على ما يدفعه لهم الشيخ وليس على ما يملكونه من قطعان. وحافظ ابن صباح على هؤلاء البدو «الأليفين» كما يحتفظ رجل الأعمال الغني الذي يعيش في المدينة بمزرعة وأبقار في الريف، كنوع من التسلية والترفيه، حتى وإن كانت تحقق خسائر. ومقارنة بالظفير الذين يعيشون خشونة وشدة بأس في حياتهم، يبدو أن عريبدار يعيشون حياة مترفة، فأرضية بيت الشعر مفروشة بسجادة جديدة سرعان ما جلسنا على وسائد ناعمة مريحة. والإبريق موضوع على النار - وظاهرة رفاهية نادرة في بيت الشعر - هناك طقم فناجين صيني يستخدم خصوصاً للشاي موضوع على الأرض، وكان عشاؤنا يتكون من ذبيحتين كاملتين تعلوان كومة كبيرة من الأرز تسال عليها كمية كبيرة من الدهن، ولكن الذي جعل ليلتنا مبهجة هو كرم مبخوت ولطفه، وكما يقول المثل العربي، «عندما تقول مرحباً فهو أفضل من أن تقدم ذبيحة».

وفي صبيحة اليوم التالي تحركنا إلى بيت الأمير مبارك بن حجرف الذي استقبلنا بحفاوة بالغة، وبقيت صورة الاستقبال والحفاوة والود التي غمرنا بها هذان الشيخان العربيان (ابن مكراد وابن حجرف) لسنوات طويلة محفورة بذاكرتي، واللذان لم تسنح لي الفرصة لرؤيتهما مرة أخرى. وبعد سنتين لم يتحمل ابن مكراد طويلاً حالة الرعب المستمرة من تهديدات غزوات الإخوان، فتصالح مع ابن سعود وعاد إلى الأحساء، بينما بقي ابن حجرف، صاحب اللحية البيضاء، في منطقة الكويت وقتله الإخوان فيما بعد في إحدى غزواتهم.

وواكب سيارتنا الفورد القديمة نجاح كبير لدى عريبدار الذين دهشوا من سيرها في الصحراء. وقد استعاد سائقنا أحمد البصري ثقته بنفسه لعدم حدوث هجوم الإخوان، وشرح لمجموعة كبيرة منهم تحلقوا حول السيارة باندهاش بأن أنوارها تعمل لاسلكياً مما يجعلني على اتصال وثيق مع الملك جورج في لندن. ولم أنجح في الهروب من مضيفينا الملحين إلا في وقت

(٤٦) يطلق مصطلح الأمير في نجد على قائد القوم وليس بالضرورة أن يكون سليل عائلة حاكمة أو غيرها. وعندما تقابل مجموعة من الأفراد أربعة أو خمسة، تسأل عن الأمير، ويعني قائد هذه المجموعة. [المؤلف]

متأخر بعد الظهر، وذلك بعد ذبح خروفين آخرين لغدائنا. وأخيراً شرعنا في رحلتنا عائدين إلى بيت عجمي وسيارتنا تتمايل إلى الجانبين وترتطم في سهول الدبدبة المتموجة.

كنا لا نزال نبعد عن لقطة عدة أميال، ورأينا أمامنا أشخاصاً يتحركون بسرعة نحو الشمال على ما يبدو. وكلما دنونا منهم اتضحت الرؤية أكثر، وشاهدنا عدة قطعان من الأغنام والإبل ونساء أصحاب الأغنام يسقن حميراً محمَّلة، وقافلة جمال وهوادج على ظهور الجمال تحمل النساء البدويات والأطفال. وأطلّ حامد بجسده من نافذة السيارة وهو يحدق بهؤلاء قائلاً: «العرب هاجين» أي العرب هاربون بسرعة. وشعرت بانقباض وهبوط في قلبي، فيبدو أن التحذيرات عن الغزو كانت صادقة. فبدلاً من أن يحدث الغزو ذلك الصباح تأخر ٢٤ ساعة، وحدث ليلة مبيتنا عند عريبدار. ودون شك أن عجمي بوغت عند الفجر، ومضربه قد أبيد عن بكرة أبيه، بينما البيوت التي تبعد عنه بمسافة قد تمكنوا من الفرار، إنها لمأساة أخرى مثل مأساة جو هديّة في العام الماضي.

والآن استطعنا أن نرى عدداً قليلاً من الرجال وقد خلعوا ما ثقل من ملابسهم وأبقوا ثيابهم البيضاء وهم يمتطون الخيل ويتمنطقون بأحزمة ذخيرة البنادق، ويجرون هنا وهناك خلف قطعانهم يحثونها على الإسراع في الفرار. استوقفنا أحدهم وسألناه بصوت مرتفع عمّا حدث. كان شعره يبدو غريباً وقد غطى وجهه إذ لابد أن هزة عنيفة قد أثارته.

فأجابنا صارخاً: «والله، لا أعرف ماذا حدث، رأينا القبائل التي أمامنا تهرب مذعورة، فلحقناها». ثم التفت إلى فتاة بالقرب منه صائحاً في وجهها: «يا الله يا بنت! هيا يا فتاة سوقي الحمير بسرعة!».

ثم لحقنا أحد رعاة الأغنام يعدو بسرعة ويلوح لنا بعباءته، فوقفنا آملين أن تكون لديه أخبار. وقال لنا بصوت مرتفع: «أنا خادمكم حاج عناد من الجوارين، هل نشعر بالأمان إذا خيمنا هُنا؟ لقد أنهكنا طول المسير، هل هناك معركة؟».

وأجبنا بصوت مرتفع أيضاً: «نحن لا نعلم شيئاً. وعلى كل حال لماذا ارتحلت؟».

ـ وأجاب: «رأينا القبائل الأخرى ترحل مذعورة فرحلنا مثلها».

وصحنا بأعلى أصواتنا قائلين: «خيّم في مكانك».

وفرسه المهيجة أبت أن تقترب إلى ٥٠ متراً من سيارتنا. وقدنا سيارتنا ونحن ساخطون، فمن جهة نحن قلقون، ومن جهة ثانية نحن غاضبون من رؤية هذه الجموع الكبيرة المذعورة.

قال حامد العبد بمزاج عصبي: «أدعو الله أن يهلك كل أصحاب الأغنام».

وبدت سيارتنا الفورد قوية وهي تشق طريقها نحو الجنوب بين تلك الطوابير المتدفقة من الفارين نحو الشمال. وكنا تحت تأثير عصبي وضغط نفسي مؤلم ومتوتر. وبدت سيارتنا وكأنها تزحف ونحن نرقص في مقاعدها، وكل منا ينقر بقدمه على أرضية المقاعد بقلق ويحدق أمامه ويمسك ببندقيته بشدة. ونزع حامد وعلي اليونس ملابسهما عدا الثياب وشداً حزام الذخيرة إلى خاصرتيهما. وخلعت سترتي وتشبثت ببندقيتي المحشوة بالذخيرة وكنت على أهبة الاستعداد لأي طارئ. وكل لحظة كنا نتوقع أن نرى من على بعد طابوراً منتظماً من الجمال أمامنا في هذه الصحراء المفتوحة المنبسطة، ولكننا بدلاً من ذلك رأينا قطعاناً كثيرة من الإبل والحمير والأغنام تتجاوزنا مسرعة إلى الشمال وكأن السهل بكامله في حركة. ولم أدرك من قبل أن أعداداً هائلة من رجال القبائل قد اتبعت الخيمة البيضاء الصغيرة في الصحراء.

وأخيراً ومن على بُعد رأينا قافلة إبل راحلة تحمل الهوادج المتمايلة الضخمة التي لا ترحل فيها إلا نساء شيوخ البادية. فحرفنا سيارتنا نحو هذه القافلة آملين أن نجد أحد الشيوخ الكبار الذي سيخبرنا عما حدث. وكان «السلف»، أو الحرس المتقدم المتكون من ستة أفراد يمتطون نجائب يتقدمون القافلة، فأوقفنا سيارتنا ولوحنا لهم بأن يأتوا إلينا حتى لا تجفل إبلهم من صوت سيارتنا إذا اقتربنا منهم، خاصة أن أطفالاً ونساء تركب الإبل فترجل أحدهم وأقبل علينا راكضاً.

«السلام عليكم».

«وعليكم السلام»، ثم سألناه، «من هؤلاء العرب؟».

وقال الرجل بهدوء: «هذا حمدان بن ضويحي السويط. وهنا الظفير، أقل هلعاً من قبائل أصحاب الأغنام. وسألته وأنا التقط أنفاسي بقلق: «ماذا حدث؟» فأجاب البدوي بهدوء: «والله، لم يحدث شيء ولكن بما أنك ابتعدت عنهم لفترة طويلة خاف العرب وأخذوا يرتحلون».

قلنا بحرارة بمشاعر مختلطة بين الغضب والارتياح: «الله يخرب بيتهم. أين عجمي؟».

فأجاب: «عجمي لا زال في مكانه نفسه وقال إنه لن يبرحه حتى تأتوا إليه».

فصرخت في وجه أحمد البصري: «حرّك السيارة».

وسألنا البدوي وهو يجري بجانب السيارة: «ما هي أخباركم؟ هل الدويش يقوم بغزوات؟ هل نخيّم هنا؟ هل سيرحل عجمي من مكانه غداً؟ ومن أين جئتم؟ وهل...؟ حتى تلاشى صوته خلفنا.

والآن تجاوزنا كل الفارين وأصبحنا في صحراء مفتوحة لا تدب فيها الحياة. وبعد أن قطعنا

مسافة ٨ أميال رأينا خيمتنا البيضاء الصغيرة وبجانبها يشمخ بيت عجمي الكبير المصنوع من الشّعر الأسود وبيتان صغيران آخران، وما حول البيوت فضاءات صحراوية، وها هو عجمي مع ثلاثة آخرين يجلسون في الخيمة.

وعندما جلست بالقرب من النار استفسرت قائلاً، «أين الناس؟» فأجاب عجمي بهدوء وهو ينفخ النار ليجدد القهوة: «العرب كانوا خائفين»،

وشعرت باليأس بعد هذا الحادث المشين. وهناك لحظات تستحق المجازفة وتحمّل المخاطر، فإذا بقينا في مكاننا هذا فإن القبائل ستعود إلينا تدريجياً خلال يوم أو يومين. ولكن إذا ما رحلنا جنوباً باتجاه الإخوان وحدنا، ثلاثة بيوت وخيمة... فهذا سيوضح لهم مدى سخطي. وانفجر الغضب في داخلي.

وقلت لعجمي: «يقولون إن المراعي جيدة في الرخيمية». وأضفت «سنرتحل إلى هناك غداً أنا وأنت فقط».

ـ ورد عجمي بهدوء وهو مشغول بإعداد القهوة، «كما تحب».

يا لهُ من رجل طيب!

* * *

وفي صبيحة اليوم الثاني كُنّا مجموعة من سبعة رجال وسيارة فورد وثلاثة بيوت شعر وخيمة وقطيع من الإبل نرتحل جنوباً باتجاه نجد. ونصبنا بيوتنا في أعشاب خضر لم تطأها قَدَم من قبل بالقرب من الرخيمية، وأمر عجمي أحد عبيده بأن يمتطي جملاً ويتجه شمالاً وأعطاه تعليمات محددة. وأمره بأن يسأل العرب الذين يصادفهم عما إذا رأوا جملاً أبيض [أوضح] مفقوداً وعندما يستفسرون منه بتلهف (كما هو متوقع بالتأكيد) ماذا حل بعجمي، يجيبهم بلا مبالاة أن عجمي رحل إلى الرخيمية لوجود المراعي الأفضل.

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام بدأ رجال يمتطون جياداً أو جمالاً يأتون إلينا في الرخيمية باستحياء، وخلال أسبوع تجمع حولنا أكثر من مئتي بيت من الظفير، وتجمعت قبائل أصحاب الأغنام إلى الشمال منّا ببضعة أميال.

وفي إحدى الليالي وبينما كنت أغط بسبات عميق في خيمتي الصغيرة في الرخيمية، وإذا بي أفاجأ بأصوات غريبة لخيل تعدو. وفي الحال جلست منتصباً واستيقظت، وتوقف خفقان قلبي لثانية ـ هل جاؤوا أخيراً؟ وأخذت بندقيتي وخرجت من الخيمة ووقفت خارجها ونبضات قلبي تدق بسرعة، نظرت إلى الشرق وإذا بنور الفجر يبزغ وكانت أصوات حوافر الخيل تختفي باتجاه الشمال، وفي الجنوب يسود الهدوء. واستعدت ثقتي بالتدرج، وبعد دقائق من الصمت

بدا لي أن الخيل تعود، وظهرت فجأة أمامي ثلاث أفراس طليقة وهي تجرجر أرسانها ورافعة ذيولها في الهواء وصهيلها يشق صمت الصحراء. وسمعت صوتاً ينادي من بيت عجمي قائلاً: «يا علي! يا علي! أين أنت؟ إن الأفراس طليقة».

* * *

وفي المنطقة المحايدة كانت المراعي الخضراء رائعة. وبدأ العرب بالتقاط الفقع (الكمأ) من أرضها الحصوية، وبدأ أصحاب الأغنام [يمخضون] اللبن لصنع السمن ويتبادلون الزيارات والولائم فيما بينهم.

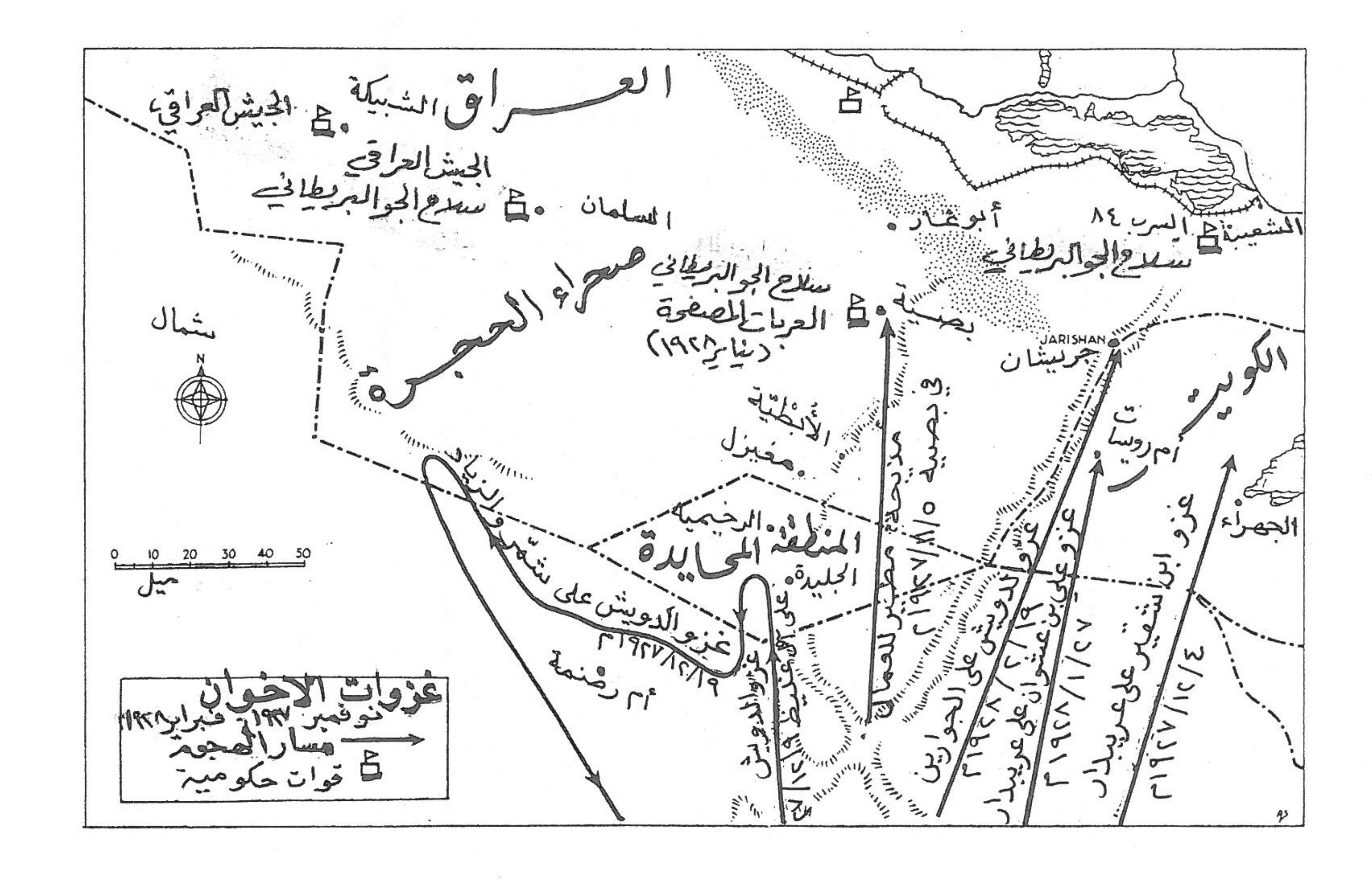
وعند اقتراب فصل الصيف عادوا ببطء نحو الفرات. وقد سمنت الإبل، فتضخمت قوائمها وأخفافها وأسنمتها من الشحم وأخذت تسير بصعوبة، فتجدها تتهادى في مشيتها، وتكاثرت ولادات الأغنام حتى وصلت الضعف، كان فصل رعي رائعاً.

ومع المؤخرة تحركت الخيمة الصغيرة وبطل الحملة الحقيقي حامد العبد، فلولا وجوده جالساً في خيمته البيضاء وهو يدخن غليونه «الكافر» بثبات، لما انتقلت أي من القبائل إلى الصحراء على الإطلاق.

ولم تقع أي غزوات، لأن الإخوان كانوا لايزالون يقاتلون في الحجاز.

الفصل الحادي عشر

بُصيّة



العراق
الشبيكة
الجيش العراقي
الجيش العراقي
سلاح الجو البريطاني
السلمان
أبو غار
السرب ٨٤
الشعيبة
سلاح الجو البريطاني
صحراء الحجرة
سلاح الجو البريطاني
بصية
العربات المصفحة
(يناير ١٩٢٨)
شمال
N
JARISHAN
جريشان
الكويت
الأبطية
مغيزل
أم روسات
الرخيمية
المنطقة المحايدة
الجليدة
الجهراء
0 10 20 30 40 50
ميل
غزو الدويش على شمر
غزو الدويش ١٩٢٧/١٢/١٩م
أم رضمة
مذبحة مطير للعمال في بصية ١٩٢٧/١١/٥م
غزو الدويش على الجوارين ١٩/٢/١٩٢٨م
غزو علي بن عشوان على عريبدار ١٩٢٨/١/٢٧م
غزو ابن شقير على عريبدار ١٩٢٧/١٢/٤م
غزوات الإخوان
نوفمبر ١٩٢٧ - فبراير ١٩٢٨
مسار الهجوم
قوات حكومية

بُصيّة

إن حكومتي بريطانيا والعراق كانتا مقتنعتين بأن اتفاقية بحرة التي وقعت في الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٥ ستؤدي إلى إحلال السلام بين العراق ونجد. وبالفعل ساد السلام إثر توقيعها طوال «سنة الخيمة» في الفترة من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٥ إلى أبريل/ نيسان ١٩٢٦. ولا يمكن أن ننسى الدور الكبير والخدمات الجليلة التي قدمها حامد العبد والخيمة الصغيرة للقبائل العربية، الذي أعطى مثالاً حسناً للرمز الحكومي القيادي، ولكن لا يجب الادعاء أنه أخاف الإخوان. كانت القبائل ترى في الخيمة ولأول مرة إمكانية التعاون مع الحكومة. إلاّ أن الحكومة بعد أبريل/ نيسان ١٩٢٦ ألغت كل الخطط الدفاعية وتخلّت عن القبائل وتركتها وشأنها مرة أخرى.

وفي خريف سنة ١٩٢٦ استقلت من منصبي بالجيش البريطاني والتحقت بوظيفة مفتش إداري بالحكومة العراقية وعينت مسؤولاً مدنياً لمنطقتي الديوانية والحلة في أعالي الفرات. وطوال سنة ١٩٢٧ كنت مشغولاً تماماً بإدارة منطقة واسعة تضاهي بحجمها ست مقاطعات إنجليزية. وكنت غارقاً إلى أذني في العمل في مجالات شتى مثل المداخيل والضرائب والأشغال العامة والشرطة والري والنزاع على الأراضي بين القبائل، وكانت الصحراء هادئة، وعلى أي حال فأنا بعيد عنها ولست على اتصال مع أهلها.

وإنني لممنون للفترة الزمنية التي أمضيتها في العراق حيث عملت كمدني في بيئة إدارية محضة، هذه المهمة التي تمنح الإنسان أفضل إدراك عميق لحياة أولئك الناس. ولن أنسى أبداً السنوات السعيدة التي أمضيتها في العراق والأصدقاء الذين لا يحصون من رسميين ورجال مدن وفلاحين وبدو على السواء.

لم يكن الظفير محظوظين في تعاملهم مع الحكومة العراقية، كذلك فقد ساءت أوضاعهم بعد وفاة حمود السويط إذ رفض أي من أقربائه أن يكون شيخاً رسمياً. إن عملية إغراء قبائل الدول الأخرى، كما أسلفت، كانت دائماً محوراً أساسياً لطبيعة سياسات الأمراء العرب. وإن نفور الظفير من الحكومة العراقية بسبب طريقة تعاملها معهم أتاح فرصة سانحة لابن سعود ليكسبهم إلى جانبه. وكسب وُدَّ عجمي بن سويط وقرّبه إليه وأمر له بالأموال والهدايا مقابل أن ينقل قبيلته إلى نجد، على الرغم من أن هذا العمل بالذات كان يتعارض مع اتفاقية بحرة التي لم يجف حبرها بعد.

وعلى الرغم من أنني كنت بعيداً عن الصحراء ولم أعد على اتصال بأهلها، فقد جاء إليّ أفراد من السويط يسألونني النصيحة ودعوتهم بألاّ يتركوا العراق. وقلت لهم إن وعود ابن سعود بمنحهم الأموال والهدايا قد تكون مغرية ولكن سينظر إليهم على أنهم أجانب في نجد(٤٧). ويجب الاعتراف بأن الظفير كانوا يعيشون في مأزق، فمصالحهم مرتبطة بالعراق ويبيعون ماشيتهم في أسواقه ويشترون احتياجاتهم منه ولكن مناطق الرعي الخاصة بهم تتعرض لغزوات الإخوان ولم تتخذ الحكومة العراقية أي خطوات وقائية فعّالة لحمايتهم.

ولو بقيت في الصحراء فربما تمكنت من إقناع عجمي بالحضور إلى الادارة الحكومية ومناقشتها، ولكنني في الوقت الحاضر بعيد جداً عن موقع الأحداث. وقد وعدني السويط بالأخذ بنصيحتي ولكنهم عندما عادوا إلى الصحراء وجدوا أن عروض ابن سعود مغرية جداً. وفي صيف ١٩٢٧ انتقل عجمي ويرافقه نصف القبيلة إلى ابن سعود. وانقسمت القبيلة إلى قسمين.

والحكومات تنفذ خططها ببطء، فأثناء عملي كضابط استخبارات في سلاح الجو الملكي البريطاني في منطقة الصحراء قد أوضحت للسلطات بأنه يستحيل فرض النظام والرقابة على القبائل من غير إنشاء مراكز حكومية في مناطقها. فكانت المرابطة في أبو غار مؤقتة وعسكرية محضاً. وضغطت باتجاه إنشاء مركز شرطة دائم سيساعد الحكومة في فرض الأمن العام. فموقع أبو غار لا يبعد سوى ٤٠ ميلاً عن خط سكة الحديد وهذا يعني أنه ليس في موقع متقدم في الصحراء.

وحدث قبيل مغادرتي الناصرية وتحديداً في ٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٥، أن قامت مجموعة كبيرة من شمر من شمال العراق بغزو قبائل الكويت وسلبوا عدداً كبيراً من إبلها. وكان مسيرهم خلال الصحراء العراقية حيث مروا غربي الفرات وارتووا من آبار بصية.

(٤٧) نرى أن المؤلف قال ذلك لأسباب سياسية، لكن حقيقة الأمر، كما هو معروف، أن الظفير قبيلة نجدية أصيلة. والمؤلف نفسه يؤكد ذلك في الفصل الثالث من هذا الكتاب. [المترجم]

ولم تكن لهذه الحادثة، بأي حال من الأحوال، أي علاقة بالإخوان ولا بابن سعود، ولكنها دعمت بشدة ما اقترحته عن أهمية وجود مراكز شرطة دائمة في الصحراء. فهي تمثل اعتداء قبيلة عراقية على قبائل دولة صديقة هي الكويت. ويتضح من إلقاء نظرة على الخريطة أن بصية تقع في وسط الصحراء الجنوبية، ومنها يمكن منع قبائل العراق من غزو نجد أو الكويت، وعليه شددت بتوصيتي على أهمية إنشاء مركز شرطة عند آبار بصية. وتمت الموافقة على اقتراحي في فبراير/ شباط سنة ١٩٢٧ بعد أربعة شهور من مغادرتي الصحراء الجنوبية.

وفي غضون ذلك كانت أخبار نجد غير مطمئنة، إذ يبدو أن علاقات فيصل الدويش مع ابن سعود بلغت أسوأ أحوالها، وادعت قبيلة عتيبة تحت قيادة شيخها سلطان بن حُميْد أنها هي التي فتحت الطائف ومكة وليس ابن سعود، وأصبح رجال القبائل متغطرسين نسبياً، والإخوان مبتهجين بانتصاراتهم في الحجاز ويبحثون عن مناطق جديدة لاجتياحها.

وكان الحذر أهم ما يميّز سياسة عبدالعزيز بن سعود، وكان واثقاً من قواته لهزيمة الأمراء العرب الآخرين مثل ابن رشيد أو أشراف مكة، لكنه غير مهيأ للانجرار في عداء بريطانيا. لا شك أنه تذكر أن غطرسة الوهابيين قد أدت إلى انهيار أول إمبراطورية لهم سنة ١٨١٨[٤٨]. لكنه لسوء الحظ قد شجّع وأحيا التعصب ليكون عاملاً مساعداً في هزيمة منافسيه العرب، وكان الإخوان قادرين على الاستشهاد بأقواله في أوائل عهده ضده، فكانوا يدعون أن العراقيين مرتدون عن الإسلام وأعداء الله ويجب أن يقتلوا وأن تصادر ممتلكاتهم وأن المسلمين الحقيقيين هم الإخوان فقط.

إن سعة الأفق ووضوح الرؤية ورجاحة العقل لدى عبدالعزيز بن سعود جعلته قادراً على تفهم الوضع حتى وإن كان يواجه بلداناً خارج نطاق تجاربه. إنه نموذج للحصافة والرزانة، وهو عندما شجع التعصب كان يستخدمه أداة ليحقق أهدافه، ولكنه هو نفسه لم يكن متعصباً أبداً. وبالنسبة إلى شعب فوضوي وطائش فإن الحصافة والرزانة تستهويانه. وحتى في البلدان التي تكون سياساتها أكثر تعقيداً من نجد فإن التجارب قد أثبتت أن المتطرفين العنيفين يستطيعون دائماً اجتذاب الأتباع. أما المعتدلون والحكماء فلا يثيرون حماسة الناس، وصفة الإنسان هذه هي المسؤولة عن الكثير من الاضطرابات في عالمنا المعاصر.

إن عبدالعزيز ذو شخصية قيادية متفوقة فهو الذي أعاد الاعتدال إلى نجد في النهاية بعد صراع مرير مع مناهضيه ولو كان أقل قدرة لأخفق في ذلك.

* * *

(٤٨) يقصد الكاتب الدولة السعودية الأولى. [المترجم]

في سبتمبر/ أيلول ١٩٢٧ أُرسل اثنا عشر عاملاً إلى بُصيّة للقيام بإنشاء مخفر الشرطة الذي كنت قد اقترحته قبل ١٨ شهراً، وكان يرافقهم سبعة رجال شرطة فقط. وفي الحال احتج ابن سعود على ذلك معللاً أنه يتعارض مع بروتوكول العقير رقم ١ الملحق باتفاقية المحمّرة والموقع في ٢ ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٩٢٢ الذي ينص في فقرته رقم ٣ على «أن الحكومتين اتفقتا على عدم استخدام أماكن المياه والآبار الواقعة في نطاق الحدود للأغراض العسكرية كبناء الحصون، وعدم تمركز قوات في جوارها».

وكان احتجاج ابن سعود معقولاً إلا أنه بالنسبة إلى العراق فإن بُصيّة تبعد ٨٠ ميلاً عن الحدود النجدية، إضافة إلى أنها ليست حصناً عسكرياً بل إنها مخفر شرطة قوام أفراده عشرة رجال شرطة. إلا أن هناك اعتبارات يراها ابن سعود وتختلف عن مفهوم الأوروبيين. فعلى سبيل المثال لم يكن في نجد اختلاف بين مفهوم الجيش والشرطة، لذا فالنقطة التي يرتكز عليها العراقيون والبريطانيون ويرونها مهمة لا تعني شيئاً بالنسبة إلى الملك عبدالعزيز. ولم ينشأ نظام الشرطة في بريطانيا إلا منذ أكثر بقليل من مئة عام. وقبل ذلك كان الجيش أو المليشيا هما القوات الوحيدة التي تستخدم لمنع الاضطرابات الأهلية. وهناك عامل آخر مهم وهو أن حكومة نجد في تلك الأيام لم تكن تستخدم الخرائط، مما يعني أن المسافة الدقيقة بين بصية والحدود المعروفة بوضوح في بغداد وفي وايتهول لم تكن واضحة جلية لمن هم في الرياض. والخلاف حول بُصيّة كان طبيعياً تماماً وبالإمكان حله عن طريق المفاوضات في الظروف العادية.

غير أن مجموعة من قبيلة مطير تقدر بحوالي خمسين رجلاً اقتحمت مخيم العمال في بصية عند منتصف ليلة الخامس/ السادس من نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٢٧، وارتكبت مجزرة وأبادوا كل العمال والشرطة عدا شرطي واحد ظنوه ميتاً.

أما التنظيم الأولي المشكّل في سنة ١٩٢٤/ ١٩٢٥ لمواجهة غزوات الإخوان فقد تم حلّه بعد توقيع اتفاقية بحرة. ولم تقنع هذه المذبحة الحكومة بضرورة اتخاذ إجراءات دفاعية مشددة، غير أن قراراً اتُّخذَ بالمضي قدماً ببناء المخفر في بُصيّة. وفي الثامن عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني عاد رجالَ شرطة وعمال إليها بحراسة فصيل من سلاح الجو الملكي البريطاني بسيارات مصفحة.

في غضون ذلك بدأت القبائل من أصحاب الأغنام بالخروج إلى الصحراء مع بداية موسم الرعي في الشتاء. لقد مرّ شتاءان دون غزوات من الإخوان مما بعث الطمأنينة في نفوس أولئك وتجرؤوا على التوغل في الصحراء حتى الحدود النجدية. وكان بعضهم، إن لم يكن كلهم، ينوون دفع الضرائب (الزكوات) إلى ابن سعود حالما يصلون الحدود ليأمنوا هجمات الإخوان، كما يعتقدون.

ومع هذا سرعان ما بدا واضحاً أن مشكلات أخرى ستحدث. ففي ٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٧ شنّت مجموعة من مطير، يبلغ عددها ٤٠٠ رجل تحت قيادة تريحيب بن شقير هجوماً على عريبدار في موقع يبعد بضعة أميال شمال شرق الجهراء داخل حدود الكويت، وعليه طلب ابن صباح في ١٣ ديسمبر/ كانون الأول من سلاح الجو الملكي البريطاني القيام بطلعات استكشافية فوق الأراضي الكويتية.

وفي ٩ ديسمبر/ كانون الأول تعرضت إحدى الطائرات لإطلاق نار كثيف، جرح على إثرها عامل اللاسلكي، أثناء قيامها بطلعات استكشاف عادية فوق المنطقة المحايدة، واتضح فيما بعد أن الطائرة كانت مصادفة تحوم فوق الموقع في اللحظة التي كان فيصل الدويش يهم فيها بشن هجوم على آل غليظ، إحدى قبائل أصحاب الأغنام. ومع هذا يبدو أن طاقم الطائرة لم يدرك ما كان يجري، لذا عاد إلى قاعدته في الشعيبة. فبعد مضي عامين دون غزوات من الإخوان لم تكن لدى أي من الطيارين الخبرة الكافية في مواجهة الإخوان. فكان بمقدور الدويش إكمال خطته بقتل أصحاب الأغنام وسلبهم. وعادت طائرة أخرى في آخر النهار وهاجمت الغزاة الذين كانوا قد بدؤوا ينسحبون جنوباً نحو الحدود النجدية.

بعد النجاح الجزئي الذي حققه الدويش، لم يعد إلى موطنه بل اتجه غرباً نحو الجميمة محاذياً للحدود العراقية من الجنوب. وفي ١٩ ديسمبر/ كانون الأول شن هجوماً على المنطقة الواقعة بين أنصاب والجميمة(٤٩)، وكان ضحاياه الزياد وبني حكيم من قبائل رعاة الأغنام من منطقة السماوة. وقتل الإخوان أربعين عراقياً واستولوا على ١٢ ألف رأس غنم وألف وخمسمئة حمار ومئة وسبع خيام.

وفي هذه المناسبة هاجم الإخوان أيضاً مضرباً من شمر نجد وهم ليسوا رعايا ابن سعود فحسب، بل أيضاً كان صهر ابن سعود، العاصي بن شريم، في مخيمهم أيضاً واضطر إلى الفرار لإنقاذ حياته، وكان أصحاب الأغنام العراقيون الذين هوجموا وهم في المنطقة المحايدة في ٩ ديسمبر/ كانون الأول، والذين هوجموا غرب أنصاب في ١٩ ديسمبر/ كانون الأول، كلهم على حد سواء قد انتقلوا إلى الحدود ليدفعوا زكواتهم إلى ابن سعود ليضمنوا الأمن والأمان. وبالتالي لا مجال للشك أن تلك الغزوات كانت ضد رغبات الملك (عبدالعزيز) فإنها في واقع الأمر تعد تمرداً على سلطته بقدر ما كانت اعتداء على العراق. وكانت التقارير تشير منذ أكثر من سنة إلى أن كثيراً من الإخوان غير راضين عن حكم ابن سعود، وكانت اعتداءات

---

(٤٩) أنْصاب: ذكر صاحب «معجم البلدان» أنه ماء لبني يربوع. ويقع شمال غرب حفر الباطن، وفيه منهل الشعبة، وهي هجرة للظفير [المترجم].

انظر: جريدة **«أم القرى»** عدد ٢٠٨، ٦ رجب ١٣٤٧هـ-١٨ ديسمبر ١٩٢٨ ص ٥.

مطير نوعاً من تحدي الملك.

وابن سعود الذي كان غائباً عن نجد لفترة طويلة منذ فتح الحجاز قد عاد إلى عاصمته الرياض أواخر ديسمبر/ كانون الأول. وتلت ذلك فترة هدوء خالية من غزوات مطير، وكان ذلك نتيجة لتوقعات المخالفين المستمرة بأن الملك سيُسيِّر جيشاً وينتقم منهم عاجلاً، وكانت القبائل الموالية له تتوقع يومياً استدعاء الجيش لإخضاع مطير. وكان الملك حريصاً على تفادي حرب أهلية ضد أنصاره السابقين الأكثر تحمساً، فاحتفظ بهدوئه في الرياض.

وفسّر رجال مطير عدم قيام ابن سعود بعمل ضدهم أنه ضعف منه، واستأنفوا نشاطاتهم. ففي ٢٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٨ قامت مجموعة من مطير يقدر عددها بـ ٤٠٠ رجل تحت قيادة علي بن عشوان بهجوم على عريبدار في منطقة أم رويسات التي تبعد ٣٨ ميلاً إلى الشمال الغربي من الجهراء، وسلبوا عدداً كبيراً من الإبل والأغنام. إلا أن تابعي ابن صباح قاوموا مقاومة باسلة، وقام ٢٥ رجلاً مسلحاً بالبنادق و٢٥ سيارة مدنية بمطاردة المعتدين واستعادة جزء من الأسلاب [٥٠].

وفي ٢٩ يناير/ كانون الثاني استطاعت الطائرات البريطانية أن تحدد موقع الغزاة المنسحبين بالقرب من حفر الباطن في أراضي نجد فهاجمتهم. واضطرت واحدة منها إلى الهبوط على بعد ٥ أميال من الغزاة، لكن طائرة أخرى هبطت إلى جانبها والتقطت طاقمها. وفي صباح اليوم التالي، أي ٣٠ يناير/ كانون الثاني، ومرة أخرى لاحقت الطائرات الغزاة وهم على بعد ٨ أميال غرب الحفر. وتعرضت لإطلاق نار بنادق فأصيبت إحدى طائراتنا بطلقة بندقية جعلتها تهبط اضطرارياً وهي لا تبعد سوى ٤٠٠ متر عن الغزاة. وهبط الملازم الطيار بارت J.F.T Barret بطائرته بالقرب من الطائرة المعطوبة والتقط طاقمها تحت إطلاق نار بنادق كثيف، ونتيجة لهذا العمل الجسور فقد منح وسام الشجاعة.

في ١٩ فبراير/ شباط قام الدويش ومعه ما يقارب ٢٥٠٠ رجل من مطير بالاعتداء على الجوارين وبعض القبائل العراقية الأخرى بالقرب من جريشان، هذا الموقع الذي لا يبعد سوى ٥٠ ميلاً عن مخيم سلاح الجو الملكي البريطاني في الشعيبة، وقتلوا كثيراً من العراقيين وسلبوا ١٨٠٠ رأس غنم وكثيراً من الإبل والحمير والخيام. وفي ١٩ و٢٠، و٢١ فبراير/ شباط قام سلاح الجو الملكي بشن هجمات على المعتدين الذين أسقطوا طائرة هوت مشتعلة وقتل قائدها.

* * *

(٥٠) Dickson. Kuwait and her Neighbours. [المؤلف]

وأخيراً أدركت الحكومة والقبائل أن كل أحلامها عن السلام مجرّد أوهام، وكانت كل آلة الدفاع قد تشتتت، وتغير كل أفراد سلاح الجو الملكي. فكان يجب علينا ابتداع كل شيء من العدم مرة أخرى، وفي ظل أزمة. وبعد غزوات الإخوان الأولى صدرت الأوامر إلى القبائل بالانسحاب وراء بصيّة، ومن التزم تلك الأوامر فقد هلكت أنعامه نتيجة لقلة الرعي ومن لم يلتزم فقد تعرض لغزوات الإخوان.

وفي ١٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٧ سمحت الحكومة البريطانية لطائرات سلاح الجو بملاحقة الإخوان المعتدين إلى داخل الحدود النجدية. وفي ١٦ ديسمبر/ كانون الأول اكتمل بناء مركز بُصيّة وشُغل بفصيل من الجيش العراقي وفي الوقت نفسه تم إخلاء أبوغار. وفي ٨ يناير/ كانون الثاني أقام سلاح الجو الملكي قيادة عمليات في مدينة إبراهيم القديمة «أور» الكلدانية التي تقع على بعد ١٢ ميلاً شمال غرب الناصرية. ورابطت في موقع بصيّة تسع طائرات من السرب الخامس والخمسين من نوع ايناك مع فصيلين مدرعين. وأرسلت سرية من الجيش العراقي إلى السلمان تساندها تسع طائرات من السرب الرابع والثمانين في الشعيبة مع فصيلين مدرعين. وظلت بقية الطائرات من السربين المذكورين أعلاه في الشعيبة، وتم تحذير القبائل العراقية إلى ضرورة الانسحاب خلف خط بصيّة ـ السلمان على الرغم من ندرة المراعي في تلك المنطقة.

وأوضحت قيادة الطيران أنها لا تستطيع التأكد من تحديد مواقع تقدم الغزاة حتى لو أُخليت كل المنطقة الواقعة ما بين الحدود وخط السلمان ـ بصيّة من القبائل، فاقترحت أيضاً إخلاء حزام من أراضي نجد من القبائل وهو المنطقة المحاذية للحدود الجنوبية وبعرض حوالي ٧٠ ميلاً، وكانت حكومتا العراق وبريطانيا قلقتين من عنف الغزوات التي نالت العراق والكويت ولا مبالاة ابن سعود، فوافقتا على الاقتراح.

وفي ١١ يناير/ كانون الثاني عبرت الحدود إحدى طائراتنا وأسقطت منشورات على مناطق كل القبائل. وكان نص المنشور على النحو التالي:

«إن فيصل الدويش وقبيلة مطير وخلافاً لأوامر صاحب الجلالة ملك نجد قد شنوا حرباً ضد القبائل العراقية، ولمعاقبة هؤلاء المعتدين فإن حكومتي بريطانيا والعراق تطلبان من كل قبائل نجد الانسحاب لمسافة ٤ مراحل (٤ أيام رحيل) عن الحدود العراقية، والأشخاص الذين لا ينفذون هذه الأوامر سيكونون عرضة لهجوم جوي دون سابق إنذار».

وأسقطت هذه المنشورات على كل القبائل القاطنة خلف الحدود النجدية وجنوباً لغاية خط لينة ـ الحفر. ولم تنفذ أي من القبائل تلك الأوامر ولم تتحرك. ونتيجة لذلك صدرت الأوامر

بإلقاء قنابل كتحذير في تلك المناطق بشرط أن تلقى على أماكن غير مأهولة لتفادي وقوع أي إصابات.

ولم يكن هناك وجود لمطير في نطاق الـ ٧٠ ميلاً جنوب الحدود، ونتيجة لذلك فلم يتأثروا، على الرغم من أنهم هم الوحيدون الذين قاموا بالغزوات. والقبيلة التي كان لها وجود كبير في المنطقة هي شمر نجد أتباع ابن رشيد سابقاً. وشمر نجد ليسوا فقط موالين لابن سعود بل إنهم أنفسهم تعرضوا لاعتداء مطير في ١٩ ديسمبر/ كانون الأول. وأدّى إسقاط قنابل تحذيرية على شمر إلى نتيجة غير متوقعة فبدلاً من أن ينسحبوا لمسافة ٧٠ ميلاً عن الحدود، انتقلوا إلى داخل الحدود العراقية طلباً للجوء.

ونتيجة لهذا التطور غير المتوقع فقد تم التخلي عن خطة إجبار القبائل النجدية على الابتعاد عن الحدود مسافة ٧٠ ميلاً. واستمرت طائرات سلاح الجو الملكي بطلعاتها الاستكشافية جنوباً حتى الحفر ولينة. وفي ١٧ فبراير/ شباط تمت الموافقة على قيام سلاح الجو الملكي بعملياته على الأراضي الكويتية ورابطت طائرة واحدة وفصيل مدرّع في مدينة الكويت. ووصلت البارجة إمير الد H.M.S. Emerald إلى جون الكويت.

وعلى الرغم من كل هذه العمليات إلاّ أن الدويش قد اعتدى على قبائل عراقية في ١٩ فبراير/ شباط في منطقة جريشان كما ذكر أعلاه ومع كل الطلعات الجوية التي غطت حتى ١٧٠ ميلاً جنوب الشعيبة إلاّ أنه استطاع الوصول إلى نقطة لا تبعد سوى ٥٠ ميلاً عنها. وبكل جرأة قطع منطقة عرضها ١٢٠ ميلاً من المفترض أن تخضع لاستطلاعات مستمرة من طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني، ولو تهور بعض الشيء لوصل الشعيبة نفسها.

وكانت القيادة الجوية قد بالغت في تقييم مقدرة الطائرات على تحديد مواقع الغزاة على الأرض على ما يبدو، حتى وإن كانت هذه الصحراء الشاسعة خالية من المضارب، وبذلك فنحن الذين حكمنا على قبائلنا بالمجاعة. وفي واقع الأمر يجب الاعتراف بأن اتساع الصحراء ليس هو العامل الوحيد الذي أعاق مهمة الطيران، بل كان أيضاً سوء الأحوال الجوية، في يناير/ كانون الثاني وفبراير/ شباط ١٩٢٨، من عواصف عنيفة ورياح هوجاء، كذلك فإن الطائرات في عشرينيات هذا القرن لم تكن مجهزة ومتطورة مثل طائرات اليوم.

وبعد الغزو على جريشان، اتضح عدم فاعلية الدفاع السلبي، واتُّخذ قرار لإظهار فاعلية سلاح الجو الملكي بالنسبة إلى مطير وأنه بالإمكان استخدام الطائرات لمهاجمتهم. وصدرت الأوامر بإلقاء قنابل على أقرب مضرب لمطير في اللّصافة، والمسافة بين الشعيبة واللصافة وبالعكس تقدر بحوالي ٤٠٠ ميل، وهي مسافة فوق طاقة الطائرات في تلك الأيام.

وعليه أُرسل فصيل مدرّع عبر الحدود وقافلة بالبنزين حتى حفر الباطن، وبعد ظهر يوم ٢٣ فبراير/ شباط هبطت ١٢ طائرة من نوع ايناك وثلاث طائرات من نوع فيكرز فكتوريا Vickers Victoria في الحفر وعبِّئت بالوقود وأمضت ليلة هناك مع الفصيل المدرع. ولم تخل هذه العملية من المخاطر بالنسبة إلى الطائرات أو المدرعات فهي أهداف سهلة في الظلام. وفي فجر يوم ٢٤ فبراير/ شباط، أقلعت الطائرات وألقت قنابل على اللصافة وعلى مضرب كبير لمطير يبعد ٢٠ ميلاً إلى الشمال منها. وأفاد الطيارون بأن اللصافة تتكون من ثلاث آبار وقلعة من الطين، وحوالي ١٢ بيتاً طينياً وبيت شعر كبير.

وفي غضون ذلك كانت الأسلاب العظيمة التي كسبتها مطير، إضافة إلى تواني ابن سعود في مواجهة تجاهلها لأوامره، قد شجعت قبائل نجدية أخرى على التمرد. وفي أواخر فبراير/ شباط كانت التقارير تشير إلى أن سلطان بن حُميد شيخ عتيبة قد حمل راية الحرب وأعلن أنه ينوي مهاجمة العراق. في الوقت نفسه هناك بعض المزاعم أنه دعا كل قبائل نجد للالتحاق به لإعلان الجهاد ضد المشركين في العراق. وأثارت الإشاعات عن الجهاد ذعراً شديداً في العراق. وأجبرت كل القبائل بصرامة على التراجع خلف خط الشبيكة ـ السلمان ـ بصبية ـ جريشان والهلع ينتابها من وطأة الإرهاب ونفوق الحيوانات من قلة الرعي. في غضون ذلك كانت عشيرة العمارات إحدى فروع قبيلة عنزة الكبيرة في العراق قد رحلت باتجاه الجنوب الشرقي نحو الشبيكة عبر وادي الخرّ[٥١]، بحثاً عن مراع أفضل، بعد سماع أخبار سقوط أمطار. وبالتالي فإن العمارات قد دخلوا نطاق هجمات الإخوان المحتملة. ونتيجة لذلك تحركت سريتان من الجيش العراقي واحتلتا الشبيكة في ٢٥ مارس/ آذار. وفي اليوم نفسه تحرك فصيل مدرّع من سلاح الجو الملكي البريطاني واستقر في اللُصُف.

وهكذا أصبح شتاء ١٩٢٧/ ١٩٢٨ وَخيم العاقبة على القبائل العراقية كما كان شتاء ١٩٢٤/ ١٩٢٥ . وكانت بريطانيا والعراق على وشك اندلاع حرب مع الإخوان، إن لم تكن مع ابن سعود. ومن ناحية دفاعية كان يجب بناء كل شيء من جديد. إن مأساة عام ١٩٢٤ تعيد نفسها. لو كانت هناك خطة دفاعية يعمل بها بعد توقيع اتفاقية البحرة لما وقعت الكارثة الثانية. وكما يقال فإن المارشال لياوتي Lyautey في المغرب له قول مشهور: «أظهر قوتك ولن تحتاج إلى استخدامها». فلو رأى الإخوان جاهزية العراق للدفاع عن نفسه ربما لم يتمردوا.

وبينما تبدو الأوضاع في الصحراء الجنوبية كما كانت عليه قبل ثلاث سنوات، فإن نجداً قد

(٥١) هو واد من فحول الأودية يقع على الطريق بين الجوف وبين الدويد ويتجه نحو الشمال الشرقي ماراً بالدويد حتى يبلغ منخفضات وادي الفرات، وأهم مناهل وادي الخر، اللصف، والجميمة، والعاشورية والمعانية. وقيل قديماً:

ذو حنة الخـرّ لنـا مُرْتبـع — نرتعي فيهـا ونروي النّعما

انظر: حمد الجاسر ـ **المعجم الجغرافي**، مصدر سابق ص ٤٩٤. [المترجم]

تغيّرت كثيراً بعد فتح الحجاز. فخلال غزوات الإخوان في الفترة من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٥ كان ابن سعود يسيطر على الإخوان سيطرة تامة، حتى إنه كان يدعم بعض هجماتهم. إضافة إلى أن غزوات ١٩٢٤ و١٩٢٥ لها ما يبررها، لأن العراق، كما شرح سابقاً، قد منح منشقي الإخوان حق اللجوء ولم يمنعهم من ممارسة سرقة الإبل [حنشل] من نجد، كما لم يمنع لاجئي شمر من ارتكاب السرقات إذا لم يشجعهم على ذلك.

غير أن مثل هذه الحجج لم تكن موجودة عندما تجدّدت هجمات الإخوان سنة ١٩٢٧. فالحكومة العراقية قد أبعدت لاجئي الإخوان ومنعت شمر من غزو نجد. ومع أنها لم تكن مسيطرة تماماً على قبائلها، إلاّ أنه، على أي حال، لم يحدث أي غزو لنجد. إن إقامة مركز شرطة في بصيّة، الأمر الذي اتخذه الإخوان ذريعة لتجديد هجماتهم، كان القصد من بنائه هو منع غزو قبائل العراق لكل من نجد والكويت أكثر مما كان لحماية بدو العراق من اعتداءات الإخوان. إن مطالبة ابن سعود الحكومة العراقية بمنع قبائلها من السرقة، واعتراضه في الوقت نفسه على إقامة مخافر شرطة في الصحراء تعد إلى حد ما غير منطقية.

إلا أن التغيير الحقيقي في الأوضاع كان أن ابن سعود سنة ١٩٢٧ لم يعد يسيطر سيطرة تامة على الأوضاع فالإخوان نتيجة لانتصاراتهم في الحجاز كانوا يباهون بقوتهم ويدعون أنه نتيجة لقوتهم في القتال أصبح ابن سعود عظيماً. وكانوا يدركون تماماً أنهم العمود الفقري لجيش ابن سعود وأنه لا يملك جيشاً نظامياً لترويضهم. وكان هدفهم الحقيقي بعد حملة الحجاز هو إطاحة ابن سعود بعد اقتسامهم الأسلاب فيما بينهم. إنهم يبحثون عن أي عذر لكي يتمردوا عليه.

كان الشعور الديني الوهابي في نجد أقوى من أن يسمح للإخوان بالتمرد وإحداث انقسام في صفوف «المسلمين الحقيقيين» وجرهم إلى حرب أهلية فقط لكي يكون بمقدور الدويش وابن حميد الاستيلاء على السلطة. في ظل هذا الصراع فإن سكان الواحات وقبائل أخرى وقفوا إلى جانب ابن سعود.

وفي تحديهم للملك في مسألة الحرب ضد العراق استطاع الإخوان الادعاء أن الدين بجانبهم، فالعراقيون ليسوا وهابيين بل مرتدين عن الاسلام وبالتالي يتوجب إعلان الجهاد ضدهم. وعدّوا ابن سعود متوانياً لأنه لا يرغب في قتال أعداء الله. والرأي العام الوهابي منقسم حول هذه النقطة. وعلى الأقل فالنجديون ليسوا على استعداد لاستخدام القوة لمنع الإخوان من غزو العراق.

كان الملك في مأزق في علاقاته الخارجية أيضاً، ولا يرغب في الاعتراف للحكومات الأخرى بأنه لم يعد يسيطر على رعاياه ولكن إذا ادعى أنه يمسك بزمام الأمور تماماً فهذا يعرضه

للاحتجاجات واللوم، إذا هاجم الإخوان ضد رغباته. إن بصيّة منحته عذراً مفيداً فهو يعلن وبصوت مرتفع أن الأمور كانت على ما يرام إلى أن قامت الحكومة العراقية بعملها العدائي ببناء مخفر شرطة في الصحراء الأمر الذي يخالف بروتوكول العقير، وفي ظل خرق العهد الواضح، صرح أنه غير مسؤول عن أي رد فعل يقوم به رعاياه.

وفي الواقع كان الصراع الذي تلا ذلك صراعاً ثلاثياً. فثار الإخوان بطريقة غير مباشرة على ابن سعود والاثنان يدعيان أن العراق مصدر الشر، لأن كليهما مهتم بكسب دعم الرأي العام النجدي. والحكومة العراقية تتذرع بأنها لم تكن قادرة على السيطرة على بدوها وبالتالي لا تستطيع تلبية طلب ابن سعود الذي كان في الوقت نفسه يحتج على بناء مركز شرطة في الصحراء، والمحصلة النهائية لهذه القضايا السياسية المعقدة هي ارتكاب المذابح ضد القبائل العراقية من أصحاب الأغنام.

* * *

وخلال تطور هذه الأحداث كنت بعيداً عنها في الديوانية وكنت منشغلاً بتقدير الضرائب على محصول الأرز. وفي أحد الأيام، وبلا سابق إنذار استلمت برقية تخبرني بأنني قد نُقلت إلى الصحراء الجنوبية ويتوجب عليّ الذهاب إلى هناك فوراً. وغادرت الديوانية في ٢ مارس/ آذار ١٩٢٧ لاستلام مهام وظيفتي الجديدة.

وكانت العمليات جارية على قدم وساق، بحيث أقام سلاح الجو الملكي قيادة متقدمة في أور، مع مفرزتين متقدمتين من العربات المدرعة في بصية والسلمان، يرافق كلاً منهما ضابط استخبارات من القوات الجوية الخاصة. وكانت الطائرات تقوم بعدد كبير من طلعات الاستطلاع في أرجاء الصحراء. كذلك تمت الموافقة على تشكيل قوتين صغيرتين من الشرطة التي تركب الجمال [الهجّانة]، إحداهما لمنطقة الديوانية والأخرى لمنطقة المنتفق. غير أن قاعدة الأولى كانت في الرحبة على بعد حوالي عشرين ميلاً جنوبي النجف والثانية في تل اللحم على حافة المنطقة الزراعية ولا علاقة لها بالصحراء. ووضع ٢٠ رجلاً من المنتفق و٣٠ رجلاً من مجموعة الديوانية تحت قيادتي، ولكنهم من حيث التدريب والانضباط كان هؤلاء الرجال لايزالون تحت إمرة قادتهم الأصليين في الشرطة الذين يبعدون مئة ميل عنا. وبالتالي كان بإمكاني إصدار أمر لرجل بالقيام بمهمة، ولكن إذا رفض أوامري لا أستطيع عمل أي شيء سوى كتابة شكوى إلى قائده. وكانت وظيفتي مفتشاً إدارياً، في الصحراء الجنوبية، ولأنه لم تكن هناك إدارة في الصحراء الجنوبية، فإن اللقب لم يوضح لي طبيعة واجباتي.

عند وصولي الصحراء في ٢ مارس/ آذار ١٩٢٧ كان فيصل الدويش وقبيلته مطير قد عادوا

إلى مضاربهم ومستوطناتهم بعد غزواتهم، وكان قائدا تمرد الإخوان ضد حكم ابن سعود هما فيصل الدويش وسلطان بن حميد(٥٢) شيخ قبيلته عتيبة. وقد يكون سلطان أقواهما لكن فيصلاً أكثر حظاً لأن موقعهُ بالقرب من الحدود العراقية جعله في المكان المناسب لانطلاق غزواته. أما موطن ابن حميد فهو غربي الرياض وتفصله عن الحدود العراقية أقاليم العارض وسدير والقصيم. فإذا ما شرع بغزو العراق، مخالفاً لأوامر ابن سعود، فإنه سيترك أهله وحلاله تحت رحمة الملك. هذه الظروف جعلت مطير يغزون بمنأى عن العقاب حتى وإن خالفوا أوامر ابن سعود وأصبحوا يكسبون أسلاباً وشهرة بينما لم تحقق عتيبة شيئاً. ولهذا السبب أو لأنه كان متعنتاً بطبيعته فإن سلطان بن حميد أصبح أكثر شراسة من فيصل الدويش الذي يبدو أنه كان متردداً في إعلان تمرده على الملأ.

* * *

وأول مشكلة واجهتني عند عودتي إلى الصحراء هي عملية الاستخبارات. في فصل الشتاء كانت قوات غزو الإخوان مضاعفة عدة مرات بآلاف الرجال. ويتطلب تجميع هذه القوات من قبائل متفرقة وفي أماكن متفرقة وقتاً، ولا يمكن إخفاء ذلك. وكان المسافرون من التجار ينقلون أخباراً عن هذه الحشودات إلى السلمان أو بُصيّة أو البصرة أو الكويت.

وفي الماضي حالما تصلنا المعلومات كان سلاح الجو الملكي يقوم بدوريات مكثفة وتصاب القبائل بالهلع. وبعد عشرة أيام أو أسبوعين إذا لم يحدث أي شيء تبدأ التدابير الاحتياطية بالتراخي وتخف الطلعات الجوية وتعود القبائل مرة أخرى إلى الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن الكلأ. ثم تأتي مجموعة من النساء والأطفال المنهكين إلى الفرات، وهن يصرخن أنهن تعرضهن قبل ٥ أيام لمذبحة وأن رجال قبيلتهن قد أبيدوا عن بكرة أبيهم في هجوم للإخوان في مكان يبعد ٨٠ ميلاً أو ١٠٠ ميل.

ويعود اتخاذ هذه الإجراءات إلى أنه خلال المراحل الأولى من الحشد كان قدوم المسافرين من نجد لا يزال مستمراً ولكن عندما يبدأ الإخوان غزواتهم فإنهم يقتلون أي إنسان يقابلونه سواء أكان صديقاً أم عدواً. لذا فمتى كان الإخوان على وشك الهجوم، كان المسافرون والتجار ينقطعون عن التحرك ونتيجة لذلك يتوقف ورود أي معلومات أخرى لمدة ١٠ أيام أو ١٢ يوماً.

كُنا في السابق عندما تتوقف المعلومات لفترة نعتقد أن المعلومات الأولى خاطئة. وفي واقع الأمر فإنه كان يعني العكس، أي أن الغزاة قادمون. ومن الواضح أن هذا كان السبب الرئيسي

---

(٥٢) أحياناً يطلق عليه سلطان بن بجاد. [المؤلف]

لإخفاق استخباراتنا في اكتشاف الغزاة القادمين. فكنا بحاجة إلى مستكشفين حقيقيين، مجموعات استطلاعية، ودوريات جوية أو وسائل مرئية مباشرة أخرى. إن اعتماد سلاح الجو الملكي على الطلعات الجوية وحدها لم ينجح.

كانت خطتي تنظيم القبائل العراقية للدفاع عن نفسها بمساعدة سلاح الجو الملكي كذراع مساند وليس كسلاح الدفاع الوحيد. وكان مفهوم أركان سلاح الجو عكس رأيي تماماً، ورأوا أن القبائل العراقية لا فائدة منها، إنها مجرد تجمعات مدنية يؤدي وجودها إلى إعاقة العمليات الجوية. وكان أول طلب لهم هو إخلاء المنطقة الصحراوية من القبائل ليتسنى للطائرات ممارسة دورها لتنظيف حقل عملياتها. والنتيجة هي تدمير الثروة الحيوانية للقبائل إضافة إلى تثبيط روحها المعنوية بالطلب منها الهرب باستمرار مع أن هذه القبائل أيام سعدون تمكنت من هزيمة ابن سعود نفسه في معركة جو هدية، التي ورد ذكرها سالفاً.

وحالما تمكنت من زيارة القبائل رتبت إرسال مجموعات منهم للقيام بدور فرقة استطلاع وحراسة على الخيل لمسافة عشرين أو ثلاثين ميلاً إلى الأمام من مضربهم. وخصصت لي وزارة الداخلية العراقية طوعاً مبالغ لأدفعها لمن يقوم بهذه المهمة. ولاشك في أن الدوريات الميكانيكية تكون ذات قيمة أكثر بكثير. وأظهرت الوزارة تعاونها مرة أخرى، فأرسلت أحد المسؤولين إلى سوق بغداد واشترى في صباح أحد الأيام ثلاث شاحنات شفروليه حمولة طن، وثلاث شاحنات شفروليه صغيرة، وشاحنة فورد حمولة طن، وشاحنة فورد صغيرة، وفي صبيحة اليوم التالي أرسلت الوزارة الشاحنات مع سائقيها الثمانية المدنيين إليّ في الصحراء.

وكان هذا عملاً سريعاً بالفعل. ولسوء الحظ عندما علم السائقون أنهم سيرسلون في دوريات استطلاعية متنقلة ضد الغزاة قدموا استقالاتهم جميعاً وعادوا إلى بغداد. وشيئاً فشيئاً اكتشفنا سائقين أشجع، الواحد تلو الآخر. وفرزت رجال الشرطة الذين كانوا يركبون جمالاً، ليشكلوا دوريات بالعربات، وبدأت تنفيذ خطتي للاستطلاع على الأرض، ولو بشكل متقطع.

وكانت المهمة اللاحقة السيطرة على قبائلنا وتسييرها إلى الوجهة التي نريد مع مراعاة متطلبات الرعي لأنعامهم. وكان سلاح الجو الملكي يقوم حتى الآن بطلعات جوية على مساحات شاسعة من الصحراء الساعة تلو الأخرى في طيران منهك ومن دون أي أسلوب واضح. والمبدأ الأساسي الذي أردت أن يصل إلى عقول أركان سلاح الجو هو أن هدف الغزاة هو القبائل العراقية. فإذا كنا نعرف أين توجد قبائلنا فإن كل ما يتعين على طائراتنا هو زيارة مواقع القبائل المتقدمة للتأكد من أنهم في أمان وتفحص الأرض أمامهم من خطر الغزاة من الجو. إن الطيران على مساحة شاسعة من الصحراء لا يوجد فيها قبائل عراقية هو مضيعة

للوقت لأنه من الطبيعي أن الغزاة لن يذهبوا إلى هناك.

وسنخفف العبء على سلاح الجو الملكي أيضاً إذا استطعنا جمع قبائلنا في أماكن معينة متفق عليها. كذلك يجب اختيار قطعة أرض لهبوط الطائرات بالقرب من أبعد قبيلة منتجعة لتهبط عليه الطائرات التي تقوم بالطلعات الجوية الدورية والحصول على معلومات واستطلاع الأراضي أمام تلك القبائل من الجو. إن مثل هذا النظام مع الدوريات الأرضية في السيارات، والمستكشفين الخيالة سوف يساهم في التقليل من مخاطر المفاجأة بثلث تكلفة الطيران غير المجدي.

تبدو هذه المقترحات بسيطة وسهلة ولكنه لم يكن من السهل توضيحها لقيادة القوة الجوية على بُعد ٢٥٠ ميلاً من خلال جهاز اللاسلكي الذي يعمل في بعض الأحايين ولا يعمل في أحايين أخرى. كذلك لم يكن شرحها سهلاً على الإطلاق لآلاف العرب المتشككين من قبائل شتى ومنتشرة في مساحة تضاهي مساحة إنجلترا.

* * *

في غضون ذلك كان سلطان بن حميد شيخ عتيبة قد تحرك ومعه ١٢ راية حرب متوعداً ومهدداً بذبح أعداء الله. أما فيصل الدويش فكان أكثر حذراً، وقد شبع من الأسلاب، فتذرع بحجة أن خيله وإبله تشكو الهزال نتيجة غزواته في ديسمبر/ كانون الأول وفبراير/ شباط. أما محسن الفرم شيخ حرب، أحد زعماء الإخوان القبليين العظام الثلاثة الذي قام بغزو السلمان سنة ١٩٢٤، فقد أعلن ولاءه للملك.

وهكذا فإن نجداً منقسمة ولكن لا أحد من الأطراف قد قطع على نفسه سبيل الرجوع. ولم تزل الوساطات والرسل متبادلة بين ابن سعود والمتمردين. وكانت هناك مزاعم أن ابن حميد دعا الملك ليرسل أحد أبنائه لقيادة قوة الإخوان للهجوم على العراق ولكن من المعتقد أن ابن سعود قد رفض هذه الدعوة، مع أن هناك بعض الإشاعات بأن ابن سعود قد أرسل هدايا لابن حميد تتكون من عشرة آلاف ريال سعودي وثلاثين صندوقاً من الذخيرة ومئتي جمل محملة بالأرز والتمور مع رسائل مودة له. غير أن بدوياً من شمر قدم من نجد قال إن كل شمر الذين خلف الحدود قد ارتحلوا مسرعين باتجاه الجنوب - الغربي ليكونوا بمنأى عن طريق الإخوان الغازين والذين يشكلون قوة ١٢ ألف رجل تحت قيادة ابن حميد الذي يسير باتجاه الجميمة. وفي ١١ مارس/ آذار ١٩٢٨ وصل تقرير مفصّل عن الأوضاع من رجل من الظفير يتحدث عن قوة كبيرة تقترب من الرخيمية من الجنوب.

وفي ٢٠ مارس/ آذار ١٩٢٨ انتشرت إشاعة بأن ابن مساعد حاكم حائل طلب من ابن

سعود أن يأذن له باستدعاء حرب وشمر الذين كانوا لا يزالون موالين للملك لمهاجمة الدويش، وقيل إن الملك رفض ذلك خشية أن تنشب حرب أهلية. والإشاعة الثانية التي لاقت قبولاً أفادت بأن ابن سعود قد سمح لابن حميد بغزو العراق إذا رغب في ذلك. وقيل إن الدويش قد أنذر ابن حميد من مغبة ذلك لأن ابن سعود سمح له بذلك على أمل أن القوات العراقية تقضي على الغزاة وبالتالي يتخلص من التمرد.

واستمر التوتر طوال شهر مارس/ آذار حيث كثرت الأخبار والتقارير والإشاعات بصورة يومية. وفي كل صباح كان من الممكن أن يأتي رجل هارب منهك ومذعور يسير على قدميه، أو يمتطي جواداً وهو مصاب بالرعب ويحدثك بأن ابن حميد وجموعه الاثني عشر ألفاً كانت هنا أو هناك وأبادت عدة مئات من العائلات العراقية، إن القلق الناتج عن الإجهاد والتوتر أصبح كبيراً. ووسط تلك المحاذير كنا نعمل بمشقة نواصل الليل بالنهار لتطوير عمليات مستطلعي تحركات الأعداء، ونسيّر قبائلنا إلى مواقع نعرفها، لتكون زيارتها بالنسبة إلينا سهلة حتى نتمكن من الاطمئنان على سلامتها. وكل يوم نترقب احتمال هجوم عند فجر اليوم التالي مما يزيدنا سرعة محمومة للإعداد له.

في ٣١ مارس/ آذار وصلنا تقرير مفاده أن قوات كبيرة للإخوان تتكون من ١٥ راية حرب سوف تتوقف في لينة للسقاية في الأول من أبريل/ نيسان ثم تشن هجوماً على مركزنا في السلمان، ولكن في هذه الأثناء أصبح الطقس في العراق حاراً وجفّت برك الماء [الخباري] في الصحراء، وابتداءً من الأسبوع الأول من أبريل/ نيسان فإن أي أغنام تسلب من الصحراء الجنوبية سوف تنفق من العطش قبل أن تصل إلى نجد. إضافة إلى ذلك، فإن صعوبة سقاية مجموعات غفيرة من القوات الغازية مثل القوات التي يقودها ابن حميد ستضعه في موقف لا يُحسد عليه. وموارد المياه الكبيرة التي تكفي قواته هي أم رضمة ولينة والسلمان، وإذا ما تقدم إلى السلمان وفشل في الاستيلاء عليه، بحيث لن يستطيع الارتواء عند تلك الآبار، فإن العطش سوف يكلفه الكثير عند انسحابه إلى لينة.

في ٥ أبريل/ نيسان ١٩٢٨، جاء تقرير عن الوضع من أحد المسافرين من نجد إلى الكويت مفاده أن ابن حميد قد غادر جراب في ٢٤ مارس/ نيسان مع ١٢ راية للهجوم على السلمان ولحقه رسلٌ من ابن سعود بمرافقة كبار المشايخ الوهابيين وابن فيصل الدويش ولم تعرف نتيجة النقاشات.

وفي ٧ أبريل/ نيسان ١٩٢٨، أرسلت برقيات شكر إلى وزارة الداخلية العراقية وقيادة الطيران بهذا الشكل:

«إذا لم تحدث غزوات خلال الأيام العشرة المقبلة فإن حدوث غزوات كبيرة غير محتمل، لأن الغزوات الكبيرة عادة تشن بوساطة أعداد كبيرة من الخيل التي يصعب سقاؤها مع قدوم الصيف، ومن منتصف أبريل/ نيسان فصاعداً فالتهديد ينشأ من الغزو بالجمال الذي تقوم به مجموعات من مئة إلى خمسمئة فرد يغزون مضارب منعزلة كما حدث في الماضي.

وأقترح أن نبقي على ترتيباتنا الدفاعية الحالية لعشرة أيام أخرى. وبعدها، إذا لم يحدث شيء، سوف أذهب إلى بغداد للتشاور حول موضوع التدابير الدفاعية المخففة في الصيف».

وهكذا انتهى موسم الرعي من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٧ إلى أبريل/ نيسان ١٩٢٨ وكانت بدايته مأسوية حيث قتل العمال في بُصيّة، ثم تبعتها سلسلة مجازر ضد أصحاب الأغنام كالمعتاد. وكانت السلطات قد أخذت على حين غرة، إلا أن هذه الكوارث الأولى كانت كافية لحث الحكومة على العمل. فكانت أهم ملامح التدابير الدفاعية تتضح بحلول منتصف أبريل/ نيسان. بالإضافة إلى أن هذا التكتيك الجديد، حسب رأيي، له فائدة عظمى حيث منح القبائل العراقية الدور الفعّال في خططها للدفاع عن نفسها.

وأهم النجاحات التي تحققت هي عدم مجيء ابن حميد، وصحيح أن ابن سعود لم يوافق على غزو العراق ولكن فوق هذا كله كان يرغب في اجتناب حرب أهلية. فإذا كان ابن حميد قد نجح في هجومه وارتكاب المجازر في قبائل العراق من أصحاب الأغنام وعاد محملاً بالأسلاب، فمن المحتمل ألا يستطيع ابن سعود استخدام القوة ضده.

لاشك أن ابن حميد عندما غادر موطنه كان ينوي الغزو ولكن المعلومات التي وصلته من العراق جعلته يتردد. فتم تجميع القبائل وشددت الحراسة على الطرق المؤدية إليها، فالطائرات فوق رؤوس رجالها والسيارات المدرعة في السلمان وبصيّة. إن ما كان ابن حميد يتوقعه لم يكن مغرياً كما كان يتصور، ويحتمل أن تكون هذه الظروف هي التي سببت بطء قدومه. فعندما لحقه رسل ابن سعود مكنته الحجج التي ساقوها له من العودة وهو معزز وربما أيضاً بنوع من الراحة.

في ١٢ أبريل/ نيسان استلمت برقية عاجلة تطلب مني الحضور إلى بغداد في الحال. وعند وصولي أُخبرت أن هناك وفداً أنجلو - عراقياً يعد للذهاب إلى جدة للتفاوض مع ابن سعود، ويرأس الوفد السير جلبرت كلايتون Sir Gilbert Clayton الذي كان قد فاوضه قبل سنتين حول اتفاقية البحرة وكان السيد (فيما بعد سير) كينهان كورنواليس Kinahan Cornwallis مستشاراً للوفد العراقي، وعليّ أن أرافقه كخبير في شؤون الصحراء.

الفصل الثاني عشر

مؤتمر جدة

مؤتمر جدة

في يوم ١٢ أبريل/ نيسان ١٩٢٨ غادرنا - أنا وكورنواليس - بغداد ووصلنا القاهرة في اليوم نفسه. أما السير جلبرت كلايتون فقد وصل يوم ٢٤ أبريل/ نيسان يرافقه غاي مور الذي كان معنا في السماوة سنة ١٩٢٥ قبل نقله إلى إنجلترا، وحضر المؤتمر مرافقاً لكلايتون بصفته خبيراً في الشؤون العربية. في ٢٦ أبريل/ نيسان سافرنا إلى بورسعيد لننتقل إلى بور سودان على متن الباخرة تشندوين، ومن ثم نستقل الباخرة دهلية إلى جدة التي وصلناها معززين مكرمين يوم ٢ مايو/ أيار ١٩٢٨ تحت حماية البحرية الملكية (البريطانية). وقيل لنا إن ابن سعود لم يصل بعد، فأقمنا في الكندرة في فيلا تبعد حوالي نصف ميل خارج جدة يملكها أحد التجار العرب الأثرياء كان يتاجر مع الملايو وسنغافورة. وكنت أفتخر، ربما أكثر مما ينبغي، بمعرفتي لحياة البادية، وبصفتنا ضيوفاً عند ابن سعود، ملك البدو، كنت أتوقع ضيافة سخية تشمل جمالاً وخرافاً كاملة مشوية ومقدمة على أطباق عملاقة مكومة بالأرز. ولكن تصوري كان غير دقيق على الإطلاق، إذ كان هناك خُدّام من مصر يعملون في الكندرة، وقدموا لنا الشراب والسجائر مجاناً على حساب ملك الوهابيين. وقد فوجئت عندما تعرفت على ممثلي نجد. فبدلاً من أن يستقبلني الأمراء السعوديون أو شخصيات بارزة من العائلات النجدية، قدموا لنا الآتي[٥٣]:

- د. عبدالله الدملوجي (عراقي).

---

(٥٣) يقول الشيخ عبدالعزيز التويجري: «الملك عبدالعزيز في تلك الظروف التي لم يتوفر فيها التعليم في المملكة يرى في أبناء البلاد العربية ما يراه في أبناء المملكة للاستعانة بهم ومشورتهم». [المترجم]

انظر عبدالعزيز عبدالمحسن التويجري. **لسراة الليل هتف الصباح. الملك عبدالعزيز دراسة وثائقية ط٢**. دار رياض الريس للكتب والنشر. بيروت ١٩٩٧م. ص ٥٠٩.

ـ الشيخ فؤاد حمزة (فلسطيني درزي، كان في السابق صحفياً ثم معلم مدرسة في فلسطين تحت حكومة الانتداب).

ـ الشيخ حافظ وهبة (محام وصحفي مصري).

ـ الشيخ يوسف الياسين (من أصل سوري بدأ حياته العملية كمعلم مدرسة في فلسطين).

و كانت بيئة جدة عالمية، فيها بعض الشيء من الطابع المصري، وكانت هناك جالية أوروبية كبيرة، ولا شيء يشير إلى نجد والبدو.

في ٧ مايو/ أيار وصل ابن سعود في الساعة التاسعة صباحاً و استقبل أعضاء وفدنا في العاشرة صباحاً. وفجأة جاء أهل نجد، فسلالم القصر الذي يقيم فيه وممراته مليئة بالبدو والعبيد السود. و أحضر لنا القهوة بعد جلوسنا رجل بدوي يلبس أثواباً بالية يسير حافي القدمين. و بدا لي ابن سعود أكثر شباباً عما كنت أتوقعه. كان يلبس نظارات طوال الوقت، و كان مبتسماً و مبتهجاً أثناء حديثه مع السير جلبرت.

في المساء أقيم عشاء رسمي في بلدية جدة حضره أكثر من مئتي ضيف من ضمنهم عدة أوروبيين وبالطبع دون نساء. و قبل بدء تناول العشاء بحثت عن المكان المخصص لي. كان العشاء مجهزاً على مائدة طويلة على السطح تحت نجوم الجزيرة العربية الزاهرة بعد يوم طويل في جدة و حرارة جو موهنة و رطوبة البحر الأحمر. و بينما كنت أبحث عن البطاقة التي كتب عليها اسمي، كان وزير في إحدى البلدان الصغيرة يبحث هو الآخر بهدوء عن ترتيب الكراسي، ووجد أن كرسيه يبعد بتسعة كراسي عن موضع الملك، فقام خلسة وبدل مكان بطاقة اسمه إلى مكان بالقرب من الملك يخص وزيراً من بلد آخر، في هذه اللحظة الحاسمة شاهده أحد المسؤولين و افتضح أمره وشعر بالخجل، وقَبِلَ بالأمر بأن يجلس على كرسيه البعيد عن الملك.

كان من الغريب رؤية الملك الكبير وهو يمشي حافي القدمين بين جمع غفير من الدبلوماسيين الذين يلبسون ستر الحفلات الرسمية والأحذية الجلدية. هذا التناقض يعد نموذجاً للاختلافات الشاسعة بين الثقافتين. ويُعجب الإنسان، في الواقع، بالنجديين الذين لم يحاولوا تقليد اللباس الأوروبي.

في ٨ مايو/ أيار عقد السير جلبرت كلايتون اجتماعاً خاصاً مع الملك، حيث شرح الأخير وجهة نظره. ثم قدم السير جلبرت موقف العراق، وكان معه جورج أنطونيوس، مسيحي مقدسي، مترجماً. وفي ٩ مايو/ أيار عقد اجتماع بين ابن سعود ومستشاريه الأربعة ووفدنا بجميع أعضائه. وقبل التطرق إلى موضوع الاجتماع ألقى الملك علينا محاضرة عن الدين

الصحيح وذنب الشرك. وكان حديثه مؤثراً ولا شك أنه كان متفهماً تماماً لشؤون القبائل و أوضاع غزواتها. و في اليوم التالي دارت محادثات خاصة بين الملك والسير جلبرت قال فيها الأخير إن العراق لا يستطيع التخلي عن المراكز الموجودة في الصحراء.

ولعدة أيام لم تعقد أي اجتماعات مع الملك، و لكن جدالاً و نقاشات دارت يومياً بيننا وبين مستشاريه: د. الدملوجي والشيخ فؤاد حمزة وحافظ وهبة ويوسف الياسين.

كما سبق أن ذكرت كثيراً، كانت سياسة الأمراء العرب بحسب التقاليد القديمة تنطوي بالدرجة الأولى على إغراء قبائل الأمراء الآخرين، وكانوا يفكرون في القبائل لا في الأرض، وهذه حقيقة لم تدركها الحكومات الأوروبية إدراكاً صحيحاً، ولا حتى حكومة العراق.

في عصر سيطرة الدولة الوهابية [السعودية] الأولى في الفترة بين ١٧٩٦ و١٨١٥ كانت تفرض الضرائب على القبائل البدوية القاطنة على ضفاف الفرات والقريبة من مدينة حلب، وكانوا قد هاجموا ونهبوا القرى والمدن السورية والعراقية لكنهم لم يضموا أي جزء من أراضي هذين البلدين. وكان المجتمع البدوي في عشرينيات القرن العشرين مثله مثل المجتمع البدوي في القرن التاسع عشر عالماً قائماً بذاته. وكان حاكم نجد يرى نفسه ملكاً لكل البدو أينما كانوا. إن فكرة الولاء هذه القائمة على الطوائف بدلاً من الأراضي كانت دائماً مألوفة في الشرق الأوسط.

وهكذا فقبل حرب القرم ادعى قيصر روسيا بأنه حامي المسيحيين الأرثوذكس في السلطنة التركية بينما كانت رغبة نابليون الثالث بأن يعترف به بأنه نصير المسيحيين الكاثوليك في الدولة العثمانية. وكان طموح ابن سعود على نحو مماثل أن يكون رئيس الشيوخ لكل البدو أينما كانوا بغض النظر عن الحدود. إن أفراد طوائف الروم الأرثوذكس أو الكاثوليك في السلطنة التركية كانوا دون أدنى شك رعايا عثمانيين و أيضاً أعضاء طوائف دينية خارج مجال الحدود العثمانية.

إن تلك الأوضاع كانت مألوفة لدى الأتراك في أيام السلطنة العثمانية إذ كان الأتراك رحبي الأفق، فكانوا متسامحين مع المسيحيين واليهود، وفي الواقع سمحوا لكثير من الطوائف التي تعيش معهم - و تختلف عنهم - بأن يحكمها قانونها الخاص بها وتقاليدها، وكان المبدأ متبعاً بالنسبة إلى بدو سورية والعراق والأردن الذين قد يكونون رعايا تلك البلدان بحكم موقعهم الجغرافي خلال الجزء الأكبر من السنة ومع هذا، وفي الوقت نفسه، كان ولاء هؤلاء لابن سعود بصفته ملك البدو مثل ولاء الكاثوليك العثمانيين للبابا. وكان ابن سعود في العشرينيات قد خرج لتوه من عصر الأتراك الذي طالما عاشره، وربما كان لايزال يفكر في نوع ما من هذه العلاقة الفضفاضة. ربما كان لابد من مثل هذه الحلول الوسطى الارتجالية غير المنطقية في ظل

الإمبراطوريات القديمة متعددة القوميات في القرن التاسع عشر - مثل العثمانية أو النمساوية - المجرية أو البريطانية - التي كانت مجتمعاتها بعيدة بعض الشيء عن التعصب القومي كما هو اليوم، وكانت العراق وسورية وشرق الأردن في طور نموها على غرار الدولة القومية الجديدة. ولا يطيق الشباب الغاضبون الإمبراطوريات القديمة، وهم يشكلون شريحة السياسيين الجدد المتحمسين الذين نذروا أنفسهم للنضال من أجل استقلال دويلاتهم الخاصة بهم. غير أن مؤرخي المستقبل، بعد زوال هذا الاستبداد، قد يقرون بالفضل للأنظمة الإمبريالية التقليدية لتسامحها الواسع.

ويمكن تلخيص الصراع بين ابن سعود والعراق بطريقة أخرى ومختلفة تماماً، إذ تعيدنا كل دراسة عن الصحراء إلى التشبيه بالبحر، وتعطينا الخلافات الدولية الحديثة حول المياه الإقليمية شكلاً من أشكال المقارنة، فيمكن تشبيه وضع الصحراء المشاعي على الدوام بوضع المحيط الأطلسي وكانت إدارة العراق وسورية تنحصر على الضفاف الزراعية، وحاكم نجد (سواء أكان ابن سعود أم ابن رشيد) هو قوة الصحراء العظمى الوحيدة التي تسيطر على كل الصحارى مثل القوة البحرية العظمى لبريطانيا حيث يسيطر أسطولها على المحيط الأطلسي ولا تستطيع الدول الأخرى المطلة على البحار مثل البرتغال أو إسبانيا أو بلجيكا أو هولندا مقاومتها.

ومع أن ابن سعود في سنة ١٩٢٢ قد وقع اتفاقية المحمّرة معترفاً بالحدود الدولية بالصحراء، إلا أنه من المنطقي بالنسبة إليه أن يرفض مبدأ تقسيم أعالي الصحراء، كمثل اعتراض دول شمال الأطلسي على إلحاق نصف المحيط الأطلسي بالولايات المتحدة الأمريكية.

ولا يمكننا إلا تخمين سبب موافقته على الاتفاقية، إذ كانت تجاربه حتى الآن محصورة في تعامله مع السلطنة العثمانية في الصحراء. فكان الأتراك يعلقون أهمية على الشكليات التي ليست لها صلة بالواقع. وكانوا مبتهجين بولاء الأمراء العرب الذين يمنحونهم الألقاب والوظائف التركية، متظاهرين بأنهم موظفون مسؤولون عن إدارة أقاليم تركية. وهكذا فقد عيّن ابن سعود كقائمقام أو حاكم لإقليم نجد التركي، على الرغم من أنه كان في حقيقة الأمر مستقلاً تماماً عن تركيا. وربما فكر في الأمر بالطريقة نفسها، بأن ترسيم الحدود أشبع غرور بريطانيا وكبرياءها، ولكن لن يحدث أي عمل في الواقع. إضافة إلى أنه جرت العادة أن حاكم نجد يبسط سيطرته تلقائياً على كل الصحارى، لأنه هو الوحيد الذي يمتلك قوة الهجانة (راكبي الجمال) القادرة على العمل في الصحراء. ففي سنة ١٩٢٢ لم تتضح الرؤية بعد في أن الطائرات أو السيارات يمكن أن تعمل في الصحراء. وعليه - إذا ما استخدمت السيارات والطائرات - فسيفقد الجمل احتكار القدرة على التحرك. و هكذا فان ابن سعود تصور عملياً أنه

سوف يسيطر سيطرة تامة على البدو، سواء وقع الاتفاقية أو لم يوقعها.

وعلى الرغم من أن ابن سعود قد وقع اتفاقية المحمرة إلا أنه كان يتصرف وكأن شيئاً لم يتغير. وكان إحياء الوهابية في القرن العشرين عن قصد على غرار نموذجها قبل مئة وعشرين سنة. في مواجهة السلطنة العثمانية الفوضوية وحدها، رسخ ابن سعود الوهابي ادعاءه أنه ملك كل بدو الجزيرة العربية بغض النظر عن الحدود السياسية. وفي عشرينيات القرن العشرين عدّ عبد العزيز بن سعود نفسه وريثاً شرعياً لهذا المنصب. وكثيراً ما سئلنا في جدة: «لماذا أنتم في العراق تحاولون السيطرة على القبائل؟ إن ابن سعود هو ملك البدو كلهم».

إن هذا الرأي فيه كثير من الصحة، فالعراقيون قد أساؤوا معاملة الظفير مما أدى إلى تحويل آل سويط ولاءهم الى ابن سعود، وهذا أوضح دليل على ذلك. فكان البدو كلهم يأخذون كامل حريتهم في خيمة ابن سعود، تجدهم يمشون بأقدام حافية، كما لو كانوا في بيوتهم أكثر مما لو في مكاتب المسؤولين الحكوميين في سورية والعراق. والشيء اللافت للنظر الذي واجهناه في جدة والذي أضاف مفارقة إلى ادعاء ابن سعود أنه الحاكم الطبيعي لكل البدو هو أننا اكتشفنا أن ممثلي نجد الأربعة ليسوا نجديين، لايعرفون إلا النزر اليسير أو بالأحرى ولا يعرفون أي شيء عن البدو، وفي أكثر من مناسبة وجدت نفسي مضطراً لأشرح لهم طبيعة حياة البادية. فكان ممثلو نجد أولئك العرب من مدن الشمال الذين ادعى النجديون أنهم لا يفهمون شيئاً عن البدو.

وأعطتنا رغبة ابن سعود في حكم جميع البدو المفتاح لحل مشكلتنا. كانت القبائل العربية عنيفة على الدوام، ويعد تمرد الإخوان ومواجهتهم ابن سعود في سياق تقاليد الجزيرة العربية الحقيقية، ولو كانت كل الصحارى العربية المفتوحة للبدو خاضعة لسلطة ابن سعود لتردد رعاياه في التمرد عليه ولكن واقع الأمر أن الحكومات العربية الأخرى هي أيضاً تسيطر على مساحات شاسعة من مناطق الرعي الصحراوية وهذا قد يسهل انتقال محاولي التمرد الفاشلين إلى الكويت أو العراق أو سورية أو شرق الأردن دون أن ينالهم أي عقاب، إذ تؤكد هذه الدول أن لها حدوداً برية ثابتة وتمنع قوات الملك من عبورها لمعاقبتهم. وعندما منحت حكومة العراق اللجوء السياسي للإخوان اللاجئين الذين شاركوا يوسف السعدون في غزواته، أصابت ابن سعود في موضع حساس. وعلى الرغم من أن الحكومة العراقية كانت قد اتخذت إجراءات ضد الإخوان اللاجئين منذ ثلاث سنوات إلا أنه لا يزال يلح على الموضوع باستمرار. وإلى حد ما، كان هذا يعطيه العذر في عجزه أمام تمرد الإخوان وحسب ادعائه أنه كان مستعداً تماماً لمعاقبة فيصل الدويش ولكن من يضمن أن الحكومة العراقية لا تمنحه حق اللجوء السياسي؟ إن العذر يبدو ساذجاً جداً، كما رأينا، فالملك في حقيقة الأمر يشك في مقدرته في تحجيم الإخوان لذا كان يحرص كل الحرص على تحاشي الحرب الأهلية، ولكن هذا الوضع أعطى

ممثليه حجة جيدة في المفاوضات.

وكان الحل النجدي الرسمي لتلك المشكلات عقد اتفاقية بين نجد والعراق تنص على تسليم المجرمين لحكومتهم. ومن المحتمل أن مستشاري الملك عبد العزيز الأربعة هم الذين اقترحوا هذه الخطة التي تبدو منسجمة مع توجهات الدولة الحديثة، ولكنها تتناقض تماماً مع التقاليد العربية القديمة. وقال الملك إنه عندما تعقد هذه الاتفاقية فإنه سيقوم بمعاقبة الإخوان.

وطلب منا تشكيل لجنة فرعية لصياغة مسودة اتفاقية تسليم المجرمين وتكونت من: د. الدملوجي، وفؤاد حمزة، ويوسف الياسين عن الجانب النجدي، وكورنوا ليس وغاي مور وأنا عن الجانب العراقي. و دخلنا في إشكالات في بداية عملنا، فالحكومة العراقية وحتى تظهر نفسها أنها حضارية و ديمقراطية، طلبت أن تتضمن الاتفاقية شرط استثناء المعارضين السياسيين. ولكن ابن سعود كان يهمه المعارضون السياسيون فقط، أي المتمردون على سلطته، و لا يولي اهتمامه بتسليم اللصوص أو المحتالين.

وعلى الرغم من إصرار الحكومة العراقية على شرط استثناء المعارضين السياسيين من هذه الاتفاقية، إلا أنها قدمت عرضاً منفصلاً تتعهد بموجبه بألا تمنح فيصل الدويش حق اللجوء إذا رغب الملك في معاقبته، لكن هذا العرض التوفيقي رفض. وأمضينا في لجنتنا الفرعية أياماً كثيرة في جدل عديم الفائدة حول المخالفين السياسيين. وكان حافظ وهبة أكثر عقلانية حيث وضع النقاط على الحروف وشخص العقبات التي واجهتنا، حين أشار إلى أن لب المشكلة يكمن في أن الملكين لا يثق بعضهما ببعض.

وكان محقاً بذلك، إذ كان الأشراف يحكمون الحجاز منذ قرون، وقد أزاح ابن سعود الملك حسيناً، والد الملك فيصل، أزاحه من عرش الحكم قبل ثلاث سنوات فقط، فكيف يمكن أن نتوقع من الملك عبدالعزيز والملك فيصل أن يثق كل منهما بالآخر؟ ويطلق القوميون العرب اليوم صرخات السخط من فكرة قيام ثلاثة ضباط بريطانيين بتمثيل العراق سنة ١٩٢٨، في مفاوضاته مع دولة عربية «شقيقة». وقد يكون في ذلك الموضوع شيء من الغرابة و لكنه كان السبيل الوحيد الممكن. ففي تلك الأيام كانت الخلافات عميقة وتسود الكراهية وعدم الثقة بين هاتين السلالتين، لذلك كان من المستحيل أن تجري بينهما المفاوضات دون تدخل البريطانيين.

وفي سياق مفاوضات لجنتنا الفرعية، ادعى النجديون أن الظفير رعايا سعوديون، بينما ورد اسم القبيلة تحديداً في اتفاقية المحمرة على أنها من رعايا العراق.

وفي ١٧ مايو/ أيار سنة ١٩٢٨ كتبت الآتي في مفكرتي: «كان اليومان الماضيان من أتعس الأيام التي مرت بنا، فبالأمس اجتمعنا مع ابن سعود ولاحظنا أن أسلوبه قد تغيّر عنه في

لقاءاتنا الأولى ويبدو أنه محبط ومنزعج، فقد تحدث إلى كلايتون قائلاً: هنأت شعبي أول ما جاء الإنجليز إلى العراق، وقد فاجأتهم تهنئتي تلك وأخذوا يسألونني لماذا. وقالوا إنني كنت دائماً أشتم الأتراك واتهمهم بالكفر، وهؤلاء الإنجليز أسوأ منهم لأنهم ليسوا مسلمين على الإطلاق. فقلت لهم إن الإنجليز صادقون، وهم أصدقائي. ويجب الاعتراف الآن أننا سئمنا الإنجليز ومجادلاتهم، فقد فهمت من كوكس أن بروتوكول اتفاقية العقير يتضمن عدم وجود مراكز في الصحراء. والآن أنتم تقولون إن نص الاتفاقية لا يعني ذلك. فكيف أعرف؟ أنا بدوي ووثقت بما قاله لي كوكس».

كنت حزيناً عند سماعي هذا الكلام، إنه كلام واضح وصادق. وإجابة كلايتون كانت غامضة ومضمونها أنه مطمئن إلى دوام علاقات الصداقة بين جلالته و بريطانيا. وأضاف في خطبة شعرية: «قد تختفي الشمس وراء السحاب، ولكننا نعلم أنها سوف تسطع قريباً مرة أخرى».

كان ابن سعود مرتاباً بشدة من الملك فيصل و تصور أن البريطانيين يتآمرون مع الأشراف ضده. و في مساء لقائه مع كلايتون انفجر قائلاً: «إن شعبي قلق و مستاء من إنشاء المراكز العراقية في الصحراء. و قد تقولون إن شعبي متعصب، لكنني أقول لكم إنني متعصب أكثر منه بستين ألف مرة».

يبدو لي أن أحد أخطائنا كان الاعتقاد بأن كل «الشرق»، أو بعبارة أخرى كل «العرب»، على منوال واحد. أما البدو، بالمعنى الذي استخدم فيه ابن سعود هذا التعبير حين أسمى نفسه بدوياً، فهم صريحون يجاهرون بجرأة، وهم خشان وأشداء كالبحار التقليدي. ولعل كلاً من البدو والبحارة هم من المدرسة نفسها التي تقوم على الإبحار في مساحات شاسعة يكابدون خلالها المصاعب التي تعترضهم. من الطبيعي أن يتوقع المرء من أمير البحر أن يكون جافي الطبع لكنه صريح ومستقيم غير مخادع. ودون شك كان ابن سعود هو أمير بحار الصحراء، أما مستشاروه الأربعة فهم على النقيض من شخصيته، فهم مثقفون قانونيون حاذقون.

وقد قيل للملك إن الإنجليز قد خدعوه في المحمرة والعُقير، وبالتالي إنه لم يكن ماهراً في التعامل معهم. إن مستشاري الملك هم الذين نقلوا إليه ما دار بيننا من محادثات مشيرين إلى الذرائع التي نحاول أن نستخدمها وكيف أنهم (أي المستشارين) بمهارتهم أفشلوا محاولاتنا. وهكذا حينما حضر الملك انهال بوابل من السباب على أسلوبنا المغالط، ونعتقد أن مستشاري الملك هم وراء هذا الجدل التافه.

وكنت على علم بالعقلية البدوية، فالبدو صريحون، ولا يعملون بالخفاء، يضعون كل

أوراقهم على الطاولة. ومن خلال خطبة الملك أدركت أصالة البدوي وصراحته التي أعرفها جيداً. ومن غير المتوقع أن يدرك كلايتون هذه الاختلافات، ويبدو أنه كان يعتقد أن الدبلوماسية المشرقية يتوجب أن تزدان بأسلوب الإطراء وعدم المباشرة والكياسة، وكان التعامل بمثل هذه الأساليب، في واقع الأمر، مناسباً إلى حد ما في التعامل مع السوريين والمصريين وربما كان أكثر مع شاه الفرس قبل مئة سنة.

وليس من العدالة أن نلوم كلايتون لفشله في إدراك صراحة البدوي وأمانته في كلامه، والغياب التام لبروتوكول المراسيم في نجد، واقتباس حديث بوركهارت(٥٤) يوضح أسلوب المفاوضات التي جرت بين طوسون باشا وعبد الله بن سعود سنة ١٨١٥ وكان الرحالة [بوركهارت] نفسه موجوداً في الحجاز في تلك الفترة، يقول عن المفاوضات إن المصريين استخدموا عبارات الإطراء، بينما تحدث عبد الله بن سعود بكل صدق وصراحة، ولم يفهم حاكم مصر حديثه، فكيف نتوقع أن يفهمه السير جلبرت بشكل أفضل من المصريين؟

وكنت مقتنعاً تماماً بأن الطريقة الوحيدة للخروج من إخفاقنا التام في التوصل إلى تسوية الخلاف هو أن يتعامل كلايتون مع ابن سعود وجهاً لوجه وبصراحة تامة، إلا أن ضرورة وجود مترجم يعدّ عائقاً كبيراً. ومن المحتمل أن يعارض مستشارو الملك هذه الطريقة من المفاوضات التي تقلص من دورهم. ويوماً بعد يوم أحاطنا ممثلو الملك الحاذقون بكلماتهم متجنبين الإجابة المباشرة، كل هذا على خلفية من نفاد الصبر من الملك الكبير ومنا مما عدّه الملك جدلاً قانونياً. ورأى كلايتون، وهو من ألطف القادة الذين عملت معهم، أن يتيح لي الفرصة لأعرض وجهة نظري عليه، ومع أنه استمع إلي بهدوء ومودة إلا أنه لم يتبنّ حلولي. ويبدو لي أنه كان يتعين عليه التعامل مع الملك مباشرة وشرح له خصائص الوضع على هذا النحو:

«ربما اعتقد الملك (عبد العزيز) أن الملك فيصلاً هو عدوه إلاّ أن نظام الأخير ملكي دستوري، ومن المستحيل أن يجر العراق إلى حرب مع نجد، حتى وإن كان يرغب في ذلك. ومن ناحية أخرى فالقبائل العراقية وأصحاب الأغنام يتخذون على الدوام من الصحراء مراعي لأغنامهم. وتدفع هذه القبائل الضرائب للحكومة العراقية، التي يجب عليها أن تحميهم في المقابل. ومشكلة الإخوان هي أنهم يرتكبون المجازر، وهذا القتل دون تمييز، وليس قصدهم سلب القطعان، هو الذي أجبر الحكومتين العراقية والبريطانية على التدخل.

«وكان ابن سعود يشتكي كثيراً ضد العراق لعدم منعها الغزوات التي يشنها لاجئو الإخوان

---

(٥٤) يقول بوركهارت: «يتميز البدو على الدوام بالصراحة والجرأة في الحديث، ويختلف أسلوبهم كثيراً عن الأسلوب المتكلف والمجامل السائد بين الأمم الشرقية في الظروف المشابهة» [المترجم]

انظر: *John Lewis Burckhardt. Notes on the Bedouins and Wahabys. Vol. 2*.

وقبيلة شمر، واتهاماته للعراق في هذا الصدد صحيحة. ولكن السبب وراء فشل الحكومة العراقية في التزاماتها لمنع هذه الغزوات يعود إلى عدم توفر الوسائل المناسبة للسيطرة على أوضاع صحرائها. والآن عُقدت النيّة على وضع حد للغزوات وقطع دابرها إلى الأبد ويجري بناء مخافر لهذا الغرض. وَهكذا ليس من المنطق أن يلوم ابن سعود الحكومة العراقية لعدم سيطرتها على بدوها، وفي الوقت نفسه يحتج عليها عندما سعت لوضع التدابير الاحترازية لضبط هؤلاء البدو. وإن الشك حول هذه المراكز بأنها أُقيمت لأسباب عدائية ضد نجد غير صحيح البتة.

«تعي كلتا الحكومتين البريطانية والعراقية أن قبيلتي مطير وعتيبة هما مصدر القلاقل. وكنا نعتقد أن سخطهما المزعوم على العراق ما هو إلاّ ذريعة لإخفاء هدفهما الحقيقي المتمثل بإطاحة الملك نفسه. وبريطانيا والعراق مخلصتان في دعم ابن سعود في صراعه ضد الأعداء، فنجد في ظل الفوضى سوف تسبب لهما الكثير من المشكلات أكثر مما تكون عليه تحت حكم الملك. ونتيجة لذلك، نعرض ضمانات مؤكدة على ابن سعود بأن الحكومة العراقية لن تمنح حق اللجوء للدويش أو حلفائه إذا حاول ابن سعود إخضاعهم لأوامره. وكلتا الحكومتين تحدوهما الرغبة العارمة في أن يحقق الملك النصر المؤزر».

هذا العرض، باعتقادي، كان سيحدث تأثيراً كبيراً في ابن سعود ولاسيما إذا قيل له في مقابلة خاصة. ومن المحتمل أن لايؤدي إلى اتفاقية، لأنه من المتعذر الوصول إلى حل مادام الإخوان بقوا خارج السيطرة. ولكنني اعتقدت أن المقابلة سوف تترك انطباعاً جيداً لدى الملك وسوف يرى مدى الصدق والإخلاص، وقد يقتنع بأننا نعرف حقيقة الوضع ولسنا منغمسين في سفسطة.

وكنت متلهفاً جداً لأضع حداً للحرب، وتحت تأثير تلك المفاوضات العقيمة والمحبطة كتبت في مفكرتي:

«إنني أخشى إذا لم نصل إلى تسوية قبل الخريف، فسينتهي بنا المطاف إلى حالة حرب أكثر منها عمليات غزو بدوية غير منتظمة».

إن الحرب ستؤدي إلى إراقة دماء كثيرة وتكاليف باهظة وسينتج عنها:

أ ـ إما أن تفقد الحكومة البريطانية سيطرتها على أعصابها عندما يندلع القتال بضراوة وتنهار جهودها مما يعرض العراق لغزوات الإخوان المتواصلة إلى حين التصدي للوضع.

ب ـ أو البديل الآخر هو سقوط ابن سعود وعودة نجد إلى الفوضى.

وإذا عاد وفدنا الآن إلى بغداد ولندن، فسيترك انطباعاً عن تأزم العلاقات الودية. وإذا بقي

واحد أو اثنان من أعضاء الوفد ربما يخلق انطباعاً بأن المحادثات لا تزال مستمرة.

وقد يكون مجرى التسوية التوفيقية النهائي بيننا على هذا النحو:

١ـ الاتفاق على تفسير القسم الثالث من بروتوكول العُقير الذي يمنع بناء قلاع في مناطق الحدود بأنه يعني مسافة أميال محددة (ربما ٣٠ ميلاً).

٢ـ تبادل المذكرات بين الطرفين يعبر فيها ابن سعود عن أمله في امتناع الحكومة العراقية عن بناء مركز في بصية كدليل على الصداقة والثقة المتبادلة على الرغم من أن بصية خارج نطاق المسافة المتفق عليها. وسيرد العراق على ذلك بالموافقة على التخلي عن المركز في بصية.

«في الواقع العملي ستعيد الحكومة العراقية شغل مركز أبو غار، وربما يصبح السلمان، فيما بعد، مركز قيادة مراقبة الصحراء الجنوبية».

وهكذا حتى نتجنب الحرب كنت أفضل الموافقة على طلب ابن سعود بإزالة مخفر بُصية والعودة إلى مركز أبوغار. وإذا عدنا إلى أبو غار سنفقد ٢٥ ميلاً، ولكن لدي فكرة حول وضع نظام تكتيكي دفاعي نواته المضارب المتنقلة أثناء موسم الرعي. ومن هنا فإن المراكز الصحراوية في هذه الحالة ستكون قواعد للمؤن والذخيرة وليست مواضع تكتيكية للدفاع. ومن وجهة نظري الشخصية فإن سلبية هذه الخطة تكمن في أن العربات المدرعة كانت تابعة لقيادة الطيران، التي كنت أخشى أنها لن توافق أبداً على مرابطة هذه العربات وفقاً لمتطلبات الرعي لدى القبائل. ومن ناحية أخرى لم تستطع أو لم ترغب الحكومة العراقية في تزويدي بقوات كافية تكون تحت قيادتي لأقوم بتنظيم الخطط الدفاعية للمضارب المتنقلة دون مساعدة سلاح الجو الملكي البريطاني.

إلا أن الحكومتين البريطانية والعراقية رفضتا اقتراحي بالتخلي عن مخفر بصية كحل توفيقي، واعتبرتاه استسلاماً ضعيفاً للإخوان بعد ارتكابهم المذبحة التي راح ضحيتها العمال هناك.

وكانت غاية ابن سعود في واقع الأمر هي أن يضمن التخلي عن إقامة مركز بصية، لكي يعود إلى نجد مزهواً بانتصاره الدبلوماسي. وبالتالي يقول للمتمردين: «أنتم حاولتم التخلص من هذا المخفر عن طريق الغزو، على الرغم من أني كنت ضد هذا العمل. وكما رأيتم فإن غزواتكم لم تحقق الهدف المنشود. والآن بعد محادثاتي مع الإنجليز والعراقيين وافقوا على إزالة مركز بصية».

وكنت متلهفاً لمنح الملك هذا النجاح، لكي يتمكن من تعزيز سلطته، ومع هذا لم يكن من

المحتمل أن يؤدي قبول مقترحاتي إلى إحلال سلام نهائي، لأن الإخوان في حالة تمرد ضد الملك ويرغبون في اغتصاب سلطته. كذلك فإني اقترحت استبدال مركز بصية بمضارب متنقلة، لتمكين الحكومة العراقية من السيطرة على صحرائها. وهذه النتيجة هي بالضبط ما يحاول ابن سعود تفاديها، لأنه إذا أصبحت حكومة العراق قوة فعالة وبسطت نفوذها على صحرائها، كانت المخاوف تنتاب ابن سعود على الدوام من أن رعاياه المتذمرين سيجدون صحراء العراق ملاذاً لهم وفي مأمن من قصاصه. وفي أحد أحاديثه الصريحة قال ابن سعود لنا مرة: «إنني أفضل أن تغزو قبائل العراق نجداً آلاف المرات وعلى أن تنشئ الحكومة العراقية مخافر في الصحراء».

وعندما كنا غارقين في المشكلات في سنة ١٩٢٨، كنا نعتقد أننا نحاول تسوية النزاعات بين العراق ونجد. ولكن إذا عدت بذاكرتي إلى الماضي قبل ٣٠ سنة من الآن (عام ١٩٦٠) تتخذ هذه المعارك مظهراً مختلفاً. فكان إحياء الوهابية، وتعصبها ومذابحها، محاولة لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء ١٠٠ عام أو ١٥٠ عاماً. كانت الطائرات وعربات النقل تشق طريقها عبر الصحراء. وكانت حقبة البترول وأنابيب النفط على بعد بضع سنوات أمامنا فقط، ولن تبقى الصحراء حكراً على البدو وأنعامهم. ولم يعد الملك فيصل أو الملك عبد العزيز، ولا الإخوان أو البريطانيون هم الذين يثيرون الصراعات، إنه القرن العشرون الذي ولج الجزيرة العربية القديمة.

* * *

وبينما تتباطأ المفاوضات الرسمية كانت فرصة بأن نرى جانباً آخر من جوانب الملك عبد العزيز الذي قلما أتيح للأوروبيين فيما بعد رؤيته. فبعد أربع سنوات زرت جدة مرة أخرى كعضو بعثة دبلوماسية، وكان التطور قد أحدث تغييرات سريعة خلال تلك الفترة. فقد شيد قصر، ولم يوافق على قيام بعثتنا إلا بزيارة رسمية واحدة للملك، وكان يرافقنا ضباط باللباس الأوروبي بينما كان ابن سعود لايزال بدوياً بسيطاً على حد قوله في عام ١٩٢٨.

وفي جدة خلال إقامتنا كرسنا وقتنا لمحادثات غير ذات جدوى مع مستشاري الملك الأربعة. وبعد تناول الغداء جاء وقت القيلولة، لأن ساحل البحر الأحمر غير مريح فهو حار ورطب حتى في شهر أبريل/ نيسان. ولكن قبل الغروب عندما تهب نسمات عليلة كثيراً ما كان ابن سعود يقوم بزيارتنا في الكندرة. وكان منظر موكبه رائعاً، فقد ولى عهد الخيل والجمال، ولكن أيام العربات المصفحة والأسلحة الرشاشة وزي العسكريين الأوروبي الزائف لم تحن بعد.

وكان الموكب الملكي يتكون من عدد من السيارات الصالون المليئة بالعبيد السود بملابسهم

ذات الألوان القرمزية والذهبية. يستقل الملك سيارة ليموزين فخمة وعلى جوانبها يقف العبيد حتى إنهم يغطون النوافذ تماماً وقد ثبتت مقابض بالسيارات ليشبثوا أيديهم بها، وحالما يقف الموكب أمام باب مقر إقامتنا الأمامي يقفز من السيارات حشد رائع من العبيد، يمسكون بسيوفهم الفضية ويركضون حول البيت، ويدخل بعضهم من الباب الخلفي، وبعضهم من الباب الأمامي، ويقف آخرون تحت النوافذ ويتوزعون في الحديقة، بينما يسأل واحد أو اثنان، يبدو أنهم الحرس الخاص للملك، أين سيجلس الملك، فيقومون بتفتيش سريع للمكان. وكل شيء تم بكفاءة ودقة. وبحلول الوقت الذي ينزل الملك من سيارته، ويعتلي درجات السلم بخطوات متثاقلة إلى باب الفيلا الأمامي (وكانت قوة إبصاره ضعيفة) يكون البيت قد فتش بدقة متناهية.

جلس الملك على الأريكة وثنى ساقيه تحته في غرفة الجلوس الصغيرة، وتحدث بكل صراحة ودون تحفظ، وتطرق في حديثه إلى الدين بشكل عابر، وأطال الحديث حول جمال النساء. ويتحدر آل سعود أنفسهم من قبيلة عنزة فرع ضنا مسلم، إلا ان الملك لم يدافع عن نساء القبيلة، وقال لنا أحد الأيام: «إن نساء عنزة دميمات بينما نساء شمر جميلات ولا يتحجبن». وسأله كلايتون عن سبب عدم تحجب نساء شمر، فأجابه الملك: «شمر ما عندهم دين [٥٥]»، ولكن بنغمة صوت لم تبدِ الاستنكار. وشمر هم رعايا ابن رشيد السابقون ولم يكونوا متحمسين للوهابية.

وبشكل عام تحدث ابن سعود عن حكومة الرِّجال في أغلب الأحايين. قال في إحدى المناسبات: «إن الحكم الاستبدادي أو المفروض بالقوة غير مناسب، إن الحكومة الاستبدادية قد تبدو أنها تفرض طوقاً من الحديد على شعبها، ولكن عند الأزمة أو الحرب، إذا ما انكسر هذا الطوق الحديدي فإن كل البناء سيتهشم، لكن الحكومة المبنية على القبول شبيهة بالخيط، والخيط أحياناً أقوى من طوق الحديد».

وعبر الملك عن استنكاره الشديد لحكم موسوليني في إيطاليا، وقال: «إن حكم موسوليني سيئ، وإنه من العار أن يسيطر أحد أفراد الشعب على الملك».

وكان يسخر من الأوامر التي أصدرها مصطفى كمال (الذي أطلق عليه لاحقاً أتاترك)، بأن يرتدي الأتراك القبعة الأوروبية، وصرح: «إن حكومة الأتراك استبدادية مثل الإيطالية تريد أن يبدل الأتراك الطربوش بالقبعة ليصبحوا مثل الأوروبيين، إن أفضل شيء لكل أمة هو أن تتمسك بدينها وعاداتها».

(٥٥) لاشك أن الملك قال ذلك على سبيل الدعابة فشمر مسلمون ملتزمون بالدين، ويرتبط بهم الملك بعلاقة المصاهرة كما ذكر المؤلف سابقاً. [المترجم]

كنت أستمع إلى الملك في عدة مناسبات وهو يشرح وبصدق تام لماذا ظل حليفاً لبريطانيا لمدة خمسين عاماً. فكان يقول، «ليس هناك أي شيء مشترك بيني وبين الإنجليز. إنهم غرباء ومسيحيون. ولكنني في حاجة إلى مساعدة قوة عظمى، وبريطانيا أفضل من القوى الأخرى مثل فرنسا وإيطاليا».

وامتدح البريطانيين قائلاً: «إنك تجدهم في كل أنحاء العالم متطوعين لخدمة مليكهم، لكي يجلس بكل هدوء في وطنه، ليس هناك إجبار في الطريقة الإنجليزية، وهذا طيب، هذا طيب» - كررها مرتين. وعلى الرغم من أنه لم يغادر الجزيرة العربية على الإطلاق، إلا أنه أظهر معرفة ليست فقط بالشؤون العالمية بل أظهر قوة مذهلة في فهم دقائق الأمور، وهذا ينمّ بالتأكيد عن رجاحة عقله الشخصية.

في إحدى الأمسيات قبل مغادرتنا جدة بعدة أيام، أتيحت لنا الفرصة، أنا وغاي مور، لمقابلة خاصة مع الملك عبد العزيز. واعتقد أن كلايتون كان قلقاً لحد ما من هذا اللقاء. وكنت قد شرحت له كل مخاوفي وآمالي، ولكنه لم يَلُمْ شاباً مغروراً يَعتقد أنه يعرف أكثر من رؤسائه[٥٦]، وكان دائماً لطيفاً ومتسامحاً ومهتماً بالأمر، ولكنه لم يرغب في أن أشرح وجهات نظري بحماسة إلى ابن سعود نفسه، ونتيجة لذلك طلب مني أن أعده بعدم التطرق إلى شيء له صلة بالمفاوضات عند مقابلتنا الملك.

لذلك لم أستطع التحدث حول وضع الحدود أو مهمة بعثتنا، بل كانت أحاديثنا تدور حول مواضيع البدو مثل الرعي والخيل والإبل والأغنام. وبحيوية الشباب، لم أتردد في إظهاري لابن سعود مدى معرفتي بلهجات البدو وأسلوب حياتهم. قدم لنا الشاي المحلّى بكأسات صغيرة، وبعده تناولنا القهوة السوداء المرة، وجاء ستة أو سبعة أولاد صغار تتراوح أعمارهم ما بين الثمانية والعشرة أعوام ليلقوا التحية على الملك قبل أن يناموا، ويبدو أن بعض هؤلاء الأطفال هم أبناء وأحفاد الملك، وبعضهم أبناء آل رشيد الذين عاشوا في كنف الملك بعد فتح حائل في قصره الخاص. وقبّل الملك الكبير الأطفال الصغار بحنان أبوي، مربتاً على رؤوسهم بلطف.

هناك أشياء استثنائية تترك انطباعاً عن شخصية الملك عبد العزيز، فمن الناحية الجسمانية كان طويل القامة، أطول من العرب الآخرين وبخاصة أهل نجد الذين يتميزون بصغر أجسامهم. وكان يتميز بأسلوب أبوي ويبدو أنه مليء بالحب والنزعة إلى عمل الخير وكان يمارس الديمقراطية والأبوية، في هذا الوقت على الأقل، على الطريقة العربية التقليدية،

---

(٥٦) يقصد المؤلف نفسه. [المترجم]

يتحدث بكل صراحة مع مختلف المستويات وكان طليق اللسان خطيباً مفوهاً. وكان حريصاً على تجنب الظهور بمظهر الحاكم المطلق، وعلى الأقل يقوم شكلياً باستشارة القادة ورجال الدين في شؤون الحكم. وقد يبدو أسلوبه غريباً في الحكم على الذين اعتادوا آلية الحكم الأوربي، لأنه لا تتوفر فيه الخدمة المدنية، ولا يوجد مسؤولون إداريون ولا جيش نظامي، ويفتقر إلى النظام اللامركزي في السلطة، وحتى صغائر الأمور ترفع إليه ليتخذ في صددها القرارات التي يجب أن يقوم بها موظفون صغار. ومن ناحية أخرى، فالمراسلات الرسمية شبه معدومة، لذلك لايتطلب من الموظفين قضاء الساعات والأيام في المكاتب وبإمكانهم إنجاز عملهم وهم خارج المكاتب وبين أهلهم. ويحتمل أن شارلمان(٥٧) ووليم الفاتح(٥٨) كانا يحكمان بأسلوب شبيه بهذا الأسلوب.

إلا أنه من العسير على الفرد، حتى تحت تأثير هذه القوة الهائلة وهذه الشخصية الكريمة، أن ينسى تماماً أن هذا الرجل وصل هذه المكانة العالية بأسلوب قاس لا يرحم. وبالتأكيد فإنه من وجهة نظر القبائل العراقية، كان الخوف من المذابح هو الذي دفعهم إلى الانتقال إلى ابن سعود ودفع الضرائب [الزكوات] له. كذلك فإن الإخوان لم يقدموا فقط على قتل الرجال المقاتلين، بل قتلوا الأطفال وحتى الرضع منهم بين أحضان أمهاتهم بحجة أنهم ذكور.

إننا نبرر أفعالنا بكل سهولة وراحة، وننسى الوسائل التي استخدمناها ونشدد على فضيلة أهدافنا النهائية. كان ابن سعود ذو الشخصية الأبوية الكريمة، وذو النزعة إلى عمل الخير، وأحد عباد الله الصالحين قد استخدم المذابح ليقفز إلى السلطة. وربما بالأسلوب نفسه أشارت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تسامي مبادئها على مبادئ الأمم الأخرى، وألقت أول قنبلة ذرية على هيروشيما. وأنا لا أعتقد أن أياً من الطرفين يُتهم بالنفاق. فعقل الإنسان هو آلة ذات تركيبة مذهلة.

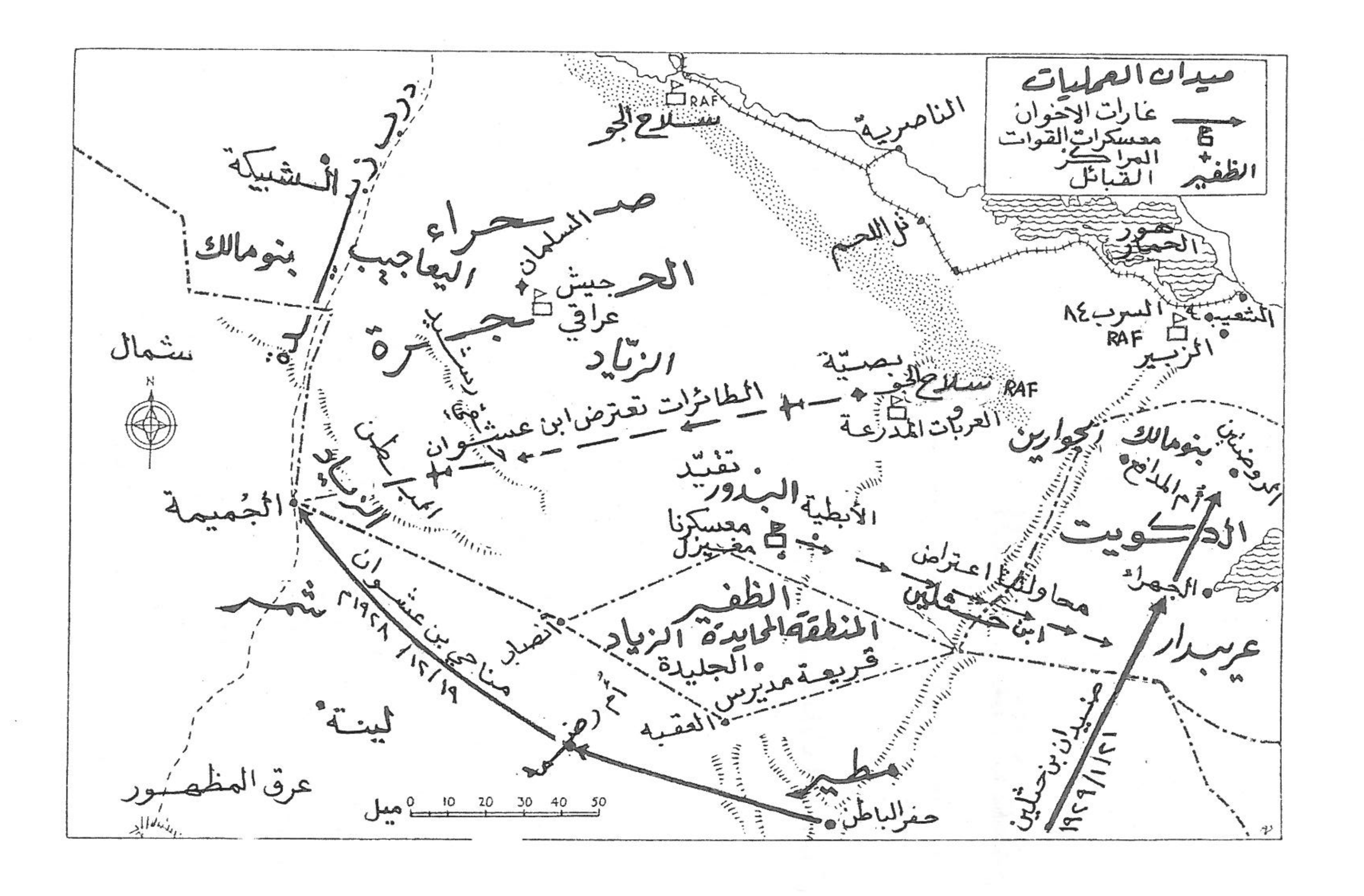
---

(٥٧) شارلمان (Charlemagne) أو شارل الأكبر: (٧٤٢-٨١٤م) كان ملك الفرنجة Franks (٧٦٨-٨١٤م) وإمبراطور غرب أوروبا (٨٠٠-٨١٤م).

(٥٨) وليم الفاتح (William the Conqueror): (١٠٢٨-١٠٨٧م) قاد الحملة النورماندية على إنجلترا وفتحها سنة ١٠٦٦م. وكان ملك إنجلترا (١٠٦٦-١٠٨٧م). [المترجم]

الفصل الثالث عشر

إرهاصات النضال



ميدان العمليات
غارات الإخوان
معسكرات القوات
المراكز
القبائل
الظفير
الناصرية
سلاح الجو
RAF
تل اللحم
هور الحمار
الشعيبة
السرب ٨٤
RAF
الزبير
درب زبيدة
الشبيكة
بنومالك
صحراء السلمان
اليعاجيب
الحجرة
جيش عراقي
الزياد
شمال
بصية
سلاح الجو
RAF
العربات المدرعة
الطائرات تعترض ابن عشوان
الجواريين
بنومالك
الجميمة
البدور
تقيد
الأبطية
معسكرنا
محاولة اعتراض
ابن حثلين
الكويت
الجهراء
شمر
الظفير
المنطقة المحايدة
الزياد
الجليدة
قريعة مديرس
أنصاب
مناحي بن عشوان
١٩٢٨/١٢/١٩
عريبدار
لينة
العقبة
مطير
عرق المظهور
ميل
حفر الباطن
ضيدان بن حثلين
١٩٢٩/١/٢١

إرهاصات النضال

لقد عدنا إلى بغداد في نهاية شهر مايو/ أيار سنة ١٩٢٨ بعد المحادثات المجهضة في جدة. وشعرت بالإحباط من فشلنا في التوصل إلى أي اتفاقية مع ابن سعود، وخاصة بعد إدراك المشكلات التي يعانيها الملك عن كثب. وكان من الواضح أن منطقة نجد تمر بمرحلة فوضى كاملة وكانت كل الدلالات تشير إلى أن موسم الرعي لعام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ سوف يشهد انفجاراً شاملاً من غارات الإخوان، إن لم تكن حرباً مفتوحة مع نجد. وكانت أمامنا فترة ستة أشهر لكي نستعد، وبدأت بالسعي لعمل شيء لتحسين القوات الصحراوية، لقد سبق أن لفت نظر الحكومة العراقية إلى ضعف نظام الشرطة القائم وعدم كفاءته. فكنت أقود خمسين رجلاً وثماني سيارات «للمهمة» بينما كان هناك قائدان مستقلان للشرطة على مسافة تقرب من مئة ميل وكان كل منهما مسؤولاً عن نصف الرجال والسيارات في النواحي المتعلقة بالتجنيد والانضباط والرواتب والإدارة، وكان التجنيد مسألة مهمة، فكان المطلوب من هؤلاء الرجال القيام باستكشاف القوات الغازية المتقدمة وكان من الضروري أن تكون لهم خبرة في معرفة حرب الصحراء، ومع ذلك، ففي حالات كثيرة كان قادة الشرطة يرسلون إليّ عرب الأهوار الذين قضوا حياتهم يجدفون الزوارق الطويلة الخفيفة [المشاحيف] عبر المستنقعات المغطاة بالقصب في أسفل نهر الفرات.

لقد قدمت اقتراحاتي في شهر أبريل/ نيسان سنة ١٩٢٨ قبل ذهابنا إلى جدة، ولكن لم يتخذ فيها أي إجراء حتى الأول من سبتمبر/ أيلول، وهكذا فقدنا فترة خمسة أشهر كان من المفروض أن نستفيد منها بتدريب رجالنا. كان المفتش العام البريطاني لشرطة العراق يعارض وضع قوة الصحراء تحت قيادتي وهدّد برفض أي تعاون إذا تم هذا الأمر، وقد كتب تعليقاً

موجزاً على مذكرتي قائلاً: «لن يكون لي أي دخل في عمليات المطاردة هذه». وكان هذا محرجاً، فعلى الرغم من أنني كنت أريد تجنيد وقيادة أولئك الرجال فلم تكن لديّ طرائق وأنظمة لمسك الحسابات أو شراء الملابس العسكرية أو الوقود، و كنت أود أن تقوم شرطة العراق بأداء هذه الأعمال الإدارية لأجلي.

وفي النهاية وفي الأول من سبتمبر/ أيلول ١٩٢٨ تمت المصادقة على تشكيل قوة الهجّانة للصحراء الجنوبية ليتكون من سبعين هجّاناً (راكب جمل) والثماني عربات الأصلية لتكون تحت قيادتي. وفي شهر مارس/ آذار ١٩٢٨ عندما حصلنا فعلاً على الثماني عربات، كنت ألح بشدة بأن تكون مسلحة بمدافع رشاشة، وقد أشرت إلى أن أدوار أصحاب العربات في استكشاف غزاة الإخوان تشكل خطراً شديداً عليهم، وفي الكثير من أجزاء مسرح العمليات، سواء في الصحراء الحجرية أو المغطاة بالشجيرات، بإمكان الفرسان الانتقال بسرعة أكثر من عربات زنتها طن واحد، على الأقل في المسافات القصيرة. وفي بعض المناطق كان ممتطو الجمال يسبقون العربات. وفي أثناء القيام بعمليات الاستكشاف، كان من الضروري أن تكون العربات قادرة على الاقتراب من الأشخاص الذين يلاقونهم، وإذا أمكن أن يقوم طاقم العربة باستجوابهم، وإذا تحركت العربات ببطء شديد وكان في كل عربة رجلان أو ثلاثة مسلحين ببنادق، كان من المستحيل التوقع منهم الاقتراب بكل جسارة من مجموعات رجال في الصحراء.

وإذا حدث من ناحية أخرى أنهم تراجعوا بمجرد رؤيتهم جماعة بعيدة على جمال، فقد ينشرون إنذاراً زائفاً عن غزاة فيما شاهدوا في الواقع قافلة تجار. وإذا كان رجالنا مسلحين بأسلحة آلية، فيمكنهم الاقتراب بجسارة، وإذا ثبت أن الجماعة من الأعداء، فإن زخات نيران المدفع الرشاش سوف تجبر العدو على الابتعاد وتمكن العربات من الإفلات من دون عقبات.

والسبب الثاني لطلبي هو أنه في أثناء شهور الصيف اللاهبة كان سلاح الجو الملكي البريطاني والجيش العراقي يختفيان من الصحراء ويتركان قوة الهجّانة في الصحراء للدفاع عن نفسها. حقيقة، لا يمكن بالمثل لقوات الإخوان الكبيرة أن تعمل في حرارة الصيف، ولكن فرق الإغارات التي تتكوّن من مئة راكب جمل أو أكثر كانت محتملة جداً. وسوف تكون قوة الصحراء وحدها مسؤولة في فصل الصيف عن صد المغيرين وتعقبهم واسترداد الأسلاب. ولن تكفي عربتان أو ثلاث عربات عليها أعداد قليلة من حملة البنادق للقيام بهذه المهمة.

وقد قدمت نسخة من مذكرتي التي تشرح أسباب طلبي المدافع الرشاشة إلى قائد القوة الجوية الذي كان رده فقط تعليقاً هامشياً بالقلم الرصاص على المذكرة: «لا أوافق. لاأريد الشرطة أن تحارب». ولم يكن هذا إلا جانباً آخر من طلبات أركان الجو بإبعاد كل القبائل عن الصحراء لإعطاء سلاح الجو الملكي البريطاني مساحة كافية للعمل. ولم يجب قائد القوة

الجوية على أي من حججي، ولكن مذكرته كانت كافية لتأجيل صرف المدافع الرشاشة من شهر مارس/ آذار إلى شهر سبتمبر/ أيلول ١٩٢٨. وبذلك فقدنا فترة خمسة أشهر كان بإمكاننا أن ندرب فيها رجالنا على المدافع الرشاشة.

وفي الخريف، مع اقتراب موسم الغزو ومع الفوضى الواضحة في منطقة نجد فقد نتج عنهما اتخاذ اجراءات أكثر فعالية في بغداد. وفي شهر سبتمبر/ أيلول تلقينا مدفعي فيكرز قديمين جداً وأرسلت مجموعة تتكون من ١٢ بدوياً إلى بغداد للتدريب. ثم تلقينا مصادقة بشراء أربع شاحنات فورد إضافية مركب عليها مدافع رشاشة وشاحنتي فورد صغيرتين مزودتين باللاسلكي، والموافقة على تجنيد ثلاثين رجلاً إضافياً لتوظيفهم كرجال مدفعية في العربات. ولذلك فإنه على الرغم من التأخير لخمسة أشهر قد حرمنا من فرصة تدريب جيشنا الصغير، ومع ذلك ففي بداية موسم الرعي حصلنا على الموافقة على تشكيل قوة كان تأثيرها حاسماً بالنسبة إلى الوضع في الصحراء.

ولذلك ففي مستهل موسم الرعي لعام ١٩٢٨-١٩٢٩ كان التنظيم لقوة الهجّانة في الصحراء الجنوبية على النحو التالي:

٧٠ هجاناً (راكبو جمال).

٣٠ مدفعاً رشاشاً على عربات.

٨ عربات متنوعة اثنتان منها عليهما مدافع فيكرز.

٤ عربات فورد جديدة عليها مدافع فيكرز.

عربتا لاسلكي مقفلتان.

لقد بقي شيء واحد مخيب للآمال، فعلى الرغم من وجود المئات من أجهزة اللاسلكي في العراق، فلم توافق أي إدارة على إعارتنا جهازين نحن في حاجة إليهما. ونتيجة لذلك فقد طلب جهازان من إنجلترا وصلا في السنة التالية. وكنا مضطرين لإكمال موسم غزو آخر بالقيام بدوريات في مساحة تزيد على خمسة وعشرين ألف ميل مربع من الصحراء من غير وسائل اتصال.

ولم تجر أي محاولة من قبل لتدريب البدو أو تنظيمهم. وكانت كل الحكومات العربية التي عرفتها تقَبل بدهياً فكرة أن البدو غير صالحين للعسكرية. ومع ذلك فعندما أرسلنا رجالنا ليُدرّبوا في بغداد كرجال مدفعية أعلن معلّموهم بأن مستواهم فوق المتوسط بالنسبة إلى المجندين العراقيين من ناحية الحماسة والذكاء.

وفي هذه الأثناء كان أتون الصيف فوق رؤوسنا وكان الرعاة على ضفاف نهر الفرات، ولكن الظفير رفضوا الذهاب إلى النهر حتى شهر سبتمبر/ أيلول، خوفاً من الذباب اللاسع [الزريقي] الذي يفتك بإبلهم. وطبقاً لذلك فقد قطنوا أبو غار وبصية، وكان ينتابنا القلق خوفاً من أن تقوم جماعة من الإخوان الغزاة تتألف من مئتين أوثلاثمئة راكب جمل بالوصول إلى مراعي الظفير وسلب إبلهم من مراعيها كما حدث للعريف في عام ١٩٢٥.

وطبقاً لذلك فقد رتبت أن أترك مفرزة من عرباتنا الصحراوية الجديدة في بُصية. وفي كل يوم عند الفجر كان يتعين على دورية مكونة من عربتين أو ثلاث عربات مغادرة المخفر والابتعاد حوالي خمسين ميلاً إلى الجنوب، حيث تتخذ مواقعها على رؤوس التلال وتظل في المراقبة حتى غروب الشمس وتعود إلى بُصّية في الليل. وبهذه الوسيلة لم نستطع التأكد تماماً من اعتراضنا الغزاة في حالة وصولهم، ولكن في إمكاننا تقليل المخاطر بدرجة كبيرة.

من الناحية العددية، يجوز أن نقلل من مخاطر نجاح الغزو بالجمال إلى النصف، ولكن الشيء الأكثر أهمية الذي اعتمدنا عليه هو الأثر المعنوي. فعلى بُعد مئة وخمسين أو مئتي ميل في مضارب مطير أو العجمان سوف يتلقون تقارير من جواسيسهم أو من مسافرين بأن دوريات العربات تقوم بعملها. ولن يعرفوا الأوقات أو المسافات، ولا عدد العربات أو الرجال بدقة. ونادراً ما يتعامل البدو مع الأرقام الصحيحة وعادة يميلون إلى المبالغة، وتقارير عملياتنا التي تصل إلى الإخوان سوف تكون مضخمة بالتأكيد. ونتيجة لهذه العوامل فيبدو لي أننا ربما قدمنا لقطعان الظفير أمناً بنسبة ثمانين إلى خمسة وثمانين في المئة. وانتشروا للرعي والتسكع دون حراسة، على بعد عشرين ميلاً خلف مواقعنا الاستكشافية.

وفي كثير من الأحايين كنت أصحب هذه الدوريات بنفسي للمحافظة على حماسة الرجال وللإلمام بالتفصيل عن كيفية أداء هذه الواجبات بأفضل الطرق. عند مغادرة بُصيّة قبل طلوع الشمس يكون الجو بارداً والهواء صافياً والمساحات الشاسعة والآفاق الزرق للصحراء جلية. وربما بحلول الساعة الثامنة صباحاً نكون قد وصلنا لخط مواقعنا الأمامية بين الأبطية ومغيزل.

كانت مذكرة أحداث الأربع والعشرين ساعة الماضية في الصحراء مكتوبة على سطح الأرض على هيئة آثار. وبالنسبة إلى البدوي فإن آثار الجمال سرعان ما تروي قصة فهو بالطبع سوف يلاحظ فوراً عدد الجمال التي مرت، وإذا كانت تمشي أو تعدو، وإذا كانت تقل راكباً أو تنقل أحمالاً أو ترعى (الجمل الذي عليه راكب يسير في خط مستقيم والجمل الذي يرعى يتجول من شجيرة إلى أخرى) وإذا كانت كلها جمالاً مكتملة النمو، أو كانت صغيرة السن، أو نوقاً مع صغارها. أخفافها واضحة المعالم، إلى هذا الحد من أول نظرة، ثم يبدأ في تعقب الآثار وعيناه على الأرض، وسرعان ما يجد روثاً متساقطاً فيقوم بالتقاطه بلهفة ويفتته بين

أصابعه. يجف الروث بسرعة في حرارة شمس النهار في ذلك الجو الصافي الجاف، ولكن سرعة جفافه تكون أقل في الليل، وسوف يعرف من درجة جفاف الروث الوقت الذي مر فيه ركاب الجمال. وأحياناً يتمكن من معرفة الجهة التي قدمت منها الجمال بوساطة الروث من خلال قطع نباتية لم يتم هضمها لأنه يعرف نوعية الشجيرات أو الأعشاب الخاصة بكل منطقة. ونظراً إلى ندرة الآبار في الصحراء في فصل الصيف، فإن اتجاه المسار سوف يدله على المكان الذي قدم منه الراكبون أو البئر التي يقصدونها، فإذا بدا أنهم ذاهبون في اتجاه بئر في منطقة مجاورة فسوف تكون الخطوة التالية هي زيارة تلك البئر، ومن الممكن أن يجد الجماعة وهم يرتوون من الماء ولكن حتى ولو غادر الركب البئر فإن فوهة البئر سوف تدله على مرورهم، حيث إن المسافرين ينزلون عن دوابهم ويخلدون للراحة. ويمكن التأكد من عدد الراكبين عن طريق عدد آثار الأقدام البشرية، حيث إنهم جميعاً سوف يترجلون عن دوابهم، وربما تكون هناك آثار لنساء أو أطفال. وربما انتهز بعضهم الفرصة ليأكل ملقياً نواة التمر أو - إذا كان عراقياً - أعقاب السجائر، وإذا كانوا قد أقاموا الصلاة، كعادة المسلمين في أداء الصلاة خمس مرات في اليوم، فإنهم إن كانوا من الوهابيين فسوف يرسمون خطاً (أو مسجداً) على الأرض للاصطفاف عليه لتأدية الصلاة، وإذا كانوا من غير الوهابيين فقد يؤدون الصلاة فرادى. وبالنسبة إلى أولئك الذين عاشوا كل حياتهم في البيئة المحلية، فإن هذه الآثار والعديد من العوامل الأخرى تكون منبهة على الفور بحيث إنه يمكن في بعض الأحايين استنتاج وصف حقيقي للجماعة، الشيء الذي يبدو كالسحر تقريباً لمن لا يعرف هذه الأساليب.

ورغم ذلك فإن هؤلاء البدو من جنوبي العراق لم يكونوا بالمهارة في تعقب الأثر مثل البدو الذين عاشوا في صحارى رملية. وتقع هذه المنطقة الرملية على الحدود بين جنوب الأردن والحجاز. وبعد عدة سنوات من وقت القصة الحالية قضيت ليلة في هذه البلاد. وفي الصباح لاحظ بدوي عجوز أن شخصاً غريباً قد اجتاز راكباً من خلال الوادي المجاور في أثناء الليلة الماضية. فسألته ببراءة كيف عرف من الآثار بأن الراكب كان غريباً، وشرح لي العجوز بكل صبر قائلاً: «أنت تعرف الناس لأنهم كلهم يبدون لك بأوجه مختلفة. وبالطريقة نفسها تقريباً، فإن كل الجمال لها أخفاف مختلفة. إنك لا تلاحظ هذا، لأنك لا تقضي وقتاً طويلاً في النظر إلى أخفاف الجمال كما تفعل بالنسبة إلى وجوه الناس، ولكنني أفعل ذلك - وأنا أعرف أخفاف كل الجمال بالقرب من هنا - والآثار التي رأيتها في هذا الصباح خاصة بجمل لا أعرفه».

وقد حالفنا الحظ عندما اكتشفنا آثاراً عند قيامنا بالدورية ليس فقط لأننا قد ندرك الركب ونستجوبهم ولكن لأنهم يوفرون لنا فرصة للحد من رتابة اليوم الطويل.

وفي النهاية، وعند اقتراب الظهيرة أخذنا مواقعنا أسفل قمة تل ما أو أسفل ذروة جال

الحنية. وبعد وضع حارس لديه منظار على القمة فوقنا، وضعنا عرباتنا بجانب بعضها البعض وهيأنا أنفسنا لقضاء ثلاث ساعات من أتون الحرارة بأفضل طريقة نستطيعها هناك. ومن المستحيل إنجاز غير القليل من ناحية الاستطلاع في أثناء ساعات الظهيرة هذه. إن المسافة تتراقص وتهتز في السراب وكانت هناك شجيرات صغيرة ارتفاعها اثنتا عشرة بوصة على قمة تل على بُعد بضع مئات من الأمتار، كبرت حتى بدت قطيعاً من الجمال الضخمة وبحيرات ذات مياه فضية تومض على سطح الصحراء الجاف.

نُمُدّ بطانية فوقنا بين عربة وعربة مجاورة لتوفر لنا بضعة أقدام مربعة من الظل. زحف الرجال تحت العربات يستلقون وهم يحملقون إلى أعلى في حوض الزيت أو المحور الخلفي حيث يضع الغبار غلافاً سميكاً حول حلمات الشحم. وكنت أستلقي أحياناً ممدداً ذراعي ورجلي وكأنني مصلوب على سطح الأرض حيث إن ملامسة ذراع لجسمي كانت أسخن من أن تحتمل. وأحياناً كنا نقوم بتجهيز القهوة أو الشاي ونجلس في حلقة نرتشفه ونتحدث، ومن ثم نستلقي في نصف غفوة نلهث من الحرارة أو ننتعش بين الفينة والأخرى عندما تحدث نسمة هواء برودة خاطفة. كانت الأجزاء المعدنية للعربات ساخنة جداً يصعب لمسها، وكانت زوابع الغبار وهي أعاصير حلزونية مصغرة تلتفّ بالغبار كالدوامات في أعمدة طويلة كالمبرام في الهواء يطارد بعضها البعض عبر السهل المتوهج.

وفي بعض الأحايين وأنا مستلق في حالة شبه متلهف للتنفس أصور لنفسي الظلال الطويلة لأشجار الدردار عبر المروج الإنجليزية الخضراء في أمسية صيفية حيث تقف الأبقار غاطسة حتى ركبها في الحشائش، أو جانباً من جبال إيطاليا مغطى بأشجار الكستناء الإسبانية الضخمة التي يرى من بينها بعيداً في الأسفل الضحك المتفجر لبحيرة غاردا الزرقاء ومع هبوط الشمس عن كبد السماء وانخفاضها التدريجي تنتعش أرواحنا، وقد تم تنظيف الغلاية وأكواب الشاي وأنزلت البطانية التي كانت تظلّلنا وشغّلت المحركات. إن وقت الغروب هو أفضل وقت في اليوم للرؤية على مسافات بعيدة وقضينا آخر ساعتين من النهار في الاستطلاع من قمة تل إلى قمة أخرى، وعندما يحجب الظلام رؤية التلال والسهول الجنوبية فسوف تبدأ رحلة العودة إلى منازلنا لمسافة ثلاث ساعات من التخبط والتمايل في طريقنا إلى بصية. وأخيراً سوف تكشف لنا الأضواء المنقطة البعيدة النيران في بيوت الشعر خارج الحصن، لأن قوة من هجانة الصحراء الجنوبية ترابط الآن في بصية. وفتحت البوابة الكبيرة، كاشفة في الساحة عن توهج نار القهوة ومجموعة رجال ذوي لحى كثة جالسين على الأرض حولها. ونادت أصوات مرحبة «حياهم الله! حياهم الله!» فيما دخلت العربات ببطء من البوابة وهي تصرصر. لقد انتهى كدح يوم طويل متعب.

وعلى الرغم من عدم تمكننا من الاستفادة من شهور صيف عام ١٩٢٨ لتدريب قوتنا الصحراوية الجديدة، إلا أنني كرستُ كل الوقت الممكن لدراسة حرب الإخوان. وتحت الظروف البدوية كان من الواضح أن المجموعة التي تقوم بالهجوم تتمتع بمزية كبيرة. تعتمد قبائل الإخوان والعراق على المراعي الصحراوية التي كثيراً ما تكون متناثرة والتي تضطرهم إلى التفرق بعيداً وعلى مسافات واسعة لتأمين الأعشاب لقطعانهم. وإذا كان محرّماً علينا (لأسباب دبلوماسية إن لم يكن لأسباب أخرى) أن نبدأ بالهجوم، فقد كانت قطعان الإخوان قادرة على الانتشار هنا وهناك من غير حراسة كما يرغبون في نجد من دون أي خوف من غارات من جانبنا. أما القبائل العراقية فتواجه بديلين إما التبعثر بحثاً عن المرعى والتعرض للغزو والهزيمة أو التجمع وتكبد خسائر في قطعانهم. وبالتالي كان الجانب الأكثر أهمية من مشكلتنا هو كيفية الحصول على معلومات. بإماكننا السماح لقبائلنا بالتفرق والرعي، إذا كنا متأكدين دائماً من الحصول على إنذار قبل أربعة أو خمسة أيام عن غارة وشيكة مما يعطينا وقتاً للتجمع. ولكن كيف يمكن الحصول على هذه المعلومات الاستخباراتية المسبقة؟ فقررت دراسة المسألة من زاوية الإخوان.

كانت الاستخبارات حيوية للإخوان أيضاً، وعند انطلاقهم من مسافة مئتي ميل أو أكثر من المضارب العراقية، تكون لديهم فكرة واضحة عن مكان هدفهم. ومع ذلك فإن هجماتهم كانت دائماً تحدث عند الفجر وتسبقها مسيرة ليلية لمسافة ستين ميلاً لتحقيق المفاجأة. كان من الضروري للغزاة أن يصلوا عند الفجر للمضارب وأهلها نائمون، لأنه إذا طلع النهار وكان الغزاة على بعد خمسة أميال فإن القبائل سوف تراهم وتركن إلى الفرار.

ولذلك فقد كانت المعلومات الدقيقة والتوقيت ضرورية بالنسبة إلى الإخوان. وتنطبق كل قواعد الحرب الأساسية على غزاة الجمال الصحراويين كما تنطبق على الجيوش الأوروبية من هدف محدد وبساطة خطة وإجراء هجومي، وتركيز الإخوان قوة ساحقة على العراقيين المبعثرين، وسرعة في الحركة، ومفاجأة تكتيكية، وكان نجاحهم أو إخفاقهم يعتمد على الاستخبارات الدقيقة. وفي الوقت الذي كان فيه رجال قبائل الإخوان يحتشدون للهجوم كانوا يرسلون الجواسيس إلى العراق لتحديد أماكن القبائل. ويعود بعض هؤلاء الجواسيس قبل بدء الغارة، والبعض الآخر كان يحدد لهم مواعيد عند الخط المقصود لتقدم المغيرين.

وكانت عدة مجموعات استطلاع قوية، تتألف كل واحدة منها من ثلاثين إلى أربعين راكب جمل، تسبق الغارة نفسها، وفي الشتاء يشترك الفرسان أيضاً، وعند الاقتراب من الهدف ترسل هذه المجموعات كشافين من فردين أو ثلاثة لتحديد المضارب. وكثيراً ما تزحف هذه المجموعات إلى مسافة قريبة جداً تحت غطاء الظلام وتقوم بِعد نيران المخيم، وتحدد مواعيد

لبعض مجموعات الاستطلاع هذه بالقرب من الهدف ربما على مسيرة يوم أو يومين.

من أنجح وسائل غزاة الإخوان المتقدمين إرسال جاسوس للإقامة في المضارب التي يعتزمون مهاجمتها. وباتخاذ وسيلة تنكر مناسبة سوف يسعى هذا الرجل للإقامة في الخيام العراقية كضيف حتى اليوم السابق لليوم المحدد للهجوم، ومن ثم يحاول الانسلال بعيداً، تحت غطاء الظلام، ويلاقي الغزاة المتقدمين في موعد محدد سابقاً وذلك قبل ساعات قليلة من موعد الهجوم، لإبلاغهم بترتيبات اللحظة الأخيرة في المضارب.

في السابق كان مصدر معلومات الاستخبارات الوحيد في العراق هو استجواب المسافرين القادمين من نجد. وفي حالة عدم قدوم مثل هؤلاء الأشخاص لم تتلقّ الحكومة أي معلومة. لقد اتخذنا خطوات لتوفير سلسلة دوريات ومفرزات استطلاعية أمام قبائلنا. وكان يبدو لي أن الشيء الضروري الآن هو تنظيم جواسيس بطريقة مماثلة لأولئك الذين يستخدمهم الإخوان للإقامة في مضاربهم والانسلال تحت جنح الظلام لإبلاغنا بالانطلاق للقيام بغارة. وطبقاً لذلك فقد بدأت في تنظيم خدمة التجسس هذه.

* * *

وعلى الرغم من كون نجد في حالة فوضى، فإن ابن سعود قد قضى كل موسم الصيف في مكة، ولم يعد إلى نجد إلاّ في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٨. وبمجرد وصوله إلى الرياض، دعا إلى عقد اجتماع كبير[الجمعية العمومية] للإخوان في العاصمة لمناقشة الوضع. وفي غضون ذلك كانت قبيلة العجمان ـ التي لم تكن مخلصة بحماسة لابن سعود ـ قد انضمت إلى عصبة التمرد المكونة من عتيبة ومطير. فرفض سلطان بن حميد من عتيبة وفيصل الدويش من مطير وضيدان بن حثْلين شيخ العجمان الامتثال لدعوة الملك، ولكن الدويش أرسل ابنه الأكبر عُزيّز، ومن دون حضور المتمردين لم يكن هناك ما يمكن عمله للوصول إلى تسوية.

وكان وضع الملك غير مستقر، وبخلاف القبائل المتمردة، كان الكثيرون من قادة الإخوان يغازلون الجانبين، وفي الوقت الذي استجابوا فيه لدعوة ابن سعود، كانوا أيضاً على اتصال مع المتمردين. وكما سبق توكيده فإن ابن سعود لم تكن لديه قوة يستطيع بوساطتها إجبار المتمردين على طاعته، باستثناء القبائل الأخرى وسكان الواحات. وفي هذه المرحلة لم يكن لأي من هذه المجموعات أي خلاف معين مع المتمردين وفي الواقع كان الكثيرون منهم يتعاطفون معهم، ولذلك كان الملك عاجزاً عن إجبار قادة القبائل الذين رفضوا الامتثال لدعوته على طاعته، وكانت وسيلته الوحيدة في تلك المرحلة هي استخدام الطرق التي كثيراً ما كان يستخدمها الأتراك وهي زرع الخلافات بين القبائل غير الموالية له. فقام بدعوة شيوخ آخرين من

عتيبة ومطير، قد يكونون المنافسين المحتملين لابن حميد والدويش، وأغدق عليهم الأموال، وسعى لإحداث انقسام في صفوف المتمردين.

ومع ذلك، وقبل أن تؤتي هذه السياسة ثمارها، فقد قام المتمردون بجمع أتباعهم ونشروا راياتهم الحربية وصرحوا بعزمهم على الإغارة على العراق، سواء رضي ابن سعود بذلك أو لا. وفي الواقع لقد سبق للمتمردين الاتفاق فيما بينهم على تقاسم أراضي ابن سعود، إذ سيكون فيصل الدويش حاكم نجد، وسلطان بن حميد سيحكم الحجاز، وضيدان بن حثلين سيستلم الأحساء. وكان نجاحهم يتوقف على موقف قبائل نجد الأخرى التي لا زال موقفها غامضاً، وبإعلانهم عن تمردهم ضد ابن سعود ربما تسبب ذلك في حشد بقية نجد إلى جانب الملك. أما إعلان عزمهم على القتال ضد العراقيين «المشركين» - وهو مهمة دينية خالصة كان ابن سعود يحاول تجنبها - فقد يكسبهم التعاطف من كل الوهابيين المخلصين.

وبدا أن هناك سلسلة غارات وشيكة للإخوان على العراق، وقبل أن تنشأ الحملة قامت الحكومة البريطانية بمحاولة أخيرة لتهدئة الأوضاع المضطربة. فقد اقترحت التحكيم بين ابن سعود والعراق عما إذا كانت سوف تلغي مخافر الصحراء العراقية أو لا. وقد عارضت بشدة هذا الاقتراح.

كنت قد قدمت اقتراحاً عندما كنت في جدة يقضي بهدم بُصيّة كتنازل لابن سعود ولكن اقتراحي قد رفض على أساس أنه استسلام ضعيف. كان قصدي إعطاء الملك نصراً واضحاً، لتعزيز موقفه ضد المتمردين، ولكنني اقترحت استخدام أبو غار والسلمان بدلاً من ذلك. والآن تقترح حكومة صاحب الجلالة التحكيم على مبدأ أن لا تكون للعراق مخافر في الصحراء على الإطلاق. وفي حال هزيمتنا في عملية التحكيم على هذه الغاية فإن الفوضى سوف تحدث نتيجة لذلك. فالحكومة العراقية سوف تتخلى عن محاولة السيطرة على صحاريها والمتمردون الإخوان سوف يشنون غارات حتى ضفاف نهر الفرات.

يبدو أن الحكومة البريطانية قد أخفقت في إدراك التغير في طبيعة القتال، بحيث أصبحنا نشهد صراعاً على السلطة بين ابن سعود والإخوان، وإذا تمكن الأخيرون من الإغارة على القبائل العراقية بنجاح، فإنهم سوف يعودون فرحين بالانتصار ويطيحون الملك. وإذا أخفقوا في الإغارة فإن هيبتهم سوف تسقط وسوف يكسب ابن سعود، ولذلك كان ضرورياً لبقاء الملك أن تفشل غارات المتمردين. ومع ذلك فقد اقترح البريطانيون التحكيم على مسألة ما إن كان يجب على العراق التخلي عن الصحراء كلية، وبذلك يترك الإخوان المزهوين بالنصر لتدمير ابن سعود. غير أن وقت التباحث قد ولى في الواقع لأن رايات الحرب كانت مرفوعة.

وإلى حدٍّ ما فإن تقلبات السياسة في لندن مثلت مذاهب فكرية متناقضة. فمنذ الحرب العالمية الأولى كانت وجهة النظر البريطانية الرسمية منقسمة بين أولئك الراغبين في مساندة ابن سعود وأولئك الذين يفضلون أسرة الأشراف. إن نجاح الوهابيين في فتح الحجاز وفّر لمساندي ابن سعود فرصة سارة ليقولوا: «لقد قلنا لكم ذلك». والآن في نظرهم فإن المجموعة المؤيدة للأشراف تكرر خطأها السابق و«تدعم الملك فيصلاً». وبالتالي احتجوا بشدة وضغطوا لسحب سلاح الجو البريطاني واسترضاء ابن سعود. وكانوا لا يعلمون أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ ابن سعود هي هزيمة المتمردين.

كذلك كانت بغداد منقسمة، إذ لم يكن أمام الملك فيصل نفسه سوى التعاطف مع المتمردين. وفي حالة إطاحة ابن سعود، فمن الممكن أن يستعيد الأشراف الحجاز. ومن الناحية الأخرى، كان الوزراء العراقيون ينظرون إلى المسألة كلها كمسألة ثانوية مزعجة ترتبط بعدد من القبائل غير المتحضرة التي لم يعيروها أي اهتمام. وكانت نتيجة هذه الانقسامات في وجهات النظر في بغداد ولندن أننا كنا في بعض الأحايين نشعر بأننا مدعومون وفي أحايين أخرى، ولأسباب غير معروفة لدينا، كانت المساعدات الحكومية تنقطع عنا فجأة.

والأخبار الآتية من نجد جعلت من الضروري لنا أن نتفق على خطة للقيام بحملة. وفي أوائل شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٢٨ ذهبت إلى بغداد لعمل الترتيبات النهائية مع الحكومة العراقية وسلاح الجو الملكي البريطاني. ولأول مرة وافقت هيئة الأركان الجوية على بدء دوريات جوية في الصحراء حالما خرجت القبائل العراقية. كان الإجراء في الماضي عدم القيام بأي استطلاع جوي إلى أن تبدأ سلسلة من غارات الإخوان الوحشية، وعندئذ كانت تستخدم كل طائرة وكل طيار إلى أن يصاب الأفراد بالإنهاك وتصبح المحركات في حاجة إلى الصيانة. وفي هذه السنة وافق سلاح الجو الملكي البريطاني على بدء الطيران ولكن لتنفيد عدد محدود من الدوريات ولأهداف معينة.

وبالمثل جاء الجيش العراقي بكل نبل لمساعدتنا ووعد بإرسال مجموعة مدافع رشاشة محمولة على عربات إلى الصحراء الجنوبية. وكانت الخطة المتفق عليها هي أن مفرزة من هذه المجموعة والجزء الأكبر من قوة الهجانة الجديدة للصحراء الجنوبية وأنا سوف نشكل قوة متحركة سوف تصاحب أكبر حشد ممكن من القبائل العراقية التي تنتقل إلى الحدود.

وبعد الانتهاء من هذه الترتيبات في بغداد طلبت الاجتماع مع قادة قبائل البدو في السماوة. وقد تجمع كل من بدو الظفير وأصحاب الأغنام من الجوارين والبدور والزيّاد وبني سلامة واليعاجيب وآل غليظ ومجموعات أخرى صغيرة. وقد شعرتُ بالاطمئنان من ناحية واحدة على الأقل، فقبل ثلاث أو أربع سنوات فقط كانت القبائل تنظر إلينا باستياء وعدم ثقة، وكان

الكثير منهم يشتبهون في أننا نقوم بأعمال غدر ملتوية وقد سعوا في الماضي للاتصال سراً بابن سعود لشراء حمايته عن طريق دفع ضرائب [زكوات] لنجد. ولكن في هذه السنة قد اختفت كل الشكوك في إخلاصنا، وقد اقتنعت قبائلنا تماماً بصدقنا وكانوا يتوقون للتعاون معنا من كل قلوبهم. وقد حضر جميع قادة القبائل في الموعد المحدد إلى السماوة وشاركوا في نقاش كامل وصريح وتعهدوا بالتحرك معنا وأن يخيموا بموجب توجيهاتنا والاستعداد لدخول المعركة إذا أمرناهم بذلك.

وقد وافق الجميع على عدم القيام بالرعي شمال خط بُصيّة إلى السلمان. وقد طالب الظفير بالانتقال جنوباً حتى «تقيد» ويفضلون المنطقة المحايدة. وهكذا فقد أصبح واضحاً أنه بمجرد تحركنا نحو الصحراء، سوف نكون ملزمين بالتحرك للأمام مباشرة إلى الحدود الحقيقية التي احتشد في الجانب الآخر منها الأعداء و راياتهم الحربية ترفرف. وهكذا تحدينا الإخوان المروعين، متقدمين بطريقة مدروسة في وسط قبائلنا مباشرة نحو العدو. ولسنوات عديدة لم تجرؤ أي قوة عربية على مواجهة الإخوان أو الدخول معهم في معركة.

وفي اللحظة نفسها بدأ سلاح الجو الملكي البريطاني عملياته، وكان التأثير المعنوي للنشاط الجوي كبيراً جداً. وحقيقة الأمر فإن غالبية الدوريات الجوية لم ترَ شيئاً وكان الطيارون يضجرون ويخالجهم الشك في قيمة مجهوداتهم. ولم يكن من السهل دائماً إقناعهم أنه على الرغم من عدم رؤيتهم شيئاً فإن أعداداً كبيرة من العرب قد رأوهم. وكان الإخوان المغيرون يقلقون من الطائرات وتكبدوا الكثير من المتاعب لجمع تقارير بشأن الدوريات الجوية. أما قبائلنا الخاصة فقد كانت تلاحظ عمليات الاستطلاع الجوي بكثير من الاهتمام. وإضافة إلى ذلك فإن جواسيس العدو كانوا في مرات متكررة في داخل مضاربنا وسرعان ما وصلت أخبار تشغيل الطائرات بانتظام إلى الإخوان. ومع ذلك فإنه مع التأثير المعنوي الكبير للدوريات الجوية، إلا أن قيمتها العملية كانت قليلة. وحتى لو تمكن الطاقم الجوي من رؤية بعض التحركات على الأرض، فإن معرفتهم بالبدو والصحراء لم تكن كافية لتمكنهم من معرفة الصديق من العدو أو مجموعة غازية من مخيم قبيلة متنقلة.

وفي هذه الفترة الحرجة، وفي الوقت الذي كانت تعمل فيه القوات العراقية والقبائل وسلاح الجو الملكي البريطاني في تعاون تام تملكت الحكومة البريطانية نوبة حذر. ففي الشتاء الماضي وبعد مذبحة بُصيّة وسلسلة غارات الإخوان، أُعطي الإذن لسلاح الجو الملكي لعبورالحدود. والآن ومع تحرك كل الإخوان المتمردين بوضوح لهجوم كبير، تم إبلاغنا بعدم السماح للطائرات بالاقتراب ضمن عشرين ميلاً من الحدود. لم يحدث أن فرض مثل هذا التقييد من قبل، فكنا دائماً نطير إلى الحدود ومع ذلك لم نعبرها. وحيث إن قبائلنا موجودة في

منطقة الحدود فإن نتيجة هذا التقييد من لندن هي أن الطائرات من الآن فصاعداً سوف تستخدم لاستطلاع الصحراء خلفنا نحن وقبائلنا .

وكان القصد من هذا المنع، مثل عرض التحكيم، أن يكون بمثابة إشارة استرضاء لابن سعود، ربما بسبب مساعي المؤيدين لابن سعود في مجالس وايتهول . ويبدو أن حكومة صاحب الجلالة لم تدرك أن الإخوان على وشك الإغارة علينا بعكس أوامر ابن سعود . والمساعدة الوحيدة التي يمكننا تقديمها إلى الملك هي هزيمة المغيرين . وإذا نجحنا في ذلك فإن المترددين في نجد سوف يهرعون إليه ويمكنونه من إطاحة المتمردين . والشيء المثير للسخرية هو أن إشارة الحكومة البريطانية التي قصدت منها استرضاء ابن سعود كان يمكن أن تؤدي إلى إسقاطه عن طريق تمكين المتمردين من الإغارة علينا بنجاح .

وفي بداية شهر ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٨ . أقمنا معسكرنا في مغيزل . وقد كان المرعى جيداً بعد مرورنا بتقيد مثلما تنبأ الظفير . وقد غشيت العواصف الممطرة هذه المنطقة في أوائل فصل الخريف [الوَسْم] وارتوت الأرض قبل نزول أي أمطار على بُصيّة أو أبو غار، وكانت الأعشاب الصغيرة تنمو فوق الأرض مضفية لوناً أخضر فاتحاً على أسطح تجاويف الصحراء وأوديتها .

وقد حدث تطور غريب وغير متوقع الآن . ففي الماضي كثيراً ما كانت الأحلاف القبلية تتحرك عبر الصحراء للحرب تحت قيادة أحد قادة القبائل الكبيرة مثل سعدون بن سعدون . ولكن الأتراك والحكومة العراقية من بعدهم ـ سواء بالمصادفة أو عمداً ـ قد دمروا رؤساء القبائل . فإذا ما هزم السعدون كان يجب أن يحل السويط محلهم ولكنهم أيضاً اختفوا . ونتيجة لذلك، فإن الصحراءالجنوبية أصبحت تسكنها قبائل عديدة وكل منها يتصرف بطريقته من غير قيادة أو تنسيق للسلطة .

وفي الصحراء، سواء في حالة حرب أو لا، يجب مواصلة عملية الرعي كالعادة . وفي الأماكن التي تتحرك فيها الكثير من القبائل في حشود كبيرة جاهزة للحرب، تكون هناك حاجة لبعض السلطات المركزية لاختيار مناطق الرعي وإبلاغ كل مجموعة عن المكان الذي تقيم فيه مخيمها . وقد وجدت نفسي فجأة، ومن غير أن أتوقع، أقوم بدور شيخ قبيلة أقرر متى يكون الحَلُّ والرَّحيل وأختار أراضي المرعى في وقت لاحق وأوزع المناطق على مختلف الشرائح فيما يتعلق بحاجات المرعى والمشرب للإبل والأغنام والحمير . ولم تجر عمليات قبلية مثل هذه منذ أيام ابن سعدون الكبير . ولم أكن أملك إلا أن ابتسم لذلك القدرَ المتناقض الذي سمح لقيادة ذلك اللص العجوز الشهير بأن تسقط على منكبي أوروبي صغير يقود عربة فورد ذات جلبة .

ويقيس البدو معدل نمو أعشاب الشتاء الجديدة بالحيوانات التي تستطيع أن تأكلها، وعند ظهور ورقات النباتات الصغيرة لأول مرة على سطح الصحراء يقولون: «الأرض حية». وفي المرحلة التالية تتخلى الأغنام عن غصينات الشجيرات الصحراوية وتبدأ في قضم براعم الأعشاب الصغيرة. «النعجة تتعشى» كما يقول البدو. وسرعان ما تشبع الأغنام من الأعشاب الصغيرة ويقول الرعاة بكل سعادة: «لقد شبعت الشياه». ولا بد من فترة إضافية قبل الإعلان عن شبع الأفراس. والإبل هي الأخيرة التي تتمكن من الرعي ويمكنها القيام بذلك فقط عندما تطول الأعشاب بدرجة كافية تمكنها من الإمساك بها بمشافرها الكبيرة. ومتطلبات الإبل تمثل مرحلتين، «الجمل يتعشى» و«الجمل قد يشبع»، وهي حالة مبهجة نادراً ما تتحقق حتى شهر مارس/ آذار. وعند وصولنا إلى المنطقة المحايدة كانت الشياه تتعشى أي النعاج قادرة على تناول طعامها.

❊ ❊ ❊

وما إن أقمنا مخيمنا في مغيزل مع قوة الهجّانة ومفرزة الجيش العراقي حتى أقبلت علينا القبائل وانتشرت في كل مكان في المنطقة المحايدة. كنا نقوم بدوريات على مضاربهم طوال اليوم بعرباتنا ولكنه لم يسمح لنا بدخول نجد وبالتالي لم يعد في إمكاننا المرابطة في الصحراء أمامهم. غير أني قمت في غضون ذلك بتخطيط أول هيكل لنظام الجاسوسية وكنا مضطرين للاعتماد على جواسيسنا الذين كنا نأمل بأن يكونوا جالسين في مضارب الإخوان.

في مساء ١٦ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٨ وصل واحد من هؤلاء الرجال إلى معسكرنا المؤقت عند غروب الشمس وهو يجلد جمله المُنهَك الذي يجري بأقصى سرعته. وكنت جالساً في خيمتي الصغيرة عندما أعلنت كحة مكتومة عن وجود حامد العبد. وبعد ثانية أدخل وجهه الأسود من باب الخيمة وأعلن هامساً:

- «جاء رجل من الإخوان». وللحظات توقف قلبي ثم أمرت حامداً بإدخاله.

قلت له وأنا في حالة قلق: «خير إن شاء الله، أخبار طيبة إن شاء الله».

قال البدوي باقتضاب: «مطير سوف تقوم بالإغارة».

أوضح أن مطير والعجمان وعتيبة لاتزال تهدد بإشعال النار وشن هجوم كبير، ولكن في غضون ذلك فكر شيخ صغير من مطير في أن يشتهر اسمه ويكتسب الشهرة والغنيمة عن طريق القيام بغارة صغيرة لحسابه، إلى أن يصل كبار القادة إلى رأي، وطبقاً لذلك شرع مناحي بن عشوان على رأس مئة جمّال، وكان يعلم أننا نحن والكثير من القبائل العراقية مخيمون في المنطقة المحايدة بالقرب من تقيّد، ولذلك فقد قرر التحرك جنوب الحدود إلى أن يصل إلى جوار الجميمة للبحث عن قبيلة من أصحاب الأغنام لا حماية لها في تلك المنطقة. وقال

مخبرنا: «لقد رأيت الغزاة يردون الماء في الحفر مساء الأمس».

فقمت باستدعاء بعض البدو كبار السن الموثوقين وبعدئذ رجال قوة الهجّانة واستشرتُ كلاً منهم على التعاقب، وقمنا بحساب المسافات من الحفر إلى الجميمة، وقدّرنا بأن المغيرين سوف يمرون بأُم رضمة في تلك الليلة. وكان إجماع الرأي بأنهم سوف يصلون إلى الجميمة في صباح يوم ١٩ ديسمبر/ كانون الأول.

وكانت الجميمة خزان ماء مبنياً من الحجارة على الطريق المعروف باسم «درب زبيدة». وقد أمر النبي محمد [ص] أتباعه منذ ثلاثة عشر قرناً بأن الحج إلى مكة المكرمة فريضة على كل المسلمين الصالحين والقادرين على أدائه. ولمدة ألف و ثلاثمئة سنة تتدفق قوافل كبيرة من الحجاج عبر صحارى الجزيرة العربية مرة كل سنة صوب المدينة المقدسة وقد تركت أخفاف جمالهم اللينة آثارها في سطح القفار في طرق عامة مهدها وطء أقدام الأعداد الضخمة من الرجال والحيوانات، ومن كل طرق الحج الكبيرة هذه، وربما كان أهمها هو الطريق المؤدي من النجف في العراق إلى حائل والمدينة المنورة ومكة المكرمة. وكان المسلمون ينشدون عمل الخير لتسهيل مرور الحجاج إلى الأراضي المقدسة.

كان هارون الرشيد الخليفة في بغداد أثناء العصر الذهبي العباسي - وهو شبيه بأغسطس ولويس الرابع عشر - في أيامه الخوالي، ويُروى أن زوجته السيدة زُبيدة، قد قامت بالعمل الخيري الديني بتوفير أحواض ماء لاستخدام الحُجّاج على طول الطريق من النجف إلى حائل. وكانت الجميمة واحدة من هذه الصهاريج الضخمة المشيدة وتعبأ من منطقة استمداد أمطار صحراوية كبيرة، وتحيا ذكرى عملها الخيري بالاسم المستخدم منذ ذلك الحين لطريق حج النجف - طريق زبيدة. وبعد ألف سنة من وفاة السيدة زبيدة فإن الكثير من الأحواض التي قامت ببنائها قد سقطت خرائب أو سدت بحجارة ولكن الجميمة لازالت تحتفظ بالماء وتوفر أرضاً لإقامة المضارب ومناهل للبادية أو المغيرين في الصحراء إن لم تكن للحجاج. وهذا الموقع الذي لقي الاحترام على مر الأزمان هو المكان الذي قررنا أن نواجه فيه مناحي بن عشوان.

وهنا كانت في الواقع فرصة، كانت هذه هي المرة الأولى التي نتلقى فيها أخباراً مسبقة دقيقة عن غارة للإخوان، وقد أمكن ذلك فقط لأننا أقمنا معسكرنا بعيداً جداً إلى الأمام وقريباً جداً من العدو. ولكن هل يصدقنا سلاح الجو الملكي البريطاني؟ هل سوف يطلبون معلومات إضافية وفي الوقت نفسه يمنعون الطائرات؟ وجثمت على الأرض في خيمتي الصغيرة واضعاً إشارة طويلة في الشفرة. وقد رأيت أنه من الأفضل أن أقوم بزيارة إلى الجميمة في صبيحة يوم ١٨ ديسمبر/ كانون الأول لأرى فيما إذا كان هناك بعض أصحاب الأغنام في المنطقة. لقد طلب منهم البقاء بالقرب من السلمان حيث كان المرعى في ذلك الوقت كافياً. وكان هناك

احتمال أن ينتقل ابن عشوان بأسرع مما حسبنا. وطلبت دوريات جوية مزودة بمدافع وقنابل في صباح يومي ١٨ و ١٩ ديسمبر/ كانون الأول، وكان ارتياحي كبيراً عندما وصلني الرد ذاكراً بالتفصيل ثلاث طائرات نايناك في كل استطلاع.

وفي الصباح الباكر من يوم ١٨ ديسمبر/ كانون الأول، صعدت داخل قمرة طائرة نايناك القيادية في بُصيّة وأقلعنا صاعدين ببطء فوق الأسطح الصخرية الخشنة لصحراء الحَجْرة، وأخيراً وصلنا إلى حافة تلك المنطقة التي تنتشر فوقها الصخور الرمادية، وخفضنا ارتفاعنا فوق خط منحدرات حُقَي رشيد، بضعة أميال من سهل منبسط بلون بيج ورياض خضر فاتحة اللون هنا وهناك حيث تظهر الحشائش الجديدة، ومن ثم فوق الجرف الثاني الطويل في البطن، وبضعة أميال من السهل، ثم يأتي طريق درب زبيدة من الشمال، ونحن ندور فوق خزان السيدة زبيدة العظيم للحجاج في الجميمة. لم يبد لنا أي شيء حتى في مدى البصر. وبدت لنا الصحراء الشاسعة الخالية وكأنها تمتد إلى ما لا نهَاية في كل الاتجاهات، ثم على بعد ميلين أو ثلاثة وفي منخفض أخضر بدا لي أنني أرى بضع بقع سود. وضربت الطيار ضربة خفيفة على كتفه وأشرت إليها. وألقى نظرة وأومأ برأسه ودار بالطائرة في ميل منحدر شديد ووقفت أنا خلف الطيار في قمرة الطائرة مركزاً عيني. نعم كان هناك خيط دخان رفيع. وبتقليل الارتفاع اقتربنا من المنخفض الأخضر ورأينا مخيماً صغيراً مكوناً من حوالي عشر خيام للرعاة. كانت الحمير ترعى بجوار الخيام وبضعة قطعان من الأغنام تدور في ذعر والطائرة تهدر من فوقها. وضربت الطيار ضربة خفيفة على كتفه مرة ثانية، وأشرت إليه إلى الأرض. وهبطنا على مساحة ضيقة من الحصباء على بعد مئة متر من الخيام.

وهرع رجل عجوزذو لحية شيباء نحونا يتبعه ثلاثة أوأربعة آخرون، وخرجت من قمرة الطائرة، وواصلت طائرتا النايناك الأخريان الدوران في السماء. سألت الرجل العجوز: «من هم هؤلاء العرب؟» وأجاب: «الزياد، الزياد. أنا الحاج حمدان بن قنديل».

سألته في سخط متصنع، «ماذا تعملون هنا؟ ألم تبلغوا بأن تظلوا بالقرب من السلمان؟»

أجاب الرجل العجوز باستصغار، «ماذا نستطيع أن نعمل؟ انظر إلى هنا. ففي يوم أو يومين سوف نخض السمنة». وقلت له بقسوة: «لن يكون في إمكانكم خض السمنة إذا قطعت أعناقكم»، وتسمرت وجوههم وشابهم القلق. وسألوا: «لماذا؟ هل حدث شيء؟ أين الإخوان؟».

وقصصت عليهم كل الحكاية عن مناحي بن عشوان ورجاله المئة على ظهور الجمال.

صاح أحد الشبان، «الله أكبر! يا الله! بالأمس مر رجلان يركبان الجمال وطلبا شربة لبن. لقد داخلنا الشك بشأنهم حينذاك».

فقلت: «بلا شك هم جواسيس لابن عشوان».

وصرخ الرجل العجوز في استثارة: «يا أولاد، أبلغوا النساء بجمع الحمير والبدء في التحميل».

وقاطعته قائلاً: «هون عليك، سوف أخبرك ماذا يجب أن تفعل. إنهم لن يهاجموا اليوم في النهار. على كل حال أرسل كشافين على ظهر الخيل للمراقبة حتى غروب الشمس. ثم أشعلوا نيرانكم واطهوا عشاءكم فالمغيرون يحتمل أن يكون لديهم كشافون لمراقبة نيرانكم والتأكد من أنكم لا زلتم في موضعكم. وعندما يحلّ الظلام أحزموا أمتعتكم واهربوا بأرواحكم ولا تتوقفوا إلى أن تصلوا إلى السلمان. وفي المرة التالية يجب أن تطيعوا الأوامر التي تصدرها الحكومة».

سأل الحاج حمدان بقلق: «ولكن لماذا لا يمكننا الفرار الآن؟».

قلت: «لأنني أريد أن يهاجم ابن عشوان هذا الوادي في صباح الغد. أريده أن يرى نيران مخيمكم الليلة لأنه سوف يهاجم عند الفجر، ولكن نحن لا أنتم سوف نكون هنا لمقابلته».

مسح الحاج حمدان لحيته بيده، وأجاب بعد تفكير: «صحيح، الله يوفقكم. سوف نفعل ما أمرت به».

كان صوت محرك الطائرة نايناك لايزال يهدر، وصعدت إلى قمرة الطائرة.

وودعتهم قائلاً: «مع السلامة، مع السلامة، يحفظكم الله».

صاحوا رداً عليّ قائلين: «في أمان الله». وضعت نظاراتي على عيني وفتح الطيار صمام الوقود واندفعت الطائرة إلى الأمام بسرعة متزايدة وانبعث الغبار خلفنا، وفي خلال دقائق قليلة كنا نحلق فوق جرف البطن متجهين إلى بُصيّة.

وعند إقلاعنا مرة أخرى فجر الصباح التالي، شرحت الوضع للطيارين عما قلته للرعاة. ومرة ثانية كنا نطير فوق صحراء الحَجْرة ثم فوق أول خط للمنحدرات الصخرية الذي يسمى حُقَي رشيد، والثاني البطن. كنا قد اتفقنا على الاتجاه مباشرة إلى المنخفض الأخضر حيث كان مخيم الرعاة في اليوم السابق. وركزت بصري إلى الأمام... نعم، يبدو أن هناك بقعاً... اثنتان منها تتحركان... هل يمكن أن يكون...؟ بالتأكيد، ففي المكان الذي كان يخيم فيه الرعاة بالأمس كان هناك مئة جمل ترعى. لا أكاد أصدق عيني. هل يكون الأمر بهذه السهولة، هل نجحت خطتي الصغيرة كل هذا النجاح؟

ولكن كانت لدي شكوك. قمنا بدورة حول المكان. نعم كان هناك مئة جمل ولكن لاأثر للرجال، بل كان هناك رجلان ولكنه يتعين أن يكونوا مئة. إن هذا ليس قطيع إبل يرعى، لأنه لا توجد فيه جمال صغيرة، كانت كلها كاملة النمو. ولكن طريق زبيدة يمر بهذا المنخفض. هل يمكن أن تكون قافلة، ربما من شمر في طريقهم لشراء مؤونتهم من النجف؟ أو ربما كان تاجراً

مسافراً عبر الصحراء لبيع هذا القطيع من الإبل في فلسطين أو مصر؟ جلست في الجزء الخلفي من قمرة الطائرة وكتبت مذكرة للطيار ذكرت له فيها أنني غير متأكد من أنهم غزاة، وطلبت منه أن ينخفض في طيرانه وأن يلاحظ إن أطلقوا النار علينا. ومررت المذكرة إلى ركن الطيار الأمامي. قرأها الطيار وأومأ برأسه ودفع مقدمة الطائرة إلى الأسفل.

عند ارتفاع ألفي قدم كان من المستحيل رؤية تفاصيل كافية. وأخذنا ندور مرات ومرات فوق روض الأعشاب الخضر في الوقت الذي كنت أميل فيه فوق جانب قمرة الطائرة، مركزاً عيني لكي أرى. لم يطلق أحد النار علينا والرجلان اللذان رأيتهما منذ دقائق قليلة قد اختفيا. يجب علينا الانخفاض بما فيه الكفاية لتمييز ما إن كانت الجمال عليها أشدة أم لا.

وأخذنا ندور إلى أسفل وأسفل. اعتقد أننا نزلنا إلى أدنى من ألف قدم. ومازالت الطائرتان الأخريان تدوران فوقنا على ارتفاع ألفي قدم. وكان عدم وجود رجال مثار شك لدي، فإذا كانوا مسالمين وأبدينا هذا الاهتمام بهم، ألم يكن من الواجب عليهم الوقوف والتلويح لنا؟ وجذب الطيار مقدمة الطائرة إلى أعلى. ربما اعتقد بأننا قد هبطنا بما فيه الكفاية. وربت على كتفه وأشرت إلى الأسفل. فوجه مقدمة الطائرة إلى أسفل وطار في دورة أخرى وجئنا هادرين فوق الجمال على علو حوالي خمسمئة قدم، وعندما انحنينا على الجانب، رأيت بوضوح أن كل جمل كان على ظهره شداد للركوب.

إنه ابن عشوان بلاشك. وربت على كتف الطيار مرة أخرى وأشرت إليه بالإبهام [إشارة توكيد]. ومن ثم وللتأكد، فقد جلست في القمرة وكتبت على ورقة: «إنهم الغزاة. أطلق النار».

نظر الطيار إلى رقعة الورق التي كتبتها ثم رفع مقدمة الطائرة و بدأ في الارتفاع. وطرنا بعيداً عنهم صاعدين إلى أعلى. وأتساءل ما إن كان الغزاة قد تنفسوا الصعداء اعتقاداً منهم بأننا قد اكتفينا وأخذنا في الابتعاد. مسح الطيار نظاراته بإصبعه الذي عليه قفاز ونظر إلى المهداف [جهاز التسديد] وحرك مدفعه الأمامي. وعندما أصبحنا على بعد ميل واحد أو أكثر، انحدر بميل شديد وطرنا مرة أخرى نحو الهدف على ارتفاع ألفي قدم. كانت الجمال لازالت تتحرك هنا وهناك ـ ولم يظهر أي رجل. وتعلقت فوق الجانب عندما صرنا أقرب إلى الهدف ورأيت الجمال تظهر من تحت أسفل الجناح ثم انطلقت أول دفعة قنابل بعيداً أسفلنا.

وفجأة تناثرت تفجرات ترابية إلى أعلى في المنخفض الأخضر، وفي لحظة تحول كامل المشهد. وفجأة رأينا رجلاً على ظهر كل جمل منطلقين بكامل سرعتهم في اتجاهات مختلفة. ولم يسبق لي أن رأيت طوال حياتي مثل هذا التغير العجيب. لابد أن الرجال وهم ملتفون بعباءاتهم البنية كانوا جاثمين بلا حركة بالقرب من جمالهم. وبحلول الوقت الذي جاءت فيه

الطائرة الثانية للهجوم، لم يكن هناك هدف موجود، فقط رجال يمتطون جمالاً بشكل فردي منطلقين بسرعة جنونية نحو كل وجهة على البوصلة.

وعندما أسقطنا قنابلنا، عدنا مرة أخرى لاستخدام المدفع الأمامي وتجمعت مجموعة صغيرة من الرجال في مكان واحد. وكان يبدو أن رجلاً قد سقط أرضاً، وترجل ثلاثة آخرون وركضوا نحوه وهم يجرجرون جمالهم خلفهم بواسطة أرسانها. وخفض الطيار مقدمة الطائرة إلى حالة انقضاض. والآن تمكنت من الرؤية من فوق رأسه ومن فوق المحرك. وكانت مجموعة الرجال الصغيرة والجمال أمامنا مباشرة. «تات ـ تات ـ تات ـ تات»، جلجل المدفع وتناثر التراب على الأرض حول المجموعة الصغيرة. «تات ـ تات ـ تات»، ورأيتُ الأرض قادمة نحونا بسرعة. ثم انطلقنا بعيداً ودار الأفق حولنا وللحظة بدت السماء أسفلنا والعالم فوقنا، وارتفعنا بعيداً في دورة متمايلة.

خبطت الطيار على ظهره من استثارتي ورفعت إبهامي عالياً. ولوح بيده في الهواء وانعطفنا مرة ثانية واتجه مقدم الطائرة إلى أسفل: «تات ـ تات ـ تات ـ تات».

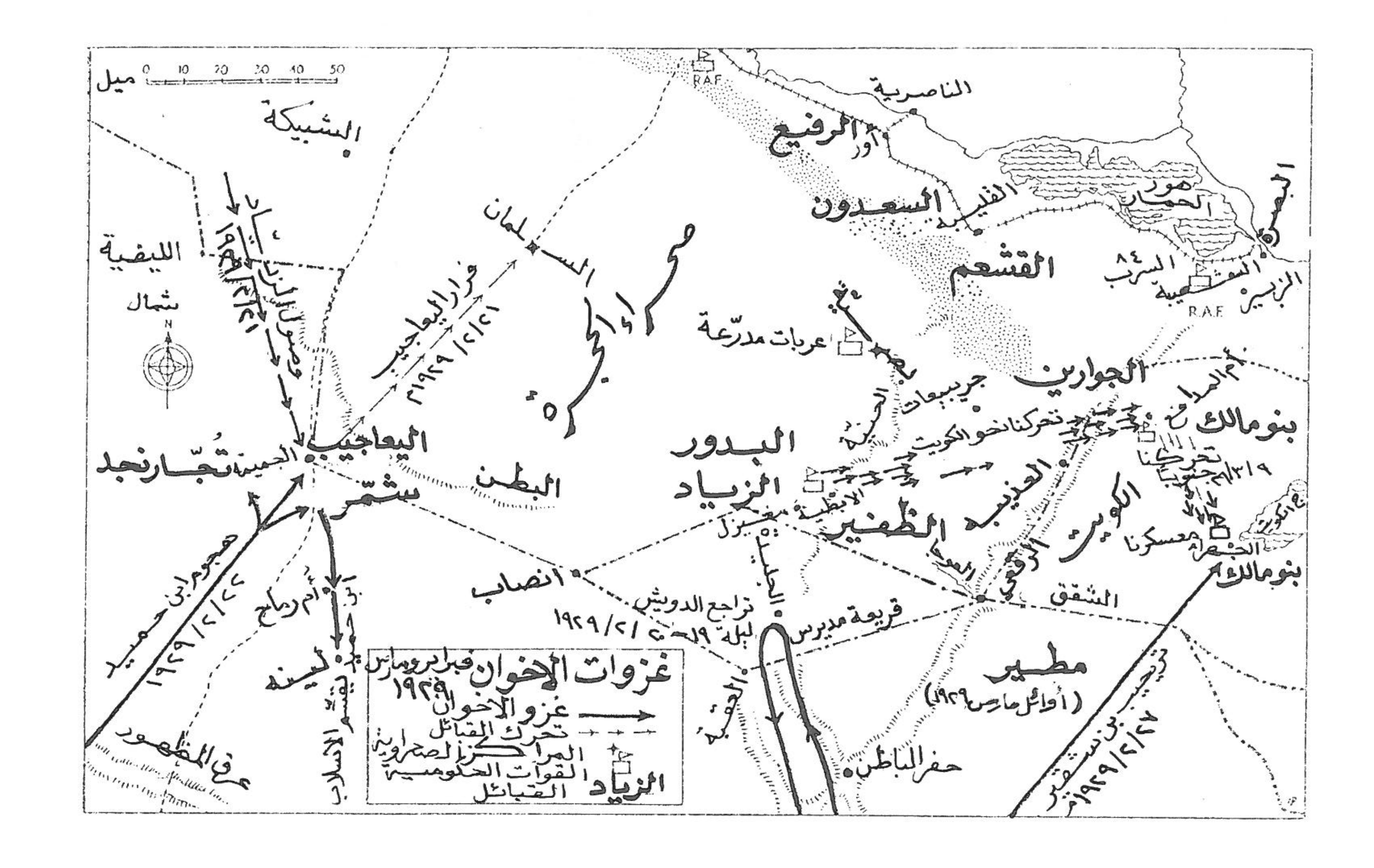
لا أدري كم مرة قمنا بحركة الانقضاض. وأخيراً ارتفعت الطائرة في صعود مباشر ثابت. وأشار الطيار إلى مدفعه وهز كتفيه ـ لم تعد لدينا ذخيرة. ولاحظنا إحدى الطائرات الأخرى تقوم بحركة انقضاض نهائي نحو رجل هارب بجمله ومن ثم عادت الطائرتان الأخريان لمتابعتنا في العودة إلى معسكرنا. لا زلت أرى بقعاً قليلة هنا وهناك، مسرعة عبر الصحراء وكان البعض منها على بعد عدة أميال.

وجلست مرة ثانية في ركني وكتبت للطيار ملحوظة أخرى: «ياله من عرض! هذا سوف يعطيهم درساً»، وقلب الورقة وكتب على ظهرها «يا للأسف إن السرب كله لم يكن معنا».

وهكذا انتهت غارة مناحي بن عشوان. كان هذا أول نجاح كامل نحققه بطريقتنا وشكل إرهاصات مثيرة للنضال الحاسم الذي نتوقعه.

الفصل الرابع عشر

اعقلها وتوكّل



غزوات الإخوان فبراير ومارس ١٩٢٩
غزو الإخوان
تحرك القبائل
المراكز الصحراوية
القوات الحكومية
الزياد القبائل
ميل
شمال
البشبيكة
الليفية
الناصرية
أور
الرفيع
السعدون
القشعم
الجوارين
البصرة
الزبير
السلمان
صحراء الحجرة
غزار العياجيب ١٩٢٩/٢/٢١
العياجيب
تجار نجد
شمر
البطن
البدور
الزياد
الظفير
العزيبة
الكويت
بنومالك
انصاب
الشقق
مطير
(أوائل مارس ١٩٢٩)
أم رماح
لينة
هجوم ابن حميد ١٩٢٩/٢/٢٢
عرق المظهور
قريعة مديرس
تراجع الدويش ليلة ١٩ - ٢٠ /١٩٢٩/٢
العقبة
حفر الباطن
ترحيب بن شقير ١٩٢٩/٢/٢٧
عربات مدرعة
جريبعات
تحركنا نحو الكويت
الجهراء
معسكرنا
R.A.F.

اعقلها وتوكّل

كان لدحر غارة ابن عشوان الأثر المعنوي الكبير في الإخوان، في الوقت الذي كانوا يعدون فيه لهجوم على العراق. ولو أخطأنا الغزاة، ونجحوا في العودة إلي ديارهم محملين بالأسلاب، وقطعان الأنعام التي تساق أمامهم، لكانت نتائج عمليات ذلك الموسم مختلفة. ولو ابتهج الإخوان بهذا النجاح الأول وشنوا غزوات متزامنة على العراق في عدة أماكن مختلفة، لما كان بإمكاننا أن نكون موجودين في كل مكان في وقت واحد. ولو كان بعض الغزاة قد نجحوا وعادوا إلى وطنهم منتصرين على «المشركين» العراقيين لانضم إليهم المزيد من قبائل نجد، وكان من الممكن أن يكتسحوا ابن سعود ولربما حرمت الشركات الأمريكية من الحصول على حق امتياز النفط في الجزيرة العربية، أو تأخر ذلك لعدة سنوات.

وقد تشجعنا بعد صدّ غزو ابن عشوان. ويبدو لي أن ذلك يثبت نظريتي أنه إذا رافقنا قبائلنا في حلها وترحالها، فسيكون بمقدورنا الحصول على المعلومات الاستخباراتية الدقيقة الكافية لتساعدنا على اعتراض غزوات الإخوان قبل هجومهم على قبائلنا، وهذا إنجاز لم يحقق أبداً من قبل.

وفي نهاية شهر ديسمبر/ كانون الأول كنا نعسكر في مغيزل، وأمامنا تخيم كثير من القبائل العراقية في المنطقة المحايدة. أما نحن فلم نستطع التخييم معها بسبب القيود الدبلوماسية التي جعلت العمليات المعقولة شبه مستحيلة، إلا أنها تسمح لي ولقوة الهجانة بدخولها، أما سرية الجيش العراقي ذات المدافع الرشاشة فمحظور عليها دخول هذه المنطقة. كذلك محظور على سلاح الجو الملكي البريطاني الاقتراب إلى أقل من عشرين ميلاً من الحدود. ومع هذا عندما كنا معسكرين في مغيزل سمح للطائرات بالهبوط علينا هناك، ومنعت من الطيران إلى الجنوب من

مغيزل. وكانت النتيجة أن القوة التي كان يتعين عليها استطلاع العدو لم تتمكن من ذلك إلا خلفنا.

وفي الوقت نفسه، فإن القسم البدوي من مطير (لأن بعضهم استوطن الهجر الخاصة بالإخوان) كان يقطن بين المنطقة المحايدة والحفر [حفر الباطن]، على بعد بضعة أميال فقط عن مضاربنا. واكتشف النجديون بواسطة جواسيسهم أن الطائرات لا تقوم بالطيران على طول الحدود، وأن سيارات الشرطة لا تعبرها.

وعلى الرغم من أن قرب مضارب مطير زاد من مخاوفنا كثيراً، إلا أنه أفادنا من بعض النواحي، لأنه ساعدنا في دس الجواسيس في قبائل الإخوان. ولم يكن تجنيد مثل هؤلاء الجواسيس مهمة سهلة، بحيث يجب أن يكونوا قادرين على انتحال صفة الإخوان وخداع هؤلاء المتعصبين المرتابين. ولا يجرؤ على هذه المهمة إلا فئة قليلة من الرجال الشجعان وإذا اشتبه في أمرهم فإن أعناقهم ستقطع دون أي لحظة تردد.

في غضون ذلك، وصلتنا تأكيدات كثيرة بأن الإخوان المتمردين يرفعون رايات الحرب على طول الحدود. ففي الغرب يتقدم سلطان بن حميد وقبيلته عتيبة عبر القصيم، وفي الوسط يركز الدويش قواته، بينما في الشرق يزحف العجمان تحت قيادة ضيدان بن حثلين قادمين من الأحساء.

لم تكن قوتنا كافية لنوزعها للمعارك التي قد تنشب في جنوب السلمان إضافة إلى المنطقة المحايدة، لذلك توجب علينا منع القبائل المنتشرة في صحراء الحجرة من الترحال بعيداً أمام السلمان الذي انضمت فيه حامية عسكرية من الجيش العراقي إلى مفرزة قوة الصحراء. ولحسن الحظ، كانت المراعي حول تُقَيِّد ممتازة مما أمكن الزيّاد من الترحال إلى الشرق من مناطق رعيهم المعتادة وانضموا إلينا. وبعد أن شعروا بالطمأنينة ارتحلوا إلى أنصاب في المنطقة المحايدة. إن وجود معسكر حكومي في مغيزل جعل مختلف القبائل العراقية تقطن قرب بعضها البعض وتتمتع برعي جيد، دون مناوشات أو مشاجرات بينها يمكن حدوثها في ظروف أخرى.

وفي الجانب الشرقي كان هناك كثير من أصحاب الأغنام العراقيين، ولاسيما عشائر الجوارين وبني مالك، وقد اجتازوا شعيب الباطن إلى أراضي الكويت. ولم يتخذ الشيخ أحمد الصباح أمير الكويت تدابير دفاعية لحماية قبائله، وكانت علاقته بابن سعود متوترة بعض الشيء. والحكومة البريطانية ملزمة بمساعدته إذا ما تعرض لهجوم طبقاً لمعاهدة بينهما، ولكنه لم يطلب مثل هذا الدعم. ونتيجة لذلك لم تسمح للقوتين العراقية والبريطانية بالدخول أو الطيران فوق الأراضي الكويتية. ومع تعاظم التهديد من حشودات الإخوان، كانت التقارير

تشير إلى أن ابن صباح قد شرع بالاتصالات المباشرة مع المتمردين طالباً تأكيدات بعدم الاعتداء عليه وعلى قبائله.

ومن وجهة نظرنا كان هذا الوضع غير مرض على الإطلاق، لأننا لم نعرف ما إذا كان أي اتفاق ربما تم التوصل إليه بين أمير الكويت والإخوان سيؤمن الحصانة لأصحاب الأغنام العراقيين القاطنين ضمن حدود الكويت. وبناء على ذلك طلبت من الجوارين وبني مالك أن يعبروا الباطن باتجاه الغرب إلى الأراضي العراقية. وقام الجوارين وبعض بني مالك بتنفيذ أوامري، إلا أن قسماً من الأخيرين لم يعط أذناً صاغية للأوامر، واستحسن مراعي الكويت الممتازة حيث أخذت الأغنام تسمن. وقام أصحاب الأغنام بزيارة ابن صباح وعرضوا عليه دفع الضرائب مقابل حمايتهم.

وعند فجر يوم ٢١ يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٢٩ قام العجمان تحت قيادة ضيدان بن حثلين مع مجموعة من مطير بمباغتة بني مالك في الروضتين فقتلوا الرجال وسلبوا ممتلكاتهم وأغنامهم. وكانت سيارات شرطتنا وعربات سلاح الجو الملكي المدرعة لاتبعد عنهم سوى أميال قليلة، بينما سرب الطيران الرابع والثمانون في «الشعيبة» لا يبعد عن أرض المعركة إلا عشرين دقيقة طيران، ولكن كانت لدينا أوامر مشددة بعدم عبور حدود الكويت. وبانفعال شديد أرسلنا إشارات لا سلكية نطلب فيها السماح لنا بالعبور. وإذا سمح لنا بالتحرك فستكون فرصة ذهبية لنلقن الإخوان درساً لن ينسوه وقد تضع نهاية لغزواتهم إلى الأبد.

إن التأثير المعنوي للطائرات كبير، وإن كانت لا تعطي نتائج حاسمة ضد رجال يمتطون جمالاً متبعثرين في فضاءات الصحراء الرحبة. كذلك فإنه على الرغم من أن الطائرات كثيراً ما تزرع في قلوبهم الرعب والذعر عندما تحوم فوق رؤوسهم ولكن متى ما ابتعدت عنهم فإنهم يعودون فوراً لجمع الغنائم. فكانت القوات البرية هي الوحيدة القادرة على سحق الإخوان وهزيمتهم واستعادة القطعان المسلوبة. والآن، ولأول مرة وجدت القوات البرية نفسها في موقف يدعوها لملاحقة قوة غازية كبيرة من الإخوان والاشتباك معها.

وتتوجب العودة إلى لندن في صدد معالجة كل هذه الأمور. ولمدة ثلاثة أيام ونحن نترقب بقلق وسخط، مصطفين على الحدود الكويتية في شعيب الباطن نتأهب للمعركة. وفي اليوم الثالث حصلنا على الموافقة على دخول الأراضي الكويتية، شريطة ألا نتجاوزها إلى نجد. وأسرعنا بدخول الحدود مقتفين آثار الغزاة المنسحبين لملاحقتهم، وتبين لنا أنهم قد اجتازوا الحدود الكويتية ـ النجدية مع كل ماسلبوه قبل بضع ساعات. وخلال الأيام الثلاثة كانوا في متناول أيدينا، وكانوا يسيرون على مهل، يسوقون أمامهم أعداداً كبيرة من قطعان الأغنام العراقية، وكانو يمرون عبر سهول منبسطة مما يجعل صيدهم سهلاً لعمليات عربات القتال.

كان التأثير المعنوي لهذه الكارثة سيئاً جداً. فالثقة المتنامية للقبائل العراقية قد عادت إلى التدهور مرة أخرة بينما بالمقابل انتعشت الروح المعنوية للإخوان، بعد الارتباك الذي أحدثته هزيمة ابن عشوان، وارتفعت إلى حالة من الإثارة والبهجة. والجدير بالملاحظة أن الأعداء تجنبوا تجمعاتنا في مُغَيْزِل على ما يبدو، بحيث اتجه ابن عشوان إلى «الجُميمة»، وابن حثلين إلى الكويت.

لم يتذكر أحد بالطبع أنني أنذرتُ بني مالك وطلبت منهم العودة إلى العراق، ولا أنهم وضعوا أنفسهم تحت حماية ابن صباح وبالتالي أخلوا سبيل العراق من مسؤولية الدفاع عنهم. أما بالنسبة إلى القبائل وإلى العالم فإن العراق قد أخفق، مرة أخرى في حماية رعاياه.

في غضون ذلك كان مؤتمر الوجهاء الذي دعا إليه ابن سعود في الرياض قد انفض دون تحقيق أي غرض مُجد. وقابل الملك، وهو في العاصمة، هذا الوضع بسلبية، بينما تمضي البلاد في دوامة الفوضى. وظهر جلياً أن ابن سعود لا ينوي اتخاذ أي إجراء ضد الدويش أو ابن حميد أو ابن حثلين الذين رفضوا أوامره. وهكذا لم يخشَ الإخوان أي إجراءات ملكية، فتفرغوا لحشد قواتهم كلها لهجومهم الكبير على العراق.

* * *

كما شرحت سابقاً، فإن طبيعة حرب البدو هي هجومية على نحو شبه كامل. إن صعوبة تحرك القطعان الكبيرة من الماشية، ونفاد صبر العرب جعل الدفاع السلبي صعباً للغاية وغير ملائم بالنسبة إليهم. غير أنني اكتشفت من خلال البحث أن أُسلوباً للدفاع التكتيكي كان موجوداً ولكنه نادر الاستخدام، فقررت استخدامه.

إن القول المأثور لنابليون «معدة الجندي هي التي تسيره» لا ينطبق على معارك البدو الدفاعية، حيث إن حصص التموين من الطعام للأفراد لا تشكل عقبة. إذ تستطيع العائلة البدوية العيش لأسابيع على كيس تمر وكيس طحين يحملان على جمل أو حمارين. إن عاملي القرار في حروب البادية هما الماء والمرعى، فإن ثروة رجُل القبيلة قد تتكون من خمسة عشر بعيراً أو ثلاثين أو أربعين رأس غنم، وتنفق هذه الحيوانات بسرعة مفاجئة عندما لا تجد ما تأكله. ومن هنا فلا طائل في إصدار القائد البدوي أوامر لقبيلته بالمكوث في منطقة معينة حسب خطة استراتيجية، مالم تتوفر فيها المياه والمراعي الكافية للمواشي، وإلا فإنهم سيرفضون بصورة قاطعة أو يتسلل بعض العائلات بخفية للبحث عن مراع أفضل. إن استمرارية التشتت للبحث عن المراعي يعدّ ضرورياً، مما يجعل البدو الرحل هدفاً سهل المنال للغزاة. إن الجنود البدو تسيرهم معد حيواناتهم.

غير أنه يوجد أسلوب تكتيكي لإقامة موقع دفاعي، إذا تمكنا من حشد القبائل. وطبقاً لهذا الأسلوب فإننا نطلب من القبائل أن تقطن متراصة في صف واحد طويل. وتنصب بيوت شعر كل قبيلة كمجموعة مع بعضها البعض. وأحياناً تنصب بيوت الشعر في صفوف متلاصقة حتى تتقاطع حبال [أطناب] بيوت الشعر، لتشكل عقبة كأداء للخيّال والجمّال. وأحياناً تجلب القطعان وتوضع بين صفوف بيوت الشعر وتناخ الإبل وتُعقَل حتى لا تنهض. إن هذا التشكيل منيع أمام هجوم من الفرسان أو راكبي الجمال، كما كانت مربعات الجيش البريطاني في معركة واترلو. ويعرف هذا الأسلوب بالمناخ، كما تسمى العملية «الإناخة والعقل»، في إشارة إلى ما يفعل بالجمال، أو كما يقولون، اعقلها وتوكل.

وعلى الرغم من قوة مثل هذه الكتلة الصلبة من الخيام والحيوانات في صد هجوم، إلا أن هذا الأسلوب يحول دون رعي المواشي وارتوائها، ومن الممكن تحمل هذا الوضع لمدة أربع وعشرين ساعة، أو ربما ثمان وأربعين ساعة عند الضرورة، ولكن ليس لمدة أطول.

إن المشكلة التي تواجه القائد البدوي هي سماحه لقبيلته بالانتشار في المراعي، وتركها حتى اللحظة الأخيرة الحاسمة عندما يقوم بجمعهم لتنفيذ «اعقلها وتوكل» قبل هجوم الأعداء بساعات قليلة. ويتطلب تنفيذ العمليات بنجاح الحصول على معلومات دقيقة جداً عن تحركات الأعداء، ويتطلب من القائد أن يتسم بهدوء الأعصاب عندما يرى قواته لا تزال مبعثرة وبعيدة عنه، بينما يتقدم الأعداء، ومن ناحية القبائل فيجب أن تطيعه طاعة عمياء، وإذا ما أخر القائد الأوامر لآخر لحظة، فإن أي قبيلة تتلكأ أو تجادل في تنفيذ الأمر سوف تنتهي. ومن ناحية أخرى، إذا أعطى القائد الأوامر لسياسة «اعقلها وتوكل» ونفذت القبائل هذه الأوامر وبعدها لم يأت الأعداء فإن القبائل لن تطيع أوامر هذا القائد مرة أخرى. وعلى الرغم من الصعوبات المتعلقةَ بهذا الوضع، فإنه لم يكن هناك بديل آخر. ونتيجة لذلك أمضيت وقتاً كثيراً خلال شهري ديسمبر/ كانون الأول ويناير/ كانون الثاني بزيارة المضارب شارحاً الوضع لرؤساء القبائل آملاً الحصول على تعاونها إذا دعت الضرورة إلى تجمع دفاعي.

والمشكلة الأخرى التي يجب أن نأخذها بالحسبان هي كيفية استخدام قوة الصحراء والجيش العراقي. فإذا شكلت القبائل صفاً للمعركة فإن قواتنا الصغيرة إما أن تعسكر بمفردها منفصلة أو تعسكر في الوسط، وكانت فكرة مغرية أن تكون العربات خارج المنطقة بانتظار الهجوم الوحشي للأعداء على المضارب، ثم نظهر في عرباتنا على جانبه وخلفه.

وقررنا عملياً أن تنفيذ هذا الأسلوب مستحيل، فإذا أبقينا السيارات خارج الموقع الدفاعي فسوف تشك القبائل في نوايانا وتخشى الغدر، لذا لابد من أن نأخذ موضعاً كجزء من الصفوف القبلية.

ولهذه الأسباب، اقترحت أن يكون لقوة الصحراء، و الجيش العراقي مواضع مختارة بحيث تكون المدافع مثبتة في حفر، والموقع محاطاً بأسلاك شائكة خفيفة، وتعطى تعليمات للقبائل بأن تخيم على جانبي هذا الموقع المركزي القوي. وكان في تصوري أنه حينما يشن الإخوان هجومهم العنيف على مثل هذا الموقع، فإنهم سينحرفون إلى الجانب الأيسر والجانب الأيمن لمهاجمة القبائل، وعندما يتجاوزون معسكرنا المؤقت الصغير تكون الفرصة سانحة لإطلاق النار عليهم بعد أن يتجاوزونا مدبرين.

وإذا لاذت قبائلنا بالفرار وطاردها الإخوان، فسوف يتوجب علينا نقل مدافعنا على ظهر سياراتنا، والانطلاق للهجوم مما يؤدي إلى تقسيم قوتنا لأن المخازن والبنزين وجهاز اللاسلكي للجيش العراقي وبعض المعوقات موجودة في المتراس ويجب الدفاع عنها. وبالتالي لا يستطيع إلا نصف قوتنا المنازلة في أرض المعركة. وكان سلاح الجو الملكي قد وضع عرباته المدرّعة في بصية، وتوسلت إليه بإرسال فصيل منها للانضمام إلينا. ولو فعل ذلك لشكلت هذه العربات، مع سيارات قوة الصحراء، قوة مثالية للخروج في هجوم مضاد، وكان من شبه المستحيل أن تخفق خطتنا في تحقيق نصر عظيم. ولكن سلاح الجو رفض التعاون مع تكتيكاتي القبلية وأجاب أن مدرعاته لا تستطيع مساعدتنا. وفي الوقت نفسه وصلني أمر بأنه لا يجوز أن يبقى معنا أكثر من أربع مدافع رشاشة، وعلى باقي سرية المدافع الرشاشة الآلية التجمع في بصية.

وأُخبرتُ بأنه إذا ترك معنا أكثر من أربعة مدافع رشاشة، فسيفسرها ابن سعود بأنها اعتداء عسكري عليه، إذ إن الملك في مفاوضات جدة كان يدعم مناقشاته بالمادة ٣ من بروتوكول العُقير والتي اتفقت فيها كلتا الحكومتين على عدم «حشد قوات» في نطاق الحدود. وكان رد الحكومة العراقية بأن الأفراد الذين يتمركزون في بصية ومواقع أخرى في الصحراء هم من «الشرطة» وليسوا «قوات عسكرية». وبالتالي لم تكن على استعداد الآن لاستخدام الجيش العراقي. أما أنا بالمقابل، فأكدت وجود عشرة آلاف من الإخوان يزحفون علينا بكامل معدات حرب الصحراء، ومن المعقول أن نعدهم «قوات نجدية». وجادلت بأن وجود مئة رجل إضافي من الجيش العراقي في ظل هذه الظروف له ما يبرره.

ولم تظهر حكومتا بريطانيا والعراق أنهما تدركان أن أسوأ الاحتمالات، من جانب ابن سعود، هو أن ينجح الإخوان في غزونا. وعلى الرغم من الأعمال العدائية الجارية، كانت السلطات لاتزال تهتم قبل كل شيء بتفسير المعاهدات على نحو مماحك. ولم يكن من المنطقي إضعافنا إلى درجة المخاطرة بالهزيمة بهدف إرضاء الملك الذي كانت مصالحه متماشية مع مصالحنا في الواقع. فقد خفض عدد مدافع فيكرز لدينا من الجيش العراقي إلى أربع مدافع، ورفض سلاح الجو الملكي السماح لعرباته المدرّعة بالانضمام إلينا، وكانت طائراته تستطلع

خلفنا. وكان سلاح الجو الملكي والجيش العراقي ينظران إلى كل خطتي لاستخدام قبائل العراق للدفاع عن نفسها بمساندة الحكومة على أنها خطة جنونية. وعلى الرغم من ذلك فإنني لم أكن مقتنعاً بصحتها فحسب، بل التزمتها وأصبح الانسحاب مستحيلاً. وعملياً كنت أعد لحربي بينما كان قادة القوات النظامية الآخرون يعدون لحربهم. هناك خطتان لا تتشابهان إلا بالقليل. ولم أكن متيقناً بأن السلطات سوف تهب لمساعدتنا إلا بالطائرات حتى إذا تعرضنا لهجوم.

وفي هذه الأثناء كانت القبائل العراقية متناثرة من الكويت إلى وادي الخرّ والتقارير والإشاعات تتردد يومياً، مفادها أن أعداداً لا تحصى من الإخوان رافعين رايات الحرب تتقدم نحونا من كل حدب وصوب. وأصبحت الآن أواجه مواجهة مباشرة المسؤولية التي كنت قد تطوعت لتحملها، والحق يقال. وأدركتُ أنني في موقف تحدي الإخوان، وأنه يبدو من المؤكد أن الإخوان سيهاجموننا لا محالة. كنت أجلس أكثر من مرة وحيداً بين بدو القبائل في فضاءات الصحراء الرحبة، وتنتابني قشعريرة مع توتر في أعصابي، في الأمسيات الباردة فأجلس القرفصاء في الخيمة الصغيرة، والصحراء العظيمة الخالية تزداد ظلاماً. وأسأل نفسي: هل بإمكان جواسيسي وراء الحدود أن يتسللوا في الوقت المناسب ليحذرونا؟ أو أسمع صهيل الخيل والرجال على ظهور الجمال مع انبلاج الفجر وتكون تلك أول إشارة بأن هجوم الإخوان قد حدث؟

وفي لحظة من الشك وعدم التيقن وقت الغسق في يوم ١٥ فبراير/ شباط سنة ١٩٢٩، جاء أحد أفراد الهجانة وأطل برأسه في خيمتي، وكأنه نذير شؤم، وأعلن: «جاء رجل من الإخوان»، وهو من جواسيسنا الثقات. قال إنه جاء على راحلته من مطير مباشرة يطوي البيد طياً يواصل ليله مع نهاره دون أن يركن للراحة أو تناول الطعام أو الشراب، وإن الدويش قد شرع قبل يومين في تسيير قواته رافعاً عشر رايات حرب متجهاً شمالاً.

- وسألت: «إلى أين هو ذاهب؟».

- وأجاب باقتضاب: «يبغيك أنت».

واستدعيت الخبراء من رجال الهجانة ليستجوبوا المخبر بدقة، لكن إجاباته بدت مبنية على تفصيلات تعدّ قرينة على الحدث تماماً. وقال لنا الجاسوس أيضاً إن سلطان بن حميد سيهاجم منطقة الجُميمة في اليوم نفسه الذي سيهاجمنا فيه الدويش.

وسألت مستشاريّ البدو: «إذاً، ماذا سنفعل الآن؟».

فأجابوا بهدوء: «الأمر بيدك ويجب أن تصدر الأوامر، يا طويل العمر».

وأنا بصفتي «قائداً»، كنت في وضع لا أحسد عليه. فبين كل القوات الميدانية في جانبنا، لم

تكن تحت قيادتي إلاّ شرطة الهجّانة، ومع هذا فإنني أعتمد عليها وأثق بها كلياً. وكانت أخطار وضعنا قد جعلتنا إخوة. أما القبائل فيمكن أن تنفذ ما طلبته منها، ويمكن ألا تنفذّه، لأنه لم يكن بإمكاني فرض عقوبة على من يرفض إطاعة أوامري.

ولم تكن المدافع الرشاشة للجيش العراقي تحت أوامري، ومع هذا فبيننا تعاون جيد. أما سلاح الجو الملكي البريطاني، فعلى الرغم من كونه السلاح القوي الوحيد في الواقع، فقد يكون أصعب منالاً.

وما إن أنهينا مؤتمرنا حتى جاءنا الرجال يحملون طبقاً مملوءاً بالأرز وهو العشاء الذي سأتناوله في معيتهم. وتصنعنا عدم الاكتراث، وقررنا أن الدويش يمكن أن ينتظر حتى ننتهي من عشائنا. وصادف أن قام الشيخ لزام أبا ذراع بزيارتنا قادماً من مخيمه الذي يتمتع بشيء من الأمن لوجوده بالقرب من العربات المدرعة وحامية الجيش العراقي في بصية. وعندما سمع الأخبار صاح بأعلى صوته طالباً راحلته، ودعاه الرجال بشيء من المزاح: «تناول العشاء قبل أن تذهب، ستقاتل أفضل عندما تكون معدتك ممتلئة». وأضاف آخر وهو يبتسم قائلاً: «من المؤسف أن لا تتناول آخر وجبة لك على هذه الأرض فقد تكون في وضع لا تستطيع تناول وجبة الفطور صباح الغد».

لكن الشيخ لم يكن في مزاج لتقبل المزاح، إذ سرعان ما وثب على ظهر جمله وشرع في الرحيل إلى بصية، وأخذ يضرب جمله بعصاه وهو يعدو بخطوات واسعة.

وبعد أن انتهينا من تناول العشاء مباشرة، بدأنا عملنا بجدية، لأنه كان أمامنا الكثير الذي يجب أن نعمله. كانت حساباتنا تشير إلى أن هجوم الدويش سيكون فجر يوم ١٩ فبراير/ شباط، وأمامنا الآن ثلاثة أيام نجمع خلالها كل قبائلنا ونعد خطوطنا للمعركة. وكنت قد اخترت المكان المناسب للقتال، الذي يبعد عنا بضعة أميال باتجاه الشمال الشرقي في مكان يدعى «الأبطية». وبعد مجيء جاسوسنا بساعتين أرسلت سيارات الشرطة إلى كل الاتجاهات لإنذار قبائلنا بأن الدويش قادم وعليهم التجمع في الأبطية.

كانت هناك أربعة عوامل دفعتني لاختيار الأبطية وهي: أولاً، لأنها أقصى مكان إلى الشمال تتوفر فيه المراعي الجيدة التي هي ضرورية لتجمع كبير في مساحة صغيرة. ثانياً، يعدّ توفر المياه لتجمع قبائل كبيرة أمراً مهماً، ولحسن الحظ كانت تتوفر فيها غدران [خباري] تشكلت بعد سقوط الأمطار. ثالثاً، أرضها مفتوحة تناسب العربات المدرعة التي كنا نأمل أن تنضم إلينا. وأخيراً، تبعد الأبطية أكثر من مغيزل عن الحدود وتعطينا مساحة أكبر لرصد الغزاة حين يتقدمون للهجوم علينا.

وبعد مسيرة جاهدة لما يقارب ثماني وأربعين ساعة، مرت علينا آخر قبائلنا قادمة من المنطقة المحايدة بمخيمنا في مغيزل في مساء يوم ١٧ فبراير/ شباط. هذا الانسحاب السريع بمسافة حوالي ٤٥ ميلاً خلال العدد نفسه من الساعات، صاحبه معاناة كبيرة لأصحاب الأغنام، جلهم قطع هذه المسافة مشياً على الأقدام ومن ضمنهم أطفال ونساء، وبعضهم يحمل أطفالاً رضعاً أو خرافاً صغيرة. وكان من غير الممكن أن نتقدم إلى الأمام لتغطية انسحابهم لأن الجيش العراقي لأسباب دبلوماسية مُنِع من دخول المنطقة المحايدة، وكانت كل سيارات الشرطة مشتتة لتحذير القبائل وتجميعها.

وعند مرور تلك المجموعات المتدفقة من أصحاب الأغنام أمام مخيمنا، كان أصحاب الأغنام الذين يعانون الألم والإنهاك وأوجاع الأقدام العارية منظراً يثير الشفقة. لم يدركوا القيود الدبلوماسية التي تعرقلنا، فعزوا جمودنا وعدم تحركنا إلى أننا جبناء، حيث إنهم فروا مشياً على الأقدام من الجليدة والعقبة. وعندما مرت علينا نساء متعبات من الزيّاد وهن يجرجرن أطرافهن من الإنهاك بعد أربعين ساعة أو أكثر من المشي أخذن يوبخن بمرارة وبعنف وبشكل مهين مجموعتنا الصغيرة من الشرطة والجيش. وبعد مرور آخر قبيلة سرعان ما انتقلنا بعدهم إلى الأبطية.

وفي صبيحة يوم ١٧ فبراير/ شباط كنا قد خططنا مواقعنا للمعركة، وكان بعض الرجال قد شرعوا في حفر خنادق لمعقلنا الصغير. وخططنا أن يكون الزياد في الميمنة والظفير في الميسرة. وقمت بزيارة كل رؤساء القبائل في المنطقة أحث القبائل على التجمع حول القوات الحكومية وليظهروا للعالم قوة بأسهم. وكتبتُ في مذكرتي «الاستناد إلى الجدار هو أمر اليوم».

كنت قد حصلت على بعض البنادق وكمية من الذخيرة الحربية من الحكومة العراقية، وفي المساء عندما نصبت القبائل المنهكة خيامها في الأماكن المخصصة لها، وزعنا البنادق والذخيرة على رجال القبائل.

وعندما عاد الرجال بسيارات الشرطة بعد جولتهم لتجميع القبائل، كانوا بيض الوجوه والملابس من الغبار، طلبنا منهم القيام بمهام أكثر خطورة. فقمنا بتنظيم دوريات تخرج يومياً من الأبطية إلى شعيب العوجا في الشرق وإلى قريعة مديرس والعقبة. وكنا لازلنا قريبين من الحدود بحيث لم نكن متأكدين من رصد العدو في الليلة قبل هجومه.

وبإمكان الإخوان السير لمسافة ٦٠ ميلاً في الليل ليباغتونا بهجومهم عند الفجر. فالمسافة بين الأبطية وشعيب العوجا ٤٥ ميلاً، وإلى قريعة مديرس ٤٠ ميلاً، وإلى العقبّة ٥٥ ميلاً. وهكذا لا نجزم أن دورياتنا على الحدود تستطيع رؤية رايات الحرب المتقدمة قبل حلول الظلام.

غير أنه كانت هناك فرصة أن تراهم أو أن تصادف كشافة أو مجموعات استطلاع للعدو. كانت ثلاث دوريات تغادر مخيمنا كل صباح، في السابعة والنصف، وتصل حتى الحدود وتبحث بكل دقة في المنخفضات، وتُنْعم النظر في المدى الفسيح للصحراء بوساطة المنظار من على قمة كل تل، ولن يواجهوا المجموعَة الكبيرة من الغزاة في وضح النهار. وفي هذه المرحلة كانت الدوريات تبحث عن كشافة العدو أو مجموعاته الاستطلاعية، أو متخلف عن الركب لسبب عارض قد يحمل بعض الأخبار. وعند منتصف النهار كانت الدوريات تصل إلى الحدود وتبقى هناك على قمة تل مناسب حتى بعد حلول الظلام.

وكان الغزاة عادة يتناولون وجبة العشاء أواخر العصر، وينطلقون قبيل غروب الشمس في مسيرة ليلية طويلة نهائية. ومن الممكن أن يلمح مراقبونا مجموعة كبيرة من الغزاة وهم يمتطون الجمال ويقتربون من الحدود، قبيل حلول الظلام. وعندما يرخي الليل سدوله ينطلقون عائدين بأقصى ما أوتوا من سرعة لنقل الأخبار إلى الأبطية.

وإذا أخفق رجال الدوريات في مشاهدة الغزاة، فمن الممكن أن يكون هؤلاء قد عبروا الحدود بُعيد حلول الظلام، وفي هذه الحالة قد يفاجئهم انبلاج الفجر قبل الوصول إلى مخيمنا بأميال قليلة. وعليه اعتدنا على تسيير عربتين قبيل الفجر كدوريات بشكل يومي. ويشرع رجال الدورية مع بزوغ النور الأول للفجر، ويجب أن يتحركوا بكل حذر أمامنا لمسافة ١٥ ميلاً. ومن هنا إذا لم يشاهدوا أحداً يبقون في حالة ترقب، حتى تمر عليهم دوريات النهار وهم في طريقهم إلى الجنوب.

وإذا تمكنت دوريات النهار من رؤية الغزاة عند غروب الشمس فسيكون ذلك ذا فائدة جليلة، فبإمكاننا إرسال برقيات إلى بغداد قبل أن يذهب كل إلى سريره، فتصدر الأوامر إلى الطائرات والعربات المصفحة بمساندتنا عند فجر اليوم التالي. وإذا رأى رجال دورية الفجر الأعداء، فيكون بمقدورنا إرسال برقيات على الأقل قبل أن يكتسحونا وسط ضجيج المعركة. فقد تأتي الطائرات لنجدتنا في الوقت الملائم، غير أن نتيجة المعركة ستحسم قبل أن تصلنا العربات المدرعة من بصية.

وفي يوم ١٨ فبراير/ شباط وصل أحد جواسيسي، وقد انضم إلى قوات الدويش الغازية ورافقها في مسيرتها وهي متجهة شمالاً لمدة يومين قبل أن ينسل منها ليلاً قاطعاً المسافات بأقصى ماأوتي من سرعة لينضم إلينا. وقال مؤكداً إن الدويش سيهاجمنا بقواته الكبيرة فجر يوم ٢٠ فبراير/ شباط. وكان يبدو لي أن لاشك في صدق المخبر ودقة معلوماته. ونتيجة لذلك أرسلت برقية إلى بغداد موضحاً بها التاريخ المتوقع للهجوم ومضيفاً أنه تم اختيار الأبطية لتكون موقعاً للمعركة لمناسبة أرضها للعربات المدرعة. وطلبت أن يأمروا فصيلاً من العربات

المدرعة التابعة لسلاح الجو الملكي بالانضمام إلينا، فقد تحين فرصة لتلقين الدويش درساً لن ينساه. ولم يصلني الرد على برقيتي، ومكثتُ في الأبطية ومعي سيارات الشرطة، وأربع سيارات من الجيش العراقي، وأربعين رجلاً من قوة هجانة الصحراء الجنوبية، ويتمركز الزيّاد في الميمنة والظفير في الميسرة، وأصحاب الأغنام البدور في الخلف.

إن البدو الرحل من العرب يمتازون بالشجاعة المتهورة في هجماتهم العنيفة، ولكن حماستهم تنزع إلى البرود في حالة الدفاع السلبي. وبناء على ذلك أقمنا، في ١٨ و ١٩ فبراير/ شباط، رقصات الحرب [العرضات] والأغاني لنجدد روح الحماسة الحربية.

إن رقصات الحرب توضح الاختلافات العميقة التي تميز البدو ثقافياً، وربما إلى حد ما عرقياً، من أصحاب الأغنام العراقيين المتوطنين. إن رقصة الحرب [العرضة] يؤديها الرجال، حيث يصطفون صفين طويلين متقابلين، يتمايلون ببطء، يتقدمون خطوات قليلة ويتراجعون خطوات أخرى. وأحياناً يرقص رجل أو اثنان بين الصفين وهما يتمايلان برشاقة وبشكل إيقاعي، يلوحان بسيفيهما المسلولين فوق الرؤوس. ويؤدي أصحاب الأغنام رقصة الحرب مثل الرقصات التي تؤديها قبائل العراق المتوطنة، وتسمى «الهَوْسَة»، وتؤدى بنشاط وبصوت قوي وبشكل جماعي بإيقاع سريع. ويصاحب كلتا الرقصتين إطلاق النار في الهواء.

وفي مساء يوم ١٨ فبراير/ شباط، قدت السيارة إلى «أم المدافع» داخل الأراضي الكويتية (التي سمح لي أنا بدخولها ولم يسمح بدخول الجيش العراقي) لكي أقوم بتنظيم الجوارين وبني مالك للمقاومة. وكنا قد طلبنا من هؤلاء وغيرهم من القبائل العراقية التمركز في هذه المنطقة، لكنني كنت أخشى أن يقوم طابور من الشرق، ربما من مطير أو العجمان بغزوهم في اليوم نفسه الذي سيهاجمنا فيه الدويش. وبتُّ تلك الليلة عندهم، وأمضيت معظم ليلتي حول موقد النار في مجالسهم نناقش الوضع، والخط المحتمل لتقدم العدو، وكيفية توزيع الكشافة ومواقعهم.

غادرت مضارب أم المدافع قبيل الفجر، وكان المطر قد سقط أثناء الليل، وكانت الأرض مبتلة، وعندما بزغت الشمس كان كل نصل نبات أو كل غصين شجيرة يلتمع بقطرات ماسية. وكانت السماء صافية والهواء نقياً ينعش الروح، وكأنني في إنجلترا في أحد صباحات شهر مايو/ أيار وليس في الجزيرة العربية في شهر فبراير/ شباط.

وعندما كنت أقود سيارتي عبر أرض الدبدبة المستوية كنت أتساءل هل لا تزال جماعتي تخيِّم في مكانها الذي تركتها فيه؟ كان تقرير الجاسوس يبدو دقيقاً تماماً وطبقاً لحسابات الوقت والمسافة فإن الهجوم سيكون فجر اليوم التالي. وتساءلت: أين سأكون بعد ٢٤ ساعة. كانت الساعة الثامنة، وقد يكون الهجوم المتوقع قد تم قبل ساعتين، والأمر قد حسم.

في ذلك الصباح والصحراء الواسعة خالية إلا أنها ممتلئة بمعان مألوفة. جعلت الحضارة إصراراً يبدو مبتذلاً. إن رجال القبائل هؤلاء يعيشون في بساطة وحياتهم محصورة بأشياء جوهرية قليلة، ممتلكاتهم هي الإبل والأغنام والخيام/ بيوت الشعر، وغذاؤهم الخبز والأرز والتمر، وملابسهم الثوب والعباءة. إنهم في مجابهة يومية مع الحياة والموت بطريقة واضحة غير خفية. ولا غرابة في أن هذه الظروف تولِّد أبسط الأديان: الله الواحد، العظيم، القادر، الرحيم. وكان للصحراء التأثير نفسه فيّ. وها أنذا من المحتمل أن يقطع عنقي رجال كان للصحراء التأثير نفسه فيهم مثلي. سيقطعون عنقي باسم دينهم. كلاّ إن ذلك غير صحيح. إن الوهابية بدأت بشكل مبسط وهو العودة إلى الدين، لكنها الآن انحرفت إلى القتل والسلب.

باعتقادي أن كل العالم هكذا. فيقدم الرجال أفكاراً عظيمة في البدء، ولكن سرعان ما تتلقفها وتستخدمها قوى الشر وتحولها عن هدفها إلى الطمع والقسوة.

وبعد مسيرة طويلة اجتزنا آخر سلسلة من التلال وعلى المدى في الصحراء المفتوحة شاهدت مجموعة خيامنا البيض الصغيرة وعرباتنا، وبيوت الشعر العربية تنتشر إلى الشرق والغرب وقطعان الأغنام والإبل منتشرة في السهل تحيط بها من كل جهاتها. إنه منظر مراع تنعم بالسلام. وعندما دلفت إلى مخيمنا الصغير وجدت زملائي البدو ذوي اللحى، وهم منشغلون بتفكيك رشاشاتهم من نوع فيكرز وتنظيفها، حتى لا يكون هناك أي تعطل عند فجر الغد.

وبما أنه لم يصلني أي رد من القيادة الجوية على برقيتي بطلب العربات المدرعة، أرسلت برقية أخرى آملاً أن يوليها المسؤولون اهتمامهم ويقوموا بإجراء عملي. وقلت لهم إن وضعي في الأبطية غير آمن إلا إذا أرسل إلي فصيل من العربات المدرعة. وجاءت إجاباتهم عاجلة هذه المرة، واقترحوا إذا كان موقعي غير آمن بأن أنسحب إلى بصية حيث توجد هناك العربات المدرعة.

وبطبيعة الحال، كان مستحيلاً أن أتخلى عن القبائل في الأبطية. فكنا نحثهم لمدة أربعة أيام على الثبات والمقاومة وبما أن هجوم الدويش متوقع صباح الغد، فلا يجوز على الإطلاق أن تهرب القوات الحكومية اليوم، فتصاب القبائل بالذعر وتلجأ إلى الفرات، وترتفع الروح المعنوية للإخوان وبالمقابل سوف يُضعف هذا الوضع موقف ابن سعود. ولضمان سلامة القبائل واستقرار نجد نفسه يجب أن لا نَحيد عن موقفنا.

لقد شعرت بشيء من الظلم عندما رفضتْ السلطات مساندتي، لكني الآن [أي سنة ١٩٦٠] وبعد ثلاثين سنة، عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء، فإنني أقدر حق قدره ما قامت به السلطات؛ فهم بلاشك عدّوني شاباً مغروراً دفعته حماسته بتأثير فكرة رومانسية عن البدو.

وكانت وزارة الداخلية العراقية راغبة في مساندتي، ووافق القادة، إلا أنهم لم يرغبوا في أن يسمحوا بتورط القوات النظامية في معمعة التصرفات الجنونية، ومثل المفتش العام للشرطة رفضوا أي علاقة مباشرة بـ «مطاردة الغزاة». لكن ما لا يمكن تحمله هو إصراري على حشر نفسي في تلك المواقف المتهورة، ثم أستصرخهم بأنني في موقف غير آمن وأحاول استدراج العربات المدرعة التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني إلى وضع مزعزع كنت قد حشرت نفسي فيه. وصمم القادة على رفض هذا وربما كانوا على حق.

إن موعد هجوم الدويش هو فجر اليوم التالي، وإذا لم يتم حتى الساعة العاشرة صباحاً، فسيكون الوضع آمناً، وباستطاعتي الطيران إلى بغداد، والعودة مساء. فاتصلت برؤسائي في وزارة الداخلية العراقية وطلبت منهم أن يسمحوا لي بالطيران إلى بغداد في اليوم التالي. وبالتأكيد سأستطيع إقناع قيادة الطيران بأن الهروب في هذا الوقت يعد كارثة.

* * *

وأمضيت بقية يوم ١٩ فبراير/ شباط بمقابلة شيوخ القبائل ورجالها ومناقشة تكتيكات الغد، وتدريب الشرطة والجيش على أداء دورهم المنتظر. وانتظرنا بلهفة عودة دوريات النهار. فإذا هاجمنا الدويش فجر الغد يمكن أن يراه كشافتنا بالقرب من الحدود وقت غروب الشمس. وجاؤوا في العاشرة ليلاً وأخبرونا أنهم لم يشاهدوا شيئاً. فاستلقيت في خيمتي، مرتدياً كامل ملابسي، وكانت بندقيتي بجانبي. ومرت الساعات ببطء، يغالبني النعاس، وسرعان ما أستيقظ. قبل الفجر بوقت طويل خرجت من خيمتي في تلك الليلة الباردة، والنجوم المتلألئة تزين سماء الجزيرة العربية، ونباح الكلاب هنا وهناك في مضارب القبائل يخرق صمت الصحراء العميق.

بدأ بعض الرجال يتحركون وأخذوا ينظفون بنادقهم بخرق مزيتة. وعندما ظهر أول نور باهت في ظلام الجهة الشرقية من السماء، تحركت الدورية. وكنت قد أمرتهم بأن يتجهوا إلى الأمام لمسافة ميل واحد، ويجب أن يتوقفوا ويوقفوا محركات عرباتهم وأن يصغوا، وإذا سمعوا شيئاً فيجب أن يخبرونا بإطلاق إنارات حمر. حتى وإن كانت هناك دقائق معدودة فإنها تعطينا الوقت لإرسال برقيات النجدة قبل بدء المعركة، وحالما يشق ضوء النهار فليتقدموا إلى الأمام مسافة خمسة أميال، ويتوقفوا فوق أحد التلال للمراقبة. وهز قائد الدورية رأسه بصمت كدليل على الموافقة، وقفز الرجال إلى سياراتهم وأخذوا أماكنهم خلف رشاشاتهم. قال رميثان العنزي: «الله معكم يا إخواني»، وتحركت العربات وخرجت من خلال ثغرة في الأسلاك الشائكة.

وبعد أيام كثيرة من الانتظار الطويل حانت ساعة الصفر، حينها لم يعترني الخوف، وتملكنا شعور بالنشوة، وأخذنا نمرح ونضحك. وأرسلت رجالاً إلى كل المضارب القبلية يثيرون حماستهم ويشجعونهم بتحيات مبهجة. وكنت أتمنى أن لا أترك جهاز اللاسلكي التابع للجيش العراقي، في حالة أي إنذار مفاجئ. وكنت قد اتفقت مع القبائل أنه إذا صددنا هجوم الإخوان، أو إذا وصلت الطائرات وأجبرتهم على التقهقر، يجب أن يمتطي كل واحد منهم فرسه أو جمله وأن يلاحق فلولهم المندحرة.

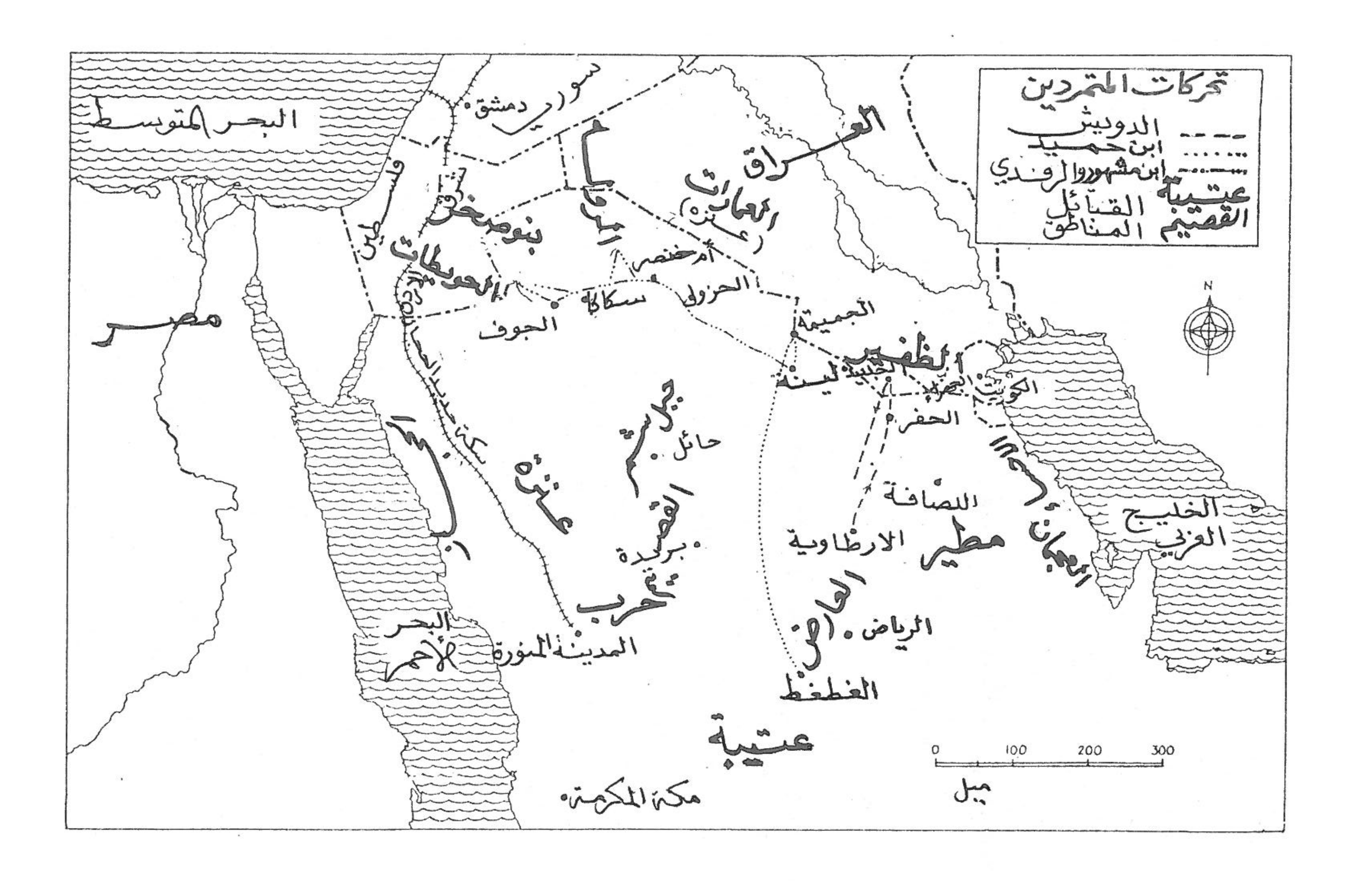
وجاء حامد العبد ومعه دلة القهوة التي لا مناص منها، وبعدها إبريق الشاي. وشيئاً فشيئاً ظهر ضوء النهار، وأعيننا ترقب الجنوب. واختفت دورية الفجر. وأخذ الرجال في الخنادق يشربون القهوة ويدخنون السجاير. وللمرة المئة أخذوا ينظفون بنادقهم بالخرق.

وفي السابعة والنصف شرعت دوريات النهار في أداء مهمتها. وبعد ساعة عادت دورية الفجر، ولم تَرَ شيئاً. وفي العاشرة هبطت طائرة النيناك لتأخذني إلى بغداد. واتفقنا على أن نترك القطعان تذهب إلى المراعي، وبدأ الرجال يطبخون وجبة طعام.

ولم يأتِ الدويش!

الفصل الخامس عشر

من الجُمَيمة إلى أم المدافع



تحركات المتمردين
الدويش
ابن حميد
ابن مشهور والرفدي
عتيبة القبائل
القصيم المناطق
البحر المتوسط
سوريا
دمشق
العراق
العمارات (عنزة)
الرولة
بنو صخر
فلسطين
الحويطات
أم خنصر
الحزول
سكاكا
الجوف
الجميعة
الظفير
لينة
البصرة
الكويت
الحفر
مصر
حائل
شمر
عنزة
القصيم
بريدة
حرب
البحر الأحمر
المدينة المنورة
الصافة
الارطاوية
مطير
العجمان
الخليج العربي
الرياض
الغطغط
عتيبة
مكة المكرمة
0 100 200 300
ميل
N

من الجُمَيمة* إلى أم المدافع

عندما وصلت بغداد، استقللت سيارة وذهبت مباشرة إلى القيادة الجوية واستقبلني أحد كبار الضباط هناك. واستفسرت منه عما يمكن أن تتخذ من إجراءات في صدد البرقية التي أرسلتها والتي تتضمن طلباً بتزويدنا بعربات مدرعة، وفي الوقت نفسه شرحت له استحالة انسحابنا إلى بُصية والتخلي عن القبائل. وأجاب الضابط بطريقة جافة قائلاً: «اعتقدت أنه إذا كنت تشعر بالخوف كما تشير برقياتك، فمن الأفضل أن تهرب».

كنت شاباً حاد المزاج، فقلت له «شكراً» وانتزعتُ قبعتي وغادرت مكتبه. وكنت مستاءً أغلي من داخلي. وركبت السيارة عائداً مباشرة إلى الطائرة التي أقلتني وأقلعت بنا فوراً إلى الأبطية. وارتكبتُ خطأً جسيماً عندما فقدت أعصابي في ذلك الموقف. ولولم أكن شاباً يافعاً تنقصه الخبرة ورجاحة العقل لتقبلت تلك السخرية على مضض، على أمل أن أقنع القيادة بوجهة نظري وأوضح الحكمة من ورائها، ودعاني رجال القيادة لتناول الغداء معهم، وافترقنا بفهم مشترك يجعلهم يقدرون أهمية برقياتي في المستقبل. ولكن الشباب يبقون شباباً ويندر أن يصبروا أو يتسامحوا، ولاشك أننا محظوظون، حتى في تقدم عمرنا إذا كانت تلك سجايانا.

لقد أُلْحقت بسلاح الجو الملكي البريطاني لمدة خمس سنوات وصاحبت الطيارين في طيرانهم لآلاف الساعات. ومن دون شك إن استيائي الآن ليس ضد سلاح الجو الملكي

* الجُميمة: منهل يقع شرق رفحاء بما يقارب ١١ كم بقرب التقاء الحدود السعودية بالحدود العراقية. وكان الاسم يطلق على بركة تقع في طريق الحج الكوفي بين زبالة جنوباً والقاع شمالاً. ويرى الشيخ حمد الجاسر أن الجميمة هي ما كان يعرف قديماً باسم الجُرَيْسي [المترجم].

- انظر: حمدَ الجاسر. **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية**. شمال المملكة، مصدر سبق ذكره، ص٣٤٠.

البريطاني الذي أشعر بولاء تام نحوه، بل ضد كبار الضباط، الذين قلت لنفسي، إنهم يجلسون في بغداد مرتاحين غير مكترثين بأوضاعنا نحن البدو، والرعاة، والطيارين، وطواقم العربات، حيث نواجه الموت كل يوم في هذه الصحراء البعيدة.

وبعدها بعشرين سنة شاءت الأقدار أن يجلب الزمن نقمته، إذ كنت شخصياً أذرع المكتب جيئة وذهاباً والقلق يعتريني، وكنت أحسد الشباب على عدم مبالاتهم لنتيجة الحرب، إذ كانوا منهمكين في المعركة التي يحملون لها عاطفة مشبوبة ولا قلق يؤرقهم، هذا القلق الذي يقض مضاجع كبار الضباط.

ولسوء الحظ فإنه على الرغم من أنني كنت معاراً لمدة خمس سنوات لسلاح الجو الملكي البريطاني، إلا أنني كنت قد تركتهم منذ سنتين ونصف السنة، وتم تغيير كل الأفراد كل سنتين. وبالنسبة إلى الضباط الجدد في قيادة الطيران لم أكن أحد رجالهم، بل كنتُ مدنياً مختالاً بنفسه، ولا يتوقع من قادة سلاح الجو أن يتبعوا نصيحة شاب، ولاسيما في موضوع كيفية استخدام قواتهم في عمليات حربية. وعلاوة على ذلك كانوا يتشككون في فكرة مطالبة القبائل العراقية بالقتال.

وبعد عدة أشهر، شرح لي أحد ضباط قيادة الطيران السبب وراء الأسلوب الذي استقبلوني به. فقال لي إن هناك شعوراً عاماً بالانزعاج مني، وقيل إنني أعتقد دائما أنني الأكثر معرفة منهم لذلك رأى بعض الضباط معاقبتي للحد من غروري.

وقد يكون لتهمهم مايبررها، فالشباب كثيراً ما يكونون متغطرسين، وقد يرجع ذلك إلى ضيق أفقهم. ويجب الاعتراف بأنني كنت منهمكاً في عملي، وكان بالنسبة إلي أهم من أي شيء آخر. وكنت بعيداً عن المفهوم القائل: «إن وضوح فكرة قصور الإنسان، مقابل كمال الله يصبح دواء ناجعاً للكبرياء وحب الذات»(٥٩).

* * *

وفي اليوم التالي، كنا نترقب هجوم الدويش قبل الفجر وقد هيأنا أنفسنا وأسلحتنا لملاقاته، ولكنه لم يأت.

ويجب أن نتذكر أن الجواسيس الذين جاؤوا إلينا في الأبطية وحذرونا من تقدم الدويش، أخبرونا أيضاً أن سلطان بن حميد من عتيبة سيغزو منطقة الجميمة في يوم هجوم الدويش نفسه. مطير جيراننا، وتقع مراعيهم إلى جانب مراعي الظفير، وكنت قد استطعت أن أجد جواسيس يعرفونهم حق المعرفة ويندسون بينهم. ولكن عتيبة يسكنون الجهة الأخرى من نجد

---

(٥٩) Evelyn Underhill, Mystics of the Church [المؤلف]

ولا أحد ممَّن في صحراء العراق الجنوبية يعرفهم، ولم أتمكن من إيجاد مخبرين يستطيعون زيارتهم وتنبيهنا إلى نواياهم. وفجأة خطرت لي فكرة.

ففي اجتماع جدة في مايو/ أيار سنة ١٩٢٨ تم الاتفاق على أنني مفوض للاتصال مباشرة مع عبد العزيز بن مساعد، حاكم حائل، في كل ما يتعلق بشؤون الحدود. وفي يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٢٩، وجدت أنه من المستحسن أن أرسل رسولاً على جمل إلى ابن مساعد وأحمله رسالة تتضمن الاستفسار عن آرائه في بعض الحوادث الحدودية الطفيفة. وقبل مغادرة رسولي، أوضحت له أنه في حالة حصوله على معلومات عن خطر محدق، يجب أن يعود إلينا في الحال ليخبرنا.

كان هذا الرجل في حائل عندما سمع أن ابن حميد تحرك مع بيارقه لغزو العراق. وكان ابن مساعد قد طلب من هذا الرسول الانتظار حتى يرد على رسالتي ويأخذ الرد معه قبل المغادرة. وانتظر الرد يوماً بعد يوم، وطال انتظاره ولم يحصل على الرد. وساورته الشكوك بأن تأخيره كان متعمداً حتى لا ينقل إلينا أخباراً عما يجري في نجد. ونتيجة لذلك انسل من حائل تحت جنح الظلام تاركاً ملابسه الأنيقة، ومرتدياً ملابس بدوية رثة حتى لاينكشف أمره، وانطلق في مسيره يسابق الريح، يواصل الليل بالنهار ليحذرنا من غزو ابن حميد. وكان مسيره محفوفاً بالمخاطر، إذ مر بمحاذاة قوات ابن حميد وكانت تبعد عنه أميالاً قليلة، وكانت متجمعة في «عرق المظهور» إلى الجنوب الغربي من الجُميمة بحوالي مئة ميل.

وصل مخيمنا في الأبطية يوم ١٧ فبراير/ شباط، بعد يوم واحد من حصولنا على تقرير عن تقدم قوات الدويش نحونا. وكان تقريره دقيقاً عن قوة قوات ابن حميد ومكانها، التي تعد طابور الإخوان الأكثر عدداً وتعصباً. ومن وجهة نظره، فإن ابن حميد سيتجه إلى لينة ثم يتقدم إلى العراق ويعبر الحدود عند الجميمة. ومن الواضح أن قوات ابن حميد وقوات الدويش تتحرك. بحذر وبشكل متزامن.

وقبل استلام هذه المعلومات بوقت قصير، استلمت تقريراً مفاده أن عشيرة اليعاجيب من أصحاب الأغنام قد ارتحلوا من السلمان - الذي طلب منهم أن يمكثوا فيه - إلى الأمام وخيّموا في الجميمة. وسيكونون في الطريق الذي ستسلكه القوات المتقدمة.

فذهبت على عجل إلى السلمان، وأرسلت اثنين من شرطة الهجانة وطلبت منهما أن يأمرا اليعاجيب بالعودة إلى السلمان فوراً لأن الإخوان سيغزونهم. وعدت إلى الأبطية في اليوم نفسه، انتظاراً لهجوم الدويش المتوقع علينا. وبعد يومين فقط أُخبرتُ بأن اليعاجيب رفضوا التحرك من مكانهم. لأن أرض السلمان تخلو من المراعي الجيدة، بينما في الجميمة توجد مراع ممتازة.

ولم أبرح الأبطية خشية هجوم الإخوان لأننا كنا نترقب هجوم الدويش في أي لحظة. لكنني أرسلت برقية عاجلة إلى السلمان طلبت فيها إصدار أوامر مشددة لانسحاب اليعاجيب من مكانهم وبأي ثمن. غير أني فكرت أن أرسل رسولاً مباشرة من الأبطية ربما يقنعهم أكثر من الرسل القادمين من السلمان، فأرسلت رجلين من الهجانة مباشرة أيضاً. ولهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر اخترت راضي التومي الشمري وسلمان بن لافي العنزي وحدثتهما عن قصة اليعاجيب وتقدم سلطان بن حميد لغزوهم، وشددت على أن مهمتهما هي ترحيل أصحاب الأغنام من مكانهم في الحال. وبذلت شرطة الهجانة في السلمان كل ما في وسعها أيضاً. فقد أرسلت رجلين - من أفراد القبائل - على جيادهما انطلقا مسرعين بأقصى ما أوتيا من سرعة لتحذيرهم ثم بعد ذلك أرسلت رجلين من الهجانة ثم اثنين آخرين من الهجّانة إليهم.

مرت الأيام والليالي وأنا في قلق شديد. صحيح أنها حرب تافهة طفيفة، وحتى في بغداد لم تعد من أولويات الإدارة، وربما لم تعلم العواصم الأوروبية عنها شيئاً. وكان الجيش الذي تحت قيادتي يتكون من تسعين من الشرطة البدو بالتعاون مع وحدة فرعية من الجيش العراقي، ومفرزة من سلاح الجو الملكي البريطانية تتكون من سربين من طائرات النيناك، وسرية من العربات المدرعة. وبالمقارنة بالمشاكل الهائلة بين الدول الكبرى الآن فإننا قطرة في محيط. ومع هذا، ولكن إلى حد ما، فإن مسؤوليات القائد المستقل هي نفسها دائماً. فإنه يقف وحده لاتخاذ القرارات مما يجلب النجاح أو الكارثة لقضيته التي يحارب من أجلها وللرجال الذين يقودهم.

وعلى الرغم من كل هذه التحذيرات المتتالية لم يزل اليعاجيب يرفضون التحرك من مكانهم. وغير أن إصرارهم على ذلك لا يعني أنهم غير مبالين، ولكنهم وجدوا أن شمر يقطنون بالقرب منهم جنوبي الحدود بالقرب من الجميمة. وهم يفترضون أن هؤلاء البدو يعرفون جيداً ما يدور في نجد وأنهم سيرحلون لو علموا أن غزاة الإخوان قادمون.

وفي ٢٠ فبراير/ شباط أرسلت برقية إلى وزارة الداخلية العراقية أطلب فيها أن تقوم بتأجير ثلاث سيارات أجرة وترسلها فوراً إلى السلمان لأن عربات شرطة الصحراء كانت مشغولة بدوريات على الحدود وبالتالي لم تكن متوفرة. وحمل الهجانة في السلمان في سيارات الأجرة الثلاث متجهين على عجل إلى الجميمة ولديهم أوامر ملزمة بانسحاب اليعاجيب فوراً. وأخيراً التزم اليعاجيب أوامرنا، في يوم ٢١ فبراير/ شباط وهو اليوم الذي يلي هجوم الدويش المتوقع علينا في الأبطية.

في هذه الأثناء وصلت قوات سلطان بن حميد المكونة من ثلاثة آلاف رجل إلى أم رماح، التي تبعد حوالي ٤٥ ميلاً إلى جنوب شرق الجميمة يوم ٢١ فبراير/ شباط. وهو اليوم الذي

ارتحل فيه أصحاب الأغنام من الجميمة. وقام كشافة ابن حميد بأسر عبد الله بن دهام، أحد شيوخ شمر الصغار في العراق، وأخذوه معهم إلى قائدهم لاستجوابه. وإذا لم يعطهم عبدالله المعلومات الصحيحة كان الإخوان سيقطعون عنقه، لذا فقد أعطى ابن حميد المعلومات المطلوبة عن أماكن وجود كل القبائل حول الجميمة وهي تتضمن عدداً من مضارب شمر نجد، رعايا ابن رشيد السابقين، ومجموعة كبيرة من تجار نجد [عُقيل] ومعهم قطعان كبيرة من الإبل لبيعها في مصر. وكذلك ذكر لهم أن اليعاجيب نازلون في الجميمة غير أن واقع الأمر هو أنهم ارتحلوا في صباح ذلك اليوم.

وسأل ابن حميد عبد الله عن موقع الحدود العراقية وعندما أجابه الأخير بأنه خط البطن سأله وكم يبعد البطن عن الجميمة، وهل هناك دوريات بالعربات المدرعة أو الطائرات.

وكانت كل المعلومات التي أفضى بها عبد الله دقيقة، ما عدا أنه لم يعلم بأن اليعاجيب قد ارتحلوا في صباح ذلك اليوم من الجميمة. ولم يعلم عبد الله ولا نحن أن مجموعة صغيرة من الزياد، كانت تقطن في الشهر الماضي في الليفية جنوب غربي الشبيكة، قد ارتحلت فجأة إلى الأمام بالقرب من الجميمة. ومن الضروري إدراك اتساع الصحراء وسهولة تواري مجموعة صغيرة من الخيام عن الأنظار، وهي تتجول في الصحراء، وتفقد اتصالها بالعالم الخارجي.

وبناء على المعلومات التي حصل عليها ابن حميد من عبد الله الدهام، قسم الأول قواته إلى ثلاث مجموعات متساوية تقريباً. فتقوم مجموعة بمهاجمة شمر نجد، بينما تقوم المجموعة الثانية بمهاجمة تجار الإبل النجديين [عقيل]، علماً بأن ضحايا المجموعتين هم رعايا ابن سعود ويقطنون الأراضي النجدية. وقاد سلطان نفسه ألفاً من رجاله لشن هجومهم على اليعاجيب في الجميمة. وشنت الهجمات الثلاث متزامنة في فجر ٢٢ فبراير/ شباط سنة ١٩٢٩.

وتكبدت شمر خسائر فادحة، لأنهم لم يكونوا مستعدين لهذا الهجوم على الإطلاق، لأنهم لم يتوقعوا أن يشن ابن حميد هجومه عليهم كونهم رعايا ابن سعود. وأبيد تجار الإبل، وجلهم من أهل القصيم، عن بكرة أبيهم. وعندما وصل ابن حميد الجميمة، لم يجد اليعاجيب فقد ارتحلوا قبل ٢٤ ساعة، بعد أن قدم إليهم رجال الشرطة من السلمان في سيارات الأجرة الثلاث وأمروهم بالرحيل. وأخبره كشافته بأنهم اجتازوا البَطن، فقال، «إذا عبروا البطن اتركوهم وحالهم». وتجدر الملاحظة أن عبارته تلك تتعلق بما قالَ له عبد الله الدهام إن البطن هو حدود العراق.

وتحركت مجموعة الزياد الصغيرة من أصحاب الأغنام، التي لم نكن نعلم عنها شيئاً، من الليفية إلى الجميمة وباتت ليلة البارحة بالقرب من قافلة تجار الإبل. وكانوا يجهلون تماماً هجوم

ابن حميد بينما الإخوان أنفسهم، لم ينتبهوا إلى قدوم الزياد.

يذكر أنني أرسلت رجلين من الأبطية إلى الجُميمة ليرغما اليعاجيب على الرحيل. وعند وصولهما الجميمة مساء يوم ٢١ فبراير/ شباط، وجدا أن اليعاجيب قد رحلوا شمالاً صباح ذلك اليوم، وخلال استكشافهما في المنطقة المجاورة، وقت غروب الشمس، عثرا على مجموعة الزياد وهم يهمون بنصب خيامهم قبل أن يدركهم الليل. وقام راضي وسلمان بشرح الأوضاع الصعبة التي قد تلم بهم وأمضيا ليلتهما معهم. واتفق الزياد معهما على الرحيل شمالاً هرباً من الإخوان صباح الغد.

وعند الفجر غادرا المخيم بحثاً عن اليعاجيب أو أي مضارب أخرى للرعاة لا تزال في المنطقة. وبعد وقت قصير من تحركهما سمعا جلبة المعركة، وفجأة، انطلق نحوهما من خلف التلال حوالي ثلاثين خيالاً من الإخوان. وأصبح الهرب مستحيلاً. وبسرعة ترجلا وعقلا ركابهما وأخذا يطلقان نيران بندقيتيهما. وبعد ثلاثة أيام عثرنا على جثتيهما عاريتين وقد شوهتهما زخات الرصاص، وبجانب كل جثة كومة من أغلفة الطلقات الفارغة، حوالي ١٥٠ غلافاً. لقد قاوما الأعداء الأكثر منهما عدداً بكل ضراوة لآخر طلقة بندقية، وعندما نفدت ذخيرة بندقيتيهما وأصبحا أعزلين تمكن الأعداء منهما. هكذا كانت همم رجال قوة شرطة الصحراء الجنوبية المفعمة بالحماسة، على الرغم من أن هذه القوة لم يمض على إنشائها إلا سنة واحدة.

لم يعلم ابن حميد شيئاً عن مخيم الزياد الصغير حيث وصلوا الليلة الماضية، إلا أن بعض الغزاة، أثناء هجومهم على تجار نجد، وجدوا مخيم الزياد مصادفة. ونتيجة لعدم معرفة الإخوان أن الزياد كانوا في تلك المنطقة، لذا لم يفاجئوهم بالهجوم عند الفجر، إضافة إلى أن راضي وسلمان قد حذراهم، فإنهم كانوا على يقين بأن الهجوم حادث لامحالة. وعندما سمعوا صوت إطلاق النيران المنطلق من مخيم تجار نجد، أدركوا أن المعركة تدور رحاها هناك. فما كان من رجال الزياد وأولادهم إلا الفرار. وعندما اجتاح الغزاة المتحمسون مخيمهم لم يجدوا إلا النساء وحدهن، فأخذوا ينهبون الأغنام والحمير والخيام وكل الممتلكات، لكنهم لم يتعرضوا للنساء بسوء، ولم تقع إصابات في جانبهن.

ومع أننا فقدنا رفيقينا في المعركة إلا أن مجيئهما كان في الوقت المناسب لإنذار الزياد وبالتالي حافظا على حياتهم من المذبحة. وبينما كان رجال عتيبة ينهبون مخيم الزياد أخذوا يوبخون نساء الزياد على نحو سافر قائلين: «أين صديقكم أبو حُنَيك الآن؟ دعوه يحمِكم من المسلمين إن كان يقدر على ذلك».

وكما ذكر سابقاً، كان زعماء الإخوان الكبار قد خططوا لاقتسام الأراضي التابعة لابن سعود بينهم على هذا النحو: الدويش يحكم نجداً، وابن حميد الحجاز، وابن حثلين الأحساء. وندا بن نهير الشمري وهو من القلائل الذين أصبحوا من الوهابيين وتلقوا راية حرب من ابن سعود ـ يقال إنه وُعد بأن يحكم حائل. وكان ندا حذراً يترقب ولم يعلن موقفه صراحة. وفيما بعد عندما لم يحالف النجاح المتمردين، بقي موالياً لابن سعود.

تتكون واحة الجوف من مجموعة صغيرة من القرى تحيط بها الصحراء من كل جانب وتقع في منتصف المسافة بين القصيم ودمشق، وكان ابن سعود قد استولى عليها قبل سبع سنوات فقط، وقبل ذلك كان يسيطر عليها ولسنين عديدة ابن شعلان زعيم الرولة القوي من عنزة سورية. وكان هناك شاب ساخط متململ من أفراد عائلة الشعلان هو فرحان بن مشهور اعتنق الوهابية، وتحالف مع المتمردين، مقابل وعد بجعله حاكماً على الجوف.

وعندما تحرك الدويش وابن حميد للأمام لغزو كبير للعراق، قاد ابن مشهور قوة قوامها ١٥٠ رجلاً من قبيلته الرولة وكانوا كلهم يعتمرون عمامة الإخوان البيضاء، وفاجؤوا مخيماً لولد سليمان من قبيلة عنزة بالقرب من وادي عرعر في أراضي نجد، وهم أبناء عمومة الرولة وقبيلة سورية مثلهم، وكان مخيمهم يتكون من ثلاثين عائلة وارتكبت ضدهم مجزرة وحشية راح ضحيتها كل الذكور ونهبت الممتلكات والقطعان.

وبينما كان ابن حميد نازلاً في لينة للراحة بعد غارته على الجميمة انضم إليه مرضي الرفدي من شيوخ العمارات، أو عنزة العراق. وكان مرضي قد ذهب إلى ابن سعود قبل سنة ونصف السنة وأعلن دخوله الوهابية، لأنه مستاء من المركز الذي أعطته إياه الحكومة العراقية. ومن الجدير بالملاحظة أن ابن سعود نفسه أصر على تضمين اتفاقية بحرة فقرة مفادها منع حكومة أي بلد من إغراء القبائل رعايا البلد الآخر. والآن وبعد عقد تلك الاتفاقية، قام هو نفسه بجذب عجمي بن سويط ومرضي الرفدي إليه وهما شيخان قبليان كبيران في العراق.

كان مرضي نفسه ينوي مشاركة ابن حميد في غزوة الجميمة، ولكن لسوء حظه، وصل بعد انتهاء المعركة، وعندما وصل وجد رجال عتيبة يقتسمون الأسلاب. ويظهر أن ابن حميد قد أشفق عليه، فبارك جهوده، وألحق بقواته مفرزة من الإخوان من عتيبة ومطير قوامها أربعمئة رجل. وبعد تعزيز قوته شرع في غزواته باسم الدين، يدفعه طموح لافتراس كل ما يلاقيه، لكنه مثل الدويش وابن حميد تردد في عبور الحدود العراقية، ووجد ٥٠ خيمة للصُلُبة بالقرب من «أم خنصر» في الأراضي النجدية، والصلبة من الناس الجوّالين في الصحراء اللافتين للنظر (.......................................) وهم غير مسلحين، ولايشاركون في حروب الصحراء. وهكذا كان الهجوم ضدهم يعدّ إهانة سافرة

لابن سعود لأنهم من رعاياه ويقطنون أراضيه، وكذلك فإنه تصرف مقيت حسب التقاليد العربية القديمة للشرف، بل حسب أي معايير، لأنهم أناس عزل غير محاربين؛ وقتل كل الصلبة تقريباً عمداً وبدم بارد وليس لهم حول ولا قوة في المقاومة.

وانضم مرضي الرفدي إلى ابن مشهور واجتمعت قوات القائدين البالغة حوالي ٨٠٠ رجل وانطلقا نحو الجوف في مستهل مارس/ آذار، ولنتركهم في هذا الوقت [ونتحدث عنهم مستقبلاً].

* * *

في الفصل السابق تطرقتُ إلى توقعاتنا بهجوم الدويش علينا يوم ٢٠ فبراير/ شباط، ثم ٢١ فبراير/ شباط لكنه لم يحصل. ومرت ثلاثة أيام دون أخبار تذكر، فجاء إلينا كل الجواسيس الذين زرعناهم مع مطير، ليخبرونا عن نية الدويش غزونا يوم ٢١ فبراير/ شباط. و الآن أصبحنا من دون مخبرين. وكانت تقع أمام مخيمنا منطقة محرمة فارغة لم يجرؤ أحد على عبورها، لتوقعنا ظهور الإخوان في أي لحظة. إنه وضع لم أكن أتنبأ به عندما وضعت المخبرين مع قبائل نجد.

لم تتجمع لدينا خيوط القصة عن تلك الأيام العصيبة إلا بعد بضعة أيام. يبدو أن الدويش كان ينوي الهجوم علينا في فجر يوم ٢٠ فبراير/ شباط كما أخبرنا جواسيسنا. وقد تقدم إلى الجليدة على بعد ثلاثين ميلاً فقط عن موقعنا، في النصف الأول من ليلة ١٩ ـ ٢٠ فبراير/ شباط، وكان ينوي تغطية المسافة المتبقية من منتصف الليلة إلى فجر ٢٠ فبراير/ شباط. في هذه الأثناء فإن الدويش قد اتخذ إجراءات احتياطية حيث أرسل جاسوساً إلى مخيمنا وأعطاه تعليمات بأن يتسلل من بين صفوفنا ليلة ١٨ ـ ١٩ فبراير/ شباط، ويقابله في الجليدة ليلة ١٩ ـ ٢٠ فبراير/ شباط. وكان هذا الجاسوس في مخيمنا عندما قمنا بتوزيع البنادق والذخيرة على قبائلنا، وشاهد رقصات القبائل للحرب [العرضات]، كذلك شاهد هبوط ثلاث طائرات نيناك بجانب مخيمنا، ومن ثم انسل منا دون أن يلحظه أحد وقابل الدويش في الجليدة ليلة ١٩ ـ ٢٠ فبراير/ شباط.

وبلغه أننا موجودون في الأبطية، وأنه جاءتنا إنذارات عن هجومه المزمع، وأن قبائل العراق تجمعت حولنا، وقمنا بتوزيع السلاح والذخيرة مجاناً عليها، وأننا نقف على أهبة الاستعداد لمقاومة الهجوم، وأن لدينا قوة كبيرة من الطائرات والعربات المدرعة. ولحسن الحظ فإن معظم النجديين لايفرقون بين العربات المدرعة والعربات المسلحة التي هي شاحنات مفتوحة تحمل مدافع رشاشة صغيرة.

وعندما رفع الدويش رايات الحرب في الأرطاوية، كان يعلم أننا في مغيزل وأن القبائل منتشرة في مناطق واسعة وبعيدة عنا في المنطقة المحايدة. وكان يرى أنه بإمكانه سلب هذه

القبائل القريبة من الحدود خلال يوم واحد بهجوم عند الفجر قبل أن نتدخل لصده، لكن كفاءة جواسيسنا، الذين جاؤوا ليحذرونا، والسرعة التي تم بها انسحاب القبائل إلى الخلف إلى الأبطية أفشلتا خطط الدويش.

بالإضافة إلى الجاسوس الذي قابله في الجليدة كانت مجموعات كشافة أخرى قد استطلعت مخيمنا قبل يومين، بعيد حلول الظلام، وعادوا ليخبروا الدويش. لقد شاهدوا نيران مضارب كثيرة في الليل. فقالوا: إنها حشود أمامية تمتد لحوالي ثلاثة أميال، وهذا مؤشر على أن قبائلنا مصطفة انتظاراً للمعركة.

ودعا لاجتماع لمجلس الحرب في منتصف تلك الليلة، عند بئر الجُلَيْدة، ومما دعم تقرير الجاسوس عدد نيران المضارب التي شاهدها الكشافون. وكان الدويش قد أقسم مراراً على أنه سوف يسقي خيله من نهر الفرات، ويأتي خصوصاً لقطع عنقي. ودارت نقاشات محتدمة بين رجال القبائل ذوي الوجوه السمر وهم يعتمرون عمامات الإخوان البيض، أفضت بعد أن توقفت إلى إصدار الدويش العظيم الذي لا يُقهر أوامره بالانسحاب. وشدد قائلاً: «يجب أن نعبر العقبة قبل ضوء النهار، وإلا فإن العربات المدرعة قد تعترضنا». ولحسن الطالع فإنه لم يدرك أن العربات المدرعة في مكان ناء منا في بُصيّة.

لمدة تسع سنوات، والقبائل العراقية تعيش في حالة خوف، فإذا ما مر راكب جمل وأطلق ناره على أرنب كانت قبائل بكاملها تقوض خيامها، وتفر في حالة من الهلع، ويصرخ رجالها قائلين: «الإخوان... الإخوان... جاء الإخوان». أما تلك الليلة في الجليدة فانقلبت الأمور، فانسحب الدويش ورايات حربه والآلاف من محاربيه عبر الحدود بتقهقر. ولم يجرؤوا على التوقف إلا بعد أن قطعوا كثيراً من الأميال خلف الحدود، في الباطن بالقرب من الحفر، على بعد حوالي ثمانين ميلاً جنوبي مخيمنا في الأبطية.

وتظل مجرد تخمينات أكاديمية عمّا تؤول إليه الأمور لو أن الدويش قد قبل التحدي وأمر قواته بالتقدم من الجليدة إلى الأبطية. ولأنه وصل الجليدة متأخراً بعض الشيء فإنه من المحتمل أن يكون هجومه قد وقع بعد الفجر بساعة أو أكثر. ومن الممكن أن تكون دورية الفجر الخاصة بنا تمكنت من تحذيرنا قبل وقوع الهجوم، وبالتالي نستطيع إرسال برقية إلى سلاح الجو الملكي البريطاني، ومن الممكن أن تصلنا الطائرات بعد ساعة أو ساعتين من وقوع الهجوم. أما العربات المدرعة القادمة من بصية فلا يحتمل وصولها قبل أربع أو خمس ساعات، لأنها مركبات ثقيلة تتحرك ببطء في صحراء مغطاة بشجيرات صغيرة، لكن نجاح أو فشل بداية هجوم الإخوان قد يتقرر في أول ساعة من المعركة قبل وصول أي مساعدات. وهذا يحتم علينا، كما يبدو، أن نخوض المعركة بمفردنا. وسواء انتصرنا في معركتنا أو خسرناها، فإن

العربات المدرعة ستدرك الإخوان وتلحق بهم إصابات .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من هجوم الإخوان الثلاثي الكبير بدعوى الحرب المقدسة، لاستئصال القبائل «المشركة» . ولم يقم ابن شقير بأي هجوم على الإطلاق . وكان الدويش قد تقدم إلى مسافة تبعد مسيرة ست ساعات عن مخيمنا، لكنه انكفأ متراجعاً وعبر الحدود ثانية قبل الفجر . أما ابن حميد فقد كان يستفسر عن موقع الحدود العراقية بحذر، وشن هجوماً عن عمد على رعايا ابن سعود في الأراضي النجدية .

❊ ❊ ❊

لم يكن الوضع من وجهة نظرنا مُرضياً تماماً، فالدويش يخيم في الباطن وبالقرب منه قوة أخرى من مطير بقيادة تريحيب بن شقير، وبيننا صحراء خالية تماماً . وإذا قرر القائدان الهجوم علينا فبإمكانهما وصول مخيمنا بعد خمس عشرة ساعة ولا يحتمل أن يحصل على معلومات عنهما من أي مصادر استخباراتية .

وفي هذا الوقت كانت مشكلتنا الملحة هي أن تركز قبائلنا في بقعة واحدة لن يستمر طويلاً، فالمراعي حول مضاربنا قد استهلكت، وأخطر من ذلك أن مياه الخباري التي كنا نعتمد عليها قد أوشكت على النضوب، وإذا مكثنا في مخيمنا فإن قبائلنا ستتبعثر مرة أخرى ولا نستطيع منعها من ذلك . وكان من المحتمل أن تراهن مطير على هذه التطورات . إن الوضع يشبه القط وهو يراقب جحر الفأر، فكانوا ينتظرون ترحال مجموعات من خيامنا نحو الحدود، لينقضوا عليها انقضاضاً مفاجئاً ويفتكوا بها . وقد أدركت أننا إذا بقينا جامدين، فإن جيشنا سيتلاشى خلال ثلاثة أو أربعة أيام . وأصبح جلياً، أنه لابد أن نبادر إلى تنظيم تحركنا القادم .

هناك منطقتان فقط قادرتان على استيعاب هذا العدد الكبير من القبائل، من ناحية الماء والكلأ، هما المنطقة المحايدة والأراضي الكويتية الواقعة شرقي الباطن، حيث سقطت عليها أمطار كثيرة على نحو استثنائي . إلا أنه لم يبد من الممكن الانتقال إلى إحدى هاتين المنطقتين، وذلك بسبب التقييدات الدبلوماسية المفروضة علينا باستمرار . وكان الانتقال إلى المنطقة المحايدة مغرياً لنكون في موقف التحدي بالنسبة إلى الإخوان مرة أخرى . ولكن على الرغم من أن السنة الماضية شهدت إلقاء القنابل على مطير من طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني في اللصافة التي توجد على بعد مئة وعشرين ميلاً داخل الحدود النجدية، منعت الطائرات هذه السنة من دخول المنطقة المحايدة أو الطيران فوقها، كما أن الجيش العراقي ممنوع من دخولها . ولم يسمح إلا لي و لقوة هجانة الصحراء بإقامة مخيمنا هناك . وعلى الرغم من جاذبية مثل هذا التحرك كإشارة إلى التحدي، كان يبدو محفوفاً بالمخاطر إلى حد غير ضروري، لأن الدويش وابن شقير لا يزالان قريبين منا على بعد مسيرة ليلة واحدة .

أما بالنسبة إلى الوضع في الأراضي الكويتية، فهو على عكس ماهو في المنطقة المحايدة فكان يسمح للطائرات البريطانية والعربات المسلحة بالعمل في الكويت، ولكنه لم يسمح للجيش العراقي وقوة الهجانة. وبطريقة دبلوماسية دقيقة وعجيبة سمح لي بدخول الكويت نهاراً على أن لا أبيت فيها. ونظامنا الدفاعي الذي يتضمن الطائرات البريطانية، والجيش العراقي، وشرطة الهجانة، لم يستطع تأدية واجباته بسبب التقييدات الدبلوماسية، في أي من المنطقتين اللتين تحتاجهما القبائل للرعي، ولمواجهة هذا الوضع عادت السلطات إلى الحديث عن مقترحاتها المعتادة: «لماذا لا تنسحبون إلى بصية؟» ولأنه لم تكن هناك مراع جيدة في بصية، كنت أعرف جيداً ما ستؤول إليه الأمور إذا انسحبنا، فالقبائل ستتبعثر في أماكن متفرقة وبعيدة، وهنا يجدهم الدويش، الذي تنتظر قواته مع راياتها الحربية خلف الحدود، لقمة سائغة فينقض عليهم، ويصبحون ضحايا مذبحة جديدة، لا مُعين لهم.

شرحت تلك النقاط بالتفصيل في برقية طويلة بالرموز السرية أرسلتها إلى بغداد. وأخيراً توصلنا إلى حل وسط، إذ وافقت السلطات على تجمع كل القبائل العراقية في الأراضي الكويتية، شرق الباطن. وقد زرت تلك المنطقة مؤخراً في جولتين استكشافيتين أثناء النهار. وبقيت مراعي بكراً منذ غارة ابن حثلين في ٢١ يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٢٩، عندما أخْلَتها كل القبائل. والآن أصبح طول الأعشاب والأزهار البرية يصل إلى الركبة ويبدو بعض الرياض [الأجواء] بين التلال كأنها مروج الألب في مايو/ أيار - لم أر في حياتي مثل تلك المراعي في الصحراء من قبل. وسمح لي ولشرطة الهجانة أن نخيم في الأراضي الكويتية، ولكنه لم يسمح للجيش العراقي بعبور الحدود. وبالتالي سنستبدل بالمدافع الرشاشة الأربعة وجهاز اللاسلكي التابعة للجيش العراقي التي كانت معنا في الأبطية، فصيلاً من العربات المدرعة التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني. ولم يتم التوصل إلى هذه الترتيبات المرضية إلا بعد أن تحولت أرض خباري الأبطية إلى وحل لنضوب مياهها.

وهكذا وافقت السلطة على الخطة، ولكن بقي أن نقنع القبائل بها، وانتشرت أخبار ما نتمتع به من مراع رائعة إلى منطقة الفرات وإلى منطقة الجزيرة ووصلت حتى منطقة دجلة. وجاءت أعداد غفيرة من القبائل العراقية، التي من غير المعتاد أن تجرؤ على الخروج إلى الصحراء الجنوبية على الإطلاق. وأخذت تتبع خطواتنا وقد أغرتها الأخبار التي سمعتها عن اندحار الإخوان والأعشاب الخضر. وخيم خلفنا هؤلاء الناس، والتهمت أنعامهم الأعشاب كالجراد، مما جعل الانسحاب نحو الشمال عسيراً. وكان الظفير، والقشعم، والبدور، والجوارين، وبني مالك، والرفيع - وحتى بعض أفراد عائلة السعدون [شيوخ المنتفق] على استعداد لدخول الكويت تحت حمايتنا. ولكن المشكلة تكمن في كيفية إقناع الزياد وبني حُكيم من أهل السماوة

وقد جاؤوا بعيداً عن مناطق رعيهم الشتوية المعتادة في صحراء الحجرة، فكيف أقنعهم بالترحال لمسافات أبعد؟

ووجدوا اقتراحي، بالتحرك نحو الشرق بمسافة مئة ميل أخرى، مثبطاً لهممهم، ولم يكن نفورهم من ذلك الاقتراح يعود إلى خشيتهم من دخول بلد غريب جديد. كنا الآن في نهاية شهر فبراير/ شباط. وتبدأ حرارة الجو بالارتفاع في أبريل/ نيسان. ومهما تسمن أغنامهم يجب أن يرحلوا مسافة ٢٥٠ ميلاً عائدين ثانية إلى مناطق رعيهم الصيفية يخترقون صحراء خالية من الماء تقريباً. وإذا ما صادفتهم موجة حر أثناء مسيرتهم فإن الأغنام ستنفق بالمئات. وبعد نقاش مسهب وافق الشيوخ على القيام بالمحاولة وقد حثهم بقوة المقدام الشيخ كاظم.

وكانت المسيرة بحد ذاتها تمثل مشكلة كبيرة، فلا يزال الدويش وابن شقير يتواجدان على مسافة قريبة مما يمكّنهما من الهجوم علينا، وقد ينتهزان فرصة تخلينا عن موقعنا الدفاعي في الأبطية. فالمسافة بين مخيمنا والموقع الجديد الذي اخترناه في أم المدافع هي ٧٠ ميلاً ولا توجد موارد مياه في الطريق الذي سنسلكه. والمسيرة سهلة بالنسبة إلى البدو أصحاب الإبل لكنها تعد رحلة طويلة منهكة بالنسبة إلى أغنام وقبائل تقطع المسافة مشياً على الأقدام، محملين الخيام والمؤونة على الحمير.

رحلت الظفير، وهي القبيلة الأكثر قدرة على التنقل، متقدمة على القبائل الأخرى. وقررت أن أكون في مؤخرة المسيرة مع الزياد وبني حُكيم. وكان فريقي الخاص يتكون من سيارتي، وست شاحنات شرطة، وأربعين هجاناً يمتطون جمالهم. ولم أستطع منع نفسي من الابتسام، في ذلك الصباح الربيعي، وأنا أوجه نظري إلى السهول الواسعة المحيطة بنا، وهي مغطاة بقطعان الأغنام، وقوافل من الحمير المحملة تسوقها نساء لابسات ثياباً قطنية سوداء طويلة، ورجال يمتطون الجياد وقد تقلدوا بنادقهم على ظهورهم، ويبدو أنهم غطوا أديم الصحراء على امتداد النظر حتى الأفق، قبائل تتحرك كمجاميع من النمل. ووسط هذه الحشود الغفيرة من البدو الرحل التي كاد لا يتغير شكلها منذ أيام [النبي] إبراهيم سوى بنادقهم، تتحرك سيارة صالون تقل رجلاً إنجليزياً منفرداً يتبعه رتل صغير من الشاحنات وأربعون هجاناً. لا أعتقد أن أي مجموعة غير مؤتلفة من هذا النوع قد شوهدت في الصحراء من قبل، ولكننا ربما كنا مجرد رمز للعصر الجديد، الذي ينبلج فجره، حيث يفقد الجمل سيد الصحراء لآلاف السنين، سطوته ومجده وتستبدل به الآلة.

حمل رجالنا الأربعون راية الحرب الجديدة معهم وقد طرزت بخيوط ذهبية بعبارات: «لا إله إلا الله، نصر من الله وفتح قريب». وتساءلت السلطات في بغداد عن ملاءمة استخدام نص إسلامي، لأن أفراد قوتنا ليسوا كلهم مسلمين، وربما أنا المقصود. لكن عبارة لا إله إلا الله

تبدو لي لاهوتياً مقبولة، وكذلك كانت آمالنا في النصر القريب تزداد يومياً.

واتضح لنا أن المسيرة كانت تجربة شاقة، فكان الزياد يجهلون المنطقة تماماً، وتوجب علينا تنظيمهم وقيادتهم هم وأغنامهم بواسطة شرطة الهجانة. وقد كان للعناية الإلهية دورها فقد سقط المطر مدراراً وبغزارة أثناء مسيرتنا، وبالتالي حل أزمة الماء التي كانت تقلقنا. هطلت الأمطار بغزارة في الصحراء وسالت على أثرها الشعب الصغيرة مكونة غدراناً وخباري في الرياض وتحت الشجيرات، وتوقفت الأغنام هنا وهناك وأنزلت رؤوسها إلى الأرض تشرب ماء المطر. وأخذت فتيات الرعاة يلتقطن قربهن الفارغة من على ظهور الحمير، ويجرين إلى مصادر المياه، تنادى كل منهن الأخريات وضحكاتهن تتعالى عندما يجدن شعاباً صغيرة تسيل، ثم يجرفن حفرة في الأرض الحصوية يجتمع بها الماء ويجلسن القرفصاء على الأرض يمسكن فم القربة المفتوح بأيديهن اليسرى، ويغرفن الماء من الحفرة إلى القربة بأيديهن اليمنى، وقد يكون الماء عكراً بعض الشيء، وعند امتلاء القرب، يغرفن الماء بأكفهن مباشرة إلى أفواههن ليشربن.

أقبل شايم الجنفاوي الشمري أحد جنودنا ـ الذي لم أعرف أي جندي أشجع وأخلص منه ـ راكباً جمله وهو يعدو خبباً وبخطوات واسعة، وكنت أقود سيارتي وأراقب القطعان وهي تسير تحت المطر المنهمر. وناداني قائلاً «نحمد الله على لطفه بعباده» ويداه مرفوعتان، مبتهلاً إلى السماء قائلاً «كل العرب شربوا».

وخلال هذا التحرك، كنا نخطط لمسيرة كل يوم ونصدر تعليمات إلى جميع القبائل عن كيفية تحركاتهما بطريقة عسكرية تقريباً. وأخيراً وصلنا إلى العُذيبة غربي شعيب الباطن الكبير، ووجدنا الماء في آبار غير عميقة هناك.

وعندما أصدرنا الأوامر لنتحرك في مسيرتنا في اليوم التالي من العذيبة إلى أم المدافع لم يقل الزياد شيئاً. ولكن صباح اليوم التالي عندما تحركنا شرقاً، انفصلوا عن طابور مسيرتنا وتراجعوا باتجاه جريبيعات، معلنين أنهم لن يلحقوا بنا أكثر مما قاموا به. ويظهر أن أحدهم قد نشر إشاعة مفادها أن الإخوان يعدون لهجوم وشيك على البصرة وأن الحكومة تخدع القبائل بتجميعها في الشعيبة، لكي تستخدمها في الدفاع عن المدينة.

لقد أمضيت أكثر سني عمري مع العرب، وخلال شتاء سنة ١٩٢٩ كنت وحيداً معهم ولم يكن بقربي أي إنجليزي آخر، ولي عدد لا يُحصى من الأصدقاء العرب، بعضهم أصدقاء عزيزون، كمثل أصدقائي الحميمين والمخلصين في بلادي. ولكن في كل الأقطار العربية واجهت من حين لآخر هذا الميل المحنق إلى عزو جهودي المخلصة لمساعدتهم إلى دافع غدار

وخبيث. إن هذا الميل إلى اتهام حتى أخلص أصدقائهم بنوايا سافلة وغير أمينة يشكل إحدى السمات غير المستحبة لدى هذا الشعب الجذّاب.

وبعد الكثير من الجدال والتفسير بصبر، اقتنع الزياد بإعادة الانضمام إلى مسيرتنا في اليوم التالي.

إن تجوالنا في البرية خلال شتاء ١٩٢٨ - ١٩٢٩، منحني التعاطف الدائم مع [النبي] موسى، الذي لازلت أحتفظ به، فمن المؤكد أن قيادة شعب رحال عبر الصحراء ليست بالوظيفة السهلة. « وتذمّر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل. . . ليتنا متنا في هذا القفر. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف، تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة. أليس خيراً لنا أن نرجع. . . ؟» (٦٠)

وعندما وصلنا أم المدافع صمتت كل الأصوات الشاكية. فقد خيمنا بالقرب من خبراء واسعة مثل بحيرة تقع في واد ضحل تحيطه رياض مستوية، تغطيها حلة قشيبة من الأعشاب والأزهار البرية وكأنك في مَرج إنجليزي في شهر يونيو/ حزيران. وسرعان ما انضم إلينا الظفير، والقشعم، والسعدون وخيم البدور على بعد بضعة أميال في جانبنا، بينما الجوارين وبني مالك قد خيموا على الجانب الآخر. وبعد مشاورات مع شيوخ القبائل أقمنا مواقع دفاعية، وأخذت كل القبائل ترقص رقصة الحرب وتعبر عن تحديها للدويش وحلفائه.

ومن أم المدافع تبعد الحدود النجدية - الكويتية حوالي ٥٠ ميلاً إلى الجنوب. وقمنا بترتيبات مناسبة، إذ تقوم القبائل بمهمة الحراسة بوساطة الخيل والإبل، وعربات الشرطة تقوم بدوريات المراقبة من الفجر حتى حلول الظلام. وفي الوقت نفسه فإننا لانبعد عن الشعيبة سوى ٥٠ ميلاً حيث تربض طائرات أصدقائنا من السرب ٨٤، وهي على أهبة الاستعداد لأي طارئ. ومن خلال وجود فصيل العربات المدرعة التابع لسلاح الجو نستطيع الاتصال المباشر بالسرب في حالة تعرضنا لهجوم. وأمكننا وجود المراعي الوافرة من التجمع في منطقة صغيرة، وكانت تلك الحشود القبلية المتمركزة في منطقة واحدة لا سابق لها منذ أيام ثويني بن عبد الله. فالحدود مغطاة بشكل تام بالحراسة والدوريات، وسلاح الجو الملكي البريطاني على مقربة منا وهكذا سنجني ثمار كدحنا وتعبنا.

إنني أتذكر دائماً الشهر المبهج - شهر مارس/ آذار سنة١٩٢٩ - الذي أمضيته مع قبائلنا المبتهجة والفرحة. كان طول الأعشاب والأزهار يصل إلى الركب. وقبل ذلك الربيع لم أر الصحراء تلبس حلة قشيبة من الأزهار البرية الوافرة. وربما كان التباين الواضح بين هذا المنظر

(٦٠) عدد ١٤، ٢-٣.

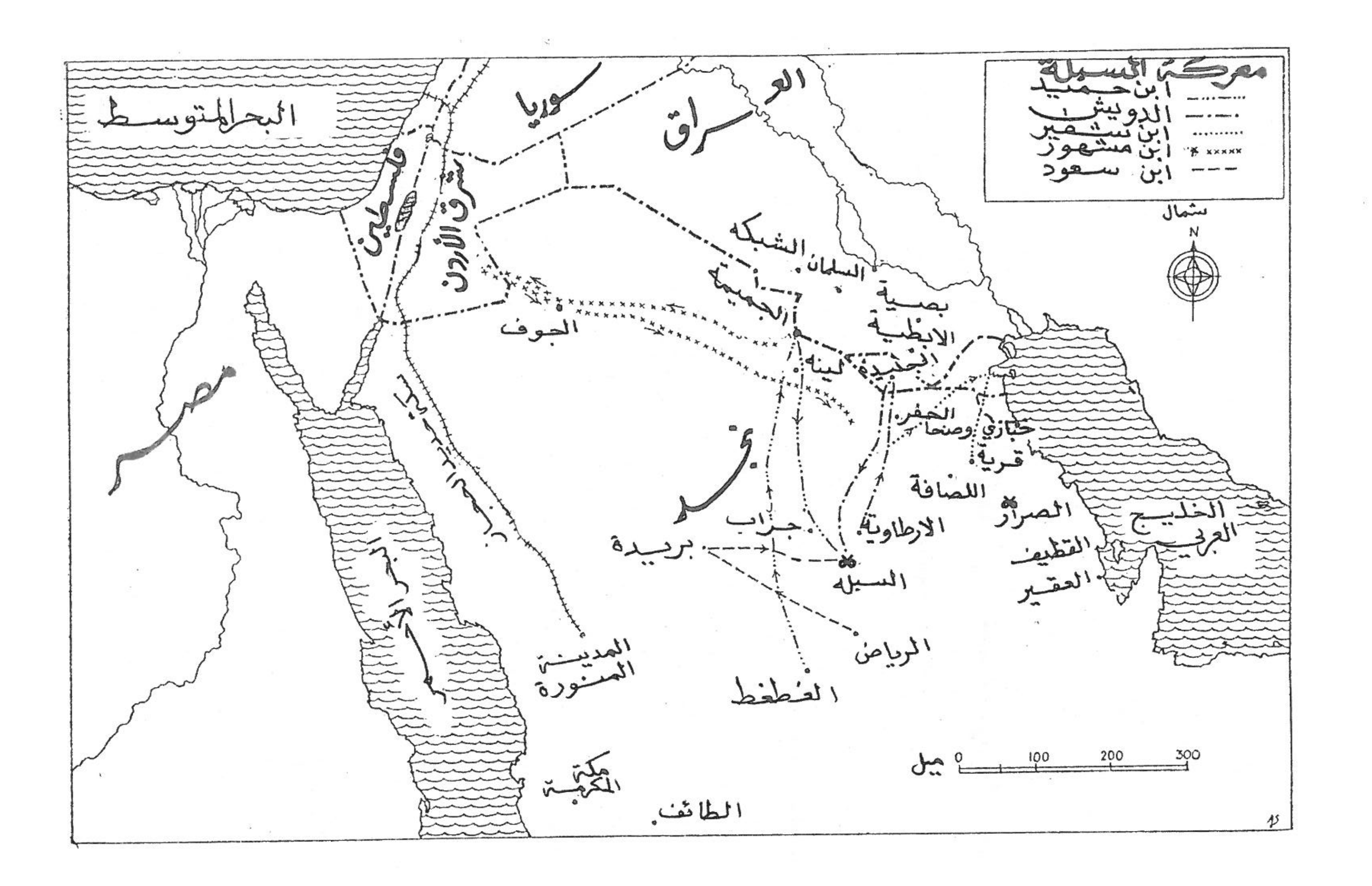
وبين صيف لاهب الحرارة مغبر في العراق هو الذي زاد منظر الأعشاب وأزهار الربيع جمالاً، كما يزداد جمال صباح ذي سماء صافية في إنجلترا إذا سبقه أسبوع من هطول المطر المتواصل. فيبدو أن الله يستعمل حالات التباين هذه ليلفت أنظارنا إلى بدائع خلقه. وإذا ما أمعنا النظر في أي شيء مهما كان جميلاً، تعوّدنا عليه بحيث لم نعد نراه أو نعجب به، فيغيره الله فجأة إلى شكل مختلف تماماً، ليلفت انتباهنا السارح، لنحمده ونشكره على خلقه العظيم.

الصحراء جميلة على الدوام، حتى حرارة صيفها اللاهبة، وتلالها الزرق التي تتراقص وسط السراب، وشعابها الصغيرة وتلاعها الرملية النظيفة البكر، وشجيراتها ذات الرائحة العطرة. إنها الطبيعة جميلة في كل جوانبها، حتى أصوات طيور البحر في يوم غائم، أو الغسق في غابة خضراء كثيفة، أو القنوات الصغيرة التي لا يحصى عددها في أهوار الفرات والتي تسدّ بجدران عالية من القصب، بينما الجاموس يغطس ليبرد جسمه في المياه الصافية لا تظهر منه إلا فتحات أنفه على سطح الماء. وحتى في الصيف فإن حرارة أتون الصحراء بُعيد الظهيرة لا تكاد تمر عندما تتسلل فجأة نسمات باردة وبعد أن نلهث لعدة ساعات لكي نتنفس، نشعر بدفعة جديدة من الحيوية، والقمر والنجوم تضفي إشعاعاً فضياً على السهول الواسعة وتنساب نسمات باردة إلى الشجيرات الصغيرة.

وقد يكون أسوأ اتهام يوجه إلى حضارتنا الصناعية في المستقبل هو أنها حيثما اتجهت في أي مكان كان تدمير الجمال ديدنها، واستبدالها به القبح الذي صنعه الإنسان، وربما كان أسوأ من ذلك أننا فخورون بهذا التدنيس، وعندما نجد أراضي جميلة ذات سهوب واسعة، هواؤها نقي، أو رقعة ممتدة من الأحراج، نسمي هذه البلدان بالمتخلفة ونسرع في تدمير جمالها بإقامة المصانع، وناطحات السحاب، وحقول النفط، والشقق في العمارات الإسمنتية ـ عجائب الاختراعات الحديثة، كما نقول، ولكن في المقابل، من هو الذي اخترع شروق الشمس، أو الورود، أو غروب الشمس المتوهجة على سلسلة من الجبال المكسوة بالثلج؟

الفصل السادس عشر

يوم السّبلَة



معركة السبلة
ابن حميد
الدويش
ابن شقير
ابن مشهور
ابن سعود
شمال
N
البحر المتوسط
سوريا
العراق
فلسطين
شرق الأردن
مصر
الشبكة
السلمان
الجميمة
بصية
الابطية
الجوف
لينه
الجريبة
الجفرة
وصنحا
حبازي
قرية
نجد
اللصافة
الصرار
الخليج العربي
الارطاوية
جراب
بريدة
السبله
القطيف
العقير
الرياض
المدينة المنورة
الغطغط
ميل
0
100
200
300
مكة المكرمة
الطائف

يوم السّبِلَة

عندما غادر ابن حُمَيدْ موطنه «الغطغط» في نهاية شهر يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٢٩ معلناً تصميمه على خوض غمار حرب مقدسة ضد «الكفار» العراقيين، وردت تقارير مفادها أن ابن سعود قد أرسل إليه يستحثه على تأجيل ذلك حتى يتمكن كل المسلمين من الانضمام إليه والمشاركة في مشروعه المقدس - وفي أغلب الظن أنها حيلة لكسب الوقت، وعندما لم يكترث ابن حميد بتلك النصيحة زُعِمَ أن ابن سعود أرسل إليه رسولاً مرة ثانية يخبره بأنه بإمكانه غزو العراق إذا رغب في ذلك شرَيطة أن لا يُغير على أي قبيلة نجدية. وتحوم شكوك فيما إذا كان ابن سعود قادراً على حشد قوات في نجد لمقارعة المتمردين في هذه المرحلة، حتى وإن كانت لديه الرغبة في ذلك. وبالنسبة إلى المذهب الوهابي ومبدأ الحرب المقدسة ضد الكفار فقد غرس الملك نفسه أفكارها وطبعها بأذهان الناس، وأدت دوراً فعالاً لتمكينه من إطاحة منافسيه العرب الآخرين مثل ابن رشيد والأشراف [الهاشميين].

ومادام المتمردون ملتزمين إعلان عزمهم على مواصلة واجب الحرب المقدسة، فإنه من الصعوبة بمكان تأجيج صراع ضدهم. وفي واقع الأمر، كان الملك نفسه معرّضاً لخطر الاتهام بأنه تخلى عن واجبه الديني، من أجل مصالحه الدنيوية، بإقامته علاقة ودية مع «الكفار». ربما رأى الكثيرون أن ابن حميد والدويش، بتحديهما للملك، كانا متهورين، وأنهما بفعلتهما تلك سيشقان المسلمين. وربما كان آخرون تبنوا قضية الملك بعد أن أغدق عليهم الهبات السخية، غير مستعدين للتخلي عن مصدر هذه المكتسبات حتى تتضح الرؤية ويُعْرف من هو المنتصر. أما الرؤساء أصحاب المكانة الاجتماعية بمستوى ابن حميد والدويش فربما شعروا بالغيرة من أندادهم الطامعين بأن يصبحوا حكاماً عليهم. ولكن التعاطف مع قضية الملك لسبب

أو آخر هو شيء، والاستعداد لخوض حرب أهلية متناحرة ضد مطير وعتيبة والعجمان هو شيء آخر، وهم يدّعون أن هدفهم الحقيقي هو القيام بمتطلبات واجب الحرب المقدسة ضد «الكفار».

إن هجوم ابن حميد على الجُميمة أحدث تغييراً شاملاً في الوضع، وأثارت مذبحة التجار عاصفة عارمة من التذمر لدى أهل المدن في نجد. كما غضبت القبائل البدوية الكبيرة الأخرى على نحو مماثل. فكانت شمر قد تعرضت لهجوم كاسح شنه ابن حميد، كما تعرض فخذ ولد سليمان من قبيلة عنزة لمذبحة ارتكبها ابن مشهور، وتُشكّل أفخاذ من عنزة قسماً كبيراً من قبائل الحجاز. ولم تنضم قبيلة حرب إلى المتمردين، وعبرت هذه القبيلة بشكل واضح عن سخطها عليهم. وفوق هذا كله، فإن ادعاء ابن حميد بأنه المسلم الحقيقي، وأن ابن سعود غير ملتزم الدين ويفضل مصالحه الدنيوية، اتضح انه رياء وزيف تماماً، فعندما استشعر ابن حميد بالخطر في محاربته «الكفار»، استبدل ذلك بالهجوم على إخوانه المسلمين. إن قضية الملك التي كانت في وضع مزعزع قبل شهر، أخذت تتمتع فجأة بالدعم على مستوى كل البلاد. وأصبح ابن سعود، بدلاً من أن يستحث أتباعه على التجمع حوله، يجد نفسه مدفوعاً بمناشدتهم إياه اتخاذ إجراءات صارمة ضد الذين ارتكبوا مثل هذه الفظائع.

وكان الدويش أكثر مهارة سياسية من ابن حميد، فعندما وجد أن الهجوم على القبائل العراقية تكتنفه المخاطر، انتظر وترقب الفرصة المواتية، في الوقت نفسه لم يقطع علاقاته مع الملك. ولو كان الدويش في موقع القيادة، لكان من المحتمل أن يستمر في شبه تمرد غير معلن إلى أجل غير مسمى ويدعي دوافع دينية. وكان حريصاً ألا يتمادى كثيراً في تمرده حتى لا يجد ابن سعود مسوغاً لمحاربته. لكن قائدين عربيين لا يستطيعان الاتفاق طويلاً ولم تكن لدى ابن حميد حذاقة سياسية، وبسبب تهوره وطيشه أوقع نفسه بيد خصمه ابن سعود.

وعندما وصلت أخبار هجوم ابن حميد على الجميمة إلى ابن سعود، تقدم بقواته إلى بريدة في القصيم ودعا إلى تجميع قوات مضاعفة من سكان قرى نجد. واستجاب الأخيرون بحماسة له، لأنهم اقتنعوا بأنهم لن يتمكنوا من العيش بسلام أو ممارسة تجارتهم إذا ما استمر البدو المتوحشون من عتيبة بارتكاب المجازر ضد تجارهم من غير عقاب. ثم دعا الملك جميع القبائل للانضمام إليه.

* * *

تركنا قوات المتمردين الثلاثة مخيمة جنوب الحدود العراقية، في نهاية شهر فبراير/ شباط، وكان ابن شقير والدويش بالقرب من حفر الباطن ولم يقوما بعد بشن هجومهما علينا. أما ابن

حميد فقام بتوزيع الأسلاب على تابعيه في «لينة»، وفي غضون ذلك أرسل جواسيس للتأكد فيما إذا ظهرت من ابن سعود أي مؤشرات على تحركه، وإذا كان كذلك فكان قد رتب أن تنضم قواته إلى قوات الدويش لمواجهته. وإذا كان غير ذلك، فمن المعتقد أنه كان ينوي شن المزيد من الغزوات باتجاه الشمال ضد عنزة في منطقة الوديان إلى الغرب من كربلاء حيث لم توجد هناك قوات عراقية ـ بريطانية.

في هذه الأثناء كان تريحيب بن شقير قد وجد صيداً سهلاً، ليس في التجمعات العراقية الرئيسية، بل يتمثل بحوالي ثلاثين خيمة من عشيرة بني مالك أصحاب الأغنام ـ ولم نعلم عنهم شيئاً ـ فقد ارتحلوا في نهاية يناير/ كانون الثاني إلى الجهراء وخيموا مع عريبدار. وكان معلوماً أن عريبدار يرتبطون بعلاقات ودية مع المتمردين الإخوان، وعليه اعتقد أصحاب الأغنام أنهم عندما ينزلون مع عريبدار فسيأمنون شر الإخوان.

وعندما علم ابن شقير بوجودهم أعلم شيخ الكويت عن عزمه على الهجوم عليهم وطلب من عريبدار أن ينفصلوا عنهم. ولبى الأخيرون مطلب ابن شقير ورحلوا عنهم تاركين إياهم وحيدين بالقرب من الجهراء. وفر بنو مالك والخوف يعتريهم ونصبوا خيامهم بالقرب من مدينة الكويت، وكانوا قد دفعوا الضرائب [الأتاوات] إلى ابن صباح وبقبول الأخير ما دفعوه من نقود جعل نفسه مسؤولاً عن سلامتهم. وفي أواخر شهر مارس/ آذار شرعت ثلاث مجموعات مكونة من خمسمئة فرد من مطير بثلاث رايات حرب تحت قيادة كل من ابن شقير، والفغم، وابن لامي بالهجوم على أصحاب الأغنام البؤساء الذين التجؤوا إلى سور الكويت. إلا أن شيخ الكويت أمر بإغلاق بوابات السور وترتب على ذلك أنه حتى هؤلاء الفارون قد حرموا من دخول الكويت(٦١). وقاوم أصحاب الأغنام الضعفاء أعداءهم مقاومة في موقف ميئوس منه ويتعذر التراجع عنه وكانت نسبة عدد الأعداء ٢٠ إلى ١. وأُبيد كل الرجال تقريباً الذين بلغ عددهم ٣٧ رجلاً، وقيل إن ٢٠ رجلاً من الإخوان قتلوا خلال هذا الهجوم. ولو سمح بفتح إحدى بوابات سور الكويت، لكان من الممكن إنقاذ أرواح الضحايا، ولكن الإرهاب الذي يقوم به الإخوان جعل الناس يقفون مكتوفي الأيدي أمام هذه المذبحة. وعصر ذلك اليوم قام سرب الطيران الرابع والثمانون في الشعيبة بالإغارة على فلول الغزاة المنسحبين وألقى عليهم بعض القنابل وقُتل عدد قليل من الإخوان وعدد كبير من الأغنام المسلوبة.

وعاد تريحيب بن شقير إلى موطنه «قرية»، وترك الدويش يدافع عن نفسه. وحدث

(٦١) يقول حمد السعيدان إن بوابة السور «دروازة الجهراء» قد أغلقت أمامهم ولم يسمح بفتحها، ويضيف أن ديكسون قد قال: «كنا والشيخ أحمد الجابر فوق سطح الدروازة نتفرج على هذا المنظر الفظيع». [المترجم]

انظر: حمد محمد السعيدان. **الموسوعة الكويتية المختصرة**، ج٢، ط١. (مطبعة حكومة الكويت ـ الكويت) ١٩٧٢، ص٨١٥.

الهجوم المذكور عندما ارتحلنا من الأبطية إلى أم المدافع ولم يكن معنا جهاز لاسلكي، حيث كان الجهاز تابعاً للجيش العراقي الذي لم يسمح له بدخول الأراضي الكويتية، ولم تنضم إلينا بعد العربات المدرعة بديلاً من الجيش العراقي. وهكذا كانت الاتصالات مقطوعة عنا لمدة ٤٨ ساعة تماماً في الوقت الذي وقع فيه غزو الإخوان. ومن ثم ذهبت إلى الكويت مع ثلاث شاحنات شرطة لأخذ الناجين من عائلات بني مالك الثلاثين، وكان كلهم من النساء النائحات والأطفال الباكين.

في غضون ذلك كان الدويش وابن حميد سمعا بتحضير ابن سعود لحربهم في بريدة، وجمعا قواتهما في جراب في منتصف شهر مارس/ آذار.

وقد جمع ابن سعود قوات ضخمة في القصيم، تتكون من مفارز من قبائل البادية الرئيسية التالية:

- قسم من عتيبة تحت قيادة عبد الرحمن الربيعان، منافس ابن حميد.
- قسم من مطير تحت قيادة مشاري بن بصيص، الذي انضم إلى ابن سعود.
- الرشايدة تحت قيادة دليم بن براك.
- أغلب قبيلة حرب
- وتقريباً كل شمر نجد.
- الظفير تحت قيادة عجمي بن سويط، الذين انضموا إلى ابن سعود.
- قسم من عنزة الحجاز، ولد سليمان (الذين قتل أقرباؤهم على يد ابن مشهور)، والفقير وآخرون.
- إضافة إلى أعداد كبيرة من أهل بلدات نجد [قروية نجد].

وكانت قوات المتمردين أقل بكثير من قوات ابن سعود حيث تتكون بشكل رئيسي من أفراد متعصبين من قبيلتي مطير وعتيبة كانوا قد توطنوا في هجر[٦٢] الإخوان، وأعداد قليلة من أفراد القبائل الأخرى منهم: عياد بن نهيّر من شمر ومحسن الذكري من حرب. وفي العشرين من مارس/ آذار وجه الدويش نداء استغاثة إلى بدو مطير للانضمام إليه، ولكن القليل منهم لبى نداءه. أما ابن شقير والفغم وابن لامي، كما ذكر آنفاً، فقد عادوا إلى موطنهم لتقاسم الأسلاب المنهوبة من بني مالك.

---

(٦٢) الهجَر (مفردها هجرة): أنشأها الملك عبدالعزيز كمستوطنات للبدو الرحّل يستقرون فيها، بدلاً من حياة التجوال. وجاءت التسمية من هجَرهم حياة البادية. [المترجم]

للمزيد انظر: د. موضي بنت منصور بن عبدالعزيز، **الهجر: ونتائجها في عصر الملك عبدالعزيز**، دار الساقي، لندن ١٩٩٣.

ومع أن قوات المتمردين أقل عدداً، إلا أنها كانت أكثر تجانساً من قوات الملك، كذلك فإن تلك القوات ولفترة طويلة قد اعتادت على تحقيق الانتصارات. ومن جهة أخرى كان جيش ابن سعود يضم أهل نجد [الحضر أو القروية] وهم أشد المقاتلين في الجزيرة العربية يدفعهم سخطهم المرير على الإخوان الذين ارتكبوا مذبحة ضد تجارهم، تلك المذبحة التي تعد أفدح أخطاء ابن حميد. ومن دون ارتكاب ذلك الخطأ الفاحش كانت هناك شكوك في قدرة ابن سعود على مواجهة المتمردين في ميدان المعركة.

إن رجال الواحات مقارنة بالبدو المتوحشين يشبهون نوعاً ما الفرق المدربة اللندنية في الحرب الأهلية الإنجليزية بالنسبة إلى فرسان الملك غير المنضبطين بشجاعتهم الحيوية الفردية.

وفي منتصف مارس/ آذار تقريباً، بينما كان كل من الملك والمتمردين يقوم بحشد قواته، اندلعت بشكل فجائي وكثيف غزوات بين قبائل نجد المتصارعة. فقد هجمت مطير على سبيع الموالين للملك. وقام الأخيرون بهجوم انتقامي ضدهم. وقام مطير أيضاً بسلب قطعان من حرب، وأصبح واضحاً أنه لم يعد من الممكن تأجيل الحرب الأهلية.

وعندما ركز المتمردون قواتهم لمواجهة جيش ابن سعود، على الرغم من توجيه الدويش نداء لأفخاذ بدو مطير لمساندته إلا أنه طلب من ابن شقير البقاء في «قرية» وابن حثلين شيخ العجمان في «خباري وضحا» لحماية جبهته الخلفية من تقدم قوات حاكم الأحساء السعودي. وفي هذا الصدد فمن المحتمل أن الدويش قد ارتكب خطأ استراتيجياً كبيراً، فالمعركة المهمة الوحيدة من وجهة نظر المتمردين هي الصدام الوشيك مع ابن سعود. فلو انضم كل مطير والعجمان إلى جيش المتمردين لربما كانت نتائج المعركة مختلفة.

* * *

ومن لحظة وصول ابن سعود إلى «بريدة» كانت تجري مراسلات بينه وبين قادة المتمردين، وكان الدويش يميل إلى حل وسط، وكان ابنه عُزيِّز [عبد العزيز]، الذي أقسم يمين الولاء لابن سعود قبل ثلاثة أشهر في الرياض، أكثر معارضة لاتخاذ إجراءات صارمة. لكن ابن حميد كان متصلب الرأي ونشبت خلافات كثيرة بينه وبين عزيز وكاد يحدث شرخ في علاقتهما.

في ٢٦ مارس/ آذار قام عزيز الدويش وفيصل بن شبلان وكلاهما من عائلة الدويش بزيارة ابن سعود وطلبا منه أن يرسل العنقري، أحد كبار مشايخ الدين الوهابيين، إلى مخيم المتمردين، ليتوسط بينهم وبين ابن سعود. وأرسل العنقري على الوجه المطلوب، ولكنه أخفق في إقناع ابن حميد بالموافقة على رفع خلافاته مع ابن سعود إلى محكمة دينية لتفصل في النزاع

بينهما. وقال ابن حميد إن العرض ما هو إلا مؤامرة واضحة، وربما كان على حق في ذلك، وإن نهايته معروفة مسبقاً فإن مشايخ الدين هم أصدقاء ابن سعود وسوف يصدرون عليه حكماً بالإعدام. ومن دون شك فإن هجوم ابن حميد على الجميمة سبب اختلافاً في المصالح بينه وبين الدويش، لأن هذا الأخير قد هاجم العراقيين فقط وبإمكانه الرد على الاتهام بحجة الحماسة الدينية. لكن ابن حميد هاجم إخوانه المسلمين وبالتالي فلن يرحمه أحد.

أرسل الملك شيخين من شمر إلى مخيم المتمردين ليقترحا اجتماعاً خاصاً بين الملك وبين ابن حميد والدويش. وعلى الرغم من معارضة ابن حميد الشديدة، إلا أن فيصل الدويش قبل ذلك وتم الاجتماع في ٢٧ مارس/ آذار في خيمة نصبت أمام جيش ابن سعود، الذي كان قد تقدم إلى مسافة أربعة أميال عن مخيم المتمردين، وأمضى فيصل ليلة مع الملك في هذه الخيمة. وتم الاتفاق على محاولة إقناع ابن حميد للالتقاء مع الملك أيضاً، وإذا رفض، فإن الدويش قد وعد، كما زُعِم، بالانفصال عنه والانسحاب إلى الأرطاوية.

وأثناء زيارة فيصل الدويش للملك، قام ابن حميد بزيارة عزيز بن فيصل وأبلغه أن الملك قد غدر بوالده وقام باحتجازه. واقترح ابن حميد مهاجمة خيمة ابن سعود ليلاً، وأنه سيقوم بقيادة أهل الغطغط في هذا الهجوم. ورفض عزيز الاقتراح بشكل مطلق، ولو قبله ربما كان مجرى الأحداث مختلفاً. صحيح أن قوات المتمردين كانت أقل عدداً من قوات ابن سعود، إلاّ أنها أكثر تماسكاً وروحها المعنوية أعلى، وكان يمكن أن ينجح هجوم حازم في فوضى الليل، لأن قسماً كبيراً من قوات ابن سعود من البدو متقلبي الأطوار، وكان كثير منهم على اتصال مع المتمردين فكان من الممكن أن يهربوا في ظل الهرج والمرج الذي يحدثه الهجوم المفاجئ الليلي، إلا انه ليس هناك شيخان بدويان يستمر تعاونهما طويلاً. وهكذا فإن الانقسامات في الرأي حطمت آمال المتمردين في النجاح.

وكان ابن حميد يهدف من اقتراح الهجوم الليلي إلى قتل ابن سعود نفسه. وكانت حكومة نجد تعتمد اعتماداً كبيراً على شخصية الملك، بحيث كان من الممكن أن تنهار البلاد كلها في فوضى لو قتل بالفعل. كما كان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى تأجيل تأسيس الدولة العربية السعودية واكتشاف النفط واستغلاله إلى أجل غير مسمى، مع كل ما يترتب عليه من آثار في الغرب الصناعي، وولوج الولايات المتحدة في الجزيرة العربية. واليوم فإنه يعد ضرباً من الخيال أن تعزى التطورات الهائلة في التاريخ المعاصر إلى تردد عزيز الدويش، ذلك الشاب البدوي الجاهل المتعصب، في اتخاذ قرار الهجوم في تلك الليلة المصيرية، في مكان ناء في صحراء جزيرة العرب.

وعاد فيصل الدويش صباح اليوم التالي من زيارة ابن سعود محملاً بهدايا الملك: ثلاثمئة

جنيه سوفرين ذهبي[٦٣]، وملابس جديدة راقية، وبندقيتين قصيرتين من نوع «القربينة»، وهي سلاح يقيِّمه البدو تقييماً عظيماً. ورفض ابن حميد مداهنة ابن سعود بصلابة. ويرى البعض أن الدويش لم يحاول إقناعه، وأنه أخبره بأنه اطلع على تكوين قوات ابن سعود، ووجد أنها تتكون من جموع متنافرة، وقوتها القتالية ضعيفة ولا داعي إلى الخوف. ولكننا لن نعرف أبداً حقيقة ما دار بينهما.

ومهما كانت حقيقة هذا الأمر، أرسل الدويش رسولاً إلى ابن سعود صباح اليوم التالي ٢٩ مارس/ آذار، يخبره بعدم قبول ابن حميد مقترحاته. أما بخصوص وعده بالانفصال عن حليفه في تلك الحالة والانسحاب إلى الأرطاوية، فقال: «إن المسلمين رفضوا مفارقة المسلمين» أي مطير عن عتيبة - وحالما وصلت هذه الرسالة إلى ابن سعود أصدر أوامره برفع رايات الحرب فوراً، وأمر قواته بالتقدم إلى معسكر المتمردين في «السبلة»[٦٤].

وتقدم القسم الكبير من قوات ابن سعود مشياً على الأقدام، وتوقف بين الحين والآخر لإعادة تنظيم صفوفه، وارتفعت رايتا حرب ابن ربيعان من عتيبة، ومشاري بن بصيص من مطير على الجناح الأيمن، ورجالهما على مطاياهم، وتشكل الجناح الأيسر من بدو من عنزة وشمر والظفير وهم راكبون أيضاً.

وكان أهل مدن نجد، يتحرقون شوقاً لهزيمة أعدائهم ليثأروا ممن ذبح تجارهم، لذا فهُم أول من اشتبك مع أعدائهم المباشرين، جماعة ابن حميد أهل الغطغط، وكان الأخيرون متلهفين مثلهم لهذه المعركة. فانقضوا لملاقاتهم راكضين، وبعد قليل اشتبكت حرب والرشايدة مع متعصبي مطير أهل هجرتي الأرطاوية ومبايض، أما المحاربون على ظهور الجمال أو الجياد من البدو من الطرفين فقاموا بمناوشات على أجنحة القوات ومن مسافات آمنة. أمّا ندا بن نهير من شمر، الذي أقسم يمين الولاء للمتمردين سابقاً، ثم انضم إلى قوات ابن سعود فيما بعد فقد ناور في الجناح الأيسر دون أن يشتبك مع أحد على الإطلاق.

وتأرجح الصراع المستميت بين كرّ وَفَر لبعض الوقت بين حاضرة نجد وأهل الغطغط، وصد أهل الغطغط هجومين متتاليين من حاضرة نجد، وفي المحاولة الثالثة بدأت تنهار جهود رجال

---

(٦٣) السوفرين sovereign : جنيه إنجليزي ذهبي، غير شائع التداول حالياً. [المترجم]

(٦٤) السبلة: روضة بالقرب من الزلفى. [المترجم]

للمزيد من المعلومات عن معركة السبلة انظر:

- محمد المانع، **توحيد المملكة العربية السعودية**. ترجمة عبدالله الصالح العثيمين، الدمام، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ص ١٤٠-١٤٦.

- د. عبدالله الصالح العثيمين، **معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد**، الرياض، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. ص ص ٢٨٣-٣٠٠.

الغطغط عندما ظهرت رايتا حرب ابن ربيعان وابن بصيص خلفهم من الجهة اليسرى، وهنا انفض جيش المتمردين، ونجح بعض فرسان عتيبة في تغطية انسحاب ابن حميد جزئياً، وتعرضت مطير أهل «مبايض» لهزيمة قاسية لعدم وجود فرسان يحمون انسحابهم. وفي هذه المرحلة أصيب فيصل الدويش بطلقة في بطنه، ونقله رجل مطيري بصعوبة من أرض المعركة. وبينما تفكك جيش المتمردين تقدم سعود بن سعود، الابن الأكبر للملك، ومعه حاضرة الرياض و «المنقية» أو الحرس الملكي الخاص، لإتمام انتصاراتهم.

في هذه الأثناء أخذ بدو مطير يفرون من أرض المعركة وهم مضطربون، يسابقون الريح حتى وصلوا إلى بيوتهم في حفر الباطن. أما قوات ابن سعود من البدو، التي قاتلت بقليل من الجدية، فتقدمت أمام الآخرين بعد تحقيق النصر إلى أن أوقفهم فرسان الملك الذي أوقف جيشه لدى وصوله إلى معسكر المتمردين. وفي خيمتي الدويش وابن حميد وجدت رسائل من ندا بن نهير وجذيل بن لغيصم، وهما من شيوخ شمّرَ، وكانا يحتفظان بحذر بعلاقات مع المتعصبين، في حالة أن يكون النصر حليفهم.

وفي صباح اليوم التالي أرسل الدويش ستة رجال، ممتطين رحالاً، عارضاً استسلامه لابن سعود، وعندما جاء نبأ قدومهم أعطيت الأوامر لقتلهم دون أَدنى مناقشة، وقتل أربعة منهم رمياً بالرصاص عمداً وبدم بارد أمام المعسكر. وقلق الدويش من أسلوب استقبال مبعوثيه، فلجأ إلى عادات العرب وأرسل ثلاثاً من نساء الدوشان «المغطيات» أو المنقبات طلباً للرأفة، ومن ضمنهن بنت فيصل نفسه، وأرسلن في هوادج برفقة فيصل بن شبلان، الذي وضع حمولة كبيرة من الأعشاب على مهرته ونجح في التسلل والاختلاط مع أتباع ابن سعود الذين كانوا يقطعون الأعشاب [يحشون علفاً] لخيلهم أمام المعسكر دون أن يلحظه أحد. وبهذه الوسيلة استطاع ابن شبلان الوصول إلى خيمة ابن سعود بأمان دون أن يتعرف عليه أحد وكانت تتبعه النساء.

وعندما استلم ابن سعود عرض الدويش للاستسلام دعا إلى اجتماع كبير لأتباعه، وكما كانت عادته، أول ما قام به هو استشارة المشايخ الوهابيين عن رأي الدين في هذا الوضع. وكانت فتوى كبار المشايخ هي ألا تتعرض مطير إلى المزيد من القتل، وأن يعيدوا كل الأسلاب التي نهبوها من القبائل النجدية خلال الثلاث سنوات الماضية، ولم يأت ذكر لإعادة الأسلاب المنهوبة من العراق. كذلك يجب عليهم تسليم كل أدوات الحرب إلى ابنَ سعود، أي كل الخيل والإبل والبنادق. وطلب ابن سعود أن يسلم عُزَيِّز [عبد العزيز بن فيصل الدويش] نفسه ووعد بسلامة حياته. أما بالنسبة إلى فيصل الدويش فيجب تسليمه حياً أو ميتاً ومن دون شروط. وكان الملك قد قال لنا عندما كنا في جدة إن النظام الاستبدادي غير مستحب، وبالفعل كان

الملك في هذه المرحلة من حياته يتبع دائماً إجراءات استشارة كبار مشايخ الدين في مؤتمر عام ولاشك أنه كان يرتبط بهم بعلاقة وطيدة ويعرف مقدماً ما هي إجابتهم، وعلى الرغم من ذلك، كانت هذه الإجراءات تنمُّ عن مهاراته في كسب التأييد من رعاياه كثيري الاضطراب.

ونتيجة لتوسل فيصل بن شبلان الملح، وافق الملك على عدم دخول موطن فيصل الدويش ـ هجرة الأرطاوية ـ وعلى التخييم مع جيشه خارجها. وحمل فيصل الدويش على نقالة إلى معسكر ابن سعود وقام طبيب بفحصه وأعلن أنه على أبواب الموت، فسمح له بالعودة ثانية إلى الأرطاوية، وأمر الملك بسجن ابنه عزيز.

وفي الليلة التالية للمعركة عقد ابن حميد اجتماعاً مع الدويش ويبدو أنه حاول إقناعه بمواصلة النضال. لكن حالة الدويش الصحية كانت منهارة بسبب إصابته في بطنه فلا يحتمل مواصلة القتال. فجمع ابن حميد الأسلاب وتحرك أثناء الليل باتجاه الجنوب.

هكذا نترك الممثلين الرئيسين في هذه المأساة، في ٣١ مارس/ آذار سنة ١٩٢٩.

* * *

كما ذكر آنفاً فقد هاجم ابن شقير بقوات قوامها خمسمئة جمال مجموعة من بني مالك، حوالي ثلاثين خيمة، في الثاني من مارس/ آذار تحت سور الكويت. وبعد هجومه عاد إلى قرية مع أتباعه لتوزيع الغنائم. في هذه الأثناء كانت قوات ضيدان بن حثلين كبير العجمان تخيم مع راية حرب في خباري وضحا على بعد ثمانين ميلاً إلى الجنوب من الكويت. وطوال شهر مارس/ آذار استمر في الإعلان عن نيته في مهاجمة القبائل العراقية المخيمة معنا على بعد ٩٠ ميلاً شمالاً فقط، وبمسافة قصيرة إلى الشمال والشمال الغربي من الجهراء. وتوغلت مجموعة استكشاف تابعة له مسافة ٢٠ ميلاً شمال الجهراء في الليل حيث استطلعت معسكر سرية العربات المدرعة رقم ٦ أثناء الليل وأنا بنفسي قابلتهم، عندما اصطحبت دورية عربات صباح اليوم التالي. ورأيت رجلاً أعرفه من عريبدار كان في صحبتهم، وأخبرني أن هذه المجموعة بكاملها تتكون من أقربائه. ونتيجة لذلك تركناهم ولم نمسهم بسوء. وكان وضعنا يواجه بعض الصعوبات لوجود عريبدار حولنا، فهم رعايا الكويت، ويعدون رسمياً حلفاءنا لكن الكثيرين منهم، في واقع الأمر، مثل هذه الحالة يساعدون متمردي الإخوان، وذلك بسبب خوفهم من غزوات الإخوان، وليس بسبب سوء نية تجاهنا.

وزعم أن ابن حثلين، عندما وصله تقرير المجموعة الاستكشافية، كان يعد خطة لمهاجمة معسكر العربات المدرعة ليلاً، إلا أن وصول نبأ في آخر لحظة مفاده أن ابن جلوي يتقدم نحوه، جعله يتخلى عن مشروعه. ويجب التذكير هنا، أن عبد الله بن جلوي كان أحد مرافقي الملك

عبد العزيز بن سعود عندما فتح الأخير الرياض وقضى على حاكمها التابع لابن رشيد في يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٠٢ . والآن [عام ١٩٦٠] فإن عبد الله شيخ عجوز، وهو حاكم إقليم الأحساء، وكان ابنه فهد هو القائد الميداني .

وخلال شهر مارس/ آذار، خيم عدد كبير من بدو مطير على طول الحدود الكويتية- النجدية، وبالتحديد في منطقة الشق، لكي يرسلوا قوافلهم إلى الكويت للتزود بالمؤن . ووقعت عدة مصادمات بينهم وبين دوريات العربات التابعة لقوة هجانة الصحراء الجنوبية، ونتيجة لذلك فقد ارتحلت مطير إلى الجنوب على عجل . وكانت سيارات شرطة الصحراء تقوم بمهمات دورية يومية على الحدود الكويتية- النجدية لتغطية تجمع قبائلنا في الشمال . وفي ٨ مارس/ آذار، قامت سيارتا شرطة تحمل كل منهما رشاشاً من نوع لويس بالاشتباك مع أربعين فارساً من مطير داخل الأراضي الكويتية، شرقي الرقعي . وحاولت السيارتان الالتفاف على الفرسان، لكي تتأكد فيما إذا كانوا حرساً متقدماً لغزو كبير، أو أنهم يقومون بذلك بمفردهم . وفي هذه العملية، شوهد الفرسان يتلقون تعزيزات فجأة من أرض وعرة قريبة، وحاولوا قطع طريق انسحاب العربتين وتطويقهما . غير أن رجال الشرطة قبلوا التحدي واقتربوا من الفرسان، وفتحوا عليهم نيران رشاشاتهم، وقتلوا ثلاثة من مطير وأصابوا آخرين مما أدى إلى تشتت الفرسان، وفتح طريق لانسحاب العربتين . وهذه الحادثة توضح ما كنت تنبأت به قبل عام عندما طلبت من قيادة الطيران تزويد شرطة الصحراء بأسلحة ذاتية، وكانت إجابة قائد الطيران أنه لا يريد أن يقوم رجال الشرطة بالقتال . هذه المناوشات وغيرها من المناوشات مع دورياتنا كان لها أثر معنوي في مطير أعظم بكثير من حجم المناوشات . وكانت أول مناسبة يحتك فيها الإخوان بعربات تحمل أسلحة آلية على حدود العراق .

وأصبح الإخوان خلال العشر سنوات ينظرون إلى العراق والعراقيين نظرة احتقار شديدة، ويعتقدون أن العراقيين يكادون لا يستطيعون إطلاق النار دفاعاً عن أنفسهم . ومن موقف القبائل في الأبطية التي تراجع عنها بإحباط الدويش الذي لم يهزم، ونتائج مناوشات دوريات الشرطة مع الإخوان، عززت الروح المعنوية الجديدة في العراق . وكما يحدث كثيراً مع قبائل غير منضبطة، كانت هناك مبالغة كثيرة في رواية هذه الأحداث، وملأ الرعب قلوب مطير . وحتى قبل معركة السبلة كان المتمردون يخافون منا أكثر من خوفهم من ابن سعود .

والحق يقال إن الإخوان لم يكونوا وحدهم الذين ينظرون باحتقار إلى القبائل العراقية، فقد تبادلت رسائل حادة بعض الشيء مع السلطات في بغداد حول الموضوع نفسه، وفي رسالة إلى لندن اطلعت على نسخة منها، أبدى مكتب المندوب السامي البريطاني ملاحظات مهينة عن الخوف الذي انتاب قبائل العراق من جراء غزوات الإخوان . وكان بالنسبة إليّ تحدياً، كنت

على استعداد لقبوله بحماسة الشباب، وكنت مندفعاً لقبول هذا التحدي. ومع هذا وبعد ثلاثين عاماً لازلت أشعر أن تلك الملاحظات كانت مجحفة. فكانت قبائل مطير وحرب وعتيبة لا تختلف إلا قليلاً عن عنزة وشمر والظفير. لكن الإخوان قد أصبحوا سلاحاً لا يُقهر بفعل الحماسة الدينية، والقيادة الساحرة لعبد العزيز بن سعود، والانتصارات المتتالية.

ومقابل هذا فإن السلطات في بغداد (أياً كانت في ذلك الوقت) كانت تعد البدو، لمدة قرن من الزمان أو أكثر، أعداءها الرئيسين وكان رجال القبائل يردّون هذه العداوة بحميّة. أما سلاح الجو الملكي البريطاني الذي قام بعمل باهر في الصحراء، فساهم من ناحية أخرى، في تثبيط همم القبائل، عندما طلب منها الفرار من الصحراء وإخلاءها لسلاح الجو لكي يحارب فيها. وكان رجال القبائل يعاملون على الدوام معاملة النساء والأطفال، وكانوا يُعاقبون عندما يحاولون مهاجمة أعدائهم أخذاً للثأر، مما أفقد القبائل روحها الوثابة في مقارعة أعدائها.

لقد انقضت ثلاثون سنة، على المعارك القديمة، مابين نصر وخسارة، لكن بريطانيا وأمريكا ومنذ ذلك الوقت تكرران أخطاء مماثلة، فالولايات المتحدة تعلن أنها ستقف بوجه روسيا لتحمي الشرق الأوسط، كثيراً ما تقوم بذلك بوسائل غير مقبولة لدى الشعوب المحلية. إن الافتراض اللاواعي في كل هذه الحالات هو أن العرب لا يعرفون مصالحهم أو ما هو الأفضل لهم، وأن الغرب وحده هو الذي يستطيع اتخاذ الإجراءات الفعالة لمعالجة وضع متأزّم. ومن الخطأ أن ننسب هذا الموقف إلى الإمبريالية الشريرة. ففي أكثر الحالات يكون الموقف صادقاً، وكثيراً ما يكون بوحي من الضمير، لكنه يصور، وعن غير قصد، اعتقاد الغرب من غير وعي بأن شعوب الشرق الأوسط غير مؤهلة لإدارة شؤون حياتها بنفسها، وهذا المفهوم يتسبب باستيائها.

إن شعوب الشرق الأوسط هي الوحيدة التي تستطيع حماية بلدانها من الشيوعية، كما أثبت الظفير والزياد أنهم هم فقط أفضل المدافعين عن وطنهم الصحراء ضد الإخوان.

* * *

بحلول هذا الوقت لم تعد المراعي في أم المدافع كما كانت، بسبب الأعداد الكبيرة من القبائل في هذه المنطقة، مما جعلنا نرتحل شمالاً في ٩ و ١٠ مارس/ آذار، وبقي مخيمي في الشمال من الجهراء بمسافة حوالي خمسة أميال حتى نهاية الشهر.

وفي مستهل الشهر عندما كان الدويش لايزال يخيم بالقرب من الحَفَر، كان كثير من القلق يخيم علينا، فقد تم تجميع القبائل متقاربة من بعض بقدر المستطاع، وقام الزياد والظفير بدورهم الحربي بحراسة جانبي المخيم الصغير الذي أقمت فيه مع الشرطة. وأقيمت استعراضات كثيرة

ورقصات الحرب [العرضات] والهوسات، لرفع الروح المعنوية للقبائل لكي تخلف أثراً قوياً في الناس وللتأثير في العالم الخارجي. ومن دون شك كانت أخبار كل شيء نقوم به تصل إلى الإخوان. وربما كان شعارنا: «من يستفزّني لا يسلم من العقاب»[٦٥].

وبعد منتصف مارس/ آذار، كانت أخبار انتقال ابن حميد و الدويش إلى جراب، واستعدادات ابن سعود للحرب، ذات أثر كبير في تخفيف حالة القلق التي عشناها، غير أن استمرار وجود ابن حثلين في خباري وضحا طوال الشهر منعنا من تخفيف مراقبتنا وسهرنا. ومع أن قوات ابن حثلين لم تكن بتلك القوة التي تخيفنا، لكن حتى الهجمات الصغيرة ـ اضرب واهرب ـ لسلب الأغنام والإبل تعدّ انتقاصاً من موسمنا المزين بالانتصارات المبهجة. كذلك كنا قريبين من الحدود النجدية التي لا يسمح لنا باجتيازها فلم نكن متأكدين من ملاحقة الغزاة.

كانت القبائل سعيدة، فالرياض في هذه الأراضي الصحراوية المنبسطة تغطيها حلة قشيبة من الأعشاب البكر والأزهار البرية ذات الألوان المختلفة. وعندما تجد الإبل المراعي الجيدة تسمن فتتضخم أسنمتها أكبر وأكبر، فالإبل تحفظ الشحم في أسْنِمتها، وظلت القطعان الكبيرة طول النهار واقفة تمضغ بصوت طاحن.

في أحد الأيام اصطحبت كاظماً في سيارتي ونحن في مهمة استطلاعية بالقرب من الحدود النجدية، وعندما عدنا في طريقنا لتوصيله إلى خيمته، مررنا بقطيع من الأغنام لقبيلته منتشر في المراعي، فتشتّتت الأغنام وأخذت تدور وتقفز في الهواء رافعة قوائمها الأربعة، وبطريقة تدعو إلى الاندهاش، وهي تجرجر أذنابها[٦٦] المتدلية السمينة من خلفها قال كاظم والابتسامة ترتسم على محياه: «انظر كيف تندفع هذه الأغنام. لقد كانت قبل شهرين واهنة تكاد تسير، والآن تجري منطلقة، كل هذا بفضلك أنت».

كانت كل الرياض والأودية مملوءة بقطعان الأغنام والإبل وهي منتشرة ترعى. وفي بيوت الشعر الصغيرة كانت النساء يدفعن الصملان[٦٧] إلى الأمام والخلف ليمخضن اللبن لصنع الزبدة فتنساب قرقعة أصوات متناغمة. وتقيد صغار الخراف في رباط من أرجلها أمام بيت الشعر، أو تترك تمرح في الرياض التي تغطيها بسط خضراء من الأعشاب. وأصبحت الصحراء تمثل منظر رعي آمن. وأخذت القبائل تقيم مآدب غداء شكراً لله، وأخذ كل يدعو الآخر على المائدة، يتمتعون بتناول أطباق الأرز ولحم الحمل مسالاً عليها السمن والزبدة. وقد

---

(٦٥) أورد المؤلف هذه العبارة باللغة اللاتينية وقد شرح لي معناها صديقي الدكتور بروس إنغام:
"Nemo me impune lacessit = No one provokes me with impunity" [المترجم]

(٦٦) الأغنام العربية عندما تسمن تتضخم أذنابها، بينما الإبل تتضخم أسنمتها. [المؤلف]

(٦٧) الصُمْلان (مفردها صَمِيل) وهي تشبه القربة، مصنوعة من الجلد وتستخدم لمخض اللبن وحفظه. [المترجم]

تنامى لمسامعنا أن الإخوان قد اتجهوا لمحاربة ابن سعود. قال لي أحد الظفير: «اللهم رُدّ كيدهم إلى نحورهم».

لكن واحسرتاه إن فصل الربيع قصير جداً في العراق. وشارف شهر مارس/ آذار على الانتهاء وكانت هناك عدة أيام من الحرارة. وفي أبريل/ نيسان أخذ العشب يذبل، ولكن الأجواء لم تزل خضراء بينما جف في المرتفعات وتغير لونه إلى الأصفر. وإذا ما عاد الزياد إلى موطنهم حول السماوة فيجب أن يقطعوا مسافة ٢٠٠ ميل. ومن هنا فلا جدوى من تسمين الأغنام التي ستموت من الظمأ في طريق عودتها إلى الوطن. وعن غير رغبة تفككت شراكتنا ويوماً بعد يوم، ومنذ أوائل أبريل/ نيسان، أخذت القبيلة تلو الأخرى تلقي علينا سلام الوداع. ونحن أنفسنا بدأنا التحرك شمالاً نحو سفوان.

في أحد الأيام من أوائل أبريل/ نيسان وبينما أنا جالس في خيمتي سمعت نَحْنَحَة حامد العبد وهو يستأذن الدخول، وناديتُ قائلاً: «ما خطبك، ياحامد؟».

أدخل حامد وجهه من خلال الباب، وقال: «إن طميش البريكي قد جاء من عجمي وقال إن معركة كبيرة دارت رحاها بين ابن سعود والإخوان». وكان طميش يقف بالخارج، وهو من الرجال الذين يعتمد عليهم كان رجلاً مسناً، تختلف بنيته عن البدوي الاعتيادي، فهو قوي البنية قصير وبدين.

وحتى يكون حديثنا محاطاً بالسرية، جلسنا في مقعد السيارة الخلفي.

وقلت متسائلاً: «أخبار سارة، إن شاء الله؟».

فأجاب: «سارة إن شاء الله».

ثم سرد علي قصة يوم السبلة، كما شرحتها آنفاً.

وغمرت الفرحة رجال شرطة الصحراء حينما تحدث إليهم طميش، وتحلقنا حول موقد نار القهوة ذلك المساء تحت نجوم الصحراء الزاهرة. وتم ترديد قصة السبلة المرة تلو الأخرى، ودارت حولها نقاشات ومجادلات وتعليقات. وجلس حامد العبد متعاقب الأرجل، وبين الفينة والأخرى كان يقف ممسكاً بدلة القهوة النحاسية بيده اليسرى ومجموعة الفناجين الصغيرة في يده اليمنى[٦٨] ويدور ببطء بين الرجال يصب لهم القهوة. وأخيراً نهضنا من المجلس ونحن نتثاءب، لنقتنص بعض النوم قبل انبلاج الفجر. وحامد الذي لم ينبس ببنت شفة حتى الآن، لخص وبصوت خفيض، ما يدور في خلدنا بقوله: «من الآن فصاعداً الله يحفظنا من شرهم».

ومع أن الإخوان ما يزالون طلقاء، واضطر ابن سعود بعد المعركة إلى تسريح جيشه

(٦٨) ورد في الأصل أن «الدلة في اليُمنى والفناجين في اليُسرى»، وهذا خطأ يخالف التقاليد العربية البدوية. [المترجم]

(وبالطبع كان هذا الجيش من المواطنين الذين لا تُدفع له رواتب)، إلا أن وضع المتمردين كان مضطرباً. كاد يكون ميئوساً منه، لأن غزواتهم على النجديين الآخرين قد أثبتت زيف ادعائهم بأنهم مسلمون حقيقيون أكثر من الملك نفسه (وكان هذا الادعاء أقوى أوراق لعبهم سابقاً). فاتضح أنهم لا يفكرون إلا بمصالحهم الخاصة، وليستولوا على الحكم بدلاً من الملك. كان كثير من القبائل في نجد فاترة في ولائها لابن سعود، وكان من المحتمل أن تنضم إلى المتمردين لو كسبوا المعركة.

لكن الأحداث أثبتت ضعف المتمردين من الناحيتين: فهم من ناحية لم يعد بإمكانهم الادعاء أنهم شهداء معتقدهم الديني، ومن ناحية أخرى، لم يكونوا سياسيين أو عسكريين ناجحين يكون من الحكمة التعامل معهم. كذلك فإن هزيمة السبلة أبعدت ابن حميد عن الدويش، وافترقا بصورة نهائية. فالأول عاد إلى موطنه في الجانب الآخر من نجد، وكانت منطقة العارض تعد أكثر المناطق ولاء للملك، وتقع بين عتيبة ومطير، وأصبح بإمكان الملك أن يتعامل معهمَا تعاملاً منفصلاً من الآن فصاعداً.

في هذه الأثناء تركنا بيرق ضيدان بن حثلين في خباري وَضْحا بمسافة ثمانين ميلاً جنوب الكويت، يتحين الفرص لشن غزو آخر. وبعد معركة السبلة شرع فهد بن جلوي، ابن حاكم الأحساء، ومعه قوات كبيرة بمهاجمة العجمان، وكانت قواته من حاضرة أهل الأحساء ومفارز من قبائل نجد الجنوبية، آل مرة، وبني هاجر، والعوازم، وبني خالد، وسبيع.

وفي غضون ذلك حاول ابن سعود أن يستخدم السياسة ضد ضيدان بن حثلين مثل التي استخدمها ضد ابن حميد في يناير/ كانون الثاني عندما شجع ابن ربيعان من عتيبة كمنافس لابن حميد. والآن استخدم ابن عم ضيدان، وهو نايف بن حثلين، الشهير بـ«أبا الكلاب»، كمنافس لضيدان. فتحرك نايف ومعه قسم من العجمان مع قوات ابن جلوي[٦٩] ضد ضيدان، وكانت قوات الأخير في هجرة «الصرار» تنتظر الهجوم. وتم تبادل الرسائل بين الفريقين. ولا يعرف فيما إذا كانت رسائل فهد بن جلوي قد تضمنت الأمان لضيدان أو لا. على كل حال بعد الاتصالات المتبادلة ذهب ضيدان ومعه ثمانية فرسان إلى فهد، وترجلوا عن خيلهم، وقدم لهم الشاي والقهوة، ثم فجأة تم اعتقالهم.

وعندما وصلت الأخبار «الصرار» حول مايبدو أنه غدر، تقدم العجمان لمهاجمة ابن جلوي فأصدر الأخير أوامره بقتل ضيدان في الحال. فهاجم العجمان قوات ابن جلوي في الساعة العاشرة من الليلة نفسها. ولم يكن لأعداد البدو الغفيرة دور فيما نشأ عن المعركة. أما نايف بن

(٦٩) تجمعت قوات ابن جلوي في «العيينة». بالقرب من الصّرار. [المترجم]
للمزيد انظر: د. عبدالله الصالح العثيمين، **معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد**، مصدر سابق، ص ص ٣٠٢-٣٠٤.

حثلين ومن معه من العجمان فاستمالتهم العصبية القبلية، وانضموا إلى المهاجمين ضد قائدهم السابق، ولم يصمد إلا حاضرة الأحساء.

عندما يئس فهد بن جلوي من تحقيق النصر ركب فرسه ليهرب، لكن خادمه العجمي أمسك بلجام الفرس وصوب مسدسه نحوه. فصاح فهد: «هل تخون سيدك؟»، فأجابه قائلاً: «ليس لي سيد إلا ابن حثلين الذي خنته»، وأفرغ مسدسه بابن جلوي. ومع انتشار خبر مقتل فهد، تفككت قواته التي كانت تعوزها الحماسة.

وهكذا على الرغم مما بدا بعد السبلة أن مقاومة المتمردين تقترب من النهاية، إلا أن التصرف غير الحكيم الذي قام به فهد بن جلوي سبب هزيمة للقضية الملكية، وأحيا آمال المتمردين.

* * *

وتركنا ابن مشهور ومرضي الرفدي ومعهما ما يقارب ٨٠٠ رجل يرتكبون المذابح والنهب في واحات الجوف، ولكنهم أخفقوا في الاستيلاء على البلدة، فانتقلوا إلى وادي السرحان ثم هاجموا الحويطات في شرق الأردن، بنجاح جزئي فقط، فعادوا واستولوا على واحة سكاكة.

وكانوا يتنقلون على الدوام، كترحال البدو الرحل الحقيقيين، وتخلوا عن سكاكة، وارتحلوا إلى آبار الحزول وهاجموا بعض مضارب شمر نجد، وهم رعايا لابن سعود. وأرسل ابن مساعد، حاكم حائل، قوة تتكون من ٣٠٠ راكب جمل لاعتراضهم، لكنهم وجدوا أن المتمردين يفوقونهم عدة وعدداً وبصعوبة تمكنوا من الانسحاب السريع، وفي أثناء ذلك كان ابن سعود قد هزم الدويش وابن حميد في السبلة.

وكان ابن مشهور يجهل كارثة حلفائه، وانتقل إلى لينة في الأسبوع الثالث من أبريل/نيسان، وغزا مضارب أخرى لشمر وعنزة في نجد وفيها كلها رعايا ابن سعود وذبح كل الرجال على الطريقة الوهابية [الإخوانية] الحقيقية. وواصل طريقه باتجاه الحفر وفي ذهنه أن ينضم إلى الدويش.

وفي أم رضمة حاولت قوة من شمر قوامها ٤٠٠ رجل أن تعترض طريقه لكنها صدت وتكبدت خسائر، وأخذ يضرب كل من يعترض طريقه، حتى توقف للارتواء في «الشلالة»، أقصى بئر شمالاً في مجموعة آبار البشوك. وكان قد أرسل رسلاً أمامه يحملون رسائل للدويش يعلن فيها عن قدومه، وعاد الرسل إليه في الشلالة ومعهم رسالة من الدويش يخبره فيها بهزيمة السبلة ويحثه على عدم المجيء إلى الأرطاوية.

إن تبدل أحوال المتمردين جعل ابن مشهور في وضع محفوف بالمخاطر الكبيرة، وبصورة مفاجئة. إن موطنه سورية وكان قد قطع ٦٠٠ ميل لينضم إلى المتمردين وأثناء مسيره قاتل

كثيراً، ووصل ليجدهم مهزومين ومروعين. ويفصل بينه وبين سورية: شمر، وعنزة، والحويطات، وأهل الجوف، وابن مساعد وتابعوه وكلهم متعطشون لدمه. بالإضافة إلى ذلك كان نصف قوته من عتيبة، وهم الذين أرسلهم إليه ابن حميد، والآن تخلوا عنه، وتفرقوا في بلداتهم في نجد. وذهب إلى حفر الباطن للارتواء، وبقي معه حوالي ٢٠٠ رجل ومعه مرضي الرفدي، ثم التجأ إلى الأراضي الكويتية في ٢ مايو/ أيار ١٩٢٩.

وكان وضع شيخ الكويت حرجاً بالنسبة إلى المتمردين، فكانت تجري مراسلات بينه وبينهم، وربما كان يتمنى لهم كل خير. وكان يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق هدفين: فمن ناحية كان هو نفسه يخاف من غزواتهم ويخشى أن يهاجموا مدينة الكويت. وعلى الرغم من قدرته المحتملة على الذود عن أسوار المدينة، فإن أتباعه وقبائله، وقطعانه، وبعض القرى جنوب المدينة، والجهراء، وكذلك مضارب عريبدار، كانت كلها معرضة للهجوم. ومن ناحية أخرى وبما أن الكويت دولة صغيرة مستقلة، فلربما كان يخشى القوة المتنامية بسرعة لابن سعود الذي ربما يُغريه ضم الكويت إلى نجد.

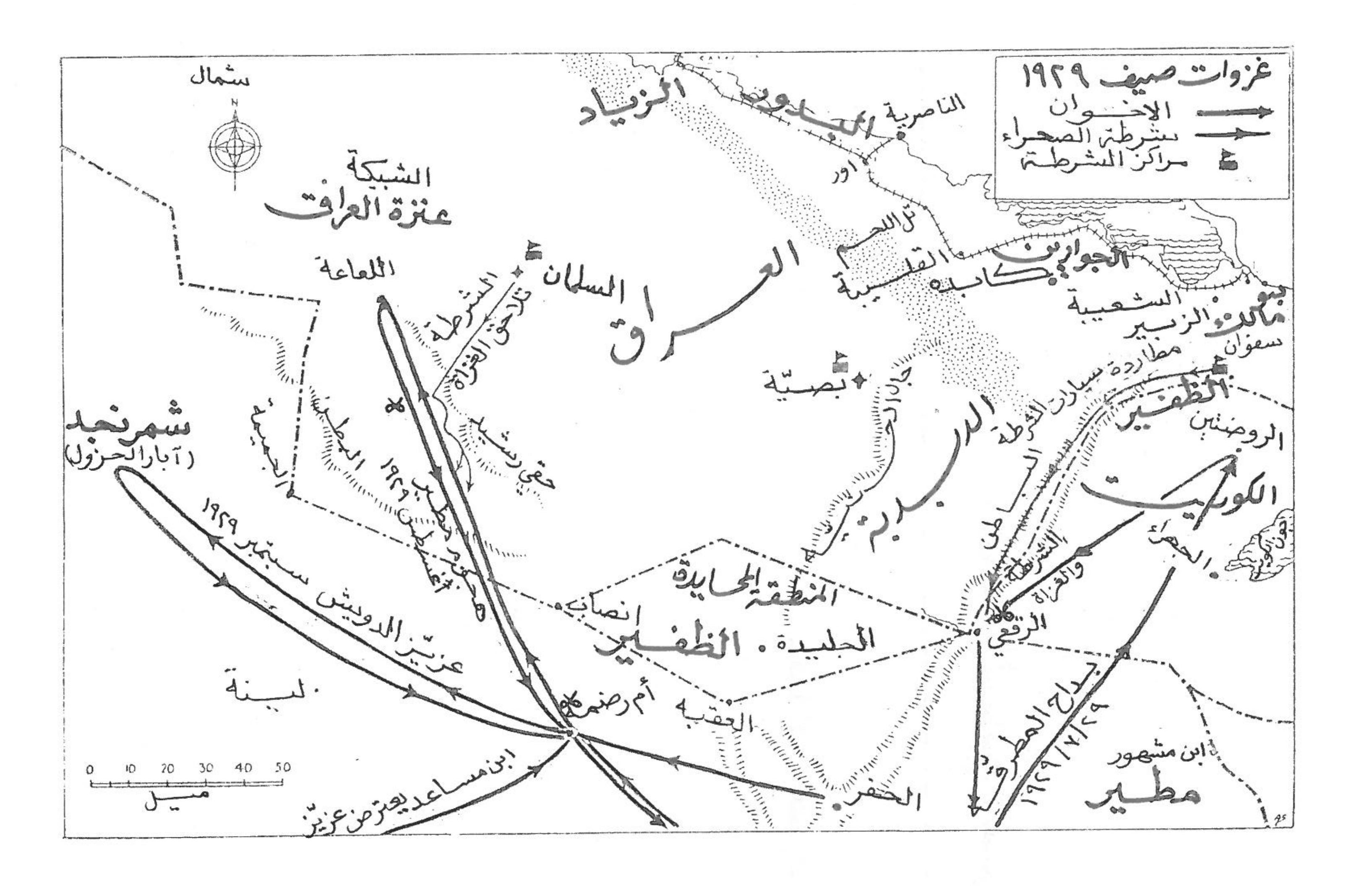
وكان ملاذ ابن صباح الأخير هو اعتماده على اتفاقية الحماية الموقعة مع بريطانيا العظمى لحماية استقلاله ووعدت بريطانيا ابن سعود بعد مشاورات مع ابن صباح، بأن المتمردين المنهزمين لن يمنحوا اللجوء في الكويت. ووجد شيخ الكويت نفسه في وضع مُربك، إما أن يرفض استضافة المتمردين، أو أن يدخل في نزاع دبلوماسي مع بريطانيا العظمى، التي يعتمد أساساً في بقائه عليها. وعندما خيم فرحان بن مشهور في الأراضي الكويتية، صدرت تعليمات للمعتمد السياسي البريطاني ليقوم بزيارة الشيخ ويعبرله عن رغبة حكومة صاحب الجلالة [بريطانيا] بأن ينذر المتمردين بمغادرة الأراضي الكويتية في الحال. وبناء عليه طلب من فرحان مغادرة الكويت. وتعهد بعبور الحدود ثانية، ولكنه استطاع التزود بالمؤن من الكويت وترك سراً بعض الإبل التي سلبها من قبائل نجد وديعة مع عريبدار.

وفي مايو/ أيار ١٩٢٩ أدى حلول فصل الصيف، إلى إنهاء عمليات كبيرة في الصحراء، وقبل ذلك بشهر، أي بعد معركة السبلة، كان يبدو أن التمرد يقترب من نهايته. ثم أخذ انتصار العجمان المفاجئ على قوات الملك في الأحساء يعزِّز مرة أخرى الروح المعنوية للمتمردين، كما عزز قدوم ابن مشهور معنويات المتمردين أيضاً، وإن كان عدد جيشه ذا تأثير طفيف. صحيح أن عتيبة قد انفصلت عن زميلاتها من القبائل المتمردة الأخرى، إلا أن مطير والعجمان وابن مشهور شكلوا مجموعات مترابطة، بينها اتصالات متبادلة وثيقة.

ذلك ما كان عليه الوضع عندما أجّلتْ حرارة الصيف اللاهبة المزيد من العمليات ذات النطاق الواسع حتى عودة الشتاء.

الفصل السابع عشر

عطلات الصيف



غزوات صيف ١٩٢٩
الإخـــوان
شرطة الصحراء
مراكز الشرطة
شمال
الزياد
البدور
الناصرية
اور
تل اللحم
القليبة
الجوارين
كتابة
الشعيبة
الزبير
سفوان
بنو مالك
مطاردة سيارات الشرطة
الظفير
الروضتين
الكويت
الجهراء
الباطن
الشرطة والغزاة
الرقعي
الدريرة
بصيّة
السلمان
العراق
الشبكة
عنزة العراق
اللعاعة
الشرطة تلاحق الغزاة
حفي رشيد
البطن
الجميمة
شمر نجد
(آبار الحزول)
عزيز الدويش سبتمبر ١٩٢٩
المنطقة المحايدة
انصاب
الجليبة
الظفير
أم رضمة
العقبة
لبنة
الحفر
ابن مساعد يعترض عزيز
جداح المطرود ٢٩/٧/١٩٢٩
ابن مشهور
مطير
ميل
0 10 20 30 40 50

عطلات الصيف

حدث تغيير في قيادة المتمردين خلال صيف ١٩٢٩، إذ استسلم سلطان بن حميد، الذي أشعل نيران الحرب الأهلية والذي يتحمل مسؤوليتها، لابن سعود الذي أودعه السجن في الرياض، ولم يخرج منه أبداً. لكن هزيمة العجمان لابن جلوي أنعشت المتمردين في جبهة الشرق. وقد اجتمع كل من نايف بن حثلين والعجمان، وفيصل الدويش، وفرحان بن مشهور وأقسموا يمين الولاء بعضهم لبعض، وبقوا مخيمين جنوب الأراضي الكويتية، ويتزودون بالمؤن من المدينة.

ومن جانب ابن سعود، كان عبد العزيز بن مساعد، حاكم حائل ومعه ١٢ فرقة حربية [بيرق] يخيم في «قبة»، والأمير سعود بن عبد العزيز قاد قوة اتجهت إلى الأحساء. أما ابن سعود فقد عاد إلى الرياض بعد أدائه مناسك الحج في مكة [المكرمة]، ولم تستطع القوات الكبيرة مثل قوات ابن مساعد القيام بعمليتها في الصحراء خلال فصل الصيف، مما ترتب عليه أن التمرد استمر حتى الشتاء اللاحق.

واستفاد البدو من عطلة الصيف هذه لإطلاق العنان لبعض غزواتهم في أسلوبها التقليدي. وفي الأول من يوليو/ تموز قام العجمان وابن مشهور، بقوات قوامها ١٥٠٠ جمّال، بمهاجمة العوازم، وهي قبيلة موالية لابن سعود، بالقرب من القطيف في الأحساء. وقد نهج العوازم أسلوب «اعقلها وتوكل» الدفاعي كما فعلنا في الأبطية، وقيل إنهم حفروا خنادق، مما أدى إلى تكبد المهاجمين العجمان خسائر وإصابات فادحة. ويبدو أن المعركة لم تكن حاسمة، ولكن بعدها مباشرة أرسل العوازم رسائل إلى الدويش وشيخ الكويت يطلبون السلام.

وكانت مجموعة شمر وعجمي بن سويط مع قسم من الظفير تقطن غربي المنطقة المحايدة، أما مجموعة مطير والعجمان وابن مشهور فتجمعت شرقي الباطن، وبين هاتين المجموعتين كانت فرق صغيرة تتبادل الغزوات لسلب الإبل. وكان القسم الآخر من الظفير في العراق يقطن سفوان، والرافعية، وكابدة وتقوم عربات الشرطة في سفوان بدوريات إلى الجنوب منهم.

ومن الواضح أنه لا يمكن أن تحدث عمليات كبيرة حتى سقوط أول أمطار الشتاء في الخريف وهو ما يمكّن قوات كبيرة من القيام بعمليات في الصحراء. وبما أنني لم آخذ إجازة منذ ثلاث سنوات، وقد أضناني العمل الشاق وقلق الشتاء، انتهزت فرصة الطقس الحار هنا لزيارة إنجلترا. وفي غضون ذلك كانت قوة هجانة الصحراء الجنوبية، على الرغم من حداثة تشكيلها، قد أصبحت قوة قتالية متمرسة ذات معنويات عالية وروح جماعية. وقد اكتسبت كنية أصبحت معروفة في نصف الجزيرة العربية، غير أن أحداً لم يعرف كيف بدأت أصلاً، وهي «العوجان»، وأصبحت شعار حرب إضافة إلى كونها كنية لها، على الرغم من الاحتمال أنها كانت أصلاً تسمية أعدائها.

وبينما أصبحت عامة الناس من البدو، وخصوصاً مطير، تستغل الفوضى السائدة ليغير كل على إبل الآخر ليسلبها كان فيصل الدويش يشعر بقلق عميق، إذ كانت فرصة نجاته قليلة عندما يأتي الشتاء، وإذا زج ابن سعود بجميع قواته إلى ميدان المعركة ضده. ومنذ زمن سحيق، وملاذ البدو الأخير للاحتفاظ بحريتهم، عندما تهددها هيمنة زعيم أو حكومة، هي الهجرة إلى منطقة لا تخضع لسلطة ذلك الزعيم أو تلك الحكومة وكانت هذه الوسيلة الوحيدة المتاحة للدويش. وإذا ما طلب اللجوء هو وأتباعه ومنح حق اللجوء فسيصبح بإمكان عامة البدو من مطير العيش بسلام مع ابن سعود. وكان ابن صباح، إلى حد ما، متعاطفاً مع قضية المتمردين، وقرر الدويش أن يحاول قدر استطاعته التحرك بهذا الاتجاه. وفي الثاني من يوليو/ تموز عام ١٩٢٩، زار عُزيّز الكويت سراً وقابل الشيخ أحمد الصباح.

وفي غضون ذلك كان ابن سعود يدرك تماماً علاقات المتمردين بالكويت بالطبع، وقد قام في يونيو/ حزيران بالاتصال بالحكومة البريطانية وأخبرها بأنه في حملة الشتاء المقبل عندما تحين سوف يلاحق المتمردين في الأراضي الكويتية إذا منحهم ابن صباح حق اللجوء. وأجابت حكومة صاحب الجلالة [بريطانيا] بأن دخول قوات ابن سعود الأراضي الكويتية سوف يسبب حرجاً كبيراً، لكن الحكومة البريطانية نفسها، بالتعاون مع شيخ الكويت، تمنع المتمردين من دخول الكويت. ولم يزل الشيخ في موقف محرج مهما كانت نتائج عمليات فصل الشتاء المقبل، لأن المتمردين كانوا خلال الصيف في وضع يمكنهم من غزو الكويت، والفتك بسكانها

بلا رحمة، وتحويلهم إلى فقراء معوزين، وتكبيدهم خسائر جسيمة في الأرواح. فليس من الإنصاف أن ننتقد سياسة الشيخ دون مراعاة ضعف قوته العسكرية.

في غضون ذلك استمرت الغزوات والغزوات المضادة بين المجموعتين القبليتين. وقد حالفنا النجاح في تنظيم قوة الهجانة لجمع معلوماتها الاستخباراتية وتسجيلها في مخافرها في الشبيكة، والسلمان، وبصية والمخيم المؤقت في سفوان. وفيما يلي البيانات التي تم تدوينها لثلاثة أيام، والتي أخذت عشوائياً، من مفكرة يوميات الاستخبارات عن نجد في مخيم سفوان المؤقت:

٢٦ يونيو/ حزيران: محمد بن حمدان، كان مسافراً من الكويت إلى الزبير، وأخبر أن عتيبة سلبت قطعاناً كثيرة من الإبل بالقرب من الرياض.

٢٧ يونيو/ حزيران: أغار رباح بن خشمان الحربي على ابن شقير بالقرب من قرية، واستولى على عدة قطعان إبل من مطير (الخبر من زيد بن حمد، قدم من ابن طوالة).

٢٩ يونيو/ حزيران: قام نهار الشريطي الشمري، الذي يقطن أم رضمة، بالإغارة على العجمان.

٣٠ يونيو/ حزيران: أغار الدامر العجمي على الدواسر وسلب مئة بعير، وفي طريق عودته، استولى على قافلتين بين الرياض والأحساء.

وهكذا كل يوم تطول قائمة الحوادث، وكان ينصب بيت شعر للضيافة أمام كل مخفر، حيث يُستقبل فيه الزائرون والمسافرون، وفيه تجمع أخبار الجزيرة العربية يومياً وتنتقل الدوريات من مخيم إلى مخيم تجمع المعلومات والإشاعات المتداولة بين القبائل المتنقلة من بيت شعر إلى آخر يحملها بدو يمتطون جمالاً ولا يستقرون.

في ٢٩ يوليو/ تموز ١٩٢٩، أثناء غيابي في إجازة، أغارت مجموعة من مطير بقيادة بداح المُطرقّة على الروضتين في الأراضي الكويتية، وسلبت مئتي بعير تعود ملكيتها إلى قبائل عراقية تخيم في سفوان. وهرب رعاة الإبل وأخبروا قوة شرطة الصحراء في سفوان يوم ٣٠ يوليو/ تموز.

وانطلقت سيارتا فورد محملتان برشاشي لويس لمطاردة الغزاة على أمل أن تلحقا بهم متوقفين للارتواء من بئر صغيرة في الرقعي[(٧٠)]. والبئر في واد صغير ضيق، هو فرع من

(٧٠) الرُّقعي: ماء قديم، يقع في جانب منخفض من الباطن، ويحيط به من الجنوب جال صخري مرتفع، ومن الشمال ربوات مرتفعة تفصل بينه وبين مجرى الباطن الكبير. ويظهر من نصوص المتقدمين أنه كان يعرف باسم الرُّقَيعي - بالتصغير. والرقعي الواقع على الحدود بين المملكة والكويت يقع شرق الرقعي الأصلي بنحو ١٦ كم. [المترجم]
انظر: حمد الجاسر. **معجم البلاد العربية السعودية**، المنطقة الشرقية، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥٩.

شعيب الباطن الكبير. والمنطقة المحيطة بالبئر تتقاطعها وهاد ضيقة وفروع للوادي الكبير تؤدي إلى وادي الرقعي الصغير الذي توجد فيه البئر. ومرة أخرَى لم يسمح لشرطة الصحراء بدخول الأراضي الكويتية، وهكذا لا يستطيعون تعقب الأعداء المنسحبين. وكان الغزاة قد بدؤوا ٢٤ ساعة قبل ملاحقيهم، الذين راهنوا على ارتوائهم عند بئر الرقعي، وقادوا عربتيهم مباشرة على طول وادي الباطن تحت حرارة شمس يوليو/ تموز المتوهجة، وشقت العربتان التجاريتان الصغيرتان طريقهما خلال واد واسع مغطى بالحصى وكانت وجوه الرجال متوترة ومتلهفة، وهم يمعنون النظر إلى الأمام لعلهم يرون أشخاصاً يتحركون في هذه البرية الواسعة الخالية. وإلى اليسار وموازياً لطريقهم يمتد مرتفع طويل يشكل حافة شعيب الباطن الشرقية، وأخيراً تمكنوا من رؤية مصب وادي الرقعي الصغير من بين تلك الحافة يتراقص في سراب الصحراء. نعم بالفعل تتجمع الإبل عند تلك البئر والمنطقة المنخفضة حولها.

وكان قائد الدورية عبد الكريم الخشمان، من أهل حائل، من أتباع ابن رشيد سابقاً. وعندما أصبح الشاب سعود بن عبد العزيز بن رشيد أميراً على حائل، وكان قاصراً، عين زامل بن سبهان وصياً عليه، وكان يقوم بمهمات الأمير في تصريف أمور الإمارة. وعندما كبر سعود سئم نصائح وصيه الذي كان في منتصف العمر. فاغتيل زامل، وزُعم أن ابن خشمان كان متورطاً في قتله. وعندما سقطت حائل سنة ١٩٢١ على يد ابن سعود، لجأ إلى العراق. وكان عبد الكريم رجلاً هادئاً وجاداً، يكرس ولاءه لمناصرة أي قضية يؤمن بها. ومن دون شك، إن ولاءه لابن رشيد ومناصرته له هما اللذان دفعاه إلى قتل زامل بن سبهان، وليس بدافع عمل إجرامي محض. والجدير بالملاحظة أن هناك أكثر من حالة اغتيال تمت في حائل.

وعندما أصبح على مرمى بندقية من الإخوان، أشار ابن خشمان إلى العربتين بالتوقف، وترجل هو نفسه من العربة، وتحدث إلى الرجال المتحمسين من حوله قائلاً: «قبل أن نهاجمهم، أود أن تتذكروا جميعاً أن هناك رجلاً في لندن، ستصل إلى مسامعه كيفية تصرفنا اليوم. نحن نقاتل هنا دفاعاً عن أرواحنا وحماية لنسائنا، وإن موطن الرجل ونساءه في لندن، ومع هذا ولسنوات كان يقاتل من أجلنا. دعوه اليوم يفاخر بنا، ولا يصبح مطأطئ الرأس».

قفز الرجال إلى العربتين الصغيرتين وأخذ كل من راميي مدفعي لويس الرشاشين مخزن ذخيرة في سلاحه. ثم رميا كوفيتيهما وتطاير شعرهما الأسود الطويل ووجهاهما مفعمان بحماسة، يحرض بعضهما بعضاً بصيحات الحرب: وأين الشجعان؟ العوجان! وأين العوجان؟

واصطفت العربتان جنباً إلى جنب وتحركتا نحو الغزاة، وأطلقت النيران من رشاشي

لويس: «تات ـ تات ـ تات». وفي الحال أخذت الطلقات تومض بين الغبار وسط حشد الرجال والإبل لكن رجال مطير محاربون أشداء، فامتطى بعضهم الجمال، محاولين سوق هذه الإبل المكتظة خارج الوادي الضيق، وتناثر آخرون بين الصخور الناتئة على سفح التل، وفتحوا نيران بنادقهم على العربتين وأفراد طاقمهما الثمانية. ولكن ضيق الوادي الصغير جعل من الصعوبة بمكان أن تقترب العربتان أكثر من الغزاة، ومن ناحية أخرى، كان من العسير على الغزاة أن يسوقوا الإبل الجافلة إلى الخارج، في الوقت نفسه، انهمرت عليهم طلقات رشاش لويس دون هواده، وسرعان ما شوهد الغزاة وهم يتسلقون التلال ويجرجرون أرسان ركابهم خلفهم. وخمد إطلاق نار بنادق الأعداء، فقام رجلا شرطة كل يحمل بندقيته بالتقدم راكضين نحو قطيع الإبل الذي تخلى عنه الغزاة، وسرعان ما ظهرا مرة أخرى، وكل منهما متمسك بجمل يسوقه ببطء باتجاه العربتين الواقفتين وهو ينادي الإبل [يُدَوِّه]: «يو ـ أ ـ أ، يو ـ أ ـ أ» والإبل تتبعه ببطء. وتوارى الغزاة عن الأنظار وتلاشوا.

تم استرداد كل الإبل المنهوبة، إلا أن أحد الشرطة قتل، وكانت جثته مسجّاة في الجزء الخلفي من شاحنته. وبالمقابل قتل اثنان وجرح خمسة من جانب الإخوان. ولسوء الحظ فإنه لم نتمكن من مطاردة فلول الأعداء المهزومين، لأن الرقعي كانت تقع على نقطة الحدود النجدية، وشرطة الصحراء ممنوعة منعاً قطعياً من عبور الحدود.

* * *

وقبل أربع سنوات اقترحت على الحكومة العراقية أن تشيد مخفراً صحراوياً في السلمان ليكون بمثابة مستودع ذخيرة ومؤن، ومركز معلومات يخدم صحراء الحجرة، كما كان مخفر بُصيّة للدبدبة. وبقي الاقتراح في أدراج المكاتب منذ سنة ١٩٢٥. ولكن بعد مذبحة بصية بدأ العمل بالسلمان بحيوية، وشيد حصن كبير من الحجارة وبارتفاع طابقين، وتم تسويره بأسلاك شائكة، وخلال الشتاء تمركزت فيه حامية للجيش العراقي. وكان لإقامة هذه القاعدة الدائمة في السلمان فوائد دفاعية عظيمة. ويجب أن نتذكر أن محسن الفرْم من حرب قد ارتكب مجزرة ضد أصحاب الأغنام العراقيين عند هذه البئر بالذات سنة ١٩٢٤. وبالتالي وفّر إنشاء هذا الحصن هناك ملاذاً لأصحاب الأغنام وقت المحن على بعد ثمانين ميلاً جنوب الفرات. وله فوائد أخرى فهو مركز لإرسال المعلومات واستقبالها، ومستودع للوقود، والذخيرة، والإطارات، وقطع الغيار مما يسهل تحرك العربات والطائرات.

وبعد مضي ثلاثين سنة على تشييد حصن السلمان، قابلت طالباً عراقياً يدرس في إنجلترا، قال لي وبمرارة: «إني أعرف من أنت؟ أنت الذي شيد حصن السلمان، الذي قضى فيه أخي نَحْبَه». وعندما سألته عن قصته قال لي إن السلمان أصبح سجناً صحراوياً كبيراً لاعتقال

المعارضين السياسيين، وإن أخاه اعتقل بتهمة قيامه بنشاطات سياسية مخربة فسجن ومات هناك. وكان لديه انطباع بأنني مسؤول عن تشييد السلمان كسجن سياسي.

وتبدو لي هذه الحادثة البسيطة رمزاً للتحول المأسوي في علاقة بريطانيا مع العراق الذي حدث خلال السنوات الأخيرة. ففي العشرينيات كرستُ جهودي بإخلاص لمصلحة العراق، واستخدمت كل ما أملك من قوة لتشييد هذا الحصن في السلمان وكان برجاً حصيناً يلتجئ إليه آلاف العراقيين من رجال، ونساء، وأطفال، كلهم ينشدون الأمن والأمان. والآن وبعد ثلاثين سنة، لا أحد يتذكرني إلا بأنني ذلك «الإمبريالي» الظالم الذي بنى سجناً للمعارضين السياسيين. وهكذا يشوّه ذلك الحب والإخلاص إلى كراهية وظلم.

* * *

وبعيد حادثة الرقعي قامت مجموعة كبيرة من مطير بالإغارة على قطين كبير من شمر نجد يتكون من خمسة وسبعين بيت شعر في «اللعاعة» ومع أن الضحايا كانوا من رعايا ابن سعود إلا أنهم قطنوا الأراضي العراقية وبالتالي كنا مسؤولين عن أمنهم. ومن السلمان شرعت عربتان تابعتان لشرطة الصحراء مثبت على كل منهما رشاش من نوع فيكرز لتعقب الغزاة. لم يسلب الغزاة القطعان فحسب، بل دمّروا المخيم تدميراً كاملاً أيضاً، وقتلوا خمسة وعشرين رجلاً من شمر، وقتل منهم عشرة رجال. وسلبوا كل ما يملكه الضحايا من طعام وملابس وممتلكات وحملوها على الإبل المنهوبة وهربوا بها تاركين فقط النساء النائحات والأطفال يفترشون صحراء رملية تذروها الرياح.

وتمكنت عربتا شرطة يحمل كل منهما خمسة أفراد من اللحاق بالغزاة وهم يسوقون أمامهم عدداً كبيراً من الإبل المسلوبة، في أرض منبسطة مفتوحة تبعد خمسين ميلاً جنوب اللعاعة. كانت عربات الشرطة شاحنات تجارية من نوع فورد تم شراؤها من الوكلاء المحليين في بغداد وقمرة السائق مغطاة. ووضع رشاش فيكرز بشكل مرتجل في حوض العربة على كتلة من الخشب ثبتت في أرضية الحوض. ولا يمكن إطلاق النار إلا إلى الخلف، عكس اتجاه العربة.

وفي وقت لاحق وضعنا رشاش لويس إلى جانب السائق، لكن لم تكن هناك رشاشات متوفرة، وبالنتيجة اضطررنا إلى اختراع نظامنا الخاص من التمرين، لأننا واجهنا عائقاً وهو عدم القدرة على إطلاق النار أثناء تقدم الشاحنات باتجاه العدو، لأن المدافع الرشاشة مصوبة إلى الخلف فقط. وفي وقت لاحق ركبنا مدفع رشاش لويس أيضاً عند المقعد بجانب السائق ولكن الرشاشات الأخرى لم تعد متوفرة في عام ١٩٢٩ . وبالتالي عندما أصبحت العربات في مدى إطلاق النار، اضطرت إلى الاستدارة والتوقف قبل إطلاق النار.

وحالما ظهر الغزاة للعيان، اصطفت العربتان جنباً إلى جنب وانطلقتا مسرعتين للحاق بهم. وعندما أصبحنا على بعد ٥٠٠ متر من مجموعة راكبي الجمال والقطعان، رفع قائد الدورية العلم ذا اللونين الأسود والأبيض (بحيث كنا قد اخترعنا إشاراتنا الخاصة بالأعلام)، فالعربتان في سحابة من الغبار ووقفتا. وصرخ الرقيب قائد المجموعة: «نحن على بعد ٥٠٠ متر. أطلقوا نيرانكم!».

قام الراميان بتصويب شعيراتهما وضغطا بإبهاميهما على الزناد، فانطلقت نيرانهما مجلجلة «تات تات تاتتات تات تات».

وبدأ الغزاة طبقاً لتكتيكات قتالية بدوية أثبتت فاعليتها، بالقيام بمعركة دفاعية تخوضها قوات المؤخرة. فترجل حوالي ١٢ رجلاً عن ظهور جمالهم وبسرعة فائقة فتحوا نيران بنادقهم صوب العربتين، ثم انطلقوا مسرعين ليثبوا على جمالهم المهرولة، واتخذ قسم آخر منهم مواقعهم أرضاً وفتحوا نيرانهم، ثم انطلقوا بأقصى سرعة وبتهور ليلحقوا برفاقهم الآخرين. وأخذت طلقات البنادق تنهمر على العربتين، إحدى الطلقات مزقت الحوض الخشبي للعربة، وأخرى كانت ضربة مدوية على إطار هيكل العربة.

عُشِّقت مسننات الحركة، ودارت العربتان وطاردتا الغزاة مرة أخرى، مما أعطاهم مهلة بضع دقائق لاستعادة أفكارهم بعد هذا الهجوم غير المتوقع. ولكن المهلة كانت قصيرة، لأن الشاحنتين دارتا وتوقفتا وأطلقت النار منهما من جديد، «تات تات تات تات». وصاح الراميان، «العوجان! العوجان! أين العوجان؟».

وخلال دقيقة أو اثنتين تحركت العربتان لملاحقة الغزاة مرة أخرى. ولكن هذه المرة لم يقم القائد بملاحقة الأعداء المنهزمين، الذين انتابهم الرعب والفزع، بل مال إلى الجهة اليسرى وتقدم في محاذاة المجموعة الكبيرة المسرعة من الجمال والركاب، التي لم تبعد سوى ٣٠٠ متر. وأصبح الغزاة الآن في حالة فوضى، وعلى الرغم من استمرارهم في إطلاق النار، إلا أن الكثير من طلقاتهم حاد بعيداً عن الهدف. ورفع العلم الأسود والأبيض واستدارت العربات مرة أخرى، «تات تات تات تات تات».

أخذت الفوضى والاضطرابات تعم الإخوان بشكل واضح. وأصبح بعضهم، الذين يمتطون جمالاً أسرع من غيرهم، ينفصلون عن المجموعة ويتجهون بأقصى سرعة نحو الجنوب وحدود نجد. ولم يعد كثير من الإبل المسلوبة تساق أمام الغزاة، واتجهت إلى الجهة اليسرى أو اليمنى، وأخذت تتباطأ في مسيرها حتى توقفت، تنظر حولها بذهول، ثم توقفت أخيراً لترعى فيما تجاوزتها المعركة.

وأخذت نشوة الحماسة لدى الرجال في العربتين تتصاعد، وبأصوات مرتفعة أخذوا يرددون صيحة الحرب «العوجان، العوجان»، وتساقطت عن رؤوسهم الكوفيات [الشماغات] والعقل، وغطى شعرهم عيونهم، وتصببت وجوههم عرقاً في حرارة الصحراء اللاهبة. وامتدت عدوى نشوة النصر إلى سائقي العربتين فقفزا من مقعديهما وتناولا بندقيتين، ووقفا في صحراء مفتوحة وأخذا يطلقان النيران صوب جموع الأعداء الفارين على ظهور إبلهم. ولم تردعهما سوى صرخة قوية من ضباط الصف ليتوقفا عن إطلاق النار.

وانطلق الغزاة، هاربين بأقصى سرعة، وفي حالة من الفوضى العارمة، يتجهون إلى جرف صخري معتقدين أنه سيعوق حركة العربتين. وسرعان ما نفدت الذخيرة، لأن البدو، على الرغم من كونهم مقاتلين جيدين، يتهيجون في العمليات القتالية بحيث يصبح دائماً من العسير التحكم في إطلاق نيرانهم. كما أصبح وقود العربات والماء شحيحين، وكانت هذه المعركة سريعة التحرك قد جرتهم إلى القرب من حدود نجد، فتخلوا عن المطاردة، وعادت العربتان. وكانت الشمس تشرف على الغروب، وأخذ رجال الشرطة يجمعون قطعان الإبل المنهوبة ويحملون الأثاث المسلوب من بيوت شعر، وفرش، وأدوات عائلية تناثرت على أديم الصحراء خلال المعركة.

لا تستحق هاتان العمليتان الذكر مقارنة بالمذابح الجماعية التي يذهب ضحيتها ملايين البشر، والتي اعتادت على ارتكابها الأمم «المتحضرة» اليوم. غير أنهما أثرتا تأثيراً عميقاً في الوضع في الجزيرة العربية. ومن الآن فصاعداً فإن السحر انقلب على الساحر، فالإخوان الإرهابيون بعد هاتين المعركتين لن يجرؤوا على الغزو داخل الأراضي العراقية. وليس هذا فقط، بل أخذ المتمردون خلال فصل الصيف يشنون غزواتهم على قبائل موالية لابن سعود المرة بعد الأخرى. ويبدو أنه لم يكن لدى الملك الرد الحاسم على غزوات الصيف إلا إذا أذن لقبائله بالغزوات المضادة، وكانت حمايتهم من هجمات مطير وعتيبة والعجمان فوق طاقته.

وفي هذه الأثناء كان الإخوان قد هاجموا شّمر في نجد أكثر من مرة. وفقط في حالة واحدة، تم استرداد الأسلاب والثأر من الإخوان، عندما كانت شمر تقطن العراق. وقد قامت بدحرهم قوة صغيرة من البدو [شرطة البادية] دون مساعدة من القوات البريطانية أو الجيش العراقي. وبينما كان من المعروف قبل ١٨ شهراً أن العراق لا يستطيع السيطرة على قبائله مما كان يثير حنق النجديين واتهامهم بشكل متكرر وتهكمي، كانت حماية ابن سعود لقبائله من هجمات الإخوان الآن قد أصبحت غير فعالة، مما حدا بالقبائل إلى اللجوء إلى العراق طلباً للأمن.

وكانت حقيقة الأمر أن ابن سعود لم يزل قادراً على حشد القوات الغفيرة من الفرسان

والهجانة للقيام بعمليات حربية كبيرة، لكن هذه القوات الغفيرة دون تنظيم إداري يساندها لم تكن قادرة على العمل إلا في فصل الشتاء عندما تسقط الأمطار بغزارة وتسيل على أثرها الأودية والشعاب وتتكون على أثرها الخباري. أما في فصل الصيف فإن الغزاة البدو سريعو الحركة، يتنقلون بخفة، ومن الصعوبة بمكان على راكبي الجمال الآخرين مطاردتهم أو اللحاق بهم.

وحدث أننا اكتشفنا في عرباتنا الخفيفة غير المدرعة، المحملة بمدافع رشاشة وأفراد شرطة من البدو، يعدّون الصحراء وطنهم، السلاح المثالي في التعامل مع غزوات الصيف على ظهور الإبل. على الرغم من أن كلاً من ابن سعود وكبار الضباط في العراق كانوا معارضين بشدة لتطويرها.

في غضون ذلك كان ابن مساعد، حاكم حائل، لايزال يخيِّم مع قواته [بيارقه] في قبة يتحين فرص تحسن الطقس في الخريف، عندما تسقط الأمطار، ليستأنف عملياته الحربية. وعندما وصلته أخبار هزيمة الإخوان في اللعاعة قيل إنه هز رأسه قائلاً، «ياحيف! - وا أسفاه - لقد سبقنا العوجان على تحقيق النصر وحرمونا من هذا الشرف».

وفي الواقع لم تتأخر فرصة ابن مساعد طويلاً، فها هو ذا عزيِّز، الابن الأكبر لفيصل الدويش، يشرع في غزو كبير لمطير. علماً أن حادثتي الرقعي واللعاعة أعطتاه درساً بالابتعاد عن الحدود العراقية. وكما ذكر آنفاً كان ابن مساعد يخيِّم على قبة، ولم يتواجد أحد عند آبار أم رضمة ولينة المهمّة. فقد قرر عزيّز الارتواء من تلك الآبار، وغزو شمر في الحزول. وعندما قام الغزاة بسلب قطعان شمر، وجد ابن مساعد الفرصة سانحة، فتحرك إلى الأمام بقوة كبيرة، وأخفى رجاله في أرض وعرة فوق آبار أم رضمة.

ومع أن البدو يتسمون بالبسالة والذكاء والخبرة في حروب الصحراء، إلا أنهم كسالى ومهملون مما يحول دون كفاءتهم القتالية. فبينما كان الغزاة يسوقون قطعاناً كبيرة من الإبل المسلوبة من شمر، قرروا في رحلة إيابهم التوقف للارتواء من آبار أم رضمة بعد أن نفد ما عندهم من ماء، وهم تحت شمس أغسطس/ آب المتوهجة اللاهبة، فأخذ يعتصرهم الظمأ.

وكان ابن مساعد قد أحضر معه حوالي ١٥٠٠ مقاتل من شمر، وحرب، وحاضرة حائل والواحات المجاورة لها، وقد حفروا خنادق في أرض تشرف على الآبار وعندما رأوا الإخوان أمطروهم بوابل من النيران الكثيفة. واشتد وطيس المعركة. وكان رجال ابن مساعد أكثر عدداً وتمترسوا في الخنادق، وكانوا مرتاحين، بينما كان الغزاة منهكين وظمأى، ولم يستطيعوا الاستيلاء على الخنادق. وأمر ابن مساعد أتباعه بقتلهم دون رحمة وعدم الإبقاء على حياة أي

واحد منهم ومن ضمنهم عزيّز الدويش نفسه. وكان كل اشتباك شارك فيه الإخوان يعد معركة إبادة.

ألحقت معارك الصيف خسائر فادحة في أرواح المتمردين، ومع ذلك فإنهم حصلوا على أسلاب كثيرة من قبائل نجد، ولكنه لا يمكن التعويض عن المحاربين، وكان من الواضح أن قوات الملك ستكتسح الإخوان في عمليات الشتاء القادمة. وتنسب هزائم المتمردين إلى قوة شرطة الصحراء الجنوبية من ناحية، وإلى ابن مساعد من ناحية أُخرى، وفي هذا الاتجاه، فإن العوجان وحاكم حائل لهم الشرف سوية.

* * *

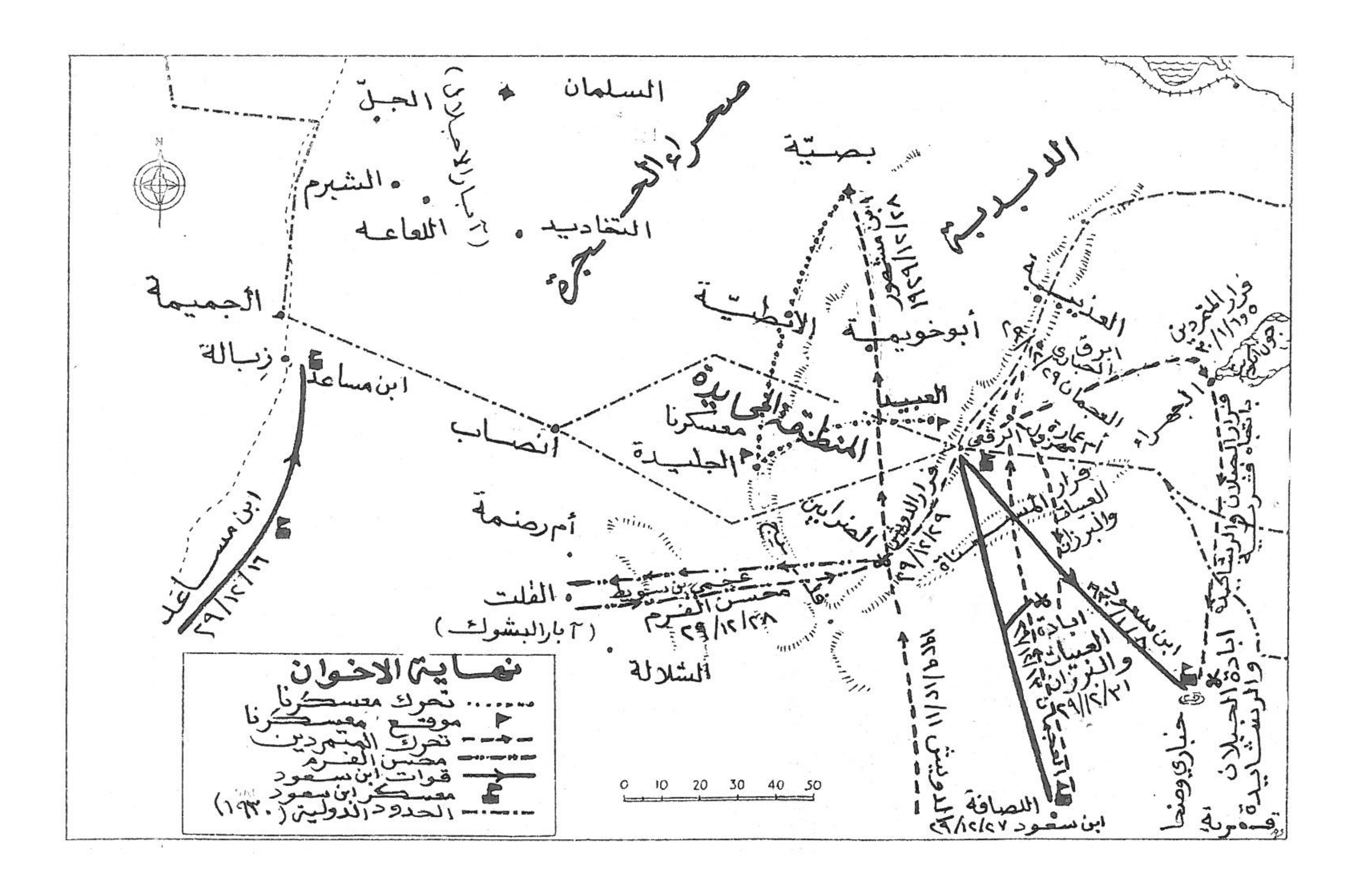
وفي أكتوبر/ تشرين الأول وصلت معلومات مفادها أن تمرد قبيلة عتيبة قد انتهى، مما ترك قبيلتي مطير والعجمان وحدهما في مواجهة ابن سعود. وفي ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول وصل فيصل الدويش شخصياً إلى الجهراء وطلب مقابلة شيخ الكويت والعقيد ديكسون[٧١] المعتمد البريطاني في الكويت، وسأل الأخير إذا كان بإمكانه أن يترك نساءه وأطفاله على الحدود أو داخل حدود الكويت إذا ما قاد المتمردين لقتال ابن سعود في نجد. وأرسل الطلب إلى الحكومة البريطانية، التي ردت بعدم تعاطفها مع فيصل الدويش ومن الواضح أن موقف حكومة صاحب الجلالة غير الودي، زاد من يأس الدويش وساعد على إنهاء التمرد.

---

(٧١) Dickson. *Kuwait and her Neighbours* [المؤلف]

الفصل الثامن عشر

وانقلبت الأوضاع


نهاية الاخوان
تحرك معسكرنا
موقع معسكرنا
تحرك المتمردين
محسن الفرم
قوات ابن سعود
معسكر ابن سعود
الحدود الدولية (١٩٣٠)
0 10 20 30 40 50
السلمان
الجل
الشبرم
اللهاعه
التناديد
الجميمة
زبالة
ابن مساعد
انصاب
أم رضمة
القلت
(آبار البشوك)
الشلالة
الجليدة
معسكرنا
المنطقة المحايدة
العبيلا
أبوخويمة
الأنطاعية
بصية
الدبدبة
العدنية
الرقعي
الجهراء
الضرابين
اللصافة
جبارى وضحا
قرعة

وانقلبت الأوضاع

كان وضع المتمردين مضطرباً في مستهل ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٢٩ فقد أرسلت عربات مدرّعة بريطانية إلى الكويت لطردهم من أراضيها. وهَمَّ المتمردون بالرحيل، مرة أخرى، باتجاه الجنوب إلى اللصافة وقرْية. وفي هذا الوقت اعتقدوا أنهم في مأمن، لأن جواسيسهم في نجد قد أخبروهم أن خيل ابن سعود وإبله في حال من الهزال الشديد لذا لن يستطيع التقدم للهجوم مباشرة عليهم. وفي نجد تعتمد الخيل والإبل اعتماداً كلياً على الرعي في غذائها، ولا يوجد إلا القلائل القادرون على استيراد الحبوب لتغذية خيلهم. وهكذا يؤدي عدم سقوط الأمطار وبالتالي شح المراعي، إلى إعاقة تحرك الجيش، حتى ولو كان يقف على أهبة الاستعداد للهجوم. غير أن المتمردين لا يمكن أن يستمروا في الاعتماد على هذا الأمر، وحالما تسقط الأمطار الغزيرة فإن المراعي ستتحسن من دون شك، والمتمردون في وضع لا يحسدون عليه، فالأراضي الكويتية أصبحت مقفلة أمامهم، وفي الجنوب يحشد ابن سعود قواته الغفيرة الكاسحة.

في هذه الأثناء تصاعدت وتيرة فتور العلاقات بين قبيلتي العجمان ومطير، وجرت اتهامات متبادلة بينهما بسبب الهجوم الفاشل على العوازم في أكتوبر/ تشرين الأول.

وأصبحت أمام المتمردين ثلاثة خيارات للعمل:

(١) أن يستسلموا لابن سعود قبل هجومه عليهم. وقد أرسلوا رسلاً إلى ابن سعود في هذا الصدد، وعاد رسلهم باستجابته لقبول استسلام مطير والعجمان، وأنهم لن يتعرضوا

لعقاب إلا ما تنص عليه الشريعة الإسلامية. وهذه الإجابة ذات المعنى الخفي ليست مطمئنة على الإطلاق. غير أن أعداداً كبيرة من عامة الناس كانوا يريدون الاستسلام غير المشروط تحت رحمة ابن سعود. كان من شبه المؤكد أنه سيلزمهم دفع غرامات باهظة وهذا يعني مصادرة الكثير من الإبل، ولكن فقدان ممتلكاتهم وإنقاذ أرواحهم أفضل من مخاطر فقدان الاثنين معاً.

أما قادة المتمردين مثل فيصل الدويش وعلي بن عشوان من مطير، ونايف بن حثلين من العجمان، فلم يتوقعوا أي رحمة من ابن سعود، لذا كانوا يفضلون أي حل ماعدا الاستسلام.

(٢) أما الخيار الثاني المحتمل، فكان الهروب إلى شرق الأردن أو سورية، حيث قيل إن الحويطات والرولة مستعدون لإيوائهم. لكن العامة من مطير والعجمان لم يخشوا على أرواحهم، لذلك عارضوا هذا المنحى الذي كان يفضله القادة الرئيسيون.

(٣) أما الخيار الثالث فهو محاولة طلب اللجوء إلى العراق. وقد عدتُ مؤخراً من إنجلترا بعد تمتعي بالإجازة، ولم يقدم إليّ المتمردون طلباً بذلك، لأن جهودهم السابقة كانت تتركز على الكويت. وكنت مشهوراً بأنني أعرف جيداً عادات العرب وتقاليدهم الأصيلة مثل الكرم وحماية المستجير، وكانوا يعتقدون أنني سأمنحهم الحماية إذا التمسوها مني. ولم يتفهم الإخوان أن سياسة الحكومة وقوانينها تطبق علي كما تطبق على الآخرين.

استهوت فكرة الحصول على اللجوء إلى العراق القادة والعامة على حد سواء. وبالنسبة إلى أولئك الذين يفكرون دون جدية في اللجوء إلى شرق الأردن أو سورية، فإن اللجوء إلى العراق يمنحهم الأمان للعبور غرباً من خلال الأراضي العراقية، وفي مأمن من ابن سعود. وإلا فإن مسيرة جانبية من اللصافة إلى الحزول، مع وجود قوات موالية للملك في لينة، كانت تبدو خطيرة جداً. وبالنسبة إلى الذين رغبوا في التصالح مع ابن سعود، لكي يتمكنوا من العودة إلى وطنهم، فإن الملتجأ في العراق يمنحهم فرصة كسب الوقت، يمكنهم من وراء الدرع الآمن الذي تشكله القوات الحكومية على الحدود من المساومة مع ابن سعود حول شروط عودتهم.

وأخيراً اتفقت كل الجماعات على محاولة الحصول على ملتجأ مؤقت أو ملتجأ دائم في العراق. وبعد أن ارتوى المتمردون من قرية واللصافة تحركوا بالاتجاه الشمالي الغربي. ووصل الدويش وجماعته مطير إلى الباطن في ١١ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٢٩، وخيّموا بين العُبَيْد والعاذريات. وبعد يومين وصل العجمان إلى الباطن عند أبرق الحباري[(٧١)] قادمين من

(٧١) أبرق الحباري: مرتفع في وادي الباطن، يقال له أبرق لأنه ذو تربة حمراء وجيرية بيضاء، وكان يكثر به طائر الحبارى، فأطلق عليه هذا الاسم. [المترجم]

أم عمارة مهزول.

في غضون ذلك، عند عودتي من الإجازة، اتصلت بالقبائل العراقية التي كانت تثير جلبة استعداداً للرحيل إلى الصحراء. وتم تنظيم الشرطة بالطريقة نفسها المتبعة في العام الماضي. إلا أن سرية المدافع الرشاشة التابعة للجيش العراقي لم تعد معنا. وارتحلنا من بُصيّة في نهاية نوفمبر/ تشرين الثاني. وأقمت مخيمي في الجليدة في ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني، وانتشرت القبائل العراقية في أنحاء المنطقة المحايدة.

في ١٢ ديسمبر/ كانون الأول استطاعت دوريات شرطة الصحراء الجنوبية تحديد موقع مطير في الباطن وقد وصلوا تلك المنطقة ومعهم قطعان الإبل قبل يوم. ونجحت سيارات الدورية في أسر شخصين من مطير تمشيا إلى مسافة من بيوت الشعر ونقلتهما إلى مخيمنا في الجليدة لاستجوابهما. وصرح الأسيران بأن لدى المتمردين الرغبة في إقامة علاقة صداقة وحماية مع الحكومة العراقية، وأن الدويش قد أرسل وفداً للتفاوض مع الحكومة.

وفي اليوم التالي وصل إلى مخيمنا وفد الدويش برئاسة مشرف بن لامي، ومعه رسالة من فيصل الدويش موجهة إليّ. لم تتضمن الرسالة سوى تعبيرات عن صداقته وعبارة تثير الاندهاش وهي أن مطيراً «يعتبرون على الدوام من أهل العراق». وقدم مشرف بن لامي طلباً شفهياً بأن نأذن للمتمردين بدخول العراق، قائلاً إنهم سيكونون رعايا مخلصين للحكومة العراقية.

وكان عدد من قبائل نجد الموالية للملك، وخاصة شمر، والظفير بزعامة عجمي بن سويط مخيّمين في «شعيب كريم» عندما سمعوا أن الدويش قد وصل إلى الرُّقْعي. وخشية أن يهاجمهم ارتحلوا بسرعة إلى موضع شمال الجُلَيدة، ليحتموا خلف معسكرنا، حيث نصبوا بيوت شعرهم يوم ١٣ ديسمبر/ كانون الأول، وهو اليوم نفسه الذي وصل إلينا فيه أول وفد من المتمردين. في هذه الأثناء كانت القبائل العراقية متبعثرة غير مبالية في أنحاء متفرقة من المنطقة المحايدة مستمتعين بهدوء بالمراعي الوفيرة. وبالنسبة إلى بعضنا، الذين عايشوا حوادث الصحراء الجنوبية في السنوات الثماني الماضية وتذكروا لحظات الهلع والفرار الجماعي التي انتابت القبائل العراقية لمجرد سماعها إشاعة عن غزو للإخوان. كان التباين يبدو صارخاً، فهذه القبائل نفسها، التي كانت موضعاً للازدراء لجبنها، أصبحت الآن تنتشر في رعيها بكل ثقة في أماكن بعيدة ومتفرقة. والإخوان المتمردون يتوسلون إلينا لنسمح لهم بالاستسلام لنا، ومن جهة أخرى، كانت القبائل الموالية لابن سعود تطلب منا السماح لها بالتخييم بالقرب من معسكر الشرطة طمعاً في حمايتهم من المتمردين. وقبل سنتين فقط، أقسم الدويش قسمه المشهور بأن يجعل خناجر الإخوان تفتك بأسواق البصرة الشعبية.

أصرّت شمر، بقيادة مشَل بن طوالة، مع عجمي بن سويط الخارج عنا، على أن يخيما على مرأى من خيامنا. وكانَ ابن سعود قد قدم أحد بيارق الإخوان لعجمي قبل فترة قصيرة، وأحضر هذا البيرق معه عندما جاء ليطلب حمايتنا. وكان أحد شيوخ أصحاب الأغنام من الزياد في معسكرنا، فهز رأسه مبتسماً، عندما رأى السويط ينصبون بيوت الشعر خلفنا وقال: «والله، خلال العشر سنوات الماضية لم يخطر ببالي، أن أرى أحد قادة الإخوان وبيرقه ملفوفاً تحت ذراعه، يخيم وسط الزيّاد طلباً للحماية».

لم نحلم خلال الثماني سنوات الماضية ونحن نعيش لحظات الرعب أن يكون هذا التحول المفاجئ المثير وأن تنقلب الأوضاع رأساً على عقب.

في غضون ذلك، وصلتنا تقارير من جواسيسنا تفيد بأن الدويش أعلن أنه، إذا رفض طلبه بدخول العراق فإنه ينوي الانطلاق غرباً، مهما كانت العقبات، لكي يجد ملاذاً في شرق الأردن.

وكان الوصول المفاجئ لكل المتمردين إلى الرقعي قد جعل معسكري الصغير في وضع غير آمن. وبما أننا على مسافة من نجد، كان من الممكن أن تبالغ الإشارات وتضخم قواتي القليلة من عربات الشرطة فتتحول إلى جيش عرمرم، لكن موفدي الدويش قد زاروا مخيمنا وشاهدوا السيارات وعرفوا عدد رجالي، الذي لا يتجاوز الأربعين رجلاً. ولا يُسْتبعد أن يكون قد أرسل ابن لامي بهدف معرفة قوتنا قبل التفاوض حول شروط الاستسلام.

وإذا رغب الدويش في الفرار غرباً، من الرقعي، فإن طريقه سيخترق المنطقة المحايدة عبر معسكرنا مباشرة. وإذا كانت رغبته الوصول إلى شرق الأردن فمن الضروري له أن يبدأ حالاً قبل أن يمكن الطقس الماطر ابن سعود من التقدم نحوه. بالإضافة إلى أن القبائل العراقية، وخاصة أصحاب الأغنام، متبعثرة في وضع محفوف بالمخاطر، ونحتاج إلى يومين أو ثلاثة أيام لكي نتمكن من تجميعها.

كان يبدو لي أن الرفض المباشر والمقتضب لدخول المتمردين العراق، ربما يسبب قيام الدويش وقسم من قبائل المتمردين على الأقل، باجتياح المنطقة المحايدة في محاولة للنفاذ إلى الغرب، وهذا التحرك في ظل ضعف معسكري وتشتت القبائل العراقية، قد يجلب لنا كارثة. فقررت بالتالي تأجيل الرد على الوفد بضعة أيام لكسب الوقت، لكي أتمكن من طلب تعزيزات من الشرطة لمعسكري، وأجمع القبائل لتلتف حولي. وبعد أن نصبح بهذه الطريقة في الوضع الدفاعي المناسب، حينئذ سوف أخبر المندوبين بأن العراق لا يستطيع منحهم حق اللجوء.

وفي غضون ذلك تجمع عدد من مضارب الظفير في «العُذَيْبة» في شعيب الباطن، ولم

يبعدوا سوى بضعة أميال عن العجمان في أبرَق الحَباري. وكان الصدام بين القبيلتين محتمل الحدوث. على ضوء ذلك، أبرقت تقييمي للوضع إلى بغداد، واقترحت إرسال فصيل عربات مدرعة إلى العذيبة للحؤول دون نشوب قتال بين الظفير والعجمان.

ولم أتلقَّ أي رد على برقيتي مطلقاً، ولكن في ١٥ ديسمبر/ كانون الأول - أي بعد إرسال البرقية بيومين - استلمت برقية مباشرة من قائد فصيل من العربات المدرعة تخبرني عن تحركه إلى العذيبة وافترضت أن تحركه استجابة لطلبي.

في ١٦ ديسمبر/ كانون الأول ذهبت إلى العذيبة لأرتّب سبل التعاون مع فصيل العربات المدرعة، وتركت مشرف بن لامي ووفده ينتظرون الرد في معسكرنا في الجليدة. وشعرت باطمئنان وثقة بأن المتمردين لن يتخذوا أي إجراءات حتى يعود إليهم مشرف بن لامي ومعه الرد الحكومي.

ولكن عندما وصلت العذيبة، اكتشفت أن هناك فصيلين من العربات المدرعة أرسلا، وبأوامر مباشرة من القيادة الجوية، لطرد المتمردين في الحال. ولم تخبرني السلطات في بغداد عن تفكيرها في القيام بمثل هذه العملية، وحتى لم تخبرني بأنها أرسلت الفصيلين المدرعين، مع أن الحكومة العراقية كانت المسؤولة عن هذه العمليات وأنا ممثلها المحلي. وكان معسكري على بعد ٥٠ ميلاً فقط عن قبائل المتمردين، ولكن الأوامر صدرت للعربات المدرعة بمهاجمة تلك القبائل دون علمي.

ونتيجة للزيادة المطردة للعمل في الصحراء تم تعيين ضابط شرطة كبير بوظيفة قائد شرطة الصحراء الجنوبية. وكنت قد تركت هذا الضابط في الجليدة، وأثناء غيابي في العذيبة، استلم هذا الضابط برقية من وزارة الداخلية في بغداد، تأمره بطرد مشرف بن لامي فوراً، ومنعه من إقامة أي اتصالات لاحقة مع المتمردين. وفي صبيحة اليوم التالي غادرت العربات المدرعة العذيبة لتطرد العجمان من الباطن.

وهكذا تلاشت آمال المتمردين في الحصول على اللجوء إلى العراق بضربة مدمرة. ومن المتوقع، كمايبدو، أن يتبنوا البديل الآخر، وهو الفرار غرباً، وبناء على ذلك، أبرقت إلى بغداد مقترحاً أن يرسل فصيل مدرع إلى الجليدة على نحو مؤقت، حيث توجد ثلاثة فصائل الآن في العذيبة، إلى حين تنظيم القبائل والشرطة في وضع دفاعي أفضل. ولم يصلني رد على هذه البرقية على الإطلاق.

وكانت الأوضاع هكذا، وفي مساء ١٧ ديسمبر/ كانون الأول، وأنا لاأزال في «العذيبة» وصلتني برقية من قائد الشرطة في الجليدة يقول فيها: إن إحدى دوريات الشرطة قد شاهدت

قوات كبيرة من مطير والعجمان في نقطة تبعد ٣٥ ميلاً شرقي الجليدة، وأضاف أنه عندما شاهد رجال القبائل سيارات الدورية أطلقوا عليها نيرانهم ورفعوا رايات الحرب وأنهم في تلك اللحظة يتقدمون إلى الجليدة، ومن المتوقع أن يهاجموها في تلك الليلة.

إن التقارير السابقة التي تسلمتها عن توقع فرار قادة المتمردين غرباً، وطرد مندوبي المتمردين على نحو فظ وشروع العربات المدرعة في إجبار العجمان على الرحيل من مكانهم، كانت كلها مجتمعة تجعل من تقرير قائد الشرطة أمراً محتملاً.

وأرسلت نسخة من برقية القائد مباشرة إلى قيادة القوة الجوية، وبالنتيجة أمرت القيادة بأن تذهب كل الفصائل المدرعة الثلاث الموجودة في العذيبة في اليوم التالي إلى الأبطية لا إلى الجليدة لإقامة معسكر دفاعي هناك. وإذا ما هوجم رجال الشرطة في الجليدة فيجب عليهم الانسحاب إلى الأبطية.

انطوت إدارة عملياتنا من مكتب في بغداد، يبعد حوالي ٣٠٠ ميل، على كثير من الصعوبات، لا سيّما ونحن قريبون من الأعداء وقد يتغير الوضع في الصحراء في ظرف ساعة. وما صدر من أوامر للعربات المدرعة بدا لي عديم الجدوى بالنسبة إلينا، فذكر القائد في تقريره أن قوات المتمردين تتقدم نحوه، وذلك عصر يوم ١٧ ديسمبر/ كانون الأول ولا يبعدون سوى ٣٥ ميلاً. وإذا صدق التقرير، توقعت أن الهجوم سيكون فجر يوم ١٨ ديسمبر/ كانون الأول. إلا أن الأوامر الصادرة إلى العربات المدرعة لم تطلب منها التحرك من العذيبة إلا في صباح يوم ١٨ ديسمبر/ كانون الأول. وهكذا فإن العربات ستصل الأبطية عصر يوم ١٨ ديسمبر/ كانون الأول. وتبعد الأبطية عن الجليدة ٣٥ ميلاً. وإذا هاجم المتمردون الجليدة فجر يوم ١٨ ديسمبر/ كانون الأول فإن العربات المدرعة لن تصل في الوقت المناسب. وليس هذا فقط، بل صدرت الأوامر للشرطة بالانسحاب أيضاً من الجليدة إلى الأبطية عبر مسافة ٣٥ ميلاً في صحراء مفتوحة، في حال وقوع هجوم عليهم. كان عدد شرطة الصحراء في الجليدة أربعين رجلاً ويمكن أن يحشد المتمردون من مطير وحدهم في ميدان المعركة ما يقارب ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف رجل. ومن ناحية أخرى، كان نصف أفراد الشرطة في عربات والنصف الآخر على الهجن، فكان من الصعوبة بمكان إخراج مثل هذه القوة ونقلها لمسافة ٣٥ ميلاً ضد أعداء يتفوق عدد قواتهم على قوتنا بمقدار مئة ضعف.

كان يبدو لي أن وصول العربات في الوقت المناسب للمشاركة في المعركة، إذا حدثت، بعيد الاحتمال. بل لم تصل أبداً حتى الآن في الوقت المناسب للمشاركة في أي معركة على حدود نجد. ومهما كان الوضع في الجليدة فسنضطر أن نتعامل معه بأنفسنا. وبناء عليه، غادرت العذيبة في الحال، وقدت سيارتي طوال الليل، ووصلت الجليدة قبل أن يشق الفجر

الأول نوره من الشرق، وتأهبنا للمعركة عند الفجر ولم يحدث أي شيء.

وعند وضوح النهار، جلسنا حول النار في المخيم وقمنا بإعداد إبريق الشاي، وتبين لي بوضوح أن تقديرات قائد الشرطة للوضع كانت مخطئة. كان رجلاً عجوزاً طيباً، وأصبح صديقي الحميم، لكنه لم يخرج أبداً إلى الصحراء من قبل. ولم يتفق أي من شرطة الهجانة - وكلهم من البدو - مع القائد. وقالوا لي إن تقريره عن تجمع مطير والعجمان وهجومهم الوشيك على معسكره ما هو إلا انتقال مطير إلى مرعى جديد يبعد بضعة أميال عن موضعهم السابق. وشكلت هذه الحادثة، لسوء الحظ، من وجهة نظري، مثالاً آخر لأولئك الذين يدعون أن كل طلب للحصول على دعم من سلاح الجو الملكي يمثل في حقيقته «حالة الهلع المعتادة فقط». لم تكن المسألة مجرد إثبات صحة تقاريرنا أو خطئها، بل كانت ذات أهمية لعملياتنا. أما الاعتقاد السائد في بغداد أن نصف مناشداتنا للحصول على الدعم منهم كانت نتيجة إنذارات مخطئة، فلم يخلُ من الصحة، ولكن استنتاجاتنا منها كانت مختلفة تماماً.

فعندما نناشد قيادة القوة الجوية المساعدة بناء على تقارير تصلنا بأن هجوماً سيحدث، غالباً ما كانت القيادة تميل إلى القول: «من المحتمل أنها حالة الهلع المعتادة فقط، لننتظر تأكيد ذلك قبل القيام بأي عمل». وفي الغالب ربما كانوا على صواب. ولكن نصف الحالات أو حالة من كل ثلاث حالات تكون تقاريرنا صحيحة ولكن سلاح الجو الملكي أخفق في الوصول أثناء الغزو. ومن الجائز أن تستطيع الطائرات مطاردة الغزاة بعد يومين من الغزو، وتوقع بهم بعض الإصابات، بدلاً من القضاء عليهم. ولكن لم يحدث على الإطلاق في العراق خلال سنوات العمليات ضد الإخوان أن قامت العربات المدرعة بعمليات مواجهة الأعداء، مع أنها كانت الأسلحة الوحيدة القادرة على هزيمتهم هزيمة حاسمة. والسبب، من وجهة نظري هو أن العربات المدرعة لا تتحرك إلا بعد التأكد تماماً من صحة التقرير.

ومن جهة أخرى، كانت حجتي أنه في هذا النوع من العملية لا يمكن التأكد نهائياً إلا بعد بدء المعركة. وإذا أُرسلت عربات مدرعة إلى الأمام بناء على تقرير معقول ولكنه غير مؤكد، سيكون تحركها دون جدوى مرتين من أصل كل ثلاث مرات ولن يحدث شيء، ولكنها تهزم الغزاة في المرة الثالثة. وكنت أعتقد بأن عملية واحدة من هذا النوع ستنهي غزوات الإخوان على العراق إلى الأبد وتجنبنا عواقب دولية واسعة الأثر. ولكنها لم تحدث.

وعندما عاد مندوبو مشرف بن لامي، كانت الانقسامات تمزق مجالس المتمردين مرة أخرى، وكانوا مترددين ولم يستطيعوا التوصل إلى عمل موحّد - وهذا هو مأزق العرب التقليدي، إذ كانوا ذوي نزعات فردية وقلّما اتفقوا على العمل معاً، كان كل عربي يرغب في تنفيذ طريقته الخاصة، ولا يذعن لآراء الآخرين، أو رأي الأغلبية - مما ترتب على ذلك أن

أصبحت الفوضى هي البديل الوحيد من الحكم المطلق.

وأخيراً توصل المتمردون إلى قرار يقضي بإرسال وفد آخر إلى الجليدة، يحضر معه، هذه المرة، مهرة أصيلة هدية لاسترضائي. وأرسل وفد جديد إلى ابن سعود ليطلب منه ضمانات أكثر تأكيداً من ضماناته السابقة المطاطة التي يرجعها إلى الشريعة الإسلامية. وكان الوفد الجديد المرسل إلى الجليدة برئاسة هزاع بن بدر الدويش ابن أخت فيصل الدويش. وصل معسكرنا صباح يوم ١٨ ديسمبر/ كانون الأول.

في هذه الأثناء، كان تجميع القبائل العراقية قد اكتمل، ووصلت تعزيزات من قوات شرطة الصحراء من السلمان يوم ١٨ ديسمبر/ كانون الأول. وهكذا فإن الوضع المقلق الذي صورته برقية قائد الشرطة قبل أربع وعشرين ساعة، أصبح الآن وضعاً مستقراً وتحت السيطرة. وأبرقت إلى بغداد موضحاً أن برقية قائد الشرطة كانت مضللة، وأن وفداً جديداً من المتمردين قد وصل إلينا في الجليدة، وأنه تم الآن تجميع قبائلنا، وأن تعزيزات الشرطة قد وصلتنا، وبمعنى آخر فإن الوضع أصبح آمناً.

في غضون ذلك، وصلتنا برقية من بغداد مفادها أنه يجب علينا السماح للمتمردين باستعمال الآبار في المنطقة المحايدة. واستلمنا هذه البرقية والذهول يعترينا، إذ لم تمض إلا بضع ساعات على البرقية السابقة التي أوضحت على نحو قاطع بأنه ليس لنا شأن بالمتمردِين. وكان الانطباع السائد بيننا بأنه يجب علينا أن نعرقلهم بقدر المستطاع لكي نساعد ابن سعود. إلا أننا أخبرنا هزّاع الدويش عن هذه التعليمات، التي قللت إمكانية هجومهم علينا في الواقع. وإذا قيل للمتمردين إنه بإمكانهم التحرك بكل حرية في المنطقة المحايدة، فمن الجائز أنهم يستنتجون بأننا لن نتدخل فيما إذا رغبوا في الرحيل غرباً. كذلك لا يحتمل أن يقوم المتمردون بمهاجمة الشرطة إذا اقتنعوا بأننا لن نعترض طريقهم.

وفي الواقع، فإن تذبذب المتمردين في اتخاذ القرار جعل من الصعوبة بمكان أن يهربوا غرباً، لأن ابن مساعد مع قوات كبيرة قد ارتحل من قبة إلى لينة وبالتالي أغلق الفخ عليهم. وأصبح طريق هربهم الوحيد عبر العراق من المنطقة المحايدة إلى آبار الإجلال عن طريق «التخاديد» [(٧٣)] أو السلمان ويجب الإشارة هنا، إلى أنه لا يمكن أن يسلكوا هذا الطريق دون إذن من الحكومة العراقية. وبعد وصول تعزيزات الشرطة من السلمان أصبح عدد أفراد الشرطة في الجليدة ٧٠ شرطياً، وبالسماح للمتمردين بالتواجد في المنطقة المحايدة، وتجميع القبائل

(٧٣) التخاديد: تقع بين ظهرة البطن وبين الحجرة، شمال منهل «ازْعَبَلّي» وعنده يلتقي درب الخايف ـ بطريق الحاج المار بلينة. وقد ذكره ياقوت الحموي في معجمه بأنه يقع بين السلمان وبين لينة ويعرف قديماً باسم «الأخاديد». [المترجم]
انظر: حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية** ـ شمال المملكة ـ مصدر سابق، ص ص ٦٠ ـ ٦١.

العراقية من حولنا، أصبح وضعنا آمناً. وفي الوقت نفسه، كنا في وضع استراتيجي يمكننا من التعامل مع أي حادث محتمل الوقوع، لأن وصول قوات ابن سعود لن يتأخر كثيراً.

وفجأة استلمنا برقية من بغداد تتضمن أوامر مُلزمة، بأنه يجب علي الانسحاب مع الشرطة، لتكون بُصيّة قاعدة لها، على أنه يمكن تكوين معسكر أمامي بالقرب من الحدود. وكان من العسير أن نفهم ما تقصده الحكومة من ذلك. فـ «قاعدة» الشرطة هي بُصيّة أصلاً، ويوجد معسكر أمامي بالقرب من الحدود. ولكن استخدام كلمة «انسحاب» أشار إلى رغبة بغداد في انتقال معسكرنا من مكانه لأسباب غير معروفة لنا. وربما كانت هذه البرقية استجابة متأخرة للبرقية المفزعة السابقة التي أرسلها قائد الشرطة (والتي ثبت خطؤها) وأخذ يسري مفعولها الآن فقط. وانسحاب معسكر الشرطة متراجعاً إلى بصية فإنه سيؤدي إلى الفوضى. وسوف تتفرق القبائل العراقية كما يحلو لها إذا تركت وشأنها، وسيندلع القتال في الحال بينها وبين المتمردين، غير أنه لا توجد مياه بين بصية والمنطقة المحايدة في ذلك الوقت (يحتمل أن هذه النقطة لم تخطر على بال القيادة في بغداد الموجودة عند نهر دجلة)، وبالتالي لا يوجد أي موقع مناسب لمخيم في تلك المنطقة الفاصلة.

ومع هذا أمرتنا البرقية بـ «الانسحاب» بشكل أو بآخر. وأخيراً في ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٢٩ تحركنا من موقعنا عائدين إلى سلسلة تلال الحَنيَّة التي تبعد حوالي ٢٠ ميلاً عن الجليدة. ولعدم وجود مياه بالقرب من موقعنا الجديد، لَم تلحق بنا القبائل، وتشتتت خارج سيطرتنا في أنحاء متفرقة في المنطقة المحايدة. أما معسكرنا الذي تضمن سبعين رجلاً دون أي قبائل مساندة في جوارها فأصبح معرضاً مرة أخرى لخطر الهجوم. وعندما كنا حول الآبار في الجليدة كانت كل العربات المدرعة الثماني متوفرة للقيام بمهمات كدوريات مقاتلة أو استكشافية، أو لتجميع القبائل العراقية. وحالما رحلنا انخفضت كفاءتنا بشكل كبير، فقد أنزلت المدافع الرشاشة من أحواض أربع شاحنات، وذلك لاستخدامها لنقل الماء من الجليدة، وبقيت فقط أربع شاحنات لمهمات الدورية، ومن ذلك الوقت فصاعداً فقدنا سيطرتنا على القبائل.

في ٢٠ ديسمبر/ كانون الأول لاقت دورية من سيارات الشرطة فرحان بن مشهور يتبعه حوالي ٦٠ رجلاً و٢٠ امرأة وهم مرتحلون باتجاه «أبو خويمة»، وبعده بقليل شوهد فيصل بن شبلان من مطير، وَوُجِّه إليهما إنذار شديد اللهجة بمغادرة الأراضي العراقية، ويبدو أن ابن شبلان لم يحتمل وعاد ليلاً إلى الرقعي.

في الوقت نفسه صدرت أوامر للعربات المدرعة التي انتقلت من العذيبة إلى الأبطية بالعودة ثانية إلى العذيبة بعد أن تلاشت المخاوف التي سببتها برقية قائد الشرطة. وبالقرب من أبو

خويمة قابل رجال العربات المدرعة فرحان بن مشهور، وباتوا ليلتهم وهم لا يبعدون عن مخيمه إلا ميلاً واحداً. وبعد سماعي هذه المعلومات، ذهبت على وجه السرعة إلى أبو خويمة وقابلت ابن مشهور وحذرته وطلبت منه مغادرة العراق. وأجابني بأنه يفضل أن تقتله الحكومة العراقية وليس ابن سعود. وأضاف قائلاً إنه إذا كان لابد له من أن يموت فإنه يتوسل إلى الحكومة بأن تصدر أوامرها للعربات المدرعة بإطلاق النيران عليه وعلى جماعته في الحال.

وفي اليوم التالي وصلنا في أبو خويمة قادماً من بغداد رئيس أركان القوات الجوية، عقيد جو بورنت وكان لقدومه فوائد جمة بالنسبة إليّ. فكان من السهل أن أشرح له شفهياً وبطريقة مقنعة على أرض الواقع الوضع في الصحراء، وتقارير الاستخبارات، واحتياجات الرعي لقبائلنا، التي كانت تعتمد عليها تحركاتنا المقترحة. وكانت الصعوبة التي لا يمكن التغلب عليها في الماضي كيفية توضيح طبيعة الوضع لكل السلطات المختلفة في بغداد سواء أكانت عراقية أم بريطانية، عندما كانت البرقيات الوسيلة الوحيدة للاتصال، ولم تعط حرية تصرف لأولئك الذين في موقع الحدث. وعلاوة على ذلك كنت شاباً في مقتبل العمر ذا مرتبة دون المستوى اللازم للتعامل مع قادة كبار. ولو كنت برتبة عقيد أو عميد، لاستقبلت مقترحاتي بتقدير أكثر، دون أن أعطي انطباعاً بعدم الاحترام. ولكن من الآن فصاعداً مع وجود قائد كبير من سلاح الجو الملكي إلى جانبي، سار كل شيء على ما يرام. من السهل أن أكون حكيماً في استعادة أحداث الماضي وتأملها. وما كان ينقصني وكنت في حاجة إليه على الدوام (لكن قلة الخبرة لها الدور الكبير في عدم معرفته) هو وجود ضابط ارتباط من سلاح الجو الملكي تكون مهمته الوحيدة تفسير وضعنا القبلي لقيادة الطيران. وكان البديل عن ذلك تكرار سفري جواً إلى بغداد، وشرح الأوضاع شفهياً لسلاح الجو الملكي والحكومة العراقية. إلا أن الناس لم يفكروا في الطيران في عشرينيات القرن العشرين كما يفكرون الآن، وليس من المؤكد أنه كان سيسمح لي، كضابط صغير، باستخدام الطائرات بشكل متكرر. وفي الواقع كنت منهمكاً في النشاطات المحلية، بحيث كنت أحاول تحاشي زيارة بغداد بقدر المستطاع.

ونظراً إلى رفض ابن مشهور التحرك من مكانه، تم تجريده من أسلحته هو وجماعته في ٢٣ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٢٩. كان هو وأتباعه الستون الذين لا يزالون معه من قبيلة الرّولة التي عدتها الحكومتان العراقية والبريطانية من رعايا سورية. وطبقاً لذلك، اتخذ قرار أن التعهد لابن سعود، بعدم منح المتمردين من رعاياه حق اللجوء إلى العراق، لا يشملهم، فأرسل فرحان إلى بصية بالسيارة لاحتجازه هناك بينما ألحقت به جماعته بعد تجريدها من أسلحتها، بحراسة عشرين هجاناً. ووصلوا بصية كما ينبغي وخيموا خارج حصنها في ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٢٩.

وكان فرحان بن مشهور يختلف اختلافاً تاماً عن المتمردين من مطير والعجمان. فقد عاش وترعرع في بحبوحة من العيش في عائلة ثرية وذات سطوة هي عائلة الشعلان، شيوخ عشيرة الرولة الكبيرة، إحدى عشائر قبيلة عنزة. أمضى شطراً من شبابه في بيوت شعر الرولة في البادية، وشطراً آخر في قصر النوري بن شعلان في دمشق، وكان متحضراً نسبياً يعرف قيادة السيارة، ودار بيني وبينه نقاش عن مزايا سيارتي البويك والدودج.

ومن ناحية أخرى، وخلافاً لكثير من رجال مطير والعجمان، يبدو أنه تأثر تأثراً حقيقياً بتعصب الوهابية (٧٤) [الإخوانية]. وفي أبو خويمة حاول التأثير في رجال شرطة الصحراء بإلقاء خطبة دينية عليهم، إلا أنه بدأ خطبته قائلاً: «قبل ثلاث سنوات كنت مثلكم مُشركاً. . .» وقوبلت خطبته بقليل من التعاطف.

في غضون ذلك، كنا قد أرجعنا الوفد الثاني برئاسة هزاع الدويش خالي الوفاض أيضاً، مع رسالة مفادها أننا غير قادرين على منحهم حق اللجوء إلى العراق. وكانت الآراء داخل مجالس المتمردين لا تزال منقسمة. ولم يبد أحد قادراً على اتخاذ قرار، وظهرت المؤشرات إلى تفكك المتمردين.

تخلى قائدا فخذين من مطير، هما هايف الفغم وسلطان بن مهيلب، عن قضية الدويش ورحلا جنوباً إلى قرية، حيث أرسلا إلى ابن سعود يعلنان امتثالهما لاستسلام مهين. وكان العجمان وفخذ الدياحين من مطير لا يزالون يخيمون في أبرق الحباري، على بعد ٤٠ ميلاً عن معسكر الدويش في الضرابين، ولم تبدر منهم أي إشارات إلى التعاون معه مرة أخرى.

ومكث الدويش في الضرابين في حالة من الحيرة والشلل، وكان يبدو أنه قد يظل هناك حتى مجيء ابن سعود، ثم يفر في هرج ومرج إلى العراق بطريقة تحول دون إعادته إلى نجد. ولم يضع كشافة ولا حراساً أمام مخيمه في الضرابين، ويبدو أنه اعتمد اعتماداً كلياً على جواسيسه في اللصافة لإنذاره بتقدم ابن سعود، ولم يدر بخلده أن أحداً سيهاجمه غير ابن سعود مع جيشه بكامله.

وقبل ذلك بشهرين، في أواخر أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٢٩، شرع محسن الفرْم، شيخ قبيلة حرب الكبير، وبتحريض من ابن سعود، بالإغارة على المتمردين في الأرَاضي الكويتية، غير أنه علم بتسرب الأخبار إلى المتمردين، واستعداداتهم لمواجهته، ففقد أعصابه

(٧٤) نسب المؤلف صفة التعصب إلى الوهابية، مع العلم أن الوهابية كانت حركة إصلاحية تدعو إلى الدين الصحيح، وتسبق حركة الإخوان بقرن من الزمان. أما حركة الإخوان فإنها تقوم على عادات الغزو القبلية مستغلة الدين. ومعظم قادتها شيوخ قبائل أميون لا شيوخ دين. لذا أضفت كلمة «إخوانية» بين قوسين وهي الأصح. وأبقيت كلمة الوهابية كما هي أمانة في النقل. [المترجم]

وتراجع إلى موطنه دون مهاجمتهم . وقد أدى هذا الجهد الضائع بابن سعود إلى الاستهزاء منه على الملأ، وسرعان ما نقلت هذه السخرية إلى محسن، فشرع في ديسمبر/ كانون الأول بالقيام بهجوم على الدويش لمحو العار، دون علم ابن سعود.

وفي ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول وصل محسن الفرم ببيارقه إلى «الدُّوَيْرة» وفي ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول أقام في شعيب «فُلَيْج». وكان سبب تأخر تقدم قواته إرساله رسلاً إلى شمّر وعجمي بن سويط - وهو الذي كان قد التجأ إلينا في الجليدة قبل عشرة أيام طلباً للحماية - يطلب منهم مشاركته.

وفي هذه الأثناء، وفي ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول، وبينما كان محسن الفرم في شعيب فليج، وصل ابن سعود وجيشه الرئيس إلى اللصافة وأرسل أربع سيارات لتحديد موقع المتمردين. ودخلت السيارات الأراضي الكويتية وتوغلت حتى مَهْزول، حيث أسر جنودها رجلاً من فخذ الدياحين من مطير كان مخيماً مع العجمان في أبرق الحباري، وأخذوه إلى اللصافة لاستجوابه. وأخبر الأسير ابن سعود بأن الدويش ومطيراً يقطنون الضرابين. في ذلك الوقت، كان محسن الفرم في شعيب فليج دون علم ابن سعود، ولم يعلم الفرم أيضاً أن ابن سعود في اللصافة. ويبدو أن عمل هيئة الأركان في القوات السعودية لم يكن كما يجب، خاصة مع وجود حوالي ٢٥ سيارة بحوزة الملك، بالإمكان استغلالها للاستكشاف والاتصالات.

وفي التاريخ نفسه، أي ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول، ترك مشَل بن طوالة وعجمي بن سويط مخيمهما تحت حمايتنا، وانضما إلى محسن الفرم في شعيب فليج الذي لا يبعد سوى ٢٠ ميلاً عن مخيم الدويش. ونحن أنفسنا تعلمنا من تجاربنا المريرة، أن نقوم بمسح المناطق التي أمامنا لمسافة ٣٠ أو ٤٠ أو ٥٠ ميلاً حيث يقوم بدور الحراسة والاستكشاف للجبهة الفرسان والهجّانة. وها هوذا الدويش الكبير نفسه يترك قوات الأعداء الغازية تتجمع في واد لا يبعد عنه إلا ٢٠ ميلاً. وهكذا هي عادات البدو في الحرب التي تتسم باللا مبالاة وعدم الانضباط.

وما إن أرخى الليل سدوله حتى تقدم محسن الفرم وحلفاؤه من شعيب فليج، حرب في الميمنة، وشمر والظفير - جماعة عجمي بن سويط - في الميسرة، وقبل الفجر بساعتين أصبحوا على مسافة قريبة من معسكرات مطير، ووقفوا في الظلام، وترجلوا عن رحالهم وعقلوها انتظاراً لضوء النهار. ولم يكن هناك حرس أو كشافون من مطير للمراقبة. وكان يبدو أن الجميع في معسكرات مطير يغطون بسبات عميق، لا يقلقهم من نومهم إلا نباح كلب بين حين وآخر، أو إشعال نار مفاجئة إذا نهض أحد أفراد القبيلة متململاً وأشعل النار في الموقد في بيت الشعر ليدفئ أطرافه. وعلى بعد ميلين كان المصير المحتوم ينتظر الفجر بصمت، لتدمير سمعة

الدويش العسكرية بضربة قاصمة. ومع أول نور عاود المغيرون امتطاء الركاب، ورفعوا رايات الحرب، وأخذ البدو من راكبي الإبل أو ممتطي الخيل يتدفقون كسيل جارف إلى المعسكرات التي يلفها السكون.

وعندما قفز رجال مطير من مضاجعهم، كان أول ما تبادر إلى أذهانهم أن المهاجم هو ابن سعود، الذي يفوقهم جيشه عدداً كما يعلمون، ويحتمل أن فكرة المقاومة لم تخطر ببالهم أبداً. ووفقاً للميل الفطري الأول لدى البدو، ركضوا إلى إبلهم التي تعتبر المصدر الأساسي لثروتهم. لم تمس النساء بأذى في هذه المعارك، وكان بيع بعيرين أو ثلاثة يعوض بيت الشعر وأثاثه البسيط. وفي الحال أخذت قطعان كبيرة من الإبل تنطلق بأقصى سرعة نحو الباطن تاركة خلفها المضارب نهباً للأعداء.

ووقعت الضربة الأولى من هجوم محسن الفرم على فخذ العبيات والرشايدة(٧٥)، الذين فقدوا كل ما يملكونه، أما عجمي بن سويط وراية حربه الجديدة فقد تقدم إلى فخذ الجبلان، وأما فخذ البرزان فكانوا يقطنون في أحد الشعاب الفرعية للباطن ولم يرهم أحد من المغيرين ونجوا دون أن يمسوا بسوء. وهربت إبل الدوشان وبعض إبل الجبلان عبر الباطن واجتازت الرقعي، وهرب رجال مطير تاركين خلفهم المضارب، وغرس محسن الفرم رايته أمام بيت شعر الدويش، بينما أحرق أعداؤه المنتصرون خيمة ضيوفه، وهي خيمة كبيرة مصنوعة من قماش القنب الأبيض، وقيل إنها كانت هدية من ابن صباح(٧٦). ولم تكن هناك مقاومة، وكان عدد المصابين قليلاً نسبياً، إذ ربما بلغ عدد القتلى حوالي ٥٠ رجلاً وشاباً.

وفي أغلب الظن أن المهاجمين كانوا خائفين من هجوم مضاد يقوم به المطاردون بعد أن أدركوا أنهم هربوا من بدو غزاة آخرين، وليس من ابن سعود. على كل حال، فإنهم قد اكتفوا

---

(٧٥) جاء في الأصل أن الرشايدة فخذ من مطير وهذا غير صحيح. ومن المرجح أن الرشايدة كانوا يقطنون مع فخذ العبيات حينذاك، فالتبس الأمر على المؤلف، واعتقد أنهم أحد أفخاذ مطير. [المترجم]

(٧٦) يذكر الزركلي أنه عثر في خيمة الدويش على مسودة رسالة بعث بها إلى غلوب - مؤلف هذا الكتاب - هذا نصّها: «من فيصل بن صلطان الدويش إلى جناب عالي الجناب كبت قلاب [كابتن غلوب]، بعد التحية والاحترام سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. بعد ذلك تعلم ويتقرر في فكرك ويكون عندك معلوم إنا أهل صدق ناخذه ونعطيه ولا نعرف الغدر أو الخيانة وتعلم مماشينا مع ابن سعود في السابق وأنه ما وصل هالمواصيل إلا بسببنا. ولما رأينا غدره وخيانته فينا خاصة، وبالناس عامة: فارقناه. واليوم أحبينا إننا نصير رعية لكم وموامير لكم ونصير حدر يديكم وجند لكم ولا نعصى أمركم وباقي الجواب من راس الطارش أبلغ. هذا ما لزم تعريف جنابكم الشريف ودمتم.

حرر في ١٣ رجب ١٣٤٨ من عندنا علي ابن عشوان وجاسر ابن لامي وفيصل بن شبلان وابن جربوع وعلي بوشويربات وصنيتان المريخي وابن حنايا يبلغون السلام». [المترجم]

انظر: خير الدين الزركلي. **شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز** جـ٢. ط٣. دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٥. ص٥٠٢.

بجمع العدد الهائل من الإبل الذي غنموه والذي يصل إلى حوالي خمسة آلاف بعير على الأرجح. وكانت مطير قد جمعت قطعاناً هائلة نتيجة لغزواتها خلال سنوات عدة. وانسحب محسن الفرم وشركاؤه نحو الغرب بعد أن سلبوا بيوت مطير على عجل، يسوقون الإبل المسلوبة أمامهم.

واستجابة لطلب عقيد الجو بورنت، ذهبت بالسيارة إلى العُبَيد في ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول، وكانت العربات المدرعة قد انتقلت إلى هناك، ولاتزال النية مبيتة في طرد العجمان من أبرق الحباري. وفي وقت مبكر من يوم ٢٩ ديسمبر/ كانون الأول، تمكنت من إقناع نايف بن حثلين والعجمان بالرحيل من أبرق الحباري إلى مهزول. ووعدوني أنهم سيرحلون في اليوم التالي إلى الرقعي في أراضي نجد. وبعد الظهر شرعت في التحرك جنوباً من العُبيد باتجاه شعيب العوجا، وعلى بعد ميلين إلى الشمال منه صادفنا رجلين من مطير يهربان مشياً على الأقدام. وبعدهما بقليل لاحظت مجموعة من الرجال يجلسون على الأرض مكتئبين وقد تحلقوا حول نار مشتعلة من شجيرات صغيرة. وعرفنا أحدهم، هزاع الدويش الذي قاد ثاني مجموعة موفدة إلى معسكرنا. نهض من جلسته وتقدم نحو سيارتنا ليُحييني وخلفه جاء شخص غليظ البنية وأخرق في مشيته، له لحية بنية طويلة وأسنان ناتئة وعينان صغيرتان تشعان بالمكر، ووجه غول شرير يروى عنه في حكايات الجن. ذلك هو فيصل الدويش الذي زرع الرعب في الجزيرة العربية في السابق، والذي خرج ببيرقه من الأرطاوية قبل عام، معلناً أنه لن يعود حتى يقبض على أبو حُنَيْك حياً أو ميتاً.

وغطت الإبل الصحراء وهي تسير ببطء، قطعاناً وفرادى، في الباطن، إنها الإبل من معسكرات مطير التي تعرضت للغزو، وهي فرت مذعورة ولم يستطع أحد مطاردتها. وبعد هنيهة صادفنا قطيع إبل كبيراً لافتاً للنظر، وكل الإبل ذات لون أسود [ملَح]. إنها «الشُّرْف»، قطيع شهير من الإبل أسود اللون، تملكها عائلة الدويش وقد توارثتها لأجَيال متعاقبة، وفي أيام المعارك كانت «الشرف» تستخدم كنقطة تجمع لمطير، الذين كانوا يتفاخرون بالذود عنها أمام الأعداء وبأنها لم تسلب منهم أبداً، وهذا تقليد بدوي قديم يمثل الخيلاء الدنيوية المبالغ فيها.

وفي ليلة ٢٩ ـ ٣٠ ديسمبر/ كانون الأول وصل الفارون من جماعة الدويش إلى مخيم العجمان في مهزول، وفي صباح اليوم التالي، على نحو متوقع، رفض العجمان الارتحال إلى الرقعي كما اتفق عليه سابقاً.

أما الحكومتان البريطانية والعراقية اللتان قد تعهدتا بعدم منح المتمردين اللجوء، فوجدتا أن الأمر أصعب من توقعاتهما. وفي حقيقة الأمر أثار دهشتي أن المتمردين لم يدخلوا الأراضي العراقية بعد حلول ظلام إحدى الليالي ليواصلوا مسيرتهم طوال الليلة ولليوم التالي حتى

يوقفهم أحد. ومن المحتمل أن يكونوا قد وصلوا بحلول ذلك الوقت إلى مسافة ثلاثين أو أربعين ميلاً داخل الحدود، ثم كان بإمكانهم المكوث هناك وعدم التحرك، ودعوة الحكومة لإطلاق النار عليهم. وأغلب الظن أن الإخوان قد اعتادوا كثيراً على ارتكاب المذابح، فاعتقدوا أن الحكومة سوف تقتلهم جميعاً، كما كانوا في أوج عظمتهم يقتلون كل فرد غير وهابي. والوحيد الذي اتبع هذا الأُسلوب ونجح، لأنه عرف كيفية التعامل مع الحكومات، هو فرحان بن مشهور.

احتار عقيد الجو بورنت في رفض العجمان الرحيل من مهزول. وبعد أن دار نقاش بيننا، تمكن بورنت من الحصول على موافقة السلطات على تقديم عرض للمتمردين، قمنا نحن الاثنان بصياغة الشروط المقترحة.

فكان على القادة الرئيسيين أن يسلموا أنفسهم للسلطات، وأن يعتقلوا. وعليه لن يسلموا إلى ابن سعود، إلا إذا وافق هو على عدم إعدامهم. وإذا رفض التعهد بذلك فإنه سيُسمح لهم بالإقامة بعيداً عن الحدود العراقية ـ النجدية وتضمن كلتا الحكومتين البريطانية والعراقية عدم السماح لهم بالعودة إلى نجد أو منطقة الحدود. أما القبائل فعليهاأن تستسلم دون أي شروط ويتم تجميعها وتجريدها من السلاح، ويصادر منها عدد من الحيوانات تعويضاً عمّا سلبوه خلال غزواتهم السابقة على العراق.

وإذا رفض المتمردون هذه الشروط، بعد منحهم هذه الفرصة، ففي هذه الحالة فإنهم سيرغمون بالقوة على إخلاء أماكنهم، وتطلق عليهم النار إذا دعت الحاجة. كان يبدو من الأرجح أن يرفض المتمردون مغادرة الأراضي العراقية أو الكويتية إلا إذا أطلقت عليهم النار.

واصطحب عقيد الجو بورنت هذه المقترحات معه عندما سافر جواً إلى بغداد، على أن يعود يوم ٣١ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٢٩. ووافقت بغداد على الشروط المقترحة باستثناء الشرط المتعلق بتسليم القادة إلى ابن سعود، فقد أُمرنا بأن نعد القادة بأننا لن نسلمهم إلى ابن سعود، بأي حال من الأحوال. وأصبح هذا الوعد بديلاً من شرطنا المقترح الذي ينص على أنهم لن يسلموا إليه إلا إذا وافق على عدم إعدامهم. ويبدو لي أن الصياغة الجديدة توشك أن تقع في المحظور نظراً إلى الالتزام الذي قطعناه لابن سعود بعدم منح المتمردين حق اللجوء. في غضون ذلك فإن استسلم القادة فسيرسلون إلى البصرة.

وخلال هذه الأيام احترنا أحياناً في ما تبدو أنها تناقضات في الأوامر الصادرة من بغداد، فعندما تحدثنا إلى وفد المتمردين برئاسة مشرف بن لامي تلقينا أوامر ملزمة بأن

نرفض التحدث معه وألا نعقد أي محادثات مع المتمردين، ثم جاءت أوامر بأن نسمح لهم بأن يخيموا في المنطقة المحايدة. والآن قد اقترحنا اعتقال قادة الإخوان في العراق إذا رفض ابن سعود التعهد بعدم إعدامهم، ولكن الحكومة أجابت بأوامر بأن نؤكد للمتمردين أنهم لن يسلموا لابن سعود تحت أي ظرف كان. وبينما كانت الحكومة في البداية تتهمنا بالتهاون والمرونة تجاه الإخوان، يبدو لنا الآن أن الحكومة تتصرف بطريقة مناقضة للتعهد الذي قدمته بعدم منحهم حق اللجوء. وحتى إذا اعتقل قادة المتمردين على بعد من الحدود حال وصولهم إلى العراق، فمن المؤكد أن ابن سعود، الذي تساوره الشكوك أصلاً، سيتهم العراق بمنحهم اللجوء.

ويبدو أن السياسات المتناقضة كانت تؤدي إلى التذبذب في اتخاذ القرار، فلا شك أن الملك فيصلاً كان يرغب في تيسير قضية المتمردين لأنهم أعداء ابن سعود، الذي كان قد استولى على الحجاز من الشريف حسين، والد الملك فيصل. وكان البريطانيون، وبدرجة أقل الوزراء العراقيون، حريصين على تحقيق السلام والمصالحة وتهدئة ابن سعود. ولم يبد لي أن الملك فيصلاً ولا السلطات العراقية أو البريطانية اهتم بما فيه الكفاية بالقبائل العراقية التي عانت الكثير من الخسائر المادية والمذابح على يد الإخوان.

وعند استلام الأوامر من بغداد أُرسلت رسالة إلى كل من فيصل الدويش ونايف بن حثلين، تأمرهما بالحضور إلى العُبيد، مع التعهد بأمان مرورهما. في غضون ذلك انضم الدويش، مع من تبقى من فخذي الدوشان والجبلان، إلى العجمان في مهزول، أما فخذا العبيات والبرزان فقد قررا العودة إلى نجد والاستسلام لابن سعود، وسوف نسمع عن أخبارهم لاحقاً.

في الأول من يناير/ كانون الثاني عام ١٩٣٠ قدم إلى معسكر العبيد كل من فيصل الدويش ونايف بن حثلين وشُرحت لهما الشروط وكانا يعَانيان قلقاً لمعرفة ماذا سيكون مصيرهما النهائي، قبل موافقتهما على الشروط. ولكني كنت أنا بنفسي أجهل ما سيحدث لهما، وعليه لم أكن قادراً على إعطائهم معلومات تفيدهم. كان الشيخان شديدي الارتياب في الامر الصادر بإرسالهما إلى البصرة، وطلبا بإلحاح الإذن في البقاء مع قبيلتيهما، قائلين إنهما في هذه الحالة سيوافقان هما وقبيلتاهما على الاستسلام. وأخيراً طلبا منحهما مهلة ١٢ ساعة للعودة إلى بيوتهما واستشارة أصدقائهما، ومنحا مهلة ٦٠ ساعة لمغادرة الأراضي الكويتية والعراقية إذا رفضا العرض، مع تحذيرهما بأنه إذا وجد أي منهما بعد هذه المهلة في الأراضي الكويتية أو العراقية فسيُعامل معاملة الأعداء.

الفصل التاسع عشر

استسلام غير مشروط

استسلام غير مشروط

لم يصلنا أي رد من الدويش أو ابن حثلين عن قبولهما أو رفضهما شروط الاستسلام التي أمليناها عليهما. وفي صباح يوم ٣ يناير/ كانون الثاني عام ١٩٣٠ . أخطرنا المتمردين بأن ذلك يعدّ بمثابة رفض لشروطنا، وبالتالي يتوجب عليهم مغادرة الأراضي العراقية والكويتية قبل فجر يوم ٥ يناير/ كانون الثاني. فقوضوا بيوت شعرهم ورحلوا كلهم جنوباً باتجاه أم عمارة مهزول. وطوال هذا الوقت لم نسمع أخباراً عن ابن سعود، وقد ذكر أن محسن الفرم كان يخيم في «القَلْت» مع بَيْرقه، وكان منهمكاً بتقسيم الأسلاب الكثيرة.

وفي عصر يوم ٥ يناير/ كانون الثاني، وبعد أن نصب قادة المتمردين بيوت الشعر في أم عمارة مهزول، ما لبثوا حتى قاموا فجأة بتقويض البيوت وحزموا أمتعتهم مرة أخرى، وشرعوا بالرحيل بأقصى سرعة باتجاه الجهراء مواصلين ليلهم مع نهارهم وقد تناثرت إبل وأغنام في الصحراء بعد أن أنهكتها هذه المسيرة الاضطرارية الطويلة وتركوها أثناء فرارهم. ولم يكن سبب هلع المتمردين المفاجئ واضحاً لنا في البداية. وطلب مني عقيد الجو بورنت مرافقته مع العربات المدرعة إلى الأراضي الكويتية، وقد أخذ إذناً من ابن صباح بدخول الكويت، ولم يحضر بعد العقيد ديكسون، المعتمد السياسي البريطاني في الكويت. ولو لا ذلك، لما كان لدي الرغبة ولا الحق في دخول تلك الأراضي، لأنه لم توجد أي قبائل عراقية في الكويت.

وعند شروق شمس يوم ٦ يناير/ كانون الثاني استطاع رتل العربات المدرعة الذي كنت أرافقه اللحاق بمقدمة المتمردين وهم في حالة فرار على بعد ٥٠ ميلاً إلى الغرب من الجهراء. وكانت معنوياتهم منهارة، ولم يعرف أحد منهم إلى أين يتجهون، ولم نجد معهم أي شيخ، وكان الجميع في حالة هرج ومرج وهم يلوذون بالفرار إلى الشمال من جيش ابن سعود الذي

اعتقدوا أنه يلحقهم (غير مدركين أن ابن سعود ملزم بالتوقف عند الحدود). قمنا بمحاولة لتجميع الفارين، ولكن دون نجاح يذكر، بسبب حالة الفزع التي تنتابهم وغياب قادتهم، خاصة الدوشان والجبلان من مطير ومعهم الرشايدة، الذين كان محسن الفرم قد أغار عليهم مؤخراً. أما العجمان الذين كانوا في مؤخرة الفارين فكانوا أحسن حالاً نسبياً.

وأنا كرجل وجدت أنه لأمر مشين ومؤلم أن أرى إنساناً آخر قد حط من قدره إلى حالة من الإهانة والخوف. إن ما نشعر به فطرياً (ربما نحن البريطانيين) من كراهية لوضع يُطلب منا أن نضرب رجلاً قد أشبع ضرباً من قبل، هذا الوضع جعلني أخشى أن نؤمر بإطلاق النار على تجمع هؤلاء الناس الفزعين أو أن نسلمهم إلى ابن سعود ليذبحوا بوحشية أمام أعيننا. وفي الوقت نفسه، لم أتمكن من نسيان الأحداث المرعبة التي اجتاحت قبائلنا العراقية وهي تلوذ بالفرار من المذابح التي قام بها هؤلاء الإخوان أنفسهم عديمو الشفقة الذين رأيناهم أمامنا. إنها عدالة الحق فعلاً، ولكنني شعرت بالحزن وليس بالرضا.

وعند الظهر وأنا برفقة رتل العربات المدرعة في جهودها لتجميع الإخوان الفارين، استلمت رسالة لاسلكية التقطتها العربات المدرعة وأُرسلت بواسطة المفرزة الصغيرة التي كنت قد تركتها في العُبيد، أخبرتني باقتضاب أن ابن سعود قد وصل مع كل جيشه إلى الرقعي. فكان هذا هو سبب هلع المتمردين وفرارهم المفاجئ. وربما كان بعض رجال مطير المنضوين تحت لواء ابن سعود قد تسللوا من قواته الملكية وقاموا بتحذير أقربائهم من المتمردين بأن ابن سعود أصبح بالقرب منهم. وبالتالي تركت رتل العربات المدرعة على عجل، بحيث كان من المنتظر أن يصل المعتمد السياسي العقيد ديكسون ليتولى المسؤولية السياسية، وعدتُ مسرعاً إلى العُبيد.

كما ذكرت آنفاً، عندما وصل ابن سعود إلى اللصافة أرسل أربع عربات تستكشف مواقع المتمردين وقد أسرت مطيرياً وعادت به إلى الملك لاستجوابه. وذكر المطيري أن الدويش يقيم في الضرابين. وكان ذلك في ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول. وقرر ابن سعود التقدم لمهاجمة المتمردين، واتخذ إجراءات احترازية مشددة خشية أن يهرب جاسوس من اللصافة ليخبر المتمردين، ويبدو أنه نجح تماماً في ذلك، حتى إن الملك وصل الرقعي على نحو مفاجئ. وخلال تلك الفترة، حينما استعد ابن سعود للتقدم، أغار محسن الفرم على مطير في ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول، ففر الناجون شمالاً إلى الكويت. وبالتالي عند وصول ابن سعود، لم يعد الدويش موجوداً في الضرابين.

في غضون ذلك، وبعد غارة محسن الفرم، قرر من تبقى من فخذ العبيات (جماعة علي بن عشوان) وفخذ البرزان (جماعة علي أبو شويربات) الفرار إلى قرية والطلب من ابن شقير،

الذي تصالح مع ابن سعود، التوسط لهم عند ابن سعود. ولم يدركوا بالطبع أن ابن سعود في ذلك الوقت قد غادر اللصافة ليقابلهم. في ٣١ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٢٩ شاهد الحرس المتقدم من الجيش الملكي، المكون من أربع عربات، علي بن عشوان وهو مرتحل في أرض منبسطة جنوب شرقي «المُسَنَّاة». فأُرسلت إحدى العربات بالعودة إلى ابن سعود لإخباره. وقام محمد بن عبد العزيز، الابن الثالث للملك، وبقية العربات البالغ عددها حوالي ٢٠ عربة، بتعزيز الحرس المتقدم. وتم تحذير رجال الملك بأن كل من تسول له نفسه بعدم قتل أي مطيري سوف يعدم، مع تذكيرهم بأن هؤلاء الإخوان المتمردين قد ارتكبوا أعمال النهب والغزو المتكررة بحقهم في الماضي. وطوّقت عربات الملك ابن عشوان وأتباعه من جهة الشمال، بينما شن ابن سعود ورجاله هجومهم من الجنوب. وعندما ضيقت قوات ابن سعود الأكثر عدداً الخناق عليهم، لم يجد ابن عشوان وأقرباؤه مفراً من إناخة إبلهم وعقلها والتصدي للمهاجمين بإطلاق النار عليهم حتى أوقعوا بهم إصابات كثيرة، إلى أن اكتسحتهم قوات ابن سعود بأعدادها الغفيرة. وقتل كل ذكر مطيري، أما النساء فلم يتعرضوا لهن بسوء بالطبع.

وتوقفت القوات بعد هذه العملية، وعند غروب الشمس جاءت عربتا استكشاف لتخبرا بأن هناك مجموعة قبلية أخرى مرتحلة إلى الجنوب الغربي من موقع الجيش هذا. وكانت تلك المجموعة هي فخذ البرزان وكانت قد مرت من أمام قوات ابن سعود، قبل ابن عشوان ومجموعته، قاصدة قَرْية. وصدرت الأوامر لملاحقة البرزان وإبادتهم في صباح الغد. غير أنه يبدو في هذه الأثناء أن البرزان علموا بوجود جيش ابن سعود، وربما بمصير ابن عشوان أيضاً. فما كان من رئيسي الفخذ علي أبو شويربات (من لاجئي الإخوان) ومطلق أبو حنايا إلا أن تركا فخذهما عند الغسق، وامتطيا راحلتين وسارا ليلاً إلى معسكر ابن سعود وتسللا إليه متخفين، ولكثرة رجال القبائل المجندين ودون تنظيم عسكري يبدو أنه كان من الصعوبة بمكان التعرف عليهما واعتقالهما. وبعد منتصف الليل تمكنا من الدخول إلى خيمة ابن سعود الخاصة ورميا بنفسيهما تحت قدميه. وبمجرد لجوئهما إلى خيمته ضمنا حياتهما.

أدت هذه الحوادث إلى تأخير تحرك جيش ابن سعود، إذ لم يصل الرقعي وخيم فيها إلا يوم ٥ يناير/ كانون الثاني. وعرف ابن سعود لأول مرة عن غزو محسن الفرم من علي أبو شويربات. وعندما وصل الرقعي لم يعثر على أحد من المتمردين جنوب الحدود. وتمكن حرسه المتقدم، المكون من حوالي أربعين فارساً ومئتي جمّال، من اختراق الأراضي الكويتية حتى مهزول. وصادفوا ثلاثة من رجال القبائل العراقية فأطلقوا عليهم نيران بنادقهم فأصابوا اثنين وأجهزوا عليهما بالخناجر، ونهبوا بندقيتيهما وبعيريهما، أما الثالث فقد تمكن من الهرب. ولم تسترد البندقيتان والبعيران.

في الخامس من يناير/ كانون الثاني وبعد أن غادرت العُبيد برفقة عقيد الجو بورنت لتجميع المتمردين الفارين في الأراضي الكويتية، وصلت ثلاث سيارات من ابن سعود إلى مخفرنا في العبيد، وكانت تقل يوسف الياسين، المحامي السوري والصحفي السابق، الذي قابلناه سابقاً في جدة، ومعه تركي السديري أحد أقرباء ابن سعود، ومنوخ أبو اثنين شيخ من قبيلة سبيع. وعندما عدت إلى العبيد وجدتهم ينتظرونني.

وكان يوسف الياسين المتحدث باسم الوفد، وسلمني رسالة من الملك يطلب فيها معرفة ما هي الخطوات التي ستتخذها الحكومة البريطانية لتفي بالتزاماتها لعدم السماح للمتمردين بدخول الكويت. وأضاف يوسف الياسين وابلاً من السباب بالأصالة عن نفسه، مُنْحياً باللائمة على حكومة صاحب الجلالة (بريطانيا) لتقصيرها. وقد أجبته قائلاً إنني، بصفتي مسؤولاً لدى حكومة العراق، فلست معنياً بما تعتزم السلطات البريطانية اتخاذه من قرارات، ولا عما يُزعم عن نشاطات شيخ الكويت. وبالتالي لا فائدة ترتجى من سرد أعمالهما لي. ومع هذا أعطيته تفسيراً وافياً عما حدث، وأضفت بصفة شخصية وليس كمسؤول رسمي بأني لا أشك في عزم الحكومة البريطانية على اتخاذ كل الخطوات اللازمة للوفاء بالتزاماتها كاملة.

وافقتُ على طلبه بإرسال برقيات من ابن سعود بواسطة جهاز لاسلكي الشرطة المتنقل في العبيد. ويحتمل أن الملك لم يستطع إحضار جهاز لاسلكي معه لأن كثيراً من الإخوان عدّوه من أعمال السحر الشيطاني الذي لا يتوافق مع الدين الصحيح. وأرسل يوسف الياسين برقيتين إحداهما موجهة إلى المندوب السامي البريطاني في بغداد، والأُخرى إلى المعتمد السياسي في الخليج، وفي كلتا البرقيتين طالب نيابة عن الملك بطرد المتمردين من الكويت أو السماح لابن سعود لدخول الكويت لمهاجمتهم. وإذا ما أخفقت الحكومة البريطانية في تلبية أحد هذين المطلبين، فإن ابن سعود سيضطر إلى العودة إلى موطنه على الرغم منه، ولكن المسؤولية عن كل مشكلات الحدود في المستقبل ستقع على عاتق من يؤوي المتمردين (ويبدو أن المقصود هنا الحكومة البريطانية).

ويبدو أن يوسف الياسين، بصفته مستشار ابن سعود للشؤون الخارجية، هو الذي صاغ هاتين الرسالتين. ومنذ ذلك الوقت كثيراً ما لاحظت ما يبدو لي وجهاً مؤسفاً للدبلوماسية العربية، وهو الميل إلى استخدام التهديدات حتى في الأمور الاعتيادية. ولا يسعني إلا عدّ ذلك خطأً تكتيكياً. فكنا نبذل قصارى جهدنا لتحقيق أهداف الملك، وكان أمراً مزعجاً أن يقال لنا إذا لم ننفذ تعهداتنا ستكون العاقبة وخيمة لنا. وكنت أشعر أنه لو تعاملنا مع الملك عبدالعزيز مباشرة لما كان أسلوبه ذا نبرة تهديد، ولكن كما كان الحال في جدة، كان مستشاروه هم حلقة الاتصال بيننا. وبعد عشرين سنة ارتكبت الجامعة العربية الخطأ التكتيكي نفسه في نقاشات

قضية فلسطين في الأمم المتحدة. كان المجتمع الدولي يريد أن يقوم بالعمل الصحيح، لكنه انزعج من تهديدات العرب بدلاً من شرح قضيتهم.

أمضى يوسف الياسين ومن معه ثلاثة أيام في مخفرنا في العبيد، كان يقوم خلالها برحلات متكررة منا إلى الرقعي. وكان يلقي اتهاماته، بين حين وآخر، ضد حكومات بريطانيا أو العراق أو الكويت. ويحمل مزيجاً غريباً فهو صحفي سوري عصري ووهابي متعصب، وحاول في لحظة طيش أن يهدي قائد الشرطة إلى سواء السبيل. غير أنه يبدو أن حسن فهمي بيك كان يحفظ من القرآن الكريم عن ظهر قلب أكثر من الذي أراد أن يهديه، وبالتالي أصبح هذا الأخير في موقف حرج.

في إحدى المناسبات، أثناء وجود يوسف الياسين في معسكرنا، صادف أن عبر الأجواء سرب من الطائرات، فأخذ يراقبها حتى اختفت متجهة إلى الجنوب. بعدها طلب عقد اجتماع فوري معي، وفيه قدم احتجاجاً شديد اللهجة، مدعياً أن الطائرات عبرت الحدود. وأجبته بأنني لا أعلم من أين جاءت الطائرات ولا إلى أين هي متجهة، ولكني أردت أن يفهم أن كلاً من الحكومتين البريطانية والعراقية قد تحملتا أعباء باهظة في هذه العمليات لمجرد مساعدة ابن سعود، لأن مصالح الجانبين متطابقة. وأضفت أنه، إذا كان هو يتحين الفرص للاحتجاج، فإنني على استعداد لأسلك الأُسلوب نفسه. فكانت عربات ابن سعود للاستكشاف، وفي وقت لاحق حرسه المتقدم من الفرسان والهجانة قد اخترقوا الأراضي الكويتية حتى مهزول، وامتنعنا، أنا وحسن فهمي بيك، عن تبليغ حكومتينا عن هذه الحقيقة، لإدراكنا بأنه لم يتم ترسيم الحدود بدقة وأن تجاوزها قد يكون غير مقصود. وأحدث ذلك التأثير المطلوب في ذلك الوقت.

في اليوم التالي، ٧ يناير/ كانون الثاني عام ١٩٣٠، أغارت مجموعة فرسان من معسكر ابن سعود على الظفير في الدبدبة، واستولت على ٤٥ بعيراً. ولاحقتهم عربتا شرطة حتى وصلتا الحدود في شعيب العوجا، لمشاهدة الغزاة يسوقون الأبل المنهوبة إلى المعسكر الملكي. وأُرسل احتجاج شديد اللهجة فوراً إلى ابن سعود، وفي صباح اليوم التالي استلمت رسالة اعتذار وأعيد ٣٧ بعيراً فقط، ولم يسمع عن البقية بعد ذلك.

وكانت الحادثة مكدرة حينئذ، لأن القبائل العراقية وصلت إلى معسكرنا مستاءة تطلب السماح لها بغزو ابن سعود لاسترداد ما يساوي عدد الأبل المنهوبة. وكان عدد قوات الملك حوالي سبعة آلاف رجل في الرقعي، بينما كان لدينا أربعة وعشرون هجاناً في العُبيد، ورأيت أنه ليس من الضروري أن نلجأ إلى السلاح. وطلبنا بحزم من قبائلنا العودة إلى بيوتهم وعدم إثارة القلاقل. إلا أن هذه الحادثة كانت مضحكة نوعاً ما، وجعلتنا نبتسم. ففي لقاءات جدة

كان وفد نجد ينصحنا مراراً بوقف محاولتنا للتعامل مع البدو، لأن ابن سعود هو الوحيد الذي يستطيع السيطرة على مثل هذه القبائل غير المتحضرة. ومما لا شك فيه أن الملك لم يرغب في قيام تابعيه بسرقة إبلنا، في الوقت الذي كان التعاون معنا يشكل فرصته الوحيدة لإتمام نجاح حملته ضد أعدائه. ودار حديث بيننا نحن، بأن سيطرته على بدوه ليست كاملة، خلافاً لوضع الحكومة العراقية.

وفي اليوم التالي، وبالقرب من شعيب العوجا على جانبنا من الحدود، صادف أحد رجال القبائل العراقية مجموعة من نجد يمتطون الجمال، وسألوه من أين هو، فأجاب بحماقة أنه «من قبائل أبو حُنَيْك». فأطلقوا عليه نيران بنادقهم، وكان للحظ وسرعة بعيره الدور في إنقاذ حياته. وتبع ذلك حوادث أُخرى مماثلة.

في غضون ذلك استمر يوسف الياسين بين جيئة وذهاب حاملاً احتجاجاته. فحاولت أن أشرح له أننا نبذل قصارى جهدنا لمصلحة ابن سعود، وليس لنا مصلحة في خداعه ومساعدة المتمردين، الذين ارتكبوا المذابح بحق رعايانا لسنين عدة. وكان كثير من احتجاجاته التي سلمها لي، واحتجاجات أُخرى أرسلها رسمياً إلى الحكومتين العراقية والبريطانية خلال السنة المنصرمة، تعزو إليهما، وبصفة خاصة إلى العراق، دوافع خفية شريرة كانت الحكومتان بريئتين منها تماماً. وأكدتُ ليوسف الياسين أننا لم نضمر النوايا السيئة كما كان يعتقد. في البداية كان رده أن كل احتجاجات نجد تقوم على تصريحات وردت في الصحافة العراقية، مفترضاً أن ليس هناك حكومة تسمح لصحافة بلادها بكتابة شيء لا توافق عليه. إلا أنه اعترف لي في النهاية بأن ابن سعود كان يرغب في الإكثار من الاحتجاجات في عامي ١٩٢٨ و١٩٢٩ حتى «يثبت الآثار السيئة لوجود مخافر الشرطة في الصحراء العراقية». لا سبيل لي لتجنب الاعتقاد بأنه، إذا رغب الملك فعلاً في الإكثار الاحتجاجات، كان ذلك بناء على نصائح مستشاريه. كان انطباعي عن الملك عبدالعزيز أنه رجل صريح وصادق (حتى وإن كان عنيفاً) في كلامه. وهذه الأساليب الملتوية ليست من اختراعه على ما يبدو لي.

وكان رفيقا يوسف الياسين، تركي السديري ومنوخ أبو اثنين، أقرب إليّ في طبيعتهما، فهما متفتحان ومخلصان ويتصفان بالصفات النجدية من صراحة وديمقراطية في إبداء الرأي. وقال الاثنان إن ابن سعود يقدر للحكومتين البريطانية والعراقية دورهما في مساعدته لمواجهة المتمردين، وإن شكوكه السابقة في دوافع حكومة العراق ودوافعي لم يَعُد لها وجود على الإطلاق. لو أدركت كل الأمم أن الصدق في الدبلوماسية، وليس الخداع، هو أفضل سياسة لاختلف العالم!

تألفت مجموعة «العربات المسلحة» في قوات الملك بالدرجة الأُولى من شاحنات شفروليه

قديمة جداً، وقد تم ترقيع هياكل العربات المهترئة بتثبيت قطع من صفائح البنزين عليها بمسامير. وعند وصولها إلى الرقعي لم يبق لها إلا آخر صفيحة وقود، وبالنتيجة أصبح الجيش الملكي غير قادر على التحرك، باستثناء خيله وإبله، إلى أن زودناه بمزيد من البنزين. وسأل صاحب الجلالة فيما إذا يمكنه إيداع الوحدة الآلية من جيشه معنا في العبيد تحت حمايتنا «كضيوفكم»، كما قال بلطف، في حال عدم توفر بنزين. وشرح لنا بأنه بإمكانه إتمام حملته بواسطة الإبل والخيل، إلا أن ترتيباتنا الإدارية عالجت الأزمة بكفاءة، وغادرت مجموعة عربات نجد المقاتلة الرقعي بقوتها الذاتية.

في هذه المرحلة وقعت حادثة وضعتني في موقف حرج، فعندما استيقظت صباح يوم ٧ يناير/ كانون الثاني قيل لي إن بدوياً تسلل زاحفاً إلى معسكرنا في ساعات الفجر الأولى وألقى بنفسه في الخيمة التي ينام فيها رجال الشرطة (كانت في «معسكرنا» ثلاث خيام فقط)، وأمسك بعمود الخيمة صائحاً: «أنا في حماية [دخيل] هذه الخيمة»[٧٧].

كنا قد نصبنا بيت شعر أسود كمضيف إلى جانب خيمتينا البيضاوين كالمعتاد. وكان يوجد على الدوام في بيت الشعر ضيوف عابرين من رجال القبائل، وبلا شك كان ابن سعود يتخذ تدابير احتياطية لإرسال جواسيسه إلينا ليتمتعوا بضيافتنا. ولم أتخذ أي إجراءات لمنع ذلك، لأنه لم يكن لدينا ما نخفيه. وصاحبنا الجديد الذي جاء يطلب الحماية هو أبو شجْرة أحد أفراد قبيلة العجمان الذي كان قد ارتكب جريمة شنيعة، فبعد أن تمتع بكرم ضيافة ابنَ سعود في دار الضيافة في الرياض، خرج يسلب قافلة في الوقت الذي لم تهضم معدته بعد طعام ابن سعود.

وبعد ساعات قلائل من وصول أبو شقرة، سمعنا هدير سيارة بويك ملكية تقل يوسف الياسين وهو في حالة غضب شديد. وكان لديه مبرر حقيقي للاحتجاج هذه المرة. وعلى النقيض من كل التزامات حكومتي العراق وبريطانيا، كنت آوي متمرداً في خيمتي، ونجحت في تأجيل الموضوع مع الياسين مؤقتاً، فعاد إلى الرقعي. وبعد ثلاث ساعات عادت سيارة البويك مرة أخرى. وعدَّ رجال الشرطة فكرة تسليم أبي شقرة إساءة بالغة إليهم، لأنه سوف يقتل فور وصوله إلى معسكر ابن سعود، فقد التجأ إلى خيمتهم وليس إلى خيمتي، ولا يوجد عربي شريف يرفض حق حماية من التجأ إلى خيمته. وقررت أن أبوح بمكنون صدري، فقبل أن يقدم يوسف الياسين احتجاجاً آخر، قلت له إن أبا شقرة في خيمتي وإنه التجأ إلى هذه الخيمة طلباً للحماية، وأطلب من ابن سعود مجرد منحي حق الحماية [الدخالة] مثلما تمنح لأي عربي. ويبدو أن رسالتي نقلت إلى الملك، لأنه لم يقدم إلي أي احتجاجات أخرى، ولم يذكر هذه الحادثة لأي من الحكومتين البريطانية والعراقية. وكنت ممتناً لابن سعود لكرمه، إذ لو أبلغ

(٧٧) تفاصيل هذه القصة ذكرتها في كتابي عن تاريخ الجيش العربي الأُردني The Story of the Arab Legion. [المؤلف]

الحكومتين عن هذه الحادثة لكنت في موقف حرج، لأن كلتا الحكومتين لم تعيرا احتراماً للعادات والتقاليد العربية القديمة. وفي ذلك الوقت لم أكن أعرف أن ابن سعود قد صفح عن شيخي البرزان من مطير، لأنهما تسللا إلى خيمته وأمسكا بعمود الخيمة على نحو مماثل.

وفي صباح ٨ يناير/ كانون الثاني عام ١٩٣٠ شعرنا بشيء من الارتياح عندما رأينا جيش ابن سعود يتحرك من الباطن باتجاه الشرق. فلم تكن مصادر المياه في الرقعي كافية لقواته، فانتقل إلى برك ماء كبيرة في خباري وضحا. وقد كتبتُ في مذكرتي يوم ٨ يناير/ كانون الثاني، «يارب احمنا من أصدقائنا».

كان من الصعب تقدير عدد قوات ابن سعود في الميدان في يناير/ كانون الثاني ١٩٣٠. ولم يقم أي مسؤول منا بزيارة معسكره، ويخطئ البدو عند استجوابهم بأمر يتعلق بالأرقام.

ويقال إن حوالي خمسين خيمة كانت تحيط بخيمة الملك، ومن المرجح أنها كانت للعبيد والحاشية والحرس الشخصي الخاص، ويقدر عددهم بأربعمئة رجل، وهناك خيام أخرى ربما تشغلها مفارز المحاربين من الحاضرة والشخصيات المهمة ومشايخ الدين. وكانت قوات البادية تنام على أرض مفتوحة، ويصعب تقدير عددها. وتقدر قوات أهل المدن والواحات بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل. وكان مجموع القوات مع قوات البادية يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف رجل. وهذه الأرقام تقديرية تعتمد على التخمين.

وكانت أهم المفارز المرابطة مع ابن سعود في الرقعي كالآتي:

- حاضرة أقاليم العارض والوَشْم والقصيم.
- حرب بقيادة حجاب بن نحيت (كان الآخرون بقيادة محسن الفرم قد عادوا إلى موطنهم بعد الغزو).
- الموالون من مطير (مشاري البصيّص).
- سبيع.
- قحطان.
- الدواسر.
- الموالون من عتيبة بقيادة ابن ربيعان ومناحي الهيضل.

وكان جيش مستقل يرابط في شمال الأحساء يشمل مفارز من:

- حاضرة الأحساء.

- بني هاجر.
- بني خالد.
- آل مُرّة.

كان ابن مساعد أيضاً يرابط في «زبالة» لقطع طريق الدويش فيما إذا حاول الهرب إلى شرقي الأردن، وكانت قواته من:

- حاضرة حائل وأهل الواحات في جبل شمر.
- الإخوان من شمر (كان كثير من بدو شمر قد قاموا بغزوات بقيادة ابن طوالة مع محسن الفرم).

وربما بلغ مجموع أفراد جيوش ابن سعود الثلاثة ستة عشر ألف رجل في ميادين القتال. ومن ناحية أخرى، فإن طرق الإدارة البدائية، والاعتماد على الرعي بسبب عدم إمكانية حمل الأعلاف، وندرة المياه في الصحراء لم تسمح باستخدام ستة عشر ألف رجل في جيش واحد. وحتى في الوضع الذي كانت عليه هذه القوات الكبيرة، كانت سقايتها وإطعامها في الصحراء، وهي مشتتة في ثلاثة مواقع من غير نظام تمويني، إنجازاً ليس ببسيط.

تألفت قوة ابن سعود الآلية، التي رافقت جيشه في الرقعي، من خمس وعشرين أو ثلاثين عربة. وكما ذكر أعلاه، كان عدد منها شاحنات شفروليه، يتشبث بها ما بين ثمانية وعشرة عبيد وهم يتأرجحون. وكان هناك عدد قليل من سيارات الصالون من بينها بويك و فورد (وكان زنبرك سيارة الفورد الخلفي مكسوراً، ويرتكز هيكلها على المحورالخلفي، ولكنه يبدو أن أحداً لم يقلق من ذلك)، وكانت هناك إشاعة عن وجود خمسة مدافع رشاشة من أنواع غير معروفة في معسكر الملك.

* * *

كانت الأخبار الأُولى عن وصول الدويش إلى الرقعي وهروب شمر نجد وعجمي بن سويط إلى مخفر شرطتنا في الجليدة في ١٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٩ قد أثلجت صدور قبائل العراق. أولاً كانت إشارة واضحة إلى أن حكومتها (التي أصبحت محل ثقة بعد أن كانت قبل سنوات قليلة تثير حنقها وشكوكها) تسيطر الآن على الميدان. أما السبب الثاني لابتهاجها فيعود إلى توقعاتها على الأقل لفرص استرداد بعض خسائرها الباهظة التي تكبدتها خلال السنوات العشر الماضية. كان رجال القبائل يتوقعون قيام القوات الحكومية بهجوم فوري على المتمردين، وتوافد كثير من شيوخ القبائل على معسكرنا في الجليدة، يطلبون بإلحاح أن يسمح لهم بالمشاركة في الهجوم.

وعندما جاء موفدو مطير إلى الجليدة ليطلبوا اللجوء إلى العراق، ذكروا شفاهة أنهم سيعيدون ما نهبوه من القبائل العراقية، إذا ما وافقت السلطات على طلبهم. أثارت هذه الأخبار حماسة أكبر، وكانت لدى رجال قبائلنا آمال كبيرة في استعادة ممتلكاتهم دون صراع. ولكن هذه الآمال تلاشت عندما طرد الموفدون دون أي مفاوضات معهم حول استرداد المنهوبات، وتم تحذير المتمردين من مغبة دخولهم العراق مرة أُخرى.

خلال السنتين المنصرمتين، ومنذ انضمام عجمي بن سويط إلى ابن سعود، نمت غيرة واضحة بين المجموعة التي يقودها والمجموعة الأخرى من الظفير التي ظلت في العراق، فكانت كل مجموعة تحاول إثبات صحة توجهها، فكانت جماعة عجمي تفخر بكل اعتزاز بالمكافآت الهائلة والمعاملة النبيلة التي تلقتها من ابن سعود. وبالنسبة إلى الآخرين الذين بقوا في العراق فكانوا يفخرون بكل حماسة بحالة استتباب الأمن في البلاد التي تبعث السرور في النفس.

أثار منح عجمي بن سويط راية حرب [بَيْرق] الإخوان في ربيع عام ١٩٢٩ استياءً كبيراً في العراق، وبما أن ابن سعود قد أقر في اتفاقية المحمّرة على أن الظفير من رعايا العراق، فبدا هذا العمل أنه يقرب من تجاوز الحد المسموح. لكن قدوم عجمي المفاجئ إلى الجليدة مع راية الحرب (وقيل إنها كانت مطوية تحت ذراعه)، أدى إلى رفع بعض الأصوات الساخرة بين النصف العراقي من قبيلته، الذين سرعان ما قالوا إن اثنتي عشرة عربة من شرطة الصحراء أكثر أمناً في وقت الحرج من الالتجاء إلى ابن سعود، سواء براية حرب أو من غيرها.

لكن هذا الابتهاج ما لبث أن تحول إلى سخط عندما ترك عجمي بيوت مجموعته في أمان بالقرب من معسكر شرطتنا، ورفع راية الحرب الجديدة مشتركاً مع محسن الفرم في غزوه، بينما نحن نمنع قبائل العراق من الهجوم على متمردي الإخوان. ليس هذا فقط، بل كسب عجمي وجماعته غنائم خيالية من مطير، من تراكم الثروة لدى مطير التي كانت نتيجة لعشر سنوات من الغزوات على العراق. وحصل عجمي، الخارج عنّا، على حصة الأسد من الغنائم التي يفترض أن تستخدم لتعويض العراق. وقيل إن غنائمه الشخصية بلغت ما بين مئة وخمسين بعيراً ومئتي بعير، وعاد مبتهجاً ومزهواً وراية حربه الجديدة ترفرف عالية. وقيل إن عجمياً وَبَّخَ رجال القبائل العراقية الذين قابلهم بقوله: «من الأفضل لكم أن تعودوا إلى بيوتكم وتجلسوا إلى جانب نسائكم!».

وتدفقت وفود غاضبة على مخيمي الصغير، وأثاروا صخباً وهم ينحون باللائمة على الحكومة لأنها منعتهم من الغزو فدمرت أمجادهم. قالوا وصراخهم يتعالى، إن عجمياً وراية حربه قد كسب الشهرة والثروة، بينما يقوم مخفر للحكومة العراقية بحماية بيته ونسائه. إن إبل مطير هي ملك القبائل العراقية، التي تعرضت لمذابح وسلب لسنين طويلة، والتي منعتها

الأوامر الحكومية من استعادة ما نهبه المتمردون من ممتلكاتهم. ولم أملك الإجابة الشافية على كل تلك الشكاوى لأنها تصيب كبد الحقيقة.

قرر جدعان بن سويط، ابن عم عجمي الذي بقي في العراق، أن يأخذ حقه بنفسه، بشجاعة متهورة وليس بمنطق سليم، وقاد ثلاثين رجلاً مهاجماً العجمان في مهزول. وحشد العجمان ضده مئات الرجال الذين انقضوا عليه وأجبروه على الانسحاب بعد أن تكبد ثلاثة قتلى.

وكان وصول ابن سعود إلى الرقعي مؤشراً إلى زيادة غليان المنطقة، ففي اليوم التالي تدفق إلى معسكرنا الصغير في العبيد رجال يركبون الإبل، وآخرون يمتطون الجياد، وآخرون يسيرون مشياً على الأقدام، جاؤوا من كل حدب وصوب. كان بعضهم يتطلع إلى شن هجوم موحد ضد المتمردين، ويرغب في المشاركة في القضاء عليهم. وزعم البعض الآخر أنهم سمعوا أن «الجنوبي» (يقصدون ابن سعود) يتصرف بكبرياء وغطرسة، وعليه يجب أن يدرك أن هناك قبائل مقاتلة تؤازر الحكومة. وسرعان ما طوق معسكرنا مئات المحاربين.

إن قيام كشافة ابن سعود بقتل رجلين من القبائل العراقية وإغارة مجموعة من فرسانه على مجموعة من الظفير قد صب الزيت على النار. وبناء عليه أرسلت برقية عاجلة إلى بغداد مقترحاً أن يسمح لنا بالاستيلاء على ألفي بعير من المتمردين، قبل أن نسلم كل البقية لابن سعود. وقد حسبت أن خسائر القبائل العراقية في الصحراء الجنوبية تساوي خمسة وعشرين ألف بعير بخلاف الخسائر البشرية الفادحة. لذا فإن الألفي بعير لا تمثل سوى ٨٪ فقط من إجمالي الخسائر. ومع هذا قد تخفف استياءهم ولو مؤقتاً وتشعرهم على الأقل بأنهم وحكومتهم قد قاموا بإجراء مناسب مثلما فعل ابن سعود وعجمي بن سويط. ولم يصلني أي رد على برقيتي من بغداد.

إن الذين يقدرون مكاسب البدو وخسائرهم بمعايير الغنائم فقط يخطئون كثيراً في تقديرهم، إذ كان الشرف غالياً إلى درجة مساوية للغنائم بالنسبة إلى هؤلاء الرجال واسعي الخيال وسريعي الغضب والمستقلين والفخورين، إضافة إلى كونهم طماعين. وكانوا يمضون ليالي الشتاء الطويلة بالتحلق حول موقد النار يستمتعون بسرد قصص مطولة عن الغزوات والحروب وقد خلدتها قصائد شعبية لا تحصى. إن الرجل الذي يقبع في بيته في حين يكتسب أنداده الشهرة والثروة لا يستحق إطلاق كلمة رجل عليه.

وفي النهاية قام جدعان بن سويط ومعه الظفير الآخرون، وشمر الذين كانوا يخيمون في العراق، عندما رأوا أن الحكومة لاتزال غير فعالة، بالذهاب إلى الرقعي والانضمام إلى جيش ابن سعود تطوعاً. وفي غضون ذلك مرّ عجمي بن سويط أمام مخفر الشرطة في العُبيد يقود

أتباعه الظفير رافعاً راية الحرب بتباه، وانضم هو أيضاً إلى ابن سعود في الرقعي. والآن بعد أن انتهى الكفاح، وبقي الصراخ وتوزيّع الغنائم، كان الكل يتلهف لرفع بيرقه مع الجانب المنتصر. وقبل سنة، عندما كان المتمردون في الميدان، لم يكن لهم ظهور ملحوظ.

في هذه الأثناء أخذت موجة الانتقام الشديدة تتملك حتى أصحاب الأغنام العراقيين. لم يدركوا طبيعة الوضع بدقة، ولكنهم سمعوا على نحو غامض أن مطيراً في الباطن، فتدفق الفرسان وآخرون يسيرون مشياً على الأقدام عبر الدبدبة إلى الشرق. ولم يعرف إلا القليل منهم ماذا يريدون أن يفعلوه بالتحديد، ولكن صيحة عامة انتشرت مفادها أن «مطير انهزمت، فانهبوا واثأروا واقتلوا».

وبينما كانت عربة شرطة الصحراء تعبر الدبدبة لاقت راعياً كهلاً منحني الظهر من فعل السنين سلاحه العصا فقط، يجري في الصحراء باتجاه الشرق. فلوح بعباءته المهلهلة سائلاً:

ـ «يا ولد، أيْن الباطن؟».

ـ أجابه أحد الشرطة: «أمامك مباشرة يا عم، ولكن ما الذي تبحث عنه هناك؟».

ـ أجاب صائحاً وهو يهز عصاه مهدداً: «الدويش! الدويش! الدويش قتل ولديّ الاثنين». ومشى متثاقلاً عبر الصحراء المترامية الأطراف وهو يتمتم بالكلمات.

إن الذين ينظرون إلى العلاقات النجدية ـ العراقية على أنها مجرد مشكلات سياسية، ولم يشاهدوا مباشرةً ما نجم عن غزوات الإخوان، لم يتمكنوا من تخيل العذاب، والقتل، والإرهاب، والفجيعة في تلك الأوقات العصيبة. إن القبائل العراقية قاست الأمرين طوال عشر سنين، وقد اكتوت بالنيران في أراضيها. وكما ذكرتُ مراراً، كانت المذابح هي السمة الأساسية للأوضاع.

لا يمكن إعادة الميت إلى الحياة مرة أخرى، ولكن واجبي كان يحتم علي أن أحصّل، للضحايا الذين تعرضوا للإرهاب الشنيع، كل التعويضات المادية الممكنة. ولكن يبدو أن حكومتي بريطانيا والعراق كانتا متلهفتين لاسترضاء ابن سعود بدلاً من الدفاع عن مصالح رعاياهما، وبالتالي أمطرتُ وزارة الداخلية بسيل من الطلبات بنوع من التعويضات لضحايا الغزوات.

وبعد طول انتظار حصلت على موافقة غير متحمسة على السماح لي بتوزيع ما أستطيع جمعه من إبل من المتمردين على قبائل العراق. لم يعد الجزء الأكبر من مطير تحت سيطرتنا، لكننا كنا نحتفظ في بصيّة بعدد من القطعان التي سلبها ابن مشهور ومرضي الرفدي.

وفي النهاية جمعنا عدداً من قطعان الإبل في مكان بالقرب من العُذَيْبة، واستدعينا، قدر ما نستطيع، المتضررين من غزوات الإخوان السابقة لتعويضهم بتوزيع هذه الغنائم عليهم. إن ما قمنا به يعدّ مجرد قطرة ماء في محيط، لكنه على الأقل ترك بعض شعور الرضا عند أولئك الذين عانوا كثيراً عدم اكتراث حكومتهم تجاه ما يقاسونه.

* * *

لدى هروب المتمردين من الرقعي إلى الجهراء عند سماعهم الأخبار عن قدوم ابن سعود إلى الرقعي، انتهت علاقتي الفعلية بهم وأخليت الحكومة العراقية من المسؤولية، وأصبح شيخ الكويت هو المسؤول، وكانت القوات المتوفرة هي الطائرات والعربات المدرعة التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني. ويمكن إيجاز بقية القصة على هذا النحو:

عندما وصل المتمردون إلى الجهراء تنازعتهم آراء مختلفة مرة أُخرى، وأثناء محاولة لتجميعهم، كان سلاح الجو الملكي البريطاني قد ألقى بضع قنابل صغيرة أمامهم، ولتعودهم على ارتكاب المجازر الجماعية تكونت بأذهانهم فكرة أن الحكومة توشك على إبادتهم.

ونتيجة لذلك، قرر معظم فخذ الجبلان من مطير ومعهم الرشايدة الانطلاق إلى قرية، ينوون التوسل إلى ابن شقير الذي كان قد تصالح مع ابن سعود، آملين أن يقوم بمساعي الوساطة بينهم وبين الملك. وكذلك قررت بضع مجموعات من العجمان الذهاب إلى الأحساء والانضمام إلى ابن جمعة، أحد شيوخ القبيلة، الذي ظل موالياً لابن سعود. هذه المجموعات القبلية الكبيرة بنسائها وأطفالها وقطعانها اعترضت سبيلها قوات ابن سعود بالقرب من خباري وضحا في ٩ يناير/ كانون الثاني عام ١٩٣٠، وقتلت كل الرجال وأبادتهم عن بكرة أبيهم.

في اليوم نفسه، ٩ يناير/ كانون الثاني، استسلم نايف بن حثلين لرتل العربات المدرعة في الجهراء، ونقلته طائرة من هناك إلى مقر السرب ٨٤ في الشعيبة، وبات ليلته في خيمة صغيرة خاصة نصبت له أمام غرفة الحرس. وفي اليوم التالي استسلم كل من فيصل الدويش وجاسر بن لامي. ونقل القادة الثلاثة إلى ظهر السفينة الملكية باترك ستيوارت (Patrick Stewart) التي كانت متوقفة في شط العرب.

في هذه الأثناء، وفي ٩ يناير/ كانون الثاني أيضاً، صدرت تعليمات إلى سلاح الجو لتجميع المتمردين وترحيلهم من الجهراء باتجاه الشمال ـ الغربي بالقرب من جريشان، في انتظار المفاوضات حول مصيرهم.

وفي ٢٠ يناير/ كانون الثاني، أقلعت طائرة من الشعيبة، وهي تقل المقيم البريطاني في الخليج وبصحبته عقيد الجو بورنت، وهبطت عند معسكر خاص أقامه ابن سعود يبعد مسافة

قليلة إلى الشمال من الموقع الذي تحتشد فيه قواته في خباري وضحا . وفي ٢٥ يناير/ كانون الثاني تم الاتفاق على تسليم قادة المتمردين الثلاثة إلى ابن سعود ، وعودة القبائل الموجودة في الكويت إلى نجد . ووعد ابن سعود أن يُبقي على حياة المتمردين وأن يخفف من شدة العقوبة على القبائل بالرأفة . هذا الشرط ، على الأقل ، أنقذهم من التعرض للإبادة الكاملة بارتكاب المذابح ضدهم ، تلك التي كانت مصير الذين عادوا بمحض إرادتهم إلى نجد . وعلاوة على ذلك ، تعهد ابن سعود بمنع شن أي غارات على العراق في المستقبل ، والتزم فعلاً هذا التعهد . وأخيراً وعد بتسوية مطالبات القبائل العراقية بشأن خسائرها جراء غزوات الإخوان ، وهو أمل لم يتحقق .

في غضون ذلك نقل قادة المتمردين إلى ظهر السفينة لوبين (Lupin) التي كانت راسية في جون الكويت . وفي ٢٨ يناير/ كانون الثاني أقلعت طائرة من الكويت ، على متنها كل من فيصل الدويش ، وجاسر بن لامي ، ونايف بن حثلين ، إلى معسكر ابن سعود في خباري وضحا وتم تسليمهم . وكما وعد الملك بالإبقاء على حياة المتمردين الثلاثة ، لم يقتلوا على الفور بل نقلوا إلى سجن في الرياض ، ويعتقد أنهم ماتوا جميعاً بعد ذلك بقليل .

نصت الاتفاقية تحديداً على عودة جميع قبائل المتمردين الموجودة في الكويت إلى ابن سعود بكاملها مع مواشيها ، وقامت العربات المدرعة التابعة لسلاح الجو بمهمة ترحيلهم من جريشان مرة ثانية وعبروا الحدود الكويتية-النجدية يوم ٨ فبراير/ شباط .

كان ترحيلهم بتلك الشروط مخيباً لآمال القبائل العراقية . وقد قدر رجال سلاح الجو عدد الإبل التي أعيدت إلى الإخوان بهذه الطريقة بحوالي عشرين ألف بعير ، والجزء الأكبر منها يمثل الإبل المسلوبة من القبائل العراقية . ورفضت الحكومة البريطانية أن نستولي على هذه الأبل كتعويضات لقبائلنا بدعوى أن ابن سعود اشترط إعادتها كاملة ، وهو شرط لا ينفصل عن موافقته على تسوية مطالب القبائل العراقية لاحقاً . وهكذا سُلِّمت قبائل المتمردين إلى ابن سعود ومعها قطعان الإبل بكاملها ، والكثير منها أملاك قبائل عراقية . ولو كان ضحايا غزوات الإخوان محامين أو سياسيين لربما اختلفت طبيعة التسوية ، لكن الضحايا كانوا بسطاء عاجزين عن التعبير عن قضيتهم ، لا يملكون وسائل الضغط للفت انتباه السلطات .

* * *

لاقى استسلام المتمردين ، وتحقيقنا النصر المؤزر ، الترحيب وجاشت قرائح البدو بالقصائد بهذه المناسبة ، وقد نسيت الكثير منها ، وعثرت مؤخراً على قصيدة مدبسة مع أوراق مذكراتي . حدث أنني قمت بعد استسلام المتمردين بزيارة عنزة في منطقة الوديان غربي كربلاء . وهناك

أنشأت مخفراً صحراوياً آخر، بالقرب من بئر نُخَيْب، وبهذا تمكنت الحكومة العراقية من بسط سيطرتها على كل صحرائها إلى الغرب من الفرات. وقائل تلك القصيدة عنزي كان معنا في الصحراء الجنوبية، فهو يأسف لأنه لم يرافقني عند زيارتي لقبيلته في الوديان. وتبدأ القصيدة كالمعتاد بدور الرسول، ويصف الشاعر الطيار وهو يقود طائرته متجهاً إلى نُخَيْب(٧٨).

* * *

وهكذا وُفِّقنا في إنهاء التمرد في نجد، وكانت الحكومة البريطانية حريصة على انتهاز الفرصة للقيام بدور الوسيط في المفاوضات لإقامة سلام دائم بين ابن سعود وفيصل ملك العراق. وقدم اقتراح لعقد اجتماع بين الملكين. ولكن الاقتراح سرعان ما واجه عقبات تتمثل في عدم موافقة أي منهما على زيارة الآخر، إذ عدَّ كلا الطرفين أن من يغادر وطنه لزيارة جاره فقد اعترف بأنه أقل منه مرتبة.

وأخيراً ابتكرنا حلاً مقبولاً من الطرفين. فاقترحنا أن يتم الاجتماع على متن سفينة راسية في الخليج تابعة للبحرية الملكية البريطانية، وضماناً للعدالة بين الملكين حددنا مكان الاجتماع في السفينة بحيث يكون خارج مجال رؤية اليابسة. وكان يبدو أن هذه الخطة ذات عدد من الفوائد، فسيعقد الاجتماع في مكان محايد تماماً على سطح سفينة بريطانية، علاوة على أن عقد هذا المؤتمر على متن سفينة في البحر سيجنبنا التنافس في الفخامة بين الحاكمين.

واخترت عضواً في الوفد المرافق للملك فيصل، الذي ضم رئيس وزراء العراق ناجي بيك السويديَ، ومستشار وزارة الداخلية كينهان كورنواليس. ومثّل الحكومة البريطانية المندوب السامي السير فرنسيس همفريز (Francis Humphreys)، ونائب المشير السير روبرت بروك بوبام Robert Brooke Popham من قيادة الطيران.

وفي مساء ٢١ فبراير/ شباط عام ١٩٣٠ وصلت ثلاث سفن إلى مكان اللقاء في الخليج خارج مجال رؤية اليابسة. وفي صباح اليوم التالي التقى الملكان على متن السفينة لوبين. ونبالغ إذا قلنا إن الملكين أحب كل منهما الآخر، إذ إن مرارة الخصومة بين العائلتين جعلت من السذاجة أن نتوقع نشوء صداقة فورية مفاجئة بينهما. يكفي أنهما التقيا وأظهرا دماثة في الخلق.

وفي إحدى المراحل برزت أزمة كادت تؤدي إلى فشل اللقاء، حيث تم الاتفاق على أن يتبادل الملكان الرسائل بينهما، لكن الملك فيصل رفض مخاطبة ابن سعود كملك الحجاز، لأن

---

(٧٨) لأن القصيدة قد نظمت بالعامية أو ما يسمى بالشعر النبطي ولم أعثر عليها، آثرت عدم ترجمتها لأن ذلك يؤدي إلى تشويهها. [المترجم]

والد الملك فيصل، الملك حسين، قد طرده ابن سعود من عرش الحجاز قبل أربع سنوات فقط، ورفض الأخير قبول أي رسالة ما لم يذكر بها لقب ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما. وقام السير فرنسيس همفريز بتهدئة النفوس، وإبعاد ما يكدر صفوها. وبعد صعوبات كبيرة اتفق الملكان على مخاطبة كل منهما الآخر بعبارة «أخي العزيز» ومن غير ألقاب. وعندما كان الملكان مستغرقين في محادثاتهما الحادة، انهمك أعضاء وفديهما في إعداد مسودة اتفاقية حسن الجوار التي تم التوقيع عليها بالأحرف الأولى في بغداد بعد أسبوعين.

ومع أن الاجتماع في السفينة لوبين لم يؤد إلى مصالحة عاطفية بين عائلتي ابن سعود والأشراف، إلا أن مجرد اجتماع الحاكمين وافتراقهما سلمياً بحد ذاته يعد إنجازاً للدبلوماسية البريطانية، فكثيراً ما تتهم بريطانيا بشكل زائف بأنها تزرع بذور الخلاف بدلاً من حضها على السلام. والأهم من هذا كله، فإن الاتفاقات التي تم التفاوض عليها على متن السفينة لوبين تميزت بأنها أفضت إلى سلام دائم (وهو نادر هذه الأيام). فانقضت ثلاثون سنة منذ أن وضعت حرب الإخوان أوزارها وخلال هذه السنين لم تتجدد حروب الحدود بين نجد والعراق.

شهدت هذه السنون الثلاثون تحولاً شاملاً في معظم أنحاء الجزيرة العربية. كان اجتياح الطائرات والعربات للصحراء (هذا الاجتياح الذي مهدنا له الطريق دون معرفة مسبقة) قد أدى إلى عجز القبائل البدوية التي كانت ترهب جيرانها الحضر. وانتشرت حقول النفط التي تديرها الشركات الأمريكية في الصحراء، ويسعى أبناء محاربي الإخوان بالأمس إلى الانخراط في العمل بها عمالاً أو ميكانيكيين في هذه الصحراء التي كانت حصنهم الحصين. وفي المستقبل القريب ستصبح المعارك، والمجازر، والمجد، والإرهاب، والشهامة، مجرد ذكريات من الماضي. واختفت حركة الإخوان المتعصبة، لكن أهل نجد لايزالون وهابيين.

تغيرت الأزمان ويجب أن نتغير معها. غير أن الكثير من التغيرات التي كانت مظاهرها براقة لا تزال تغيرات سطحية. وخلف هذا المظهر الخارجي، فإن الرجال يكادون لا يتغيرون حتى الآن. إنهم أبناء الصحراء المتهورون، والعاطفيون، والكرماء، والمضيافون والثائرون.

مراجع المترجم

المراجع العربية :

- بروس إنغام: **قبيلة الظفير - دراسة تاريخية لغوية مقارنة**، ترجمة: عطية بن كريم الظفيري، دار السياسة، ط٢، الكويت، ١٩٩٥م.
- جاكلين بيرين: **اكتشاف جزيرة العرب**، ترجمة: قدري قلعجي، منشورات الفاخرية، ط١، الرياض، دون تاريخ.
- جماعة من الأساتذة الجامعيين: **معجم التعابير الاصطلاحية**، مكتبة لبنان، ط١، بيروت ١٩٨٥م.
- حمد الجاسر: **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، شمال المملكة**، ٣ أجزاء، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- حمد الجاسر: **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، المنطقة الشرقية**، ٤ أجزاء، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٨م.
- حمد محمد السعيدان: **الموسوعة الكويتية المختصرة**، جزآن، مطبعة حكومة الكويت، ط١، الكويت ١٩٧٢م.
- خير الدين الزركلي: **شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز**، ٤ أجزاء، دار العلم للملايين، ط٨، بيروت ١٩٨٥م.
- عبدالعزيز رشيد: **تاريخ الكويت**، دار مكتبة الحياة، ط٢، بيروت ١٩٦٣م.
- عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري: **لسراة الليل هتف الصباح: الملك عبدالعزيز دراسة وثائقية**، ط ٢، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ١٩٩٧م.
- عبدالله الخالد الحاتم: **خيار ما يلتقط من الشعر النبط**، جزآن، المطبعة العمومية، ط٢، دمشق ١٩٥٢م.
- عبدالله الصالح العثيمين: **معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد**، الرياض ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- عبدالله الصالح العثيمين: **بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية**، مطابع دار الهلال، الرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- عبدالرحمن بن سليمان الرويشد : **الوهابية ـ حركة الفكر والدولة الإسلامية**، القاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- العزبي، هورنبي، بارنويل : **قاموس القارئ**، دار جامعة إكسفورد للطباعة والنشر، أكسفورد، انجلترا ١٩٨٠م.
- علي الطنطاوي : **ذكريات**، ٥ أجزاء، دار المنارة للنشر، ط١، جدة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .
- غلوب باشا : **مذكرات غلوب باشا**، ترجمة سليم التكريتي، منشورات الفجر، ط١، بغداد ١٩٨٨م.
- فائز بن موسى البدراني : **من أخبار القبائل في نجد**، دار البدراني للنشر والتوزيع، ط١، الرياض ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- محمد المانع : **توحيد المملكة العربية السعودية**، ترجمة : عبدالله الصالح العثيمين، الدمام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- مصطفى السدحان : **الحركة الوهابية**، مؤسسة الوراق، ط١، عمّان ـ الأردن ١٩٩٨م.
- منديل بن محمد الفهيد : **من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية**، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- منير البعلبكي : **المورد**، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦م.
- أ. موزل : **أخلاق الرولة وعاداتهم**، ترجمة : محمد بن سليمان السديس، مركز البحوث ـ جامعة الملك سعود، ط١، الرياض ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- موضي بنت منصور بن عبدالعزيز : **الهجر ونتائجها في عصر الملك عبدالعزيز**، دار الساقي، ط١، لندن ١٩٩٣م.

الصحف :

- **أم القرى** السعودية ١٨/ ١٢/ ١٩٢٨ .
- **التايمز** اللندنية ١٨/ ٣/ ١٩٨٦ .
- **الحياة** اللندنية ٢٥/ ١/ ١٩٩٩ .
- **الرياض** السعودية ٢٥/ ١/ ١٩٩٩ .
- **القبس** الكويتية ١٥/ ١/ ٢٠٠٠ .

المجلات:

- **الكويت**، أغسطس ١٩٩٨ .
- **المختلف**، فبراير ١٩٩٧ .

المراجع الأجنبية :

- Burckhardt, J.L. **Notes on the Bedouin and Wahabys**, ed. Sir W. Ouseley. London 1836.
- Glubb, J.B. **The Changing Scenes of Life an Autobiography**. London 1983.
- Musil, A. **Northern Nejd**, New York 1928.

فهرس الأعلام والأماكن

(أ)

(ب)

(ح)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ل)

(م)

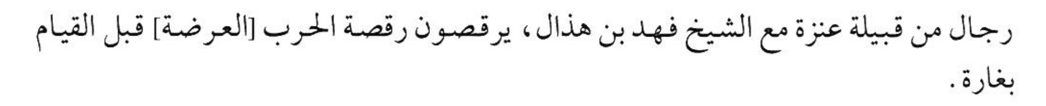
(ن)

ملحق الصور



فيصل الدويش في الوسط يزور المؤلف ليطلب اللجوء السياسي إلى العراق، وقد رفضت الحكومة العراقية طلبه

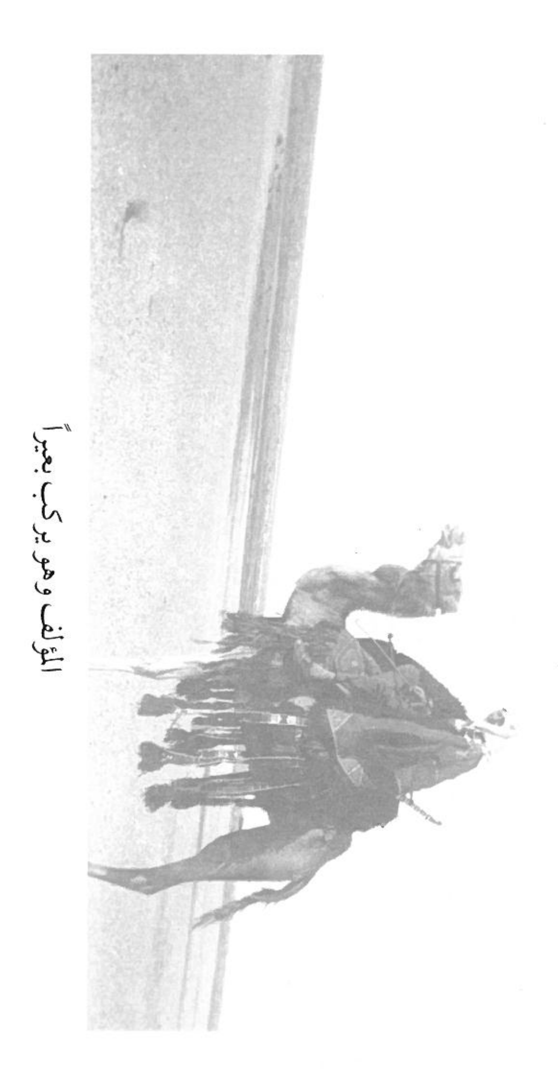




رجال من قبيلة عنزة مع الشيخ فهد بن هذال، يرقصون رقصة الحرب [العرضة] قبل القيام بغارة.



عجمي بن سويط، شيخ الظفير منذ عام ١٩٢٦ (يرفع يده إلى فمه)



المؤلف وهو يركب بعيراً



رخيص العِصْلب



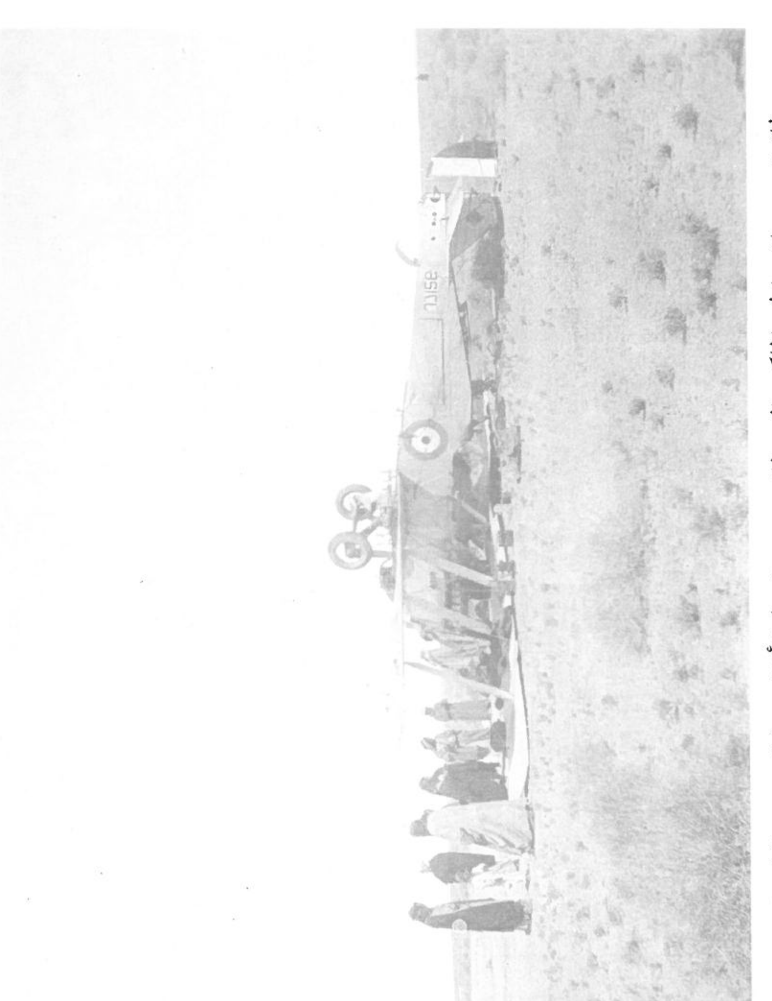
شيخان من قبيلة الظفير هزاع بن عقاب (على اليسار)



شيوخ الصمدة من الظفير : راكان أبا ذراع (ابن أخو لزام)
لزام أبا ذراع، صفوق أبا ذراع (أخو لزام)



شيخان من الأسلم من شمر من نجد: عبدالله بن طوالة وغريب بن شاكر بن طوالة



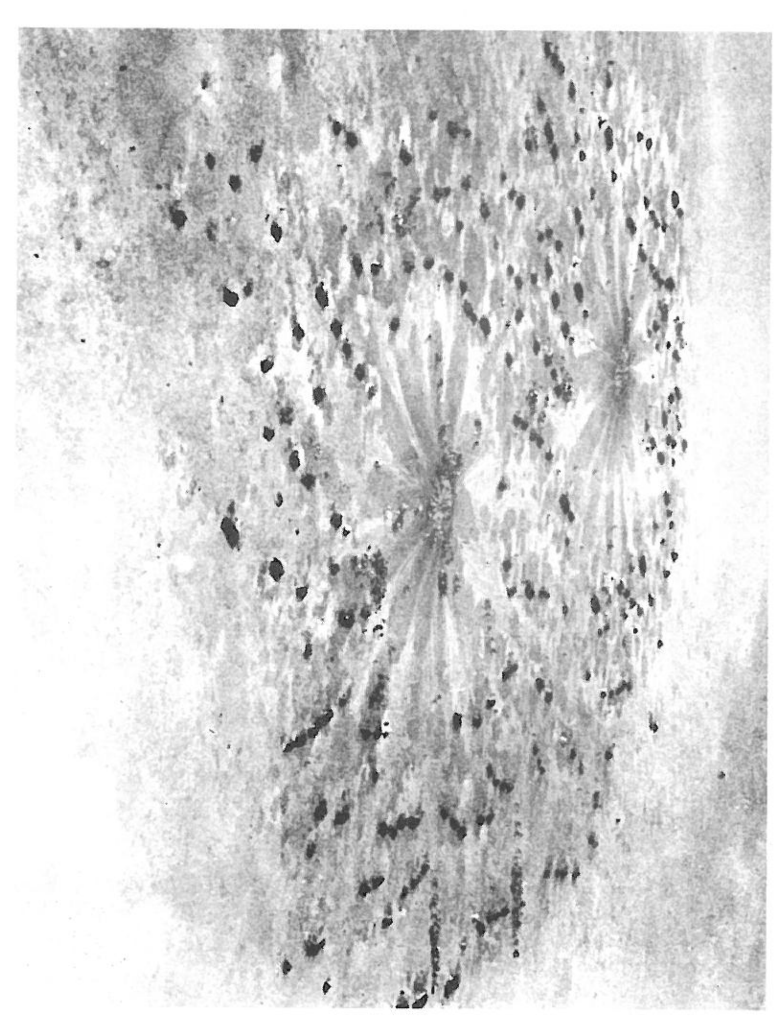
طائرة من سلاح الجو الملكي البريطاني بعد سقوطها أثناء عمليات ضد الإخوان



قلعة «أبو غار» من الجو



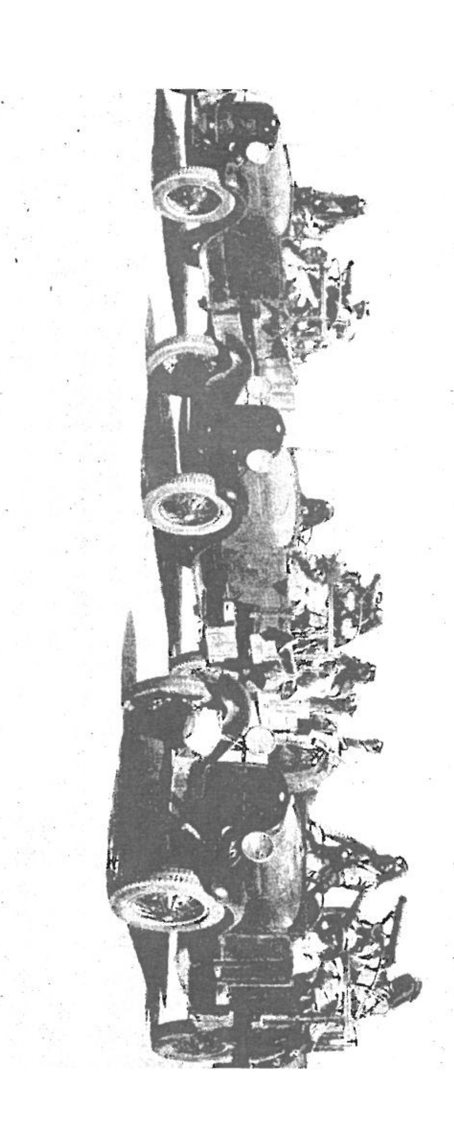
بدويان يمتحان الماء من آبار "طوال الظفير"

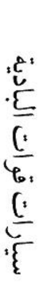


آثار الإبل عندالآبار الطوال (النجمية)



حصن عسكري في بصية





سيارات قوات البادية



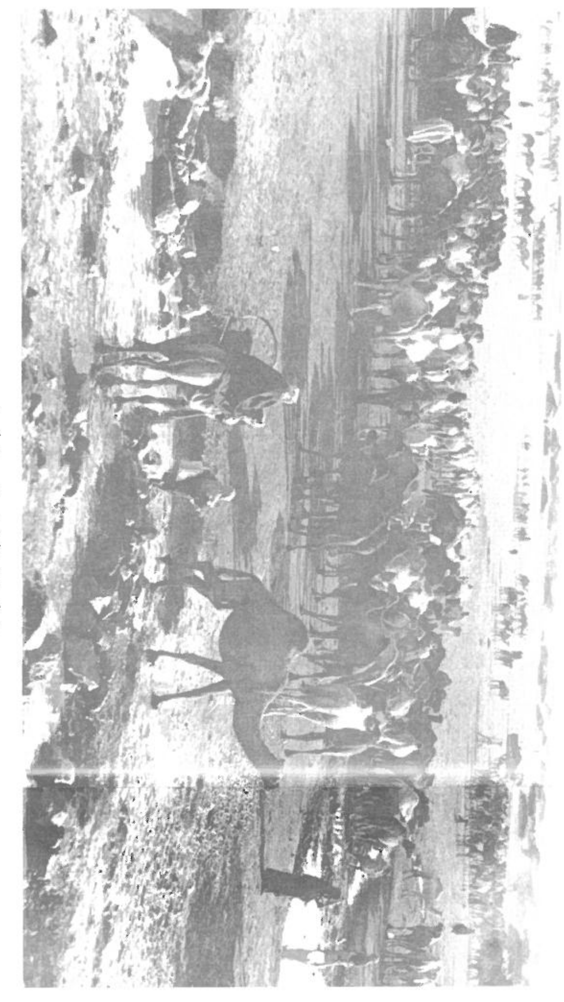
رسم لفيصل الدويش



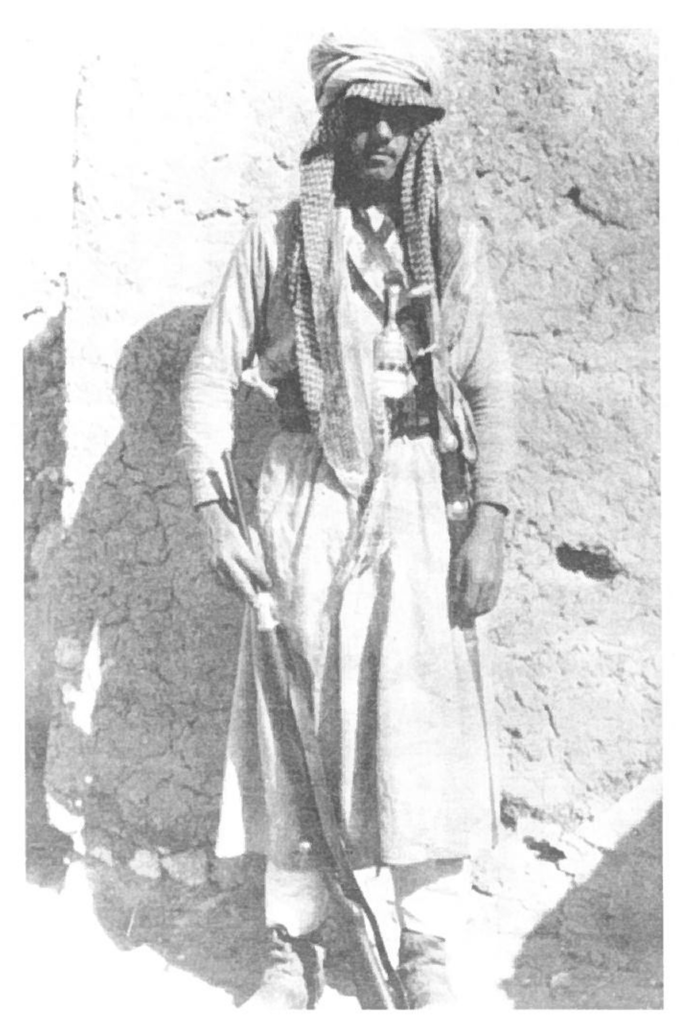
عبدالعزيز بن سعود ملك نجد والحجاز وملحقاتهما يرأس الوفد السعودي والملك فيصل الأول ملك العراق على الباخر "لوبين" ١٩٣٠



الشيخ عجمي بن سويط . . . شيخ الظفير منذ ١٩٢٦ (توفي ١٩٨٨)



قطعان الإبل ترد الخباري



أحد «الإخوان» بزيه الخاص



أقدم الصور المعروفة للملك عبدالعزيز آل سعود التقطها الكابتن وليم شكسبير (الكويت، 1910)، يبدو إلى يسار الشيخ مبارك الأمير محمد بن عبدالرحمن، فيما يقف وراءه الأمير سعد بن عبدالرحمن.



الرَّبْعة أو القسم المخصص للرجال من بيت الشعر لتناول القهوة



النوري بن شعلان



الشيخ فهد بك بن عبدالمحسن الهذال شيخ عشيرة العمارات من قبيلة عنزة، محتضناً إحدى حفيداته سنة ١٩٢٧



حمود بن سويط شيخ الظفير وضاري بن طوالة شيخ الأسلم من شمر



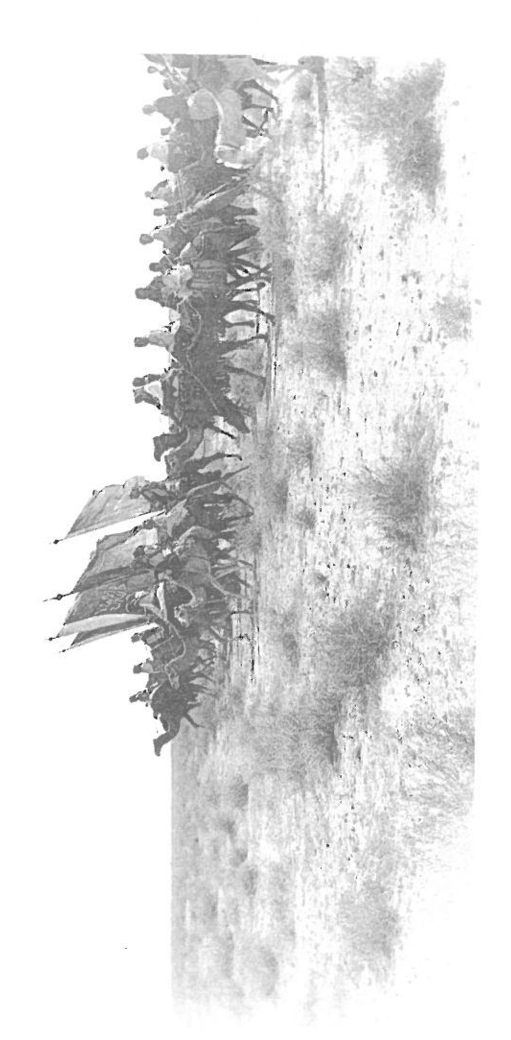
الملك عبدالعزيز وهو شاب



عبدالله آل سعود الذي أعدمِ في اسطنبول



غلوب باشا في شبابه



جيش الملك عبدالعزيز يتحرك بالقرب من ثاج (عن شكسبير ١٩١١)

كتاب «حرب في الصحراء» يستعرض أحداث فترة مهمة من تاريخنا العربي هي الفترة من ١٩٢٠ . ١٩٣٠، لاسيما أن المؤلف كان شاهد عصر على أحداث تلك الفترة، وله دور مهم في صنعها. فقد عاش ما يقرب من العقد من سني شبابه في الصحراء، يحاول فيها إخماد نار فتنة حركة «الإخوان» في نجد التي كادت أن تعرقل تأسيس الدولة الحديثة في الجزيرة العربية وهي المملكة العربية السعودية بقيادة الشخصية السياسية الفذة الملك عبدالعزيز بن سعود.

يرسم المؤلف صورة حية لحياة البادية، وعادات البدو الأصيلة، كالكرم والشهامة والشجاعة، وحياة التحرر والانطلاق في فضاءات الصحراء، وعادات الغزو القبلي. كذلك يتناول الممارسات الخاطئة لحركة «الإخوان» وانحرافها عن مبادئ الشريعة الإسلامية السمحة، ثم يتناول المشكلات الحدودية بين السعودية والعراق في عشرينيات القرن المنصرم.



دار قرطاس للنشر